إيال زيسر

اعرف كيف يفكر الإسرائيليون

بِاسْمِ الأَبِ

بشار الأسد

السنوات الأولى في الحكم

مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت: ٥٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel.; 5756421

الكاتب الإسرائيلي:
"إيال زيسر"
مركز دايان بجامعة تل أبيب

اعرف كيف يفكر الإسرائيليون

باسم الأب

بشار الأسد

السنوات الأولى في الحكم

الناشر
مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة



مقدمة

هذا الكتاب يعكس وجهة نظر إسرائيلية خطيرة لأنها تؤكد أن المعلومات متوافرة بشكل كبير لدى الإسرائيليين، وقد نُشر الكتاب بالعبرية دون باقي اللغات وهو موجه لصانع القرار الإسرائيلي. وكاتب هذا الكتاب إيال زاسر معروف بأنه يكتب باللغة الإنكليزية عكس ما كتبه في هذا الكتاب وخصوصاً فيما يتعلق بدور الرئيس السوري بشار الأسد في حكم بلاده. مما يعني أنه يقصد ذلك بهدف التأليب على دور الرئيس الأسد الإصلاحي. والمهم جداً هنا التنبيه لقارئ هذا الكتاب أن عليه أن يقرأه بحذر شديد إذ أن أغلب مواده توظف ضد سورية، والأهم أنها تتنبأ بما حدث في لبنان وخروج القوات السورية، مما يعني تورط الكاتب في الإشارة إلى اليد الخارجية التي امتدت لتعبث بالعلاقات السورية – اللبنانية.

الكتاب مثير لكنه جزء من الطريق نحو أن نرى كيف يروننا وكيف يخططون للمنطقة ولإضعاف صورة الأوجه البراقة فيها، وهدفه واضح منذ الصفحات الأولى للتأليب ضد الفكرة العربية، ولرسم سياسة خطيرة تتناول الرئيس الأسد شخصياً.

المحتويات

القسم الأول

سورية بقيادة بشار

القسم الثاني
أمل لطريق جديد

القسم الثالث
السياسة الخارجية السورية في عهد بشار

مقدمة

شكلت وفاة حافظ الأسد، يوم السبت العاشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، في السبعين من عمره، نهاية حقبة في تاريخ سورية الحديث. وقد وُصف الأسد من قبل كثيرين، وهم محقون في ذلك، على أنه الأب المؤسس لهذه الدولة، أو على الأقل، الرئيس الأكثر تأثيراً في حياتها منذ حظيت باستقلالها، إذ ترك أثره على الكثير من مجالات الحياة إلى درجة أنه يمكن أن تقرن سورية، في عهده، به شخصياً.

وقد شغل مكان حافظ الأسد ابنه بشار. و لم تكن في هذا أية مفاجأة، ذلك أنه وخلال السنوات الأخيرة من حياته بذل الأسد الأب كل ما في وسعه من أجل أن يتأكد بأن ابنه هو من سيرثه في كرسيه. ومع ذلك، فإن نقل السلطة من الأب إلى ابنه، ومهما كان سلسا وبعيداً عن الهزات، قد أثار، في سورية وخارجها موجات من الاستهزاء والنقد، وخاصة التساؤلات على صعيد ملاءمة الابن الشاب لحكم وقيادة الدولة. وقد أشار الكثيرون إلى أن طريق بشار باتجاه السلطة بدأت في الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، عقب وفاة شقيقه الكبير باسل في حادثة طرق، وقد كان باسل حتى وفاته الابن المختار، الذي أُعِد لتحمل الأعباء الجسام.

إذا كان اختيار بشار كوريث خيار الغفلة أو حتى "حادثة"، وخاصة، لجهة السيرة الشخصية لبشار نفسه والتي تركزت حتى تلك الفترة على طب العيون وليس على السياسة والعمل السياسي.

لقد جاء صعود بشار إلى السلطة في الوقت الذي وقفت فيه سورية عند مفترق طرق – إن لم نقل عند طريق مسدود – مقابل سلسلة من التحديات، بعضها وجودية، على صعيد السياسة الداخلية والاجتماعية والاقتصادية. وبطبيعة الأمر، فقد وضع هذا الواقع علامة استفهام على قدرة نظام البعث السوري، منذ أن استولى الحزب على السلطة في الثامن من آذار/مارس ١٩٦٣، على الاستمرار

والبقاء على صيغته الراهنة، وكذلك في الحدّ الأدنى، على قدرة السلالة الأسـدية، التي حكمت الدولة على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، على البقاء والاستمرار في الحكم، وذلك بعد أن رحل مؤسس السلالة.

وحسب رأي الكثيرين، تمثّل أحد أبرز إنجازات حافظ الأسد بتأسيس نظـام قوي ومستقر، وإن كان هناك من يقول إنه نظام قمعي إلى درجة كـبيرة. وقـد أكسب هذا النظام لسورية استقرارا سياسيا، لا سابق له، والذي مكَّن الأسد مـن تحويلها من كيان ضعيف، لا حول له ولا قوة وفاقد لشرعيته، إلى دولـة عظمـى إقليمية ذات مكانة ونفوذ. وقد وصل الرئيس الأسد في منتصف ثمانينيات القـرن العشرين إلى الذروة القصوى في سيرة حياته. حيث وصل إلى شاطئ الأمان، بعـد أن تمكّن من التغلب على خصومه من الداخل ومن الخارج، وحتى بعد أن تمكن من أن يحقق لنفسه مكانة أحد الزعماء البارزين الذين يحظـون بالتقـدير في الشـرق الأوسط.

إلا أنه لم يكن لذلك أن يستمر إلى الأبد. فقد بدأت الصـدوع، في أواخـر الثمانينيات، تظهر في الصورة القوية والواثقة التي كان يظهرها نظام الأسد بنجاح كبير جداً على امتداد سنوات حكمه الثلاثين. وجاء ذلك نتيجة تضافر مجموعة من العوامل، من بينها انهيار الاتحاد السوفييتي، الحليف الأقرب وراعي النظام السوري، وصعود الولايات المتحدة للعب دور الدولة العظمى الوحيدة، وانتشار العولمة الـتي بدأت تعطي مؤشرات لها حتى في داخل سورية نفسها، والتطورات الاجتماعية - الديمغرافية التي حدثت في الدولة، والتي بدأ الشعور بهـا بشـكل أقـوى خـلال التسعينيات. وأخيراً التدهور المتسارع في الوضع الصحي لحافظ الأسد، الذي أدى إلى انعزاله.

وطيلة الوقت الذي شغل فيه حافظ الأسد كرسي الحكم في دمشق عملـت شخصيته ككابح للهزات وحاجزاً في وجه كل محاولة هددت استقرار نظامه. ومع وفاته وصعود ابنه إلى سدة الحكم زال، للوهلة الأولى، هذا الحاجز، ومن هنا يـأتي الشك حول مستقبل النظام السوري ومن يقف على رأسه. ولكن حتى إذا اسـتمر

بشار والسلالة الأسدية التي أسسها والده في الحكم لفترة طويلة، فإن السؤال الذي لا يزال يُطرح هو: إلى أين تتجه سورية؟ وبشكل أدق، ما هي وُجهة بشار؟ هل يبدأ بترميم سور الخوف والعزل الذي أحاط والده سورية به، في ظل الشقوق التي بدأت بالظهور عليه منذ بداية التسعينيات، كما يُستشف من عدة تصريحات له في سنواته الأولى في السلطة،[1] أم تراه يُقدِم على توسيع تلك الشقوق ويقود إلى تدمير الأسوار من أجل أن يضع سورية على سكة جديدة مختلفة عن تلك التي كانت في زمن والده.

وقد استمد هذا السؤال قوة إضافية عقب احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة في ربيع ٢٠٠٣. فالحرب على العراق، والتي خُيِّل في البداية أنها ستقود إلى تغيير وجه الشرق الأوسط، أدت إلى تعزيز الضغط على بشار ونظامه، سواء لجهة تغيير السياسة الخارجية السورية (وخاصة تجاه واشنطن) أو لجهة تغيير تعامل النظام في الميادين الاجتماعية والاقتصادية (من الداخل). وفي ظل العاصفة التي أثارتها الحرب في المنطقة بكاملها كان بشار يبدو كمن يجد صعوبة في توجيه دفة السفينة السورية إلى شاطئ الأمان، وكان يُخيِّل أيضاً أنه لا يفوت أية فرصة لارتكاب الأخطاء في كل ما يتعلق بعلاقاته مع الولايات المتحدة. وقد عمل بشار في لحظة الحقيقة بشكل دقيق وفق التقليد الأسدي، وحال دون وقوع مواجهة أمريكية – سورية. إلا أن السؤال بقي بعينه هو إذا ما كان قد فعل الشيء الكافي في نظر واشنطن. وبالفعل، هناك في أرجاء الشرق الأوسط، من يتوقعون، وربما ينتظرون، "حرب تحرير أخرى" تقوم بها الولايات المتحدة، ويكون هدفها هذه المرة دمشق وليست بغداد. ومع ذلك، يمكن أن يؤدي تورط الولايات المتحدة المتزايد في العراق إلى وضع بشار بالذات في نهاية الأمر في موقع المنتصر بوصفه لم يحنِ رأسه، مثل بقية نظرائه العرب، أمام الضغط الأمريكي.

وقد بقيت تلك الأسئلة في نظر الكثيرين بلا إجابات عنها حتى اليوم، وذلك بعد أربع سنوات من صعود بشار إلى سدة الحكم، إذ لازالت شخصية بشار في

---

(١) **الشرق الأوسط**، ٤ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

إطار اللغز، أو على حدّ وصف أوري ساغي، رئيس الاستخبارات العسكرية [أمان] سابقاً "عجينا غير مخبوز".[٢] ويبدو لعديدين أن التفاحة لم تسقط بعد بعيداً عن الشجرة، وأن بشار ليس سوى المتابع الوفي لوالده، باستثناء الاختلافات التي تفرضها فوارق الشخصية بينهما وتغيّر الشروط والظروف. وبالمقابل هناك من يُذكِّرون بأنه وبعد كل شيء فإن الحديث يدور عن إنسان شاب، صاحب ذهن منفتح، ومعرفة عميقة بالغرب. ويخيّل إنه قد اطلع على الفجوة الهائلة الموجودة بين المجتمع السوري والمجتمعات الغربية، وخاصة لجهة التطور التكنولوجي والعلمي. وقد دفعت تلك الحقائق بشار قبل صعوده إلى السلطة للقول إن "بيل غيتس يعمل في بيئة ثقافية وتكنولوجية باستطاعتها أن تفسر إنجازاته، وعليه، إذا كان السوريون يريدون التقدم في تلك المجالات، فإن عليهم أن يخلقوا بيئة مشابهة في سورية نفسها".[٣]

ويؤكد مفترق الطرق، الذي وجدت سورية نفسها أمامه بعد وفاة حافظ الأسد، أهمية محاولة رسم ملامح شخصية من يقف اليوم على رأس الدولة: شاب صغير اختار دراسة طب العيون بتشجيع من والده، لكن وجد نفسه، رغما عن إرادته يستبدل ممرات مشفى 'ويستيرن اي' في لندن بدهاليز القصر الرئاسي في دمشق. وبعد كل شيء، فإن بشار هو من سيحدد طريق سورية في المستقبل المنظور، سواء لجهة الصلاحية التي يتمتع بها أو لجهة حقيقة أنه لا توجد شخصية أخرى تهدد موقعه هذا. ومع ذلك، من المناسب العودة للتأكيد على أنه من الصعب تحديد دعائم بارزة لشخصية أو لرؤية أو لسياسة هذا الزعيم الشاب، الذي لا يزال في بداية طريقه السياسية. ولذلك فإن هذا البحث لا يشكل محاولة لتقديم بيوغرافيا سياسية بالمفهوم الضيق للكلمة، بل هو محاولة لتغطية ما يجري في قمة السلطة في الفترة الانتقالية بين سورية حافظ الأسد وسورية بشار.

يقسم هذا البحث إلى أربعة أقسام: التمهيد الذي يدور حول الإرث الذي

---

(٢) صوت إسرائيل، ١٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٠، ١ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٣) **النهار**، ١٨آب/أغسطس ٢٠٠٠. وانظر أيضاً **واشنطن بوست** ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

أبقاه **حافظ الأسد** خلفه، ويرسم صورة سورية في أيامه ويركز على الطريق المسدود، في الداخل والخارج، الذي وصلت إليه الدولة عشية وفاته. ويركز **القسم الأول** على الطريق الذي قطعه بشار إلى كرسي الحكم وعلى جهوده، وجهود والده، لتأسيس وضمان مكانته كوريث. ويحاول هذا القسم كذلك رسم خطوط لشكل التصرفات الشخصية والسياسية لبشار، وكذلك خطوط لطبيعة التركيبة السياسية التي يقف على رأسها. أما **القسم الثاني** فيستعرض إنجازاته (وبشكل خاص إخفاقاته) الداخلية، وأبرزها جهده الفاشل لإدخال إصلاحات في مجال السياسة الداخلية والمجتمع والاقتصاد. ويعالج **القسم الثالث** علاقات سورية الخارجية مع العالم، وخاصة مع الولايات المتحدة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ والحرب على العراق. ويجري التأكيد في هذا القسم على قضية العلاقات بين سورية وإسرائيل، والانعطافة التي طرأت على سياسة بشار مع انفجار انتفاضة الأقصى. ويستعرض هذا القسم كذلك تدخل سورية في لبنان والدور الذي تلعبه سورية على الصعيدين العربي والدولي منذ أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

إن العيب المرتبط بكتابة بحث حول دولة تصعب زيارتها واضح هنا، ومع ذلك يمكن تعزية النفس بالمصادر الأولية – مقاطع من الصحافة وبرامج الراديو والتلفزيون، والدراسات والأبحاث الاقتصادية والسياسية التي صدرت في سورية وخارجها، وبالطبع كذلك الحوارات والمقابلات التي جرت مع سوريين، ومع مواطني الدول العربية الأخرى، ومع غربيين أقاموا ويقيمون في سورية. بالإضافة إلى ذلك يتم الاعتماد بشكل واسع على المصادر الثانوية.

ونقدم على الهامش ملاحظة تقنية، فخلال عملية نقل الأسماء والمصطلحات من العربية إلى العبرية، اخترت نسخة خط (فونط) بسيطة مثلما هو متبع في الصحافة اليومية في إسرائيل، وذلك للتخفيف على القراء (يظهر في دليل الأسماء في نهاية الكتاب النقل العلمي بين قوسين في كل مكان وجدته مناسبا) وحسب ذلك فإن: ص=ܨ، ض=ܨ̇، ظ=ܛ̇، غ=ܓ̇. بالإضافة إلى ذلك تصرفت بحرية في استخدام حروف العلة فكتبت موحمد بدل محمد وحالب بدل حلب... الخ.

وفي النهاية، أتوجه بالشكر والعرفان لكل من ســاعد في كتابــة البحــث وبالدرجة الأولى لأستاذي ومدربي البروفيسور ايتامار رابينوفيتش الــذي يــرافقني ويقدم لي الدعم منذ بداية مسيرتي الأكاديمية سواء بتقديم النصيحة الطيبة أو بعلمه الواسع حول سورية. وأريد كذلك التوجه بالشكر لأصدقائي في الــبلاد والعــالم الذين أشركوني بالمعلومات المتوفرة لديهم. وكذلك بالشكر الخــاص لأصــدقائي ونظرائي من سورية، والذين لا يزال، وللأسف، من المحظور حتى الآن ذكر أسمائهم بالتفصيل. والشكر الخاص أيضاً لأصدقائي في مركز موشيه دايان وفي قسم تاريخ الشرق الأوسط وأفريقيا في جامعة تل أبيب، وذلك على الدعم والتشجيع اللــذين منحوهما لي على مدى سنوات. وكذلك فإن الشكر مستحق للعاملين في دار النشر الخاصة بجامعة تل أبيب وإصدارات حارغول على جهودهم وإخلاصهم في إعــداد النسخة اليدوية. وفي النهاية أتقدم بالشكر إلى أحبتي، أفراد عائلتي الذين رافقوني في طريقي، زوجتي شيرلي وأبنائي ليرون ليخا وتؤوم.

إرث القائد الراحل

حافظ الأسد "الرئيس المحتجب"

في يوم الحادي عشر من آذار/مارس ١٩٩٩ بدأ حافظ الأسد بفترة ولايته الخامسة لمدة سبع سنوات رئيساً لسورية. وفي صبيحة اليوم ذاته وصل إلى بناء مجلس الشعب لأداء يمين القسم أمام أعضائه، وقد تمكن مشاهدو التلفزيون السوري، الذي نقل الحدث مباشرة، من رؤية الرئيس وهو يُستقبل من قبل نظرائه في قمة النظام. وأدى بعد ذلك القسم الذي اقتصر على مقطع وحيد: "أقسم بالله العظيم أن أحافظ بأمانة على النظام الجمهوري الديمقراطي الشعبي، والعمل على تحقيق تطلعات الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية". وبعد ذلك ظهر الرئيس وهو يصافح عدداً من أعضاء المجلس الذين تقدموا إليه لتقديم تهانيهم والإعراب عن تأييدهم.[١]

وعشية ذلك اليوم بثت وسائل الإعلام السورية الأقوال التي وجهها الرئيس الأسد إلى أعضاء المجلس، وعبرهم إلى مواطني سورية. وقد أثارت أقواله اهتماماً بالغاً، ذلك أن الظهور العلني للرئيس، بما في ذلك التوجه إلى أبناء شعبه، لم يكن أمراً اعتيادياً في سورية الأسد، وخاصة في العقد الأخير من حياته (وعملياً، ومنذ خطابه في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٩٤، بمناسبة عقد الجلسة الافتتاحية الاحتفالية لمجلس الشعب بعد الانتخابات التي جرت قبل شهر من ذلك، امتنع الأسد من توجيه أي حديث إلى الجمهور. وبعد مرور أربع سنوات، في كانون

(١) التلفزيون السوري، ١١ آذار/مارس ١٩٩٩.

الأول/ديسمبر ١٩٩٨، تغيب كذلك، وللمرة الأولى منذ أن تسلم سدة الحكم، عن الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب وذلك بحجة أنه أصيب بنزلة صدرية شديدة).[٢]

وفي خطابه الاستثنائي أمام أعضاء مجلس الشعب تفاخر الرئيس الأسد بإنجازاته على امتداد فترة حكمه على مدى ثلاثين عاماً والتي كانت حسب قوله "عظيمة وهامة وأعطت لسورية قاعدة صلبة مكنتها من الصمود [في وجه أعدائها] والاستمرار في التقدم من أجل مستقبل أكثر إشراقا"، ومع ذلك، اعترف الأسد بأن سورية لازالت تواجه تحديات شديدة الوطأة، ودعا أعضاء مجلس الشعب إلى شحذ الهمم، وخاصة من أجل تصويب الأخطاء الكثيرة التي حصلت خلال عمل الأجهزة الحكومية، وقد ذكّر أنه "إلى جانب الذين يعملون بجد ووفاء ويتحملون المسؤولية، يوجد أيضاً من فقدوا الإحساس بالمسؤولية وتقاعسوا أو حتى أهملوا واجبهم"، وحذر من أنه "ليس في نيتنا التسليم بمثل هذه المظاهر".[٣]

وحقيقة الأمر إن هذه الأقوال لم تحمل أي جديد، فهي كانت قد وردت في خطابات ألقاها في مناسبات مماثلة سابقة، ولكن مع فرق جوهري واحد: هذه المرة امتنع الرئيس عن إلقاء خطابه بنفسه، ويدل إلقاء نظرة متفحصة إلى مضمون الخطاب، الذي أُستهل بتوجه مباشر إلى أعضاء مجلس الشعب ("إنني أتوجه إليكم من على هذا المنبر") أن الأسد كان ينوي إلقاء خطابه بنفسه لأداء القسم، ولكن ولسبب ما، وعلى ما يبدو بسبب وضعه الصحي المتدهور، تراجع عن ذلك. وقد وزع الخطاب، الذي أعد مسبقاً بشكل مطبوع، على أعضاء المجلس، وتمت بعد ذلك تلاوته من قبل مقدمي نشرة الأخبار. ولكن بث الراديو والتلفزيون، وبطبيعة الحال الصحف السورية التي نشرت نص الخطابكاملاً في صبيحة اليوم التالي، امتنعت عن الإشارة إلى إن الرئيس لم يلق أبداً الخطاب بنفسه.[٤]

---

(٢) **الحياة**، ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨.

(٣) تشرين،١٢ آذار/مارس ١٩٩٩.

(٤) راديو دمشق، ١١ آذار/مارس ١٩٩٩. **تشرين**، ١٢ آذار/مارس ١٩٩٩.

"الخطاب الذي لم يُلقه" لم يكن سوى إشارة نموذجية للطريقة التي أدار بها الأسد شؤون سورية على مدى غالبية سني حكمه، وخاصة في العقد الأخير من حياته. ويقدم هذا الخطاب، ومع إعادة التركيز على حقيقة أنه لم يلقه بنفسه، دليلاً يثبت أن الأسد كان بالنسبة لسورية "القائد المحتجب"، وحتى "القائد الحاضر الغائب"، الذي يجلس معتكفا في قصره منقطعا عن نشاطاته العامة والسياسية.

وعلى امتداد ولايته امتنع الأسد عن تفقد أرجاء "مملكته". فهو لم يقم بزيارة قواعد الجيش أو المصانع أو المشاريع الزراعية أو المؤسسات التعليمية والثقافية. وإذا كان الأمر كذلك فمن البديهي أكثر أنه لم يتجول في شوارع المدن، والبلدات والقرى التي كان من الممكن أن يلتقي فيها المواطن السوري البسيط.

وعلى امتداد العقد الأخير لولايته ضم جدول أعماله اليومي تقريرا مفصلاً حول ما نشر عنه في وسائل الإعلام وعلى عدد قليل من المقابلات أو الحوارات مع الضيوف من خارج الدولة، وكذلك مع شخصيات عامة ووزراء وجنرالات وشخصيات محلية هامة أخرى من أجهزة السلطة والحزب والجيش.

وعملياً فقد اختار الأسد أن يحكم سورية بواسطة جماعة صغيرة من المقربين الموالين (**الجماعة**)، والتي أحاط نفسه بها منذ بداية طريقه العسكرية السياسية. وقد انضم لجماعة المقربين هذه، مع مرور الوقت، أبناء عائلة وعشيرة حافظ الأسد. وقد شكلت هذه الجماعة حاجزا بين الرئيس المرفَّع، إن لم نقل المنقطع عن الشعب، وبين أمور الدولة العادية وخاصة الهموم اليومية للمواطنين السوريين، والتي أبقى الأسد معالجتها الحصرية، على الغالب، لمساعديه. ولم تأت شهادة الصحفي البريطاني باتريك سيل، الذي عُرف عنه أنه مقرب من الأسد ورجل سره، من فراغ حيث قال: "إن الرئيس السوري كان بالنسبة لغالبية وزرائه ومستشاريه صوتاً بلا جسد، والذي يسمع عبر سماعة الهاتف"،[٥]

(٥) باتريك سيل، **الأسد: الصراع على الشرق الأوسط**، تل أبيب: معراخوت، ١٩٩٥، ص ٣٣٥.

و لم يحظ هؤلاء بغالبيتهم، حسب سيل، بلقاء الرئيس وجها إلى وجه، إلا عندما يقومون بأداء القسم مع توليهم مهام مناصبهم عند تغيير الحكومة، الأمر الذي يعتبر بحد ذاته حدثا نادرا في سورية. إذاً، لقد وقف الأسد على رأس الهرم السوري وأمسك بقوة بعنان السلطة، ولكن من المشكوك فيه أن يكون قد حكم، أو بشكل أكثر دقة قد أدار شؤون الدولة عملياً.

يدل اعتكاف الأسد، قبل كل شيء، على طابعه الشخصي، منغلق، حذر، شكاك، كثير التخوف يتهيب أي عمل، فكيف الحال إذا كان الأمر يتعلق بتغيير حقيقي على نهجه وسياسته. وكنت قد أدليت من قبل بملاحظة حول ذلك وقلت إن "نجاح الأسد [في البقاء] يكمن في حقيقة أن خلف هيئة الرجل السياسي، والمنظّر وصاحب النبوءة، يختفي سياسي حاضر البديهة، فنان في البقاء، والذي قال في من يشبهه ذات مرة السياسي الإسرائيلي المعروف يوسيف بورغ، إنه في اللحظة التي يخشى فيه الجميع السير بين قطرات المطر يفضل هو البقاء في بيته حتى لا يصيبه البلل نهائياً، سياسي كان من أبرز ميزاته السلبية وغياب المبادرة وحتى الارتداع والخوف من الإقدام على الفعل...".(٦)

ويمكن أن يكون اعتكاف الأسد في مكتبه قد نبع من الخشية على حياته، وبالفعل، فقد شهد الكثير من معارفه أن محاولة اغتياله في السادس والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٨٠ شكلت بالنسبة له صدمة نفسية [جرحا لا يندمل] أدت إلى تغيير أسلوب تصرفه، بما في ذلك جدول أعماله اليومي. منذ محاولة الاغتيال، من عناصر 'الإخوان المسلمين'، تمكنوا من اختراق الطوق الأمني الوثيق الذي أحاط بالأسد، ووصلوا إلى مدى إلقاء قنبلة يدوية من الرئيس السوري، لكنهم أخطأوا الهدف، حيث ألقى أحد مرافقيه المخلصين نفسه على الأسد وأنقذ حياته.(٧)

---

(٦) إيال زيسر، **أسد سورية – القائد وشخصيته**، تل أبيب: مركز موشيه دايان لدراسات الشرق الأوسط، جامعة تل أبيب، ١٩٩٣، ص ٢٣.

(٧) باتريك سيل، **الأسد**، ص ٣٢٢.

وفي النهاية، ساهم تدهور وضعه الصحي في غياب الأسد عن الحياة العامة في سورية، فالنوبة القلبية الخطيرة التي أصابته في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٣ دفعته إلى أن يقلص بشكل كبير ساعات عمله. ومن المناسب أن نذكر أن أسدَ بداية السبعينات كان يُعرف بالحيوية والنشاط، وكان برنامج عمله مكثفا وساعات عمله جنونية، وكان ميله إلى البقاء حتى ساعات الفجر في حينه، يدفع الكثيرين من أفراد النخبة في سورية إلى البقاء محبوسين في مكاتبهم، ينتظرون بتوتر وصول إشارة الفرج، هذا إذا وصلت، من الرئيس. أما يوم العمل التالي فكان يبدأ في ساعات ما بعد الظهر المتأخرة.(٨)

وازداد توجه الانقطاع عن الواقع لدى الأسد بشكل كبير جداً في التسعينيات، فقد تحول الأسد في نهايات حكمه إلى ظل شاحب للزعيم النشط الذي عرفته سورية في الماضي، والذي كان صلب الشكيمة وواسع الإطلاع، وعلى الأخص، صاحب قدرة على ضبط النفس، كما شهد بذلك زعماء وسياسيون غربيّون التقوه في السبعينيات والثمانينيات، وحتى في بداية التسعينيات. وفي صيف ١٩٩١، كما هو مذكور، دفع الأسد وزير الخارجية الأمريكية، جيمس بيكر، إلى التلويح بمنديله الأبيض والاستسلام بعد تسع ساعات من المفاوضات المضنية، والتي ضبط خلالها الضيف القادم من واشنطن نفسه و لم يخرج فيها إلى الحمام.(٩)

وقد بدأ تدهور الوضع الصحي لحافظ الأسد يترك علاماته على المظهر الخارجي وعلى أداء الرئيس لمهماته. وفي بداية التسعينيات، وحسب شهادات دبلوماسيين غربيين فإنه كان يجد صعوبة في الحفاظ على الاستماع والتركيز خلال اللقاءات التي أجراها في قصره،(١٠) وقبل عدة أشهر من وفاته، وحسب ما نشر في

---

(٨) **مقابلة للمؤلف مع دبلوماسي سوري**، واشنطن، ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٩٩. وانظر أيضاً باتريك سيل، **الأسد**، ص ٤١١-٤١٢.

(٩) James A. Baker, III, Politics of Diplomacy, Revolution, War and Peace, 1989-1992, New York: G.P. Putnam's Sons,1995, pp.447-450.

(١٠) **هآرتس**، ١ أيار/مايو ٢٠٠٠. **القدس العربي**، ٢٩ أيار/مايو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً مقابلة للمؤلف مع باتريك سيل، تل أبيب، ١٣آذار/مارس ٢٠٠٠.

الصحافة الأجنبية، عانى الأسد من مرض اختلال وظائف العقل (العته) (DEMENTIA) ووُضع تحت الرعاية الطبية الدائمة،[11] وقد قال أعضاء الجانب الأمريكي في لقاء الرئيسين الأسد - كلينتون في جنيف في آذار/مارس ٢٠٠٠، وهو أحد آخر لقاءات الرئيس السوري مع زعيم أجنبي، إنه قبيل انتهاء اللقاء، وبعد أن زال تأثير الأدوية التي تلقاها، وجد الأسد صعوبة في الحديث وأخذت مكانه مترجمته الخاصة بثينة شعبان، حيث ساعدته على إنهاء أقواله في كل مرة كان يتوقف فيها في منتصف الجملة.[12] ومع ذلك، امتنع المختصون بالشأن السوري وبالرئيس الأسد عن دفن حافظ الأسد وهو لا يزال على قيد الحياة، في ظل حقيقة أن هذا الرجل بقي بعد الكثيرين ممن نعوه، وكأنه يريد إغضابهم عندما تجاهل على امتداد سنوات التقديرات المحنكة للباحثين الأكاديميين والأطباء والتي قالوا فيها إن أيامه باتت معدودة، وهي التقديرات التي رافقته منذ أيام النوبة القلبية الشديدة.

وعلى خلفية التقارير التي تحدثت عن تسارع تدهور وضعه الصحي يمكن أن ندرك لماذا لم تكن وفاة الأسد بمثابة مفاجأة، صحيح أن الصحف السورية قد تحدثت فعلاً في عناوينها الرئيسية عن "الموت المفاجئ للقائد الخالد"،[13] إلاّ إن وزير الدفاع مصطفى طلاس، المقرب من الأسد، والذي رافقه منذ التقاه في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٥٢ على أبواب كلية الضباط، شهد بأنه: "عندما التقيت الأسد في حفل إحياء ذكرى شهداء السادس من أيار/مايو ٢٠٠٠، شعرت أن وضعه الصحي يزداد سوءا، وقد تمنيت أن يتوقف هذا التدهور وينجح في التغلب على مشاكله الصحية التي رافقته على امتداد السنوات الخمس عشرة الأخيرة، وكان دائماً ينجح في التغلب عليها ويعود إلى قوته"،[14] وأضاف طلاس إن "الرئيس الأسد نفسه شعر بأجله الذي يدنو، وقبل شهر من وفاته سألنا متى من

---

(١١) **هآرتس**، ٦ آذار/مارس ٢٠٠٠.

(١٢) مقابلة للمؤلف مع دبلوماسي أمريكي من المشاركين في اللقاء: واشنطن، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً **يديعوت أحرونوت**، ٣١ آذار/مارس ٢٠٠٠.

(١٣) **تشرين**، ١١حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(١٤) **الأهرام**، ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠٠ .

المقرر أن ينعقد مؤتمر حزب البعث، وعندما أجبناه إنه قد تم تحديد موعد انعقاد المؤتمر في السابع عشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠ أعرب عن تعجبه لعقده في هذا الوقت البعيد إلى هذه الدرجة.[١٥]

لقد وصل موت حافظ الأسد، سواء كان مرتقبا أو مفاجئاً، قبل الأوان بالنسبة للكثيرين في سورية، وفي مقدمتهم ابنه بشار. صحيح أن الأسد عمل في سنوات حياته الأخيرة بدون كلل من أجل أن يضمن موقع ابنه كوريث له، لكن تلك الجهود اصطدمت بصعوبات غير قليلة، إذ أن بشار يبقى في عيون غالبية السوريين الشاب الصغير الذي تعوزه التجربة والخلفية المطلوبة للحلول محل والده. كما أن بشاراً، لم يكن يحقق الشرط المُلزِم الذي حدده الدستور السوري، والذي يقول إن على المرشح للرئاسة أن يكون قد أتم الأربعين على الأقل. بشار، المولود في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٦٥، كان سيحقق العمر المطلوب في عام ٢٠٠٥، وهو العام الذي كان من المقرر أن ينهي فيه والده فترة ولايته الخامسة.

ويبدو أن الأسد قد قرر في الشهور الأخيرة من حياته تسريع الخطوات استعداداً لتتويج ابنه. فقد دفع باتجاه، أو وافق - على طرد ثلة من الشخصيات الكبيرة من النخبة السياسية والعسكرية والأمنية، والتي كان من المحتمل أن تعلن تحدّيها لمكانة الابن. بالإضافة إلى ذلك قرر، كما مر معنا، عقد المؤتمر القطري لحزب البعث في السابع عشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، والذي امتنع عن عقده منذ حوالى خمسة عشر عاماً، وقد حدد عقد المؤتمر من أجل الموافقة على تعيين بشار عضواً في المؤسسات القيادية للحزب، وربما أيضاً نائبا للرئيس، وذلك من أجل أن يؤسس وبشكل رسمي مكانته في القيادة السورية.[١٦] إلا أن حافظ الأسد توفي في العاشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، قبل سبعة أيام من موعد افتتاح المؤتمر المقرر.

---

(١٥) **السفير**، ١٣حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(١٦) **الحياة**، ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

ربما جاءت وفاة الأسد قبل الأوان بالنسبة لابنه، لكن نظرة إلى الوضع الذي كان سائداً في سورية في نهايات عقد التسعينيات تظهر أنه بالنسبة لسورية جاءت وفاته متأخرة كثيراً، وربما أكثر من اللازم، فقد اتضح عند ذلك أن سورية هي إحدى الدول الضعيفة اقتصادياً في الشرق الأوسط، وتعاني من عزلة سياسية، ومقصاة عن المجتمع الدولي وفي حالة نزاع مع كل جاراتها ومع غالبية العالم العربي. وبدت سورية أبعد من أي وقت مضى عن تحقيق أهدافها القومية، وعلى رأسها استعادة هضبة الجولان، كما أن ظلا ثقيلاً بدأ يحوم فوق سيطرة سورية على لبنان، وهو الإنجاز الوحيد تقريباً على مدى حكم الأسد. وكان الواقع الذي انزلقت إليه سورية هو، إلى درجة كبيرة ثمن بقاء الأسد الأب، أو بكلمات أخرى، النتيجة الواضحة لسياسة "اجلس ولا تعمل" التي فرضها على نفسه، والتي بسببها أمسك بزمام السلطة على امتداد سنوات طويلة إلى هذا الحد.

ولكن إذا قبلنا أيضاً الافتراض (المشترك للكثيرين في سورية)، بأنه كان من الأفضل للدولة لو أن حافظ الأسد أُقصي عن السلطة قبل عدة سنوات، لكانت محاولة تقييم فترة حكمه عندها معقدة ومركبة، فإلى جانب الإشارة إلى نقاط ضعف واضحة في بناء الدولة والمجتمع، وخاصة في بنية النظام السوري، فإنه لا يمكن تجاهل حقيقة أن الدولة السورية بقيادة الأسد أشعّت ولازالت تشع قدرا غير قليل من القوة. وتجب عدم رؤية حقيقة أن الأسد استمر في حكمه، وحافظ على استقرار سياسي وزاد من مكانه سورية في العالم كأمر مفهوم وبدهي، ذلك أن هذا الإنجاز، الذي يرى الكثيرون فيه إنجازه الأساسي، كان غير مسبوق بالمصطلحات السورية.

"الصراع على سورية" - النهاية البداية

ينظر الكثيرون إلى صعود الأسد إلى السلطة في السادس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠ كنقطة انعطاف في تاريخ سورية، ذلك أنه أدى إلى إنهاء "الصراع على سورية" ("The Struggle for Syria")، هو مصطلح صكه الصحفي باتريك سيل) - صراع السيطرة على الدولة، على سياستها وعلى هويتها، وعملياً

على وجودها ذاته – والذي كانت تعيش فيه منذ حصلت على استقلالها في ١٧ نيسان/أبريل ١٩٤٦.(١٧)

ويعود أصل الصراع على الدولة إلى حقيقة أن سورية المستقلة فاقدة الجذور أو الشرعية منذ تأسيسها في عشرينيات القرن العشرين، ذلك أنها أقيمت منذ البداية من أجل المصلحة الفرنسية، وليس تلبية لرغبة مواطنيها، الذين طالبوا في غالبيتهم أن تمتد على أقل تقدير على أراضي سورية الجغرافية (بلاد الشام – The Syrian Lands)، ويكون أفضل إذا امتدت على أراضي العراق وشبه الجزيرة العربية. ومنذ أن حصلت سورية على استقلالها أزيل، بشكل مؤقت على الأقل، جزء من الشكوك حول مستقبلها، ولكن وبعد أن غادر أيضاً آخر الجنود الفرنسيين أرضها لم تَزُل (الشكوك) حول مستقبلها بشكل مطلق، وذلك بسبب ضعفها السياسي خلال سنوات استقلالها الأولى.

بالإضافة إلى ذلك كان على الدولة السورية المستقلة أن تواجه تحديات نابعة من تركيبتها الديمغرافية، ومن ميزاتها السياسية والاجتماعية الاقتصادية الأخرى، وعلى رأسها الانقسام الإثني والطائفي، وخاصة وجود أقليات (متراصة) تشكل غالبية في مناطق سكناها. ويتشكل سكان سورية من غالبية عربية سنية، تصل إلى حوالى ٦٠% من مجموع السكان، نصفهم في المدن ونصفهم في المناطق القروية والأرياف، كما يشكل المسيحيون ١٣%، والعلويون حوالى ١٢% وتسكن غالبيتهم في إقليم العلويين، ويشكل الأكراد والتركمانستان ١٠% وتقيم غالبيتهم في منطقة الجزيرة، أما الدروز، الذين يشكلون حوالى ٥%، فهم في غالبيتهم يسكنون في جبل الدروز، وأخيراً السكان الإسماعيليين الذين يشكلون أقل من ١% من مجموع السكان.

كما يميز سورية أيضاً وجود فجوة عميقة وقديمة جداً بين المدينة والقرية،

---

(١٧) باتريك سيل، **سورية، الصراع إلى القمة**، تل أبيب: معراخوت، ١٩٦٨. للمصدر بالإنكليزية أنظر: Patrick Seale, The Struggle for Syria, London: Oxford University Press,1965.

وكذلك وجود حالة من التنافس بين العاصمة دمشق وبين مدينة حلب شمالي الدولة.

وبما أن الرأي العام السوري يجد صعوبة بالتسليم مع الحدود المتعلقة التي فرضت عليه، فإنه ليس من المفاجئ أن نجد عدم تنامي إحساس الولاء والانتماء إلى الدولة في أوساط المواطنين. وفي ظل هذا الوضع مال الكثير من السوريين إلى البحث عن مصادر هوية أخرى ما وراء حدود الإقليم السوري، مثل فكرة "القومية العربية"، أو فكرة "سورية الكبرى"، في أوساط عدد أقل منهم. وفي الوقت نفسه حافظ السوريون على الولاء للمنطقة وللطائفة وللعشيرة، وفي بعض الأحيان، للعائلة، والتي تشكل الإطار الأول للانتماء.

وقد استجر غياب الاستقرار في سورية تدخلاً متزايداً في شؤونها الداخلية من قبل قوات عربية وحتى غربية، التي حاولت استغلال ضعفها والحصول على موقع نفوذ فيها، وقوضت بذلك جوهر وجودها كدولة مستقلة. ووصل "الصراع على سورية" إلى ذروته عام ١٩٥٨ عندما قرر السوريون، في ظل الضائقة الوجودية، الإقدام على عملية انتحار سياسية بتأسيس الوحدة مع مصر. ولكن بعد ذلك بثلاث سنوات، في أيلول/سبتمبر ١٩٦١، وبعد أن خاب أملهم بتحقيق الوحدة، دفع السوريون باتجاه الانفصال، وقرروا منذ ذلك الوقت التمسك بكل ثمن بالإطار السياسي الذاتي.[١٨]

وكانت ثورة البعث في ٨ آذار/مارس ١٩٦٣ الخطوة الأولى على طريق ضمان وجود وتأسيس الدولة السورية، وقد أدت الثورة إلى قلب هرم السلطة والنظام الاجتماعي - الاقتصادي الذي كان سائداً في سورية. وحل محل نخبة المدن السنّية، التي سيطرت على السياسة والمجتمع والاقتصاد على مدى مئات السنين،

---

(١٨) للمزيد حول ص راع القوة في سورية بين السنوات ١٩٤٦-١٩٦٣، أنظر باتريك سيل، **سورية، الصراع إلى القمة،** Nicolaos Van Dam, The Struggle for Power in Syria, London: I.B. Tauris, 1965, Michael H. Dusen, Intra-and Intergenerational Conflict in the Syrian Army, Unpublished Thesis, John Hopkins University, 1971; Andrew Rathmall, Secret War in the Middle East, The Covert Struggle for Syria, 1949-1961, London: I.B. Tauris 1994.

تحالف من القوى التي جاءت من قطاعات كانت مهملة ومقهورة حتى ذلك الوقت – من أبناء الأقليات وأبناء القرى والأرياف.

وكان على نظام البعث في بداية طريقه أن يواجه قطاعات واسعة في المجتمع السوري، وعلى رأسها الأوساط الإسلامية التي ضعفت سياسياً واقتصادياً في أعقاب تبادل السلطة. كما واجه نظام البعث صراع قوى شديداً بين صفوفه، بين جماعة الضباط العلويين الشباب التي لقبت باسم "اللجنة العسكرية"، وعلى رأسها صلاح جديد، وبين مؤسسي وقادة حزب البعث القدامى برئاسة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. وكان أعضاء اللجنة العسكرية هم الذين بادروا إلى انقلاب آذار/مارس، ولكنهم كانوا في البداية بحاجة إلى رعاية القيادة القديمة لحزب البعث، إلاّ أن صراعاً قوياً ما لبث أن اندلع بين المعسكرين حول قضية سياسة النظام الجديد، وأكثر من ذلك حول هوية الحاكم الفعلي.(١٩)

وفي شباط/فبراير عام ١٩٦٦ حُسِم الصراع لصالح صلاح جديد، الذي أسس النظام الذي أطلق عليه لقب "البعث الجديد"، والذي تبنى سياسة متطرفة في الشؤون الخارجية والمجتمع والاقتصاد، في محاولة لتطبيق الاشتراكية شرق الأوروبية في سورية. ولكن سرعان ما اتضح أن هذه السياسة كارثية، إذ فرضت على سورية أزمة اقتصادية شديدة، وزادت من الانقسامات الاجتماعية وأثارت انتقادات عنيفة في أوساط قطاعات واسعة. وبالإضافة إلى ذلك أدخلت سورية في حالة عزلة في العالم العربي، وحتى أنها جرفت كل المنطقة إلى الحرب.(٢٠)

لقد كانت الأزمة التي وجدت سورية نفسها فيها بسبب سياسة صلاح جديد

---

(١٩) Itamar Rabinovich, Syria the Ba'th 1963-66. The Army-Party Symbiosis, Jerusalem: Israel Universities Press,1972, pp.11-25.

(٢٠) حول حزب البعث ونظام "البعث الجديد" أنظر أيضاً: Kamel Abu Jaber, The Arab Ba'th Socialist Party: History, Ideology and Organization, Syracuse: Syracuse University Prees,1966. حول نظام البعث الجديد أنظر: Nikolaos Van Dam, The Struggle for Power in Syria, London: I.B. Tauris,1996, PP.34-89. وانظر أيضاً إيال زيسر، "حرب الأيام الستة وما بعدها"،**أبحاث في بعث إسرائيل**، المجلد ٨ (١٩٨٨).

أحد الأسباب التي أدت في تلك الفترة إلى المواجهة بين حافظ الأسد الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع منذ عام ١٩٦٦. الأسد، ابن الطائفة العلوية (نفس طائفة صلاح جديد، ولكن من عشيرة أخرى) حمل لواء سياسة الاعتدال وضبط النفس بدلاً من تهور شريكه الكبير. كذلك كان الخلاف بين الاثنين يقوم على دوافع شخصية، وطائفية وسياسية. وعندما وصلت المواجهة إلى ذروتها في الفترة ١٩٦٩ - ١٩٧٠، تغلب الأسد على خصمه بدعم الجيش وقوات الأمن، وسيطر على الحكم. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تُحكم فيها سورية من قبل عنصر واحد، دون شركاء أو منافسين أو خصوم في الساحة الداخلية السورية.

سورية بقيادة حافظ الأسد

كان سر قوة الأسد في قدرته على مواجهة التحديات التي واجهته وواجهت نظامه منذ صعوده إلى السلطة بحكمة، وتقديم الحلول للمشاكل الأساسية التي عانت منها الدولة منذ إقامتها، وهي الردود التي ناسبت بشكل جيد الواقع الداخلي في سورية، والمنطقة المحيطة، والعالم العربي والميدان الدولي. وقد وجد هذا الأمر تعبيراً عنه في عدة مجالات:

١. **"القائد إلى الأبد"**: تدّعي الكثير من الأبحاث أن مكانة سورية في المنطقة والقوة التي تشعها، مردّها بشكل أساسي إلى شخصية وعمل الرجل الذي يقف على رأسها. فسورية نفسها كانت وتبقى دولة ضعيفة، فقيرة الثروات والموارد الطبيعية. إذاً، لقد كان حافظ الأسد هو الذي حمل، بقوة شخصيته، وقيادته وحنكته السياسية، الدولة على ظهره وقادها إلى مكانة القوة العظمى الإقليمية.[٢١] وليس بوسعنا أن نتنكر لحقيقة أنه ورغم الشتائم التي خلفها وراءه بعد ذهابه، إلا أن الأسد كان يتمتع على امتداد معظم فترة ولايته من دعم لا

---

(٢١) أنظر في ملاحظة بهذه الروح من موشيه ماعوز في محاضرته "أسد سورية - توازن ثلاثين عاما"، والتي ألقاها في اليوم الدراسي "سورية بعد الأسد" والذي عقد في مركز موشيه دايان لدراسات الشرق الأوسط، جامعة تل أبيب، ١٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. (نسخة عن المحاضرة محفوظة في مكتبة مركز موشيه دايان).

يستهان به، سواء في سورية أو خارجها.

٢. **نظام الأسد**: لقد نجح الأسد في إقامة نظام مركزي قوي أدى إلى إنهاء فترة عدم الاستقرار المديدة. وكان نظامه ذا طابع طائفي واضح، واعتمد على دعم أبناء الطائفة العلوية، الذين يسيطرون حتى اليوم على الجيش وقوات الأمن. لقد كان هذا نظاما قهرياً، ومستعداً للإقدام على خطوات بعيدة المدى من أجل ضمان وجوده، كما ثبت ذلك، على سبيل المثال، في قمع التمرد الإسلامي في السنوات ١٩٧٦ – ١٩٨٢.

وفي هذا السياق من المناسب الإشارة إلى الدور الذي لعبته النخبة الحاكمة في سورية، التي لعبت دوراً مركزياً في تأسيس مكانة الرئيس. ويدور الحديث هنا عن مجموعة من الموالين المقربين، بعضهم من أفراد العائلة، والعشيرة والطائفة، وآخرين من الأصدقاء القدامى للأسد على مدى أربعين – خمسين عاماً. وقد أدارت له هذه النخبة الشؤون العادية في سورية وأظهرت وفاء وولاء كاملاً لمن يقف على رأسها، بالإضافة إلى ترابط داخلي بدون أية ثغرات أو صدوع. وتجدر الإشارة إلى أن شقيق الأسد بالذات، رفعت، عمل على مدى سنوات طويلة بوصفه ذراعه الأيمن والرقم الثاني في النخبة الحاكمة، وظهر في نهاية الأمر أنه "الحلقة الأضعف" في النظام، و لم يتردد عن شق عصا الطاعة على أخيه في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٣، وذلك عندما وقع الرئيس طريح الفراش. وتصرف على نفس الشاكلة كذلك عدد من الضباط العلويين الكبار، مثل قائد قوات الكوماندو علي حيدر، الذي لم يتردد في توجيه النقد الشديد للأسد في جلسات مغلقة للضباط في صيف ١٩٩٤. وبالذات النخبة السياسية، التي كانت تقوم في غالبيتها الحاسمة على مقربين من أبناء الطائفة السنية (ومن بينهم نائب الرئيس عبد الحليم خدام، ووزير الدفاع مصطفى طلاس)، أظهرت ولاء كاملاً للأسد على امتداد الطريق كله.[٢٢]

(٢٢) أنظر Eyal Zisser, Decision Making in Asad's Syria, Washington: the Washington Institute for Near East Policy, 1998, pp. 17-27. أنظر أيضاً إيال زيسر، **سورية الأسد على مفترق طرق**،تل أبيب: الكيبوتس الموحد،١٩٩٩، ص ٤٨-٥٣

٣. **الائتلاف الحاكم**: النظام السوري الذي أسسه الأسد، وعلى الرغم من ضعفه، كان ولا يزال، راسخا أكثر من سابقيه في النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي أرسي في سورية في أعقاب ثورة البعث، والتي بقيت قاعدته بدون تغيير تقريباً حتى بداية التسعينيات. وقد أحسن نظام الأسد في إظهار البنية والتركيبة الإنسانية للقوى التي مثلت غالبية فئات الجمهور السوري، وقد شاركت في تحالفه قطاعات كانت مهملة من قبل على مدى جيل في المجتمع السوري، بقيادة النواة الصلبة التي توحد الطائفة العلوية.

ومع صعوده إلى السلطة عمل الأسد على المصالحة والتقريب بين القطاعات التي وجدت نفسها خارج التحالف وأعربت عن تحفظها وعدائها تجاه النظام، وكان هؤلاء بشكل خاص من سنة المدن، والذين حاول الأسد شراء ودهم بواسطة سياسة الانفتاح الاقتصادي التي وُضعت من أجل أن يعيد لهم مكانتهم في الحياة الاقتصادية. وحتى قبل اندلاع التمرد الإسلامي، أراد أن يعبد طريقه إلى قلب الأوساط الإسلامية وتلطيف صورة نظامه العلماني. وقد تعزز هذه التوجه، بعد تدمير التمرد في شباط/فبراير ١٩٧٦، مع الأوساط الإسلامية التي كانت مستعدة للقبول بحكمه وتأييده.[٢٣] كذلك عمل الأسد على الحصول على الشرعية لأبناء طائفته، وحتى أنه حصل في عام ١٩٧٢ على فتوى من الإمام موسى الصدر، زعيم الشيعة في لبنان، التي اعترفت بالعلويين كمسلمين شيعة.

وقد بذل الأسد جهداً خاصاً لتأسيس شبكة من مؤسسات السلطة (مجلس الشعب، الحكومة، مؤسسة الرئاسة، وإطاراً شاملاً ضم الأحزاب التي سمح بنشاطها وفق القانون – الجبهة الوطنية التقدمية) بالإضافة إلى ذلك أقيمت

---

(٢٣) أنظر إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ٢٠٥-٢١٣. وحول علاقات النظام مع الأوساط الإسلامية، أنظر: Umar F. Abed-Allah, The Islamic Straggle in syria, Barkeley: Mizan Press, 1983, PP 88-103. وكذلك إيال زيسر "حركة الإخوان المسلمين في سورية: بين التسليم والنضال". وفي: ميئير ليتبك (إعداد)،**الإسلام والديمقراطية في العالم العربي**، تل أبيب: كاف أدوم،إصدار الكيبوتس الموحد،١٩٩٧، ص ٢٦-١٢٢.

وأسست سلسلة من المنظمات الشعبية من بينها اتحاد الفلاحين واتحاد العمال واتحادات أخرى، وقد خصصت هذه الشبكة لمنح الشرعية للأسد ولنظامه، ولضمان تأييد مختلف القطاعات التي حصلت وللمرة الأولى على تمثيل في تلك المؤسسات، ولمنح الإحساس بالاستقرار للدولة التي كان عدم الاستقرار جزءاً من نظام حياتها على امتداد سنوات طويلة.

٤. **سياسة خارجية متشددة في حدود المعقول**: لقد شكلت سياسة الأسد، على امتداد سنوات، في قضية النزاع مع إسرائيل، مثلما هو الحال في قضايا إقليمية ودولية أخرى، عنصراً بالغ الأهمية في التقدير الذي منحه له الكثيرون في سورية وخارجها. وقد استطاع الأسد من خلال هذه السياسة، وخاصة في أسسها النظرية، بالتعبير عن إحساس المواطن العربي البسيط (ليس في سورية فقط)، تجاه إسرائيل والغرب. مع ذلك فقد فشل الأسد في عدم تجاوز الخط الذي يفصل بين النظرية المتهورة وبين التحرش العملي. وقد اعتمدت سياسته على القراءة الواقعية للواقع ولذلك تميزت بالبراغماتية وحتى باعتدال نسبي، وعلى سبيل المثال، ومنذ أن وقع الأسد على اتفاق فصل القوات مع إسرائيل في أيار/مايو ١٩٧٤، حافظ الأسد على الهدوء على امتداد الحدود، وحتى أنه أعرب في وقت الضرورة عن استعداده لتحسين علاقاته مع العواصم الغربية (حتى بما فيها واشنطن)، وللدفع باتجاه تسوية سياسية مع إسرائيل.(٢٤)

ما الذي تشوش؟

لقد مكنت عناصر القوة، المذكورة أعلاه، الأسد من أن يحقق لسورية الاستقرار والموقع البارز في المنطقة. ولكن ومنذ أواسط الثمانينيات، وبشكل أكثر وضوحاً خلال سني التسعينيات، بدا أن النظام السوري قد بدأ يفقد بريقه، وأن مصادر قوته تحولت إلى سند واه.

---

(٢٤) أنظر موشيه ماعوز، الأسد: **أبو الهول الدمشقي**، بيوغرافيا سياسية، تل أبيب: دابير، ١٩٨٧، ص ١١٩-١٥٧.

"الرئيس المحتجب"، وإن واصل في العقد الأخير من عمره الاحتفاظ باحترام مواطنيه، وباحترام أصدقائه وأعدائه من الداخل والخارج، إلا أنه عملياً لم يعد يزاول أية مهمة على الإطلاق، وتحول من عنصر موحد إلى عبء ثقيل على أكتاف سورية. ومثله أيضاً النخبة الحاكمة، التي امتنع الأسد عن ضخ دماء جديدة في عروقها وبقيت في غالبيتها بدون تغيير منذ أواسط الثمانينيات (وفي بعض الحالات منذ يوم صعوده إلى الحكم في نهاية ١٩٧٠). وكانت هذه القيادة (النخبة) تتكون من أشخاص في العقد السابع من عمرهم، وبعضهم يعاني من مشاكل صحية وغالبيتهم ذوو ميول شرق - أوروبية (حتى أن العديد منهم كانوا من خريجي المؤسسات التعليمية في الاتحاد السوفياتي السابق). وقد تشكلت نظرتهم إلى العالم في الخمسينيات والستينيات، وقد وجدوا صعوبة في القدرة على استيعاب ما يحدث في العالم، وخاصة مظاهر العولمة، التي لم يكن لها أن تقفز من فوق سورية.

ومثل الواقفين على رأسه، أصبحت وجهات نظر النظام السوري خارجة عن سياق العالم الموجودة فيه. وبموازاة انهيار الشيوعية والاشتراكية أواخر الستينيات ضعفت قوة جذب أفكار القومية العربية، وحل محلها، لدى قطاعات واسعة من سكان الشرق الأوسط، الإيمان بالإسلام. وكان حزب البعث أحد ضحايا هذه العملية، حيث خسر الحزب حياته وبقي جسداً بيروقراطياً خالياً من المضمون. صحيح أن الأرقام التي نشرها النظام قبيل عقد المؤتمر القطري للحزب في حزيران/يونيو ٢٠٠٠ أظهرت زيادة دراماتيكية في عدد الأعضاء منذ صعود الأسد إلى السلطة (من حوالى ٤٠,٠٠٠ إلى حوالى مليون وربع)،[٢٥] إلاّ أن ذلك لا يعكس بالضرورة نسبة التأييد الحقيقية للحزب (كما سيمر معنا في الفصل الثالث).

---

(٢٥) أنظر **النهار**، ١٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وأيضاً:

Hanna Batatu, Syria's Peasantry, the Descendants of its lesser Rural Notables, and their Politics, Princeton, New Jersey: Princeton University press,1999, pp.178-180.

إلا أن التطور الأخطر من كل التطورات الأخرى يكمن في حقيقة أن النظام السوري لم يعد يمثل في مواقفه وسياسته المجتمع السوري، ولم يعد المجتمع بدوره يجد فيه المعبر عنه. وجدير بالذكر أن المجتمع السوري مر خلال السبعينيات والثمانينيات بتغييرات كبيرة، وفي مقدمتها الزيادة الدراماتيكية في عدد السكان نتيجة التكاثر الطبيعي الذي كانت نسبته من الأعلى في العالم. فقد كان عدد سكان سورية عام ١٩٧٠ حوالى ستة ملايين نسمة، ولكنه وصل عام ٢٠٠٣ حوالى العشرين مليون نسمة.[٢٦] وقد أدى الازدياد السكاني إلى زيادة عملية الهجرة من الريف إلى المدينة، والتي حولت المدن الكبيرة إلى مسوخ [إسمنتية] تضم الملايين من السكان، غالبيتهم مهاجرون بحثوا عن حظوظهم في المدن الكبيرة، لكنهم اصطدموا بصعوبات كبيرة في عملية الاندماج، سواء في أماكن سكناهم، أو في مجالات التعليم والصحة والضمان الاجتماعي.

وقد أثارت هذه الحقيقة، ولا زالت تثير، إحساساً متزايداً من الانقطاع والغربة بين المواطنين وبين الدولة السورية، وكانت أحد نتائج ذلك زيادة التعاطف الإسلامي في أوساط مواطني الأحياء الفقيرة حول المدن الكبيرة. وفي أماكن أخرى مثلما هو الحال في مصر والجزائر، وفي سورية أيضاً في وقت سبق، أدى الجمع بين زيادة الضائقة الاقتصادية ويقظة المشاعر الإسلامية إلى انفجار عملية الاحتجاج الاجتماعي العنيفة ذات الطابع الديني الواضح، والتي هددت بتقويض الاستقرار الاجتماعي والسياسي.

وفي النهاية، فقد أبقت السياسة الخارجية السورية، أبقتها (سورية) في حالة عزلة واضحة في العالم الذي غير وجهه مع انهيار الاتحاد السوفياتي في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١. وقد أدى انهيار الاتحاد السوفياتي إلى انهيار نظرية الأمن القومي لسورية بعنصريها: الأول، الاعتماد على المظلة السوفياتية ضد احتمال أي

---

(٢٦) أنظر:

Onn Winckler, Demographic Developments and Population in Ba'thist Syria, Brighton: Sussex Academic Press,1999, P.52.

تهديد من قبل الولايات المتحدة أو إسرائيل. والثاني، الاعتماد على الاتحاد السوفياتي كمزود رئيس للأسلحة للجيش السوري. وقد بدأ انهيار نظرية الأمن وتأسيس النظام العالمي الجديد بإثارة الشكوك حول مناعة النظام السوري، وحتى أنه تحول إلى مفارقة تاريخية [ظاهرة في غير زمانها] وغير مناسبة سواء على الصعيد الإقليمي أو على الصعيد الدولي (أنظر الفصل السادس).[٢٧]

لقد دفعت الضائقة، التي واجهها النظام السوري، دفعته إلى البدء بإدخال بعض التغييرات. وفعلاً، وبدءا من آخر الثمانينيات، اختطت سورية طريقا جديدا، وبدأت بالعمل على تطوير علاقاتها مع الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة. وفي هذا الإطار انضمت سورية خلال أزمة الخليج (آب/أغسطس ١٩٩٠ – آذار/مارس ١٩٩١) إلى التحالف المعادي للعراق، وانضمت عام ١٩٩١ إلى مسيرة السلام في الشرق الأوسط، وأعربت للمرة الأولى في تاريخها عن استعدادها الأولي، وإن كان متحفظاً، للتوقيع على اتفاق سلام مع إسرائيل. لكن هذا البديل في السياسة الخارجية كان متردداً ولم يعبر عن الرغبة بإدخال تغيير حقيقي في وجهة نظرها وفي المنطلقات التي وجهت سورية في الماضي. وأكثر من ذلك، استمرت سورية في تطوير علاقاتها مع إيران، وحتى أنها بدأت منذ عام ١٩٩٧ بالدفع لتطوير علاقاتها مع العراق بقيادة صدام حسين. وفي مثل هذه الظروف، لا عجب في أن تبقى علاقات دمشق مع الغرب، وخاصة مع الولايات المتحدة، على جمودها وبدون أية دلائل على إمكانية تحقيق انطلاقة على هذا الصعيد (أنظر الفصل السادس).

تحدٍ من الداخل

في بداية عام ١٩٩٠ ظهرت على جدران المنازل في دمشق شعارات تقول "أسدشيسكو" و"كل تشاوشيسكو بيجي يومه"، وهذه إشارة إلى المصير القاسي الذي لقيه حاكم رومانيا نيكولاي تشاوشيسكو، الذي نُحي عن السلطة وأُعدم

---

(٢٧) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ٥٧–٧١.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩.[٢٨] وقد جاءت تلك الشعارات، كشهادة إضافية، إذا كان هناك ضرورة لشهادات أخرى، على التحدي الذي وضعه انهيار الأنظمة الاشتراكية، في شرق أوروبا والاتحاد السوفياتي نفسه، أمام النظام السوري.

إن مغزى انهيار الاتحاد السوفياتي وحلفائه لم يكن ليخفى عن أنظار الكثيرين في سورية، سواء من الجمهور الواسع أو بين صفوف الحكم وحتى في قمته، حيث بدأوا يطلقون التصريحات عن رغبتهم في إعادة تنظيم الأوضاع في بداية السبعينيات. وقد هددت مسيرة العولمة، التي بُدىء بالاستشعار بها في سورية مثلما هو الحال في غالبية دول العالم منذ بداية العقد، بتدمير أسوار الانغلاق التي وضعها النظام السوري التي كان قد رأى فيها ضمانا لاستقراره ووجوده. وفي ظل هذا التهديد بدأ النظام بالسماح ببعض التغييرات المحدودة في المجالات الاجتماعية - الاقتصادية، وأظهر استعداداً لتغيير سلم الأولويات الوطني ورفع مستوى معيشة المواطن.

وعلى الصعيد السياسي أقدم النظام على سلسلة من الخطوات جاءت لإعطاء الجمهور الإحساس بمزيد من الانفتاح. ومن بين تلك الخطوات يمكن أن نذكر الجهود التي بذلت لإكساب صبغة ديمقراطية وشعبية للاستفتاءات الشعبية للمصادقة على ترشيح الرئيس لفترة ولاية أخرى في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١ وشباط/فبراير ١٩٩٩، ولانتخابات مجلس الشعب في أيار/مايو ١٩٩٠ وآب/أغسطس ١٩٩٤ وآب/أغسطس ١٩٩٨. وبالإضافة إلى ذلك عمل النظام على توسيع الصلاحيات والمجالات التي يمكن لمجلس الشعب معالجتها، وحتى أنه سمح لمرشحين مستقلين غير أعضاء في حزب البعث أو في الأحزاب الدائرة في فلكه، بدخول انتخابات المجلس. وكانت هناك خطوة أخرى بارزة تمثلت في إطلاق سراح الآلاف من السجناء السياسيين على امتداد النصف الأول من عقد

---

(٢٨) دافار، ٨ آذار/مارس ١٩٩٠. وأيضاً: Eyal Zisser, "Syria", in Ami Ayalaon (ed), MECS, Vol. XIV (1990), P.653.

التسعينيات. وفي النهاية، الاستعداد لتعميق الحوار مع زعماء الحركة الإسلامية. وعلى الصعيد الاقتصادي، تبنت الحكومة سياسة تمتاز بالمزيد من الانفتاح والاستعداد لتحرير الاقتصاد السوري ولو بشكل جزئي. وقد اُتخذت هذه السياسة من أجل تشجيع وتوسيع النشاط الاقتصادي في الدولة، ولخلق مصادر دخل وتشغيل جديدة، وتسهيل عملية اندماج الاقتصاد السوري بالاقتصاد العالمي، وهو شرط ضروري من وجهة نظر الكثيرين من أجل تأمين الاستقرار لسورية وازدهارها اقتصادياً في المستقبل.(٢٩)

وبموازاة عملية تحرير الاقتصاد السوري، وإن كان بشكل محدود، وجّه النظام السوري موارد أكبر لرفع مستوى حياة المواطن. ووُظفت منذ بداية التسعينيات مبالغ ضخمة لتطوير البنية التحتية وشبكة الخدمات للمواطنين في العديد من المجالات مثل الكهرباء والماء والإعلام والمواصلات والتعليم والصحة. ولكن وعلى الرغم من التقدم اللافت الذي تحقق في تلك المجالات، بدا أنه لم تكن الجهود التي بذلها النظام كافية للتغلب على التخلف المتراكم في عهد الإهمال، وعلى نقص التكنولوجيا والحاجة إلى القوة البشرية المدربة والمهنية.

وعلاوة على ذلك، فإن التقدم الذي تم تحقيقه لم يستطع مجاراة الطلب على الخدمات النابع من الازدياد السريع للسكان، وعليه، فقد استمرت المشاكل على صعيد البنى التحتية في إثارة اهتمام النظام السوري من جهة، ومقابل ذلك شكلت بؤرة للنقد الجماهيري اللاذع الموجه ضده.

ويبدو أن مسيرة التغيير المحدود التي أدخلها النظام لم تشكل نبوءة للإصلاح أو لإدخال "برنامج أولويات سوري جديد". بل أن الأمر هو خلاف ذلك، إذ يُخيّل أن هذا كان،عمليا، عملاً تكتيكياً من أساسه، والذي جاء بالذات من أجل المحافظة على الوضع القائم. وعلى سبيل المثال يمكن القول إن النظام السوري يقف منذ نهاية سنوات الثمانينيات أمام "نافذة فرص"، حسب وصف وزير الخارجية الأمريكية جيمس بيكر، وأن كل ما فعله هو العمل على

(٢٩) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٨٨-٢١٣.

إغلاق هذه النافذة، أو بالحد الأدنى، منع تسلل رياح التغيير عبرها.

ولا شك أن العبرة الأساسية التي استخلصها الرئيس الأسد من انهيار الاتحاد السوفياتي كانت أنه يجب كبح أية مطالبة لإدخال التغيير على الساحة السياسية لأن تغييراً كهذا يخفي داخله خطراً على استقرار النظام وحتى على جوهر بقائه. ولا عجب إذاً أن الرئيس الأسد قد اختار العودة مراراً وتكراراً على عرض الإنجاز الأهم الذي حققه نظامه والمتمثل في "الصمود القوي" لبلاده في وجه التحديات التي فرضها عليها أعداؤها على امتداد العقود الثلاثة الأخيرة، وهو الهدف الذي يُختصر، حسب قوله، في أن سورية "حافظت على استقلالها، و لم تخضع للضغوط ولا لحملات التخويف، ورفضت قبول الإملاءات التي تتعارض مع مصالحها القومية".(٣٠)

وبالمناسبة يبدو أن الفرق الكبير بين الشكل الذي رأى الأسد الواقع الموجودة بلاده فيه وبين الشكل الذي يُنظر فيه إلى هذا الواقع في الغرب وفي إسرائيل (وكذلك في سورية نفسها) يعود في الأساس إلى الرؤية الخاصة للحاكم السوري، والتي كانت دفاعية، إن لم نقل شكاكة ومترددة، ومخاطِرة في طبيعتها، والتي ترى في سورية قصة نجاح كبير. وحتى أن أشد المنتقدين للنظام اعترفوا بأنه بقدر ما تكون التهديدات التي تتربص بسورية كبيرة، يكون إنجاز الرجل الذي يقف على رأسها كبيراً، وذلك من خلال نجاحه على المحافظة على الاستقرار النسبي وكذلك في الحفاظ على نظام حكمه. ولكن يتضح أن ذلك لم يكن كافياً. فنظرة على سورية في نهايات عصر الأسد تظهر أن الدولة وصلت إلى طريق مسدود وأنها ضلت طريقها، وأنها تواجه مشاكل تزداد باستمرار وتشكل مخاطر تهدد بانهيار النظام [التركيبة] الموجودة فيها. ويمكن على هذه الخلفية أن نفهم الادعاء القائل بأنه إلى جانب الحفاظ على الاستقرار السياسي، فإن الإنجاز الأبرز للأسد هو تنصيب ابنه بشار من بعده.(٣١)

---

(٣٠) **الثورة**، ١٧ شباط/فبراير ١٩٩٦.

(٣١) أنظر محاضرة إيتامار رابينوفيتش في اليوم الدراسي "سورية بعد الأسد"، الملاحظة ٢١، نسخة عن الأقوال موجودة في مكتبة مركز موشيه دايان.

في مثل هذا الواقع، حط بشار الأسد في حزيران/يونيو ٢٠٠٠، حيث أُزيلت من جديد، مع غياب والده، الكوابح في وجه تجدد "الصراع على سورية"، والذي كاد يؤدي في الماضي إلى انهيار الدولة تماماً.

القسم الأول

سورية بقيادة بشار

الفصل الأول

في الطريق إلى القمة

البدايات الأولى

بالنسبة لبشار الأسد، طبيب العيون الشاب من دمشق والذي كان يعمل على اختصاصه في مشفى طب العيون "ويستيرن اي" في لندن، كان من الممكن أن يكون يوم الجمعة الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٩٤ مثل أي يوم عادي. لكن في هذا اليوم، انهار عليه عالمه دفعة واحدة: إذ وصل خبر من سورية يقول إن أخاه البكر باسل قد قتل في حادثة طرق، وإنه طُلب إليه ترك لندن ومغادرتها إلى دمشق على جناح السرعة.

ويذكر الدكتور ادموند شولنبرغ، وهو جراح عيون كبير في المشفى ذلك اليوم الأليم، فيقول: "لقد حضر بشار إلى المكتب وأبلغني أنه تلقى أخباراً سيئة وأنه يجب عليه العودة إلى سورية فوراً. وهو لم يذكر شيئاً عن أن أخاه قتل في حادثة طرق ولم يقل أي شيء عن خططه للمستقبل. ولكننا عرفنا ذلك من نشرات الأخبار. وعليّ أن أضيف **أن وجهه كان كالكتاب المغلق، وتصرف بضبط كبير للنفس ولم يُظهر أي تعبير عن أحاسيسه ومشاعره**".[١]

لقد وصل بشار إلى لندن قبل عام من ذلك تقريباً، في عام ١٩٩٢. وتعلم طب العيون قبل ذلك في جامعة دمشق، حيث أنهى دراسته هناك في عام ١٩٨٨

---

(١) مقابلة مع الدكتور ادموند شولنبرغ في ص حيفة **هآرتس**، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠.

بدرجة جيد جداً، وفي الفترة ١٩٨٨ - ١٩٩٢ اختص في طب العيون في المستشفى العسكري "تشرين" الواقع في ضواحي دمشق.(٢) ويمكن تفسير توجهه إلى دراسة الطب بعدة أسباب منها ميل والده إلى هذه المهنة. إذ كان حافظ الأسد يرغب في أيام صباه أن يصبح طبيباً، ولكن لم يكن لدى عائلته ما يكفي من الوسائل للإنفاق على دراسته فاضطر للتوجه إلى الحياة العسكرية.(٣) وقد بقي الأسد على حبه للطب حتى آخر أيامه، وأشيع أنه قد أُصيب بالسوداوية (HYPCHONDRIA) بعد فترة غير طويلة من النوبة القلبية التي ألمت به، حيث حول اهتمامه إلى المواضيع الطبية. وقد اختارت بنت الرئيس البكر، بشرى، دراسة الصيدلة، إلا أن ابنه بشار تحول إلى دراسة طب العيون.

والسبب الذي دفع بشار للتخصص في طب العيون بالذات ما أوردته صحيفة الحياة، الصادرة باللغة العربية، إلى "حس النقد العالي لديه، وكذلك الأمر ميله إلى تبني الأسلوب التحليلي، العقلاني وحتى العلمي المنظم، في أي أمر يعمل به".(٤) ميله هذا، بالمناسبة، كان لابد أن يجد انعكاسا واضحاً له، وحتى مبالغا به، في تصرفات بشار الشخصية والسياسية، وحتى أن الكثيرين يرون أنه أدار سورية كطبيب عيون وليس كزعيم. وقد شهد في هذا الموضوع الدكتور شولنبرغ فقال أنه "من خلال معرفتي [ببشار] أعتقد أن ما شده إلى طب العيون هو الفكرة التي كانت تسيطر عليه لفعل الأمور بشكل دقيق. فقد كانت لديه حساسية كبيرة تجاه الكمال. وهذه ميزة مهمة لطبيب العيون، فنحن نعمل في مجال لا يمكن وقوع أي خطأ فيه. وكان له ميل كبير جداً إلى التكنولوجيا الحديثة. وقد أدرك أن سورية متخلّفة عن العالم الغربي في مجال طب العيون ورغب في التعلم حتى يتمكن من نقل المعرفة التي امتلكها لأبناء شعبه".(٥)

---

(٢) **الحياة**، ١١حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **تشرين**، ١٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٣) باتريك سيل، **الأسد**، سبق ذكره، الملاحظة ٥ في التمهيد، ص ٤٩-٥٠

(٤) **الحياة**، ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٥) باتريك سيل، **الأسد**، ص ٦٩-٧٩.

ولد بشار في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٦٥، وكان الابن الثالث لحافظ وأنيسة الأسد. فقد سبقته أخته البكر بشرى وهي من مواليد تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٠، وأخوه باسل، من مواليد آذار/مارس ١٩٦٢. وكانت قد ولدت للزوج قبل ذلك، في نهاية ١٩٥٩، رضيعة توفيت في السنة الأولى من عمرها. وكان هذا في الفترة التي كان فيها الأسد الأب ضابطاً شاباً واعداً، في المنفى السياسي في القاهرة.[٦]

كان البيت الذي تربى فيه بشار مفعما بالسياسة، وسارت أمور العائلة في كنف الأب الذي استولى على السلطة في سورية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠، عندما كان بشار في الخامسة من عمره، ومنذ ذلك الوقت وهو يحاول الحفاظ عليها. وذات مرة قال باسل إنه وأخاه لم يكونا يريان والداهما إلا قليلاً في بداية ولايته، وإنه عندما كان يأتي إلى البيت، كان الأب ينشغل بقراءة الوثائق دون أن يتحدثوا معه كلمة واحدة.[٧] فالأحداث الجسام التي دارت في تلك السنوات في سورية تركت أثرها على أبناء العائلة. وخلال حرب يوم الغفران أُرسلت زوجة الأسد وأبناؤه إلى جبال العلويين، تحسبا لحالة أن تتمكن القوات الإسرائيلية من تهديد دمشق. وبعد عدة سنوات من ذلك، وخلال التمرد الإسلامي (١٩٧٦ - ١٩٨٢)، شعر أبناء العائلة بأنهم مهددون من قبل 'الأخوان المسلمين'، الذين حاولوا إلحاق الأذى بالمسؤولين الكبار في النظام وأبناء عائلاتهم. وقد شهد باسل، الذي كان يبلغ العشرين عندما كان التمرد في أوجه، أنه "بسبب عمليات القتل العشوائي التي قام بها [عناصر 'الأخوان المسلمين'] كان هناك من أشار عليّ بعدم مغادرة المنزل، لكنني كنت أشعر أن بإمكاني الدفاع عن نفسي. وبالإضافة إلى ذلك كنا جميعاً، جميع الأولاد، مقتنعين أنه إذا ما حدث شيء ما لأي منّا، فإنه لن يكون لهذا الأمر أثر سياسي على والدنا".[٨]

(٦) المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٧) المصدر السابق، ص ٢١٣-٣٢٥.

(٨) **السفير**، ٥ آب/أغسطس ٢٠٠١.

وحول مسحة التربية القومية العربية، ويتضح أيضاً المسحة الوطنية السورية، التي استمدها من بيته، قال أحد المقربين من بشار مع مرور الأيام إنه: "كان هناك في إسرائيل وفي الغرب من افترض أنه وبسبب أن بشار قد تلقى تعليمه في الغرب فإنه سيكون مستعداً للتنازل عن مبادئه وذلك من أجل ضمان حكمه. لكن، عملياً، استمر بشار على خط والده، إذ أن دمشق، المدينة التي نشأ فيها، كانت وظلت حاملة لواء المقاومة والنضال في العالم العربي".[٩] وقد شهد بشار نفسه في هذا الموضوع بعد أن تسلم سدة الحكم بقوله إنه "قد أخطأ من اعتقد أنني سأكون معتدلاً أكثر من والدي. والأمريكيون يعتقدون أن جيلنا جيل براغماتي، ولكن الواقع العملي أظهر أن أبناء جيلي، وأنا من بينهم، لديهم التزاما أكبر من جيل والدي بالمبادئ الوطنية والقومية العربية".[١٠]

ومع ذلك، فإن تفحصا دقيقا لنظرية بشار تدل على أنه إنسان تربى في دولة سورية، لا يرقى إليها الشك ومفعمة بالثقة في حقها وبقدرتها بالاستمرار في الوجود كدولة مستقلة. وبالفعل تدل الاقتباسات المأخوذة عنه في الثناء على "الحضارة السورية ذات العشرة آلاف عام"،[١١] **على أنه صاحب هوية وطنية سورية واضحة**، حتى وإن كانت مغلفة بالهوية العربية (أنظر الفصل الثالث). **ويمكن أن يكون بشار قد ورث هذه الهوية من أمه، التي تُعتبر عائلتها، عائلة مخلوف، من المؤيدين لأنطوان سعادة، مؤسس وزعيم الحزب السوري القومي.**[١٢] ورغم ذلك، فإن بشار يبدو وكأنه نتاج لـ "سورية الجديدة"، التي أصبحت تحت قيادة والده دولة تشع بالقوة، وذلك على تناقض واضح مع وضعها في السنوات الأولى لاستقلالها.

---

(٩) **الشراع**، ١١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠، وانظر أيضاً: **السفير** ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

(١٠) **تشرين**، ١٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(١١) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ذكر سابقاً، الملاحظة ٢٢ في التمهيد، ص ١٧- ٣٢. وانظر أيضاً مقابلة للمؤلف مع باتريك سيل، ذكرت سابقاً، الملاحظة ١٠ للتمهيد.

(١٢) **الحياة**، ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **تشرين**، ١٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

ومثل بقية أخوته، تعلم بشار في مدرسة الحرية، وهـي مؤسسـة تعليميـة مشهورة ومحترمة (والتي تضم مدرسة ابتدائية وإعدادية ومتوسطة)، ولكنها بكـل تأكيد في متناول الجميع، ذلك أن الأسد الأب حرص على تعليـم أبنائـه الحيـاة المتواضعة وحتى المتقشفة. وفي عام ١٩٧٩ وخلال دراسته في المدرسة الإعداديـة انضم بشار، وهو في الرابعة عشرة من عمره إلى حركة الشـبيبة التابعـة لحـزب البعث، وأصبح بعد ذلك عضواً عاملاً في الحزب، وعلى خلاف أخويـه باسـل وماهر، وكذلك أخته بشرى، **عُرف بشار كطفل هادئ وخجول.**[١٣] **فباسل هو الذي عرف منذ بداية طريقه كزعيم منذ الـولادة. وكمـن أنعـم عليـه الله بشخصية قوية وكاريزما، وظهر إلى جانبه ماهر الذي وهب نشاطا وحيوية من النمط الذي كان لأخيه، لكن إلى جانـب الانـدفاع [الطـيش] والقسـوة [الفظاظة].**[١٤] إذاً ليس من المفاجئ أن يكون الأسد الأب قد أعد شقيق بشـار البكر للمهمات الجسام، وأرسله في الثامنة عشرة مـن عمـره ليلتحـق بالحيـاة العسكرية.

كذلك عُرفت بشرى بصلابتها وبسعة إطلاعها، الأمر الذي وجد تعبيراً له في قصة زواجها ممن اختاره قلبها، آصف شوكت، وبشكل أدق فرضت على والدها القبول بهذا الزواج. وكانت هذه إحدى قصـص دمشـق المتوهجـة في بدايـة التسعينيات. شوكت، علوي من مواليد ١٩٥٠، من مدينة طرطوس الواقعة علـى الشاطئ السوري، كان يكبُر بشرى بعشر سنوات، وإن لم يكن ذلك كافياً، فقـد كان مطلقا للمرة الثالثة. وكما كان متوقعاً، تحفظت عائلة الأسد على زواجه مـن بشرى. وحتى أن شهادة الدكتوراة التي يحملها من جامعة دمشـق لم تغـير رأي حافظ وابنه باسل فيه. وحتى أنه قيل في دمشق إن باسل قد ضرب شوكت وأدخله السجن من أجل ثنيه عن قضية الزواج من أخته. ولكن الأب اضطر في نهاية الأمر،

---

(١٣) **الوطن العربي**، ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠١. **فورين ريبورت**، ١١ تشرين الثـاني/نـوفمبر ٢٠٠١. **يديعوت أحرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(١٤) MEIB, Vol. 2 (2001), PP. 206-207. وانظر أيضاً مقابلة المؤلف مع باتريـك سـيل، ذكرت سابقاً، الملاحظة ١٠ في التمهيد.

بضغط من توسلات (أو ضغوط) بشرى، لإعطاء مباركته للمتحابَين.

زواج بشرى، والتوأمان اللذان رُزقت بهما (حافظ وناعسة)، حفيداً حافظ الأسد، حَسَّن بكل تأكيد الجو العام في العائلة الصغيرة وعمل لمصلحة شوكت، فقد عُيّن الصهر وبسرعة كبيرة في منصب كبير في شعبة الأمن العسكري، وهي من فروع الأمن الداخلي الهامة في سورية، وقيل عنه بعد ذلك إنه أصبح اليد اليمنى لبشار.[١٥] ومع ذلك، سَرَت بين، الفينة والأخرى، شائعات عن وجود توتر بين "الزوج الملكي"، كما يلقبان من خلف ظهريهما، وبين بشار، وبشكل أشد بين شوكت وبين ماهر. وحسب إحدى الشائعات فقد حدثت في نهاية عام ٢٠٠٠ مشادة علنية بين ماهر وشوكت في أعقاب نقاش في العائلة حول العم رفعت الأسد، وعلى ما يبدو أن شوكت قد تحدث بشكل لاذع ضد عم بشار، فرد ماهر بالقول إنه من الأفضل له أن يترك الموضوع لأبناء العائلة والتي هو، هكذا أُشير، لا ينتمي إليها بشكل حقيقي. ورد شوكت عليه بالقول إنه جزء من العائلة. وكرد على ذلك أطلق ماهر النار عليه وأصابه بجراح".[١٦]

وصل بشار إلى لندن، كما أشرنا في نهاية عام ١٩٩٢، وكانت هذه هي فرصته الأولى التي يصبح فيها على تماس مع الغرب. وفرصة نادرة (بعد فوات الأوان) للشخصيات الغربية للتعرف إليه وتكوين الانطباعات عنه. وبالفعل، **كان الانطباع الذي تركه بشار بين نظرائه بأنه شاب مثقف، سريع الاستيعاب، مهذب ولطيف، ولكنه أيضاً مترو ومنغلق.** وقد بذل بشار جهداً كبيرا في عمله كطبيب. وتمكن خلال عدة أسابيع من البدء بإجراء عمليات عيون، البسيط منها في البداية، وبعد ذلك العمليات الأكثر تعقيداً.

ويقول الدكتور شولنبرغ إنه "عندما دعوت بشار للمقابلة لإجراء اختبار له فيما إذا كان مناسبا لقبوله كاختصاصي كانت لي بعض المخاوف من هذا الشاب

---

(١٥) MEIB, Vol. 2 (2001), PP. 206-207. وانظر أيضاً مقابلة المؤلف مع باتريك سيل، ذكرت سابقاً، الملاحظة ١٠ في التمهيد.

(١٦) الوطن، ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

طويل القامة. فالأشخاص الذين يأتون من مثل هذه الخلفية الموجودة لبشار يميلون إلى الغرور والتبجح، ولكن ولسروري لم يكن بشار يمتلـــك أي غـــرور. **كـــان متواضعاً**... وعندما بدأ بشار بالعمل هنا كمختص كان مهما بالنسبة له أن يظهر بأنه يقر بصلاحيات من هم أكبر منه. وكنت أنادي له باسمه الشخصي وهو كـــان ينادي دكتور شولنبرغ.. لقد كان مختصاً جيداً ولطيفاً. **وكان تصـــرفه مضـــبوطاً ومتوازناً. وكان محبوباً جداً بين أفراد طاقمه. وأعتقد أنه لم يكن لـــه أصـــدقاء مقربين من بين المختصين... وقد أعطى للمرضى الإحساس بأنهم هـــم الشـــيء الوحيد الذي يهمه.** كما أحب المرضى الطريقة التي تعامل بها معهم".(١٧) وقالت كريس كينيغ، سكرتيرة المشفى، إن "بشار كمختص حظي بمحبة كبيرة في أوساط نظرائه في القسم. فقد كان شابا لطيفا جداً، وهادئا ومؤدبا". وحتى أن الـــدكتور كليب مفدال، وهو أستاذ مساعد في القسم قال "لقد كان بشار إنسانا مؤدبا ولا يذكر أنه تصرف ولو لمرة واحدة بفظاظة تجاه أي من المحيطين به".(١٨)

وحول طريقة حياته شهد الدكتور شولنبرغ بأنه "لم تكن حولـــه أي مـــن مظاهر الرسميات.. ولم يكن حوله حراس شخصيون. وقد عرفه المرضى مجرد شاب عادي صغير باسم بشار. وأذكر أنه في فترة معينة لم تكن لبشار حتى سيارة. وقـــد تلقى في أحد الأيام سيارة هدية من نوع BMW 318. وقد ظهر عليـــه في اليـــوم الذي استلم فيه السيارة أنه كان منفعلاً جداً. وتحدث عن سيارته الجديدة بانفعال كبير. فسيارة BMW هي من النوع النفيس والجيد، ولكنها ليست مـــن النـــوع الخارق، الذي يدفع شخص بإمكانه أن يحصل على كل شيء للانفعال من أجلها، وعندما رأيت انفعال بشار في اليوم الذي استلم فيه السيارة قلت في نفسي إنني أمام شخص لا يعتبر الحصول على مثل هذه الأشياء الجديدة أمرا مفهوما من تلقاء ذاته. **فهذا ليس إنسانا قد أفسده الدلال في طفولته**.. ولم أره مطلقا يدخن، لكنه كان يشرب الخمر. وروى لي مرة أنه **يحب أن يسمع موسيقا الجاز وبيل كوليتز**. وقال

---

(١٧) **هآرتس**، ٩شباط/فبراير ٢٠٠١.

(١٨) المصدر السابق.

لي أكثر من مرة أن حلم حياته أن يصبح طبيب عيون. وقد سأله أحد نظرائي ذات مرة عن السياسة البريطانية فرد عليه بشار إنه يحب من بين السياسيين البريطانيين مارغريت تاتشر".[١٩]

ويمكن أن نضيف إلى هذه الأقوال الشهادة، المحابية بالطبع، التي قدمها قريب وصديق بشار، رامي مخلوف، الذي كان معه في لندن، والتي جاء فيها: "لقد رأيت بشار إنساناً متواضعاً مثل والده. فهو لم يستغل أبداً أي سائق أقلّه من مكان لآخر، ولم يطلب من أي شخص أن يحمل له حاجياته من الطاولة إلى المَجلى. وعندما كنا نطلب الطعام الجاهز إلى الشقة كان يوبخنا لأننا طلبنا كمية أكثر مما هو مطلوب. وأتذكر أنه كان يستمتع بشكل خاص بالطبخ والقراءة".[٢٠]

لقد عاد بشار إلى لندن للمرة الأولى منذ وفاة أخيه، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢ وذلك في إطار الزيارة الرسمية الأولى التي يقوم بها للعاصمة البريطانية كرئيس لسورية. وقد أكثر خلال زيارته من الحديث عن ذكرياته من فترة إقامته في المدينة كمختص شاب. وقد أُقتبس عنه قوله: "من الروعة أن أكون في لندن، وهي المدينة التي أعرفها جيدا... لقد عشت هنا على مدى عامين. عملت كطبيب وسنحت لي الفرصة للتعرف على الإنكليز والبريطانيين في حياتهم اليومية، وأنا واثق من أنه نشأت بيني وبينهم علاقات صداقة واحترام متبادل... فالعلاقات اليومية مع الذين كانوا يتلقون العلاج بشكل يومي هي تجربة لن أنساها أبدا".[٢١] وكذلك قوله: "عندما كنت أعيش هنا كنت أفضل أن أذهب من مكان سكني في شارع سلاون إلى المشفى الذي عملت فيه سيرا على الأقدام. وكان خط سيري اليومي يمر بالقرب من قصر باكينغهام. وكنت معتاداً على إطالة النظر فيه وفي الأماكن الأخرى. وقد نجحت في التعرف إلى طريقة الحياة البريطانية. وأن أطلع على الشكل الذي يحيا فيه الإنسان المتحضر. ومع ذلك لم يكن لدي الوقت

(١٩) المصدر السابق، وراجع أيضاً مقابلة بشار لصحيفة **واشنطن بوست**، ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

(٢٠) وكالة AP، ٩ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(٢١) التلفزيون السوري، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

للترفيه، ذلك أنني قضيت معظم وقتي في مشفى طب العيون".[22]

وخلال زيارته، المغطاة إعلامياً، إلى لندن زار بشار أيضاً المشفى الذي عمل فيه في شبابه. وحول تجربة الإقامة في المشفى قال في وقت لاحق: "لقد سررت جداً وتأثرت لزيارتي المشفى الذي تركته قبل حوالى تسع سنوات. وقد أردت الاطمئنان حول صحة الممرضات والأطباء وحضرت على عجل لأعرف أن شيئاً لم يتغير، باستثناء علاقة مدير المشفى، الذي كان كما أذكر شخصاً صارما تعامل معنا بشدة إلى درجة أنه اعتاد أن يصرخ علينا ويوبخنا عندما كان يجد خللاً ما في عملنا. هذه المرة توجه لي المدير بلهجة ملؤها الاحترام قائلا: "أهلاً وسهلاً سيدي الرئيس".[23] وقد رافقت بشار في زيارته للندن زوجته أسماء الأخرس، المولودة في لندن، والتي زارت من بين أماكن عديدة، المدرسة التي تعلمت فيها. وقد تأثرت أسماء من الزيارة فقالت: "إنني مازلت أعتقد حتى اليوم أن المدرسة التي تعلمت فيها هي أحد أجمل الأماكن التي رأيتها طيلة حياتي". [24]

أما أسماء فقد قابلها بشار في الوقت الذي كان يدرس فيه في لندن. وهي ابنة فواز الأخرس، طبيب في أمراض القلب من الطائفة السنية ومن مواليد ١٩٤٦ في مدينة حمص السورية. هاجر إلى لندن عام ١٩٧٣، وفتح عيادة في شارع هارلي الراقي. وساهم عام ١٩٨٤ في إنشاء الرابطة العربية السورية، والتي وضعت هدفا لها التواصل بين حوالى عشرة آلاف من السوريين المقيمين في الشتات في بريطانيا. وحقيقة الأمر أن فواز لم يكن طبيبا ذائع الصيت، لكنه تحول بسرعة إلى عنوان للسوريين المتوجهين إلى بريطانيا. وفي عام ١٩٩١ تلقى من بشار الأسد رسالة طلب فيها الطبيب الدمشقي الشاب مساعدته في إيجاد مكان له للتخصص في طب العيون. وكانت معرفة فواز بالدكتور شولنبرغ هي التي

---

(٢٢) **الحياة**، ١٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٢٣) المصدر السابق.

(٢٤) **الأوبزيرفر**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

أدت إلى قبول بشار كمختص في مشفى "ويستيرن اي".[٢٥]

وبعد وصوله إلى لندن حافظ بشار على العلاقة مع فواز وحتى أنه كان حريصاً، بين الفينة والأخرى، على حضور المناسبات الاجتماعية والثقافية التي كانت تقيمها الرابطة التي كان فواز يترأسها. وفي إحدى تلك المناسبات قابل أسماء، ، ابنة فواز، المولودة في لندن عام ١٩٧٥. وقد درست أسماء في المدرسة الثانوية كوينز كوليج وأتمت دراستها في كلية كينغز كوليج بامتياز، في مجال دراسات الكمبيوتر. وتذكرها زميلتها في مقعد الدراسة كصديقة مثقفة ومتوقدة الذهن وخفيفة الظل. وقد كانت فتاة غريبة في كل شيء. وخلال سنوات دراستها الأولى في المدرسة الثانوية حذفت حرف "السين" من اسمها الأول وطلبت مناداتها باسم 'إيما'. وفي سن السادسة عشرة عادت لاسمها العادي، كجزء من مسيرة عودتها إلى الجذور.[٢٦] وقد قالت مع مرور الأيام إنني "لم أكن في يوم ما 'إيما'، وكانوا ينادونني بهذا الاسم من باب التودد. لقد ولدت في لندن وبلغت الخامسة والعشرين، ولكني كنت أدرك دائماً أنني سورية. فأنا أتحدث العربية بطلاقة وأعرف القراءة والكتابة بهذه اللغة. أنا بريطانية ولكنني في الوقت نفسه عربية ولا يوجد عندي أي تعارض في ذلك. فأنا جزء من هذين العالمين في آن معا".[٢٧]

ومع نهاية دراستها تم قبول أسماء للعمل في شركة جي بي مورغن، وبعد ذلك تقدمت بطلب لقبولها في دراسات إدارة الأعمال في جامعة هارفارد. لكنها تراجعت عن مشاريعها وقدمت استقالتها من العمل في منتصف عام ٢٠٠٠، بعد أن طلب بشار يدها وقد أصبح رئيساً لسورية في ذلك الوقت. وقد فاجأ طلب الزواج الكثيرين، ذلك أن الاثنين حرصاً على الحفاظ على سرية العلاقة بينهما،

---

(٢٥) **هآرتس**، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٢٦) **الحياة**، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **هآرتس**، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠١. **واشنطن بوست**، ١٥ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(٢٧) **الأوبزيرفر**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

وحتى أن شائعات سرت في دمشق حول مرشحات أخريات للزواج.[٢٨] وكان من الطبيعي أن يظهر على هذه الخلفية ادعاء بأن بشار اتخذ من أسماء زوجة له لاعتبارات سياسية وذلك لكونها من الطائفة السنية. وقد اعترفت أسماء بعد ذلك بـ "أننا كنا أصدقاء لزمن طويل. فقد اعتدت أن آتي إلى سورية في كل عام منذ ولادتي، وقد تم التعارف بيننا عبر أصدقاء للعائلة نعرفهم منذ الطفولة. ولم تتحول علاقتنا إلى شيء آخر عندما كان بشار يدرس في بريطانيا، ذلك لأننا كنا بالكاد نرى بعضنا بعضا في تلك الفترة، وكانت لقاءاتنا لقاءات بين صديقين جيدين وحسب، ولم أعرف أنني سأتزوج منه فعلاً حتى اقترح عليّ ذلك".[٢٩] (أنظر الفصل السادس).

وكانت إقامة بشار في لندن ستنتهي، كما هو مفترض، عام ١٩٩٤. وكان ينوي حسب أقوال مقربيه العودة إلى سورية وإقامة شبكة من المشافي الخاصة في دمشق وذلك بمساعدة صديقه عاكف المغربي وهو رجل أعمال سعودي. لكن سرعان ما ذهبت مشاريعه أدراج الرياح.[٣٠]

قضية الوراثة

إن إلقاء نظرة إلى ما قام حافظ الأسد خلال العقد الأخير من حكمه يخلق الانطباع أن هناك عملاً مخططاً بحرص شديد، على طريقة التدبير ثم التنفيذ. ولكن السؤال عن أول مرة خطرت ببال الأسد فكرة التأسيس لوريث له من بين أبنائه بقي سؤالاً مفتوحاً. هل كان هذا في يومه الأول في السلطة، أم ربما بعد النوبة القلبية، أم ترى في بداية التسعينيات عندما كبر باسل وأصبح مؤهلاً للحكم، وربما، لديه نزعة قوية للسلطة؟

إن طبيعة الحكم الذي أسسه حافظ الأسد في سورية، يمكن أن تقدم رداً

---

(٢٨) أنظر على سبيل المثال **روز اليوسف**، ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **هآرتس** ٦ آب/أغسطس ٢٠٠٠. وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٠ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

(٢٩) **الأوبزيرفر**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٣٠) **يديعوت أحرونوت**، ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٩.

جزئياً على هذا السؤال، ذلك أن هذا الحكم لم يكن حكماً عسكرياً أو حكماً ذا طابع طائفي وعشائري وعائلي، بل كان قبل كل شيء حكماً شخصياً يُعرف من خلال من يقف على رأسه. وقد تأثر الأسد كذلك من عدد من الأنظمة الشيوعية التي تمتاز بالدكتاتورية العائلية، والتي أقام معها علاقات وثيقة في السبعينيات والثمانينيات، وفي مقدمتها نظام كيم ايل سونغ في كوريا الشمالية ونيكولاي تشاوشيسكو في رومانيا. كما أن الميراث العربي الإسلامي كان مصدر إيحاء بالنسبة له. وكان هناك من يرى أن سيطرة طبقة الضباط العلويين على سورية، بقيادة عائلة الأسد، إنما هي عملية بعث للطوائف العسكرية التي حكمت العالم الإسلامي بدءا من القرن العاشر فصاعدا. وقد أسست تلك الطوائف، التي كانت لها صبغة دينية واضحة، سلالات كان ينتقل فيها الحكم بالوراثة من الأب إلى ولده. وقد كتب برنارد لويس في كتابه **الشرق الأوسط: ألفا عام من التاريخ** حول واحدة من تلك الطوائف، وهي السلطنة المملوكية في مصر، كتب يقول إنه "مع وفاة السلطان ورث ابنه التاج كزعيم رسمي إلى أن يتم حسم قضية وريثه الحقيقي".[٣١]

ومهما يكن من أمر، فإن الأمر الحقيقي هو أن الأسد قد امتنع في السنوات الأولى من حكمه عن الانشغال في قضية الوراثة وتركها مفتوحة. ومن الجدير بالذكر أن الأسد قد استولى على السلطة في سورية في عمر صغير نسبياً، في الأربعين من عمره حيث كان سليما معافى، ومستقبله السياسي مضمون، وكان أبناؤه لا يزالون صغاراً. كما تجب الإشارة كذلك على أن الأسد ترعرع وسط مجموعة من الضباط الشباب الذين كانوا في غالبيتهم يقاسمونه آراءه ونهجه على مدى سنوات طويلة. وقد كان هؤلاء ينظرون إليه فعلاً على أنه الأول بين نظرائه، ولكن من الممكن الافتراض أنه في نفس الوقت كانوا يتحفظون أو يعارضون إمكانية أن ينقل الأسد السلطة لأحد أبنائه. وفي نهاية المطاف فإن الحديث يدور حول جماعة شابة ومتحمسة من الضباط ذوي الحميّة الثورية المتطرفة الذين تربوا في أحضان نظرية حزب البعث.

---

(٣١) برنارد لويس، **الشرق الأوسط: ألفا عام من التاريخ**، تل أبيب: عام عوفيد، ١٩٩٧، ص ٩٥.

وبموازاة ذلك، فإن السنوات الأولى من حكم الأسد كانت شاهدة على سطوع بريق نجم أخيه الصغير رفعت. ومن بين أمور عديدة، أُسندت إليه المسؤولية عن فرق "سرايا الدفاع"، وهي وحدة مختارة حظيت بالموارد السخية، وأفضل الأسلحة، وبالطبع بقوة بشرية نوعية، غالبيتها من أبناء الطائفة العلوية. ولم يكن من الغريب أن يروج في سورية في نفس تلك الفترة الافتراض بأن رفعت هو من سيرث أخيه في حال اختفائه عن الساحة السياسية. ولكن يبدو أن الأسد قد أراد الاعتماد على أخيه لترسيخ حكمه فقط، ولم ير فيه، أو في أخيه جميل، والذي لعب دوراً مركزياً في الفترة عينها في النظام السوري، وريثين مناسبين. وكان تحفُّظ الأسد على أخيه يتلخص بالصفات التي أوردها باتريك سيل في كتابه، وخاصة في القسم الذي يتحدث عن الصراع الذي دار في فترة ١٩٨٣ - ١٩٨٤، وهي الصفات التي تمنع أحداً عن كيل المديح له. فقد وصفت رفعت بأنه غير متزن، وفظ ومرتشٍ، وحتى أن الكتاب يحاول أن يلمح إلى أنه لم يكن سوى دمية في يد الأمريكيين والسعوديين في محاولاتهم لإسقاط أخيه.[٣٢]

وقد طُرحت قضية الوراثة بكامل قوتها على جدول الأعمال السوري في أعقاب النوبة القلبية التي أصابت الرئيس في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٣. وفي ظل المرض، حاول رفعت، ورغم امتعاض أخيه الواضح، تحسين مكانته كوريث. وقد تدهور الصراع بين الأخوين حتى وصل إلى حافة الحرب الأهلية وهدد الوحدة الداخلية للنظام. وفي نهاية الصراع هزم الرئيس أخيه وجرّده من كل مواقع القوة التي كانت في يده، وحتى أنه أجبره على الخروج إلى المنفى الدائم في أوروبا الغربية.[٣٣] وبذلك أخلَت قضية الوراثة مكانها من جدول الأعمال، وإن كان بشكل مؤقت، ذلك أنه من الواضح أن الأسد لم يستعد عافيته، وأن مرض القلب بات يثقل أكثر فأكثر على أدائه لعمله.

---

(٣٢) باتريك سيل، **الأسد**، ص ٤١٣-٤١٥. وانظر أيضاً إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٧٢-١٧٣.

(٣٣) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٦٩-١٧٦.

وفي بداية التسعينيات بلغ باسل الأسد سن الرشد. وارتقى سلم النجاح في خدمته العسكرية وتراكمت له شعبية في أوساط الجمهور السوري. وازدادت بشكل طبيعي الإشارات الصادرة عن دمشق حول نية الأسد بتنصيب ابنه من بعده. وقد جاءت تلك الإشارات، في جانب منها، لاختبار إمكانية الإعلان عنه بشكل رسمي كوريث، وربما تهيئة الأرضية لذلك.

فأولاً، اجتاز باسل حياته العسكرية بسرعة فلكية. وعُيّن في بداية التسعينيات قائد لواء في فرقة الحرس الجمهوري، وهي فرقة مختارة في الجيش السوري، وشارك في عدد من الدورات العسكرية، مثل دورة القيادة والأركان ودورة قائد كتيبة دبابات، التي تشكل شرطا من أجل الترقية في الجيش السوري. وثانياً، بدأ باسل بالظهور أكثر فأكثر أمام الجمهور الواسع، والذي لم يكن، بغالبيته الساحقة، يعرفه. وقد وجد ذلك تعبيراً له بشكل أساسي عبر نشاطاته الرياضية كرئيس لفريق المنتخب الأولمبي السوري للفروسية، وبعد ذلك من خلال نشاطاته لنشر معرفة الحواسب في إطار "الجمعية المعلوماتية" التي أسسها في ذلك الوقت وترأسها حتى وفاته. وثالثاً، وخلال الاستفتاء الشعبي الذي جرى في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٩١ للمصادقة على ترشيح الأسد لفترة ولايته الرابعة، وزعت للمرة الأولى صور باسل إلى جانب صورة والده. وبدأوا في سورية يطلقون على حافظ الأسد لقب "أبو باسل"، رغم أن لقبه في السابق كان "أبو سليمان"، على اسم جده. وفي النهاية، بدأت تظهر في الصحافة العربية خارج سورية تقارير عن نية الأسد بتعيين ابنه باسل كوريث له. وكان مصدر جزء من هذه التقارير، على ما يبدو، تسريبات مقصودة من دمشق.(٣٤)

ولكن خطط الأب، الذي عُرف عنه الحرص الشديد والحذر وحساب خطواته، تعرقلت رغم كل شيء عندما توفي ابنه باسل في حادث طريق عندما كان متجهاً إلى مطار دمشق. إذ كان يقود سيارته بسرعة أعلى بكثير من السرعة المسموح بها، وعندما وصل إلى الحاجز الذي أقيم على الطريق من أجل إصلاحه،

(٣٤) المصدر السابق، ص ١٧٤-١٧٥.

انحرفت سيارته عن الطريق وانقلبت. وقد قُتل باسل على الفور بينما أصيب قريبه، رامي مخلوف، الذي كان يركب معه بجراح خطيرة. وبعد ذلك انتشرت إشاعات في دمشق بوجود جهات وقفت خلف الحادثة (وقد ذكر في هذا السياق عم باسل، رفعت، وتجار المخدرات والمهربون الذين أعلن عليهم باسل حرب إبادة)، ولكن يبدو أنه لم يكن لتلك الإشاعات أساس من الصحة.(٣٥)

لقد أصابت وفاة باسل، في الثانية والثلاثين من عمره، الكثيرين في سورية وخارجها بالصدمة، وكان الإحساس السائد في دمشق هو أن غياب باسل قبل الأوان، والذي بدأ يظهر على أنه ضمان لاستمرار الاستقرار السياسي والاقتصادي في سورية، يشكل تراجيدياً وخسارة عظيمة، ليس فقط للأب المفجوع وإنما لسورية كلها.

القفز إلى القمة

الصدمة أصابت بشار كذلك، الذي أستنفر على عجل. وإذا ما كانت لديه بعض الشكوك حول الدور الذي سيلعبه في المستقبل، فقد كان عليه الاحتفاظ بها لنفسه. ولكن، ومع مرور الأيام، كان هناك من ادعى أن بشار أراد التخلص من الحمل الذي أراد والده تحميله إياه، ولكنه قبل التحدي واستجاب له بعد ضغط كبير من جانب الأسد.(٣٦) وفي نقل التلفزيون السوري لإجراءات التشييع ومراسم الحداد على وفاة باسل، ظهر بشار واقفا إلى جانب والده، يسنده ويساعده، وحتى يقوده من يده. وبالمناسبة، تجاهل الإعلام السوري بشكل مطلق ابن آخر للعائلة، رفعت الأسد، الذي تواجد هو كذلك بين متلقي التعازي. وبعد ذلك بدأ النظام بنشر صورة بشار في مختلف أرجاء سورية، بداية كضلع ثالث في الإعلانات التي تحمل صور والده وأخيه المتوفى، وبعد ذلك إلى جانب صورة والده، وأخيراً بمفرده.(٣٧)

---

(٣٥) **الحياة**، ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤. **تشرين**، ٢٣ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤. **هآرتس**، كانون الثاني/يناير ١٩٩٤.

(٣٦) **يديعوت أحرونوت**، ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٩.

(٣٧) التلفزيون السوري، ٢٢،٢٣،٢٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤.

ويبدو أن حافظ الأسد قد حزم أمره بنقل التاج إلى ابنه بشار فوراً مع وصول الخبر المر إليه بوفاة ابنه باسل. ومع ذلك، كان واضحاً بالنسبة له أن الطريق الذي ينبغي على بشار قطعها من أجل أن يصبح وريثاً مقبولاً ومتفقاً عليه، وقبل كل شيء مناسباً، لا زالت طويلة. فبشار تنقصه المعرفة وخبرة الحياة وحتى شخصية الزعيم الكاريزمي التي تجعل منه الوريث المناسب لوالده. وربما لم تكن المشكلة مشكلة شخصية وحسب بل فقدان جوهري لتلك الميزات لدى بشار. وأكثر من ذلك، ومن أجل ضمان ترشيحه كان على الأسد أن يبعد عن الساحة مرشحين محتملين آخرين. ويذكر من بين هؤلاء، كما أشرنا سابقاً، شقيق الرئيس، وقادة الجيش وكبار رؤساء الأجهزة الأمنية، مثل رئيس الأركان حكمت الشهابي، وعدد من الزعماء السياسيين وفي مقدمتهم نائب الرئيس عبد الحليم خدام.

ومن خلال إدراكه لضرورة منع هزات لا حاجة لها في القيادة السورية قبل الأوان، فضل الأسد البدء بتطبيق خططه بشكل تدريجي، وبحذر شديد، وتفادي العلنية. وقد تفادى معالجة أمر المدعين بالأحقية بالتاج، سواء من وجهة نظرهم أو من وجهة نظر الآخرين، بشكل مباشر أو بحسم واضح، بل اتبع، كما هي عادته، التكتيك غير المباشر. فقد خدرهم بأن سمح لهم بنسج أحلامهم الخاصة بهم للوراثة، حتى وصلوا إلى سن التقاعد، وعندها فرض عليهم التقاعد وذلك من خلال الاعتماد على قانون الخدمة العسكرية أو قانون العاملين في الدولة.

في البداية ذهب الكثيرون، في سورية وخارجها، إلى التقليل من الأهمية التي يجب إعطاؤها إلى عملية دفع، أو إلقاء بشار إلى المياه العميقة في بركة السياسة السورية، وذلك لأن آماله في احتلال مكان والده كانت ضعيفة بسبب عمره الصغير ونقص خبرته، وكذلك بسبب كون سورية، قبل كل شيء، "ديمقراطية شعبية". فعلى سبيل المثال، نقل مدير مكتب نائب الرئيس عبد الحليم خدام رسالة إلى كاتب هذه السطور جاء فيها إن الأبحاث التي نشرتها في الماضي حول التقدم السريع لباسل في القيادة السورية كانت مبالغ بها، وإنني أكرر الخطأ

نفسه في ما يتعلق ببشار، ذلك أن "خدام هو الوريث".(٣٨)

أيضاً، رئيس الأركان حكمت الشهابي، واظب على تقديم نفسه أمام شخصيات أجنبية على أنه "الرجل الثاني" في سورية.(٣٩) وفي النهاية قالت لي إليزابيث بيكارد، وهي باحثة معروفة مختصة بشؤون سورية ولبنان، إن "التفكير في أن يصبح بشار في يوم من الأيام رئيساً لسورية هي فكرة غبية". إلا أننا نعرف النواقص التي يعاني منها الباحثون والأكاديميون الغربيون الذين يجدون صعوبة، على ما يبدو، في لتخلص من التقمص الوجداني التي يشعرون بها تجاه موضوع بحثهم، وفي هذه الحالة، القبول بتحويل الجمهورية السورية إلى حكم ملكي.

لقد فضل الأسد أن يمتلك ابنه الثقافة، والمعرفة والتجربة، وأن يبلور شخصيته كقائد وكزعيم، وفي النهاية أن يصنع لنفسه مكانة جماهيرية وقواعد تأييد عن طريق مسيرة عسكرية، تكون سريعة، قدر المستطاع، وليس بالتحديد عن طريق مهمة عامة في حزب البعث أو في الأجهزة الإدارية المدنية. وهكذا يمكن أن ندرك بما فيه الكفاية أن الجيش، وبشكل أدق الخدمة العسكرية والتقدم في سلم الرتب العسكرية، بالإضافة إلى إرساء قواعد تأييد في أوساط طبقة كبار الضباط، بقيت مصدرا أساسيا لشرعية السلطة وللتأييد السياسي بالنسبة لكل من يريد شق طريقه إلى القمة. ومع ذلك، كان من الواضح أن عملية إسقاط [إنزال بالمظلة] بشار بين صفوف الضباط الكبار، وتهميش الضباط الذين سبقوه بالتجربة، وبالرتبة وبالقدم، كانت تشكل صفعة لطبقة الضباط الكبار وإثباتا لنجاح حافظ الأسد في عملية ترويض جيشه على مدى سنوات، وذلك من أجل أن يطيع أوامر سيده بدون تحفظ.

ومع عودة بشار إلى سورية في كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، خضع حسب

(٣٨) مقابلة مع دبلوماسي أمريكي عمل في سورية في نفس السنوات، تل أبيب: ٢٤ كانون الثاني يناير ١٩٩٥.

(٣٩) مقابلة مع ضابط في الجيش الأمريكي عمل في سورية في نفس السنوات، واشنطن، ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٩٦.

توصية والده إلى نفس المسيرة العسكرية، وإن كانت أقصر، التي خضع لها أخوه البكر. وقد تضمنت هذه المسيرة دورة قائد كتيبة دبابات ودورة كلية القيادة والأركان، وكذلك قيادة لواء في فرقة الحرس الجمهوري، الذي قاده باسل في حينه. وأشارت التقارير الواردة من دمشق إلى انخراط متزايد لبشار في إدارة الجيش والأجهزة الأمنية الأخرى في سورية. واتضح أن بشار قد أصبح يتدخل في التعيينات والترفيعات في الجيش، وحضر بشكل دائم النشاطات العسكرية الأخرى.(٤٠)

كما خُصص اهتمام واضح لترقية بشار في سلم الرتب، إذ كان يحمل في كانون الثاني/يناير ١٩٩٤ رتبة ملازم أول، ورفع في تموز/يوليو ١٩٩٤ إلى رتبة نقيب، وفي تموز/يوليو ١٩٩٥ إلى رتبة رائد، وفي تموز/يوليو ١٩٩٧ إلى رتبة مقدم. وفسّرت مصادر سورية ذلك بأن التقدم السريع نبع من "التميّز الشامل لبشار في دورة القيادة والأركان والمشروع النهائي الممتاز الذي قدمه خلالها.(٤١) وأُعلن في كانون الثاني/يناير ١٩٩٩ عن ترقية بشار إلى درجة عقيد، ومع وفاة والده رُفع دفعة واحدة إلى رتبة فريق.(٤٢)

بموازاة ذلك لوحظ جهد الرئيس الأسد لتأسيس قاعدة تأييد لبشار داخل المؤسسة العسكرية. وكانت هذه، على ما يبدو، الخلفية لحملة التنقلات الواسعة وغير المسبوقة، التي تم تنفيذها في أوساط قيادة الجيش السوري، وخاصة في المستويات المتوسطة – في أوساط قادة الفرق. وفي هذا الإطار تمت ترقية ضباط علويين صغار من أجل تسلم تلك المهام، وغالبيتهم مغمورون، والذين من المتوقع، حسبما افترض الرئيس الأسد وابنه بشار، أن يمنحوا بشار التأييد المطلوب.

ومن بين هؤلاء الضباط، على سبيل المثال، اللواء علي حسن، الذي عين قائداً

---

(٤٠) أنظر على سبيل المثال **البعث**، ١٧ نيسان/أبريل ١٩٩٦. وكذلك إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٧٦.

(٤١) **الوسط**، ١٤ آب/أغسطس ١٩٩٧.

(٤٢) راديو دمشق، ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

للحرس الرئاسي بدلاً من عدنان مخلوف، شقيق أنيسة، زوجة حافظ الأسد، والذي شغل هذا المنصب منذ تأسيس الفرقة. وكانت الخلفية لإبعاد مخلوف هي الخصام الشخصي الذي حدث بينه وبين بشار، والذي انتهى لمصلحة بشار. لواء آخر حظي بالترقية هو اللواء علي حبيب، علوي من عشيرة عائلة الأسد (عشيرة الكلبية)، كان يعمل قائداً للواء السابع وبعد ذلك قائداً لقوات الكوماندو بدلاً من علي حيدر، الذي عارض نية الأسد تعيين ابنه خلفا له. وتجب الإشارة في النهاية كذلك إلى أن علي أصلان، نائب رئيس الأركان السوري، وهو أيضاً من عشيرة الأسد، عُيّن مدربا شخصياً لبشار. وقد عُوِّض أصلان على الغطاء الذي منحه لبشار بتعيينه رئيساً للأركان عام ١٩٩٨، وبقي في هذا المنصب حتى عام ٢٠٠٢. وعندها حل محله نائبه حسن تركماني. إلا أن علي حبيب، الذي رُفّع في هذه الأثناء إلى منصب نائب رئيس الأركان، أصبح الرجل الأقوى في الأركان السورية.(٤٣)

كما أن شقيق بشار الصغير، ماهر، حقق حياة عسكرية واعده. ماهر الذي أنهى دراسة إدارة الأعمال في جامعة دمشق، نُصِّب قائداً للخدمات في فرقة الحرس الجمهوري، ونُصِّب إلى جانبه مناف طلاس، ابن وزير الدفاع. كما أن آصف شوكت، صهر بشار، رُقّي في الدرجة والمنصب. وقد دُمج شوكت في شعبة المخابرات العسكرية، وأصبح بسرعة أحد الأشخاص الأقوياء فيها.(٤٤)

لقد جاء انتعاش وضع طبقة الضباط الصغار في الجيش وقوات الأمن على حساب الضباط الكبار بشكل ملحوظ. وقد امتنع الأسد عن الدخول في مواجهة مع هؤلاء الضباط القدامى، الذين كانوا مغروسين في أماكنهم منذ بداية السبعينيات. وفي ظل هذا الوضع فضل أن يترك الأمر للوضع الطبيعي، أي أن يفعل التقدم في العمر فعله ويخرجوا إلى التقاعد، وبكون بذلك قد أدى المهمة بدلاً عنه.

---

(٤٣) التلفزيون السوري، ٢٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. **الحياة**، ٢٣ كانون الثاني ٢٠٠٢. **اللواء**، ٤ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

(٤٤) **الوطن**، ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠، **الوطن العربي**، ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠١.

ومع ذلك يجب الافتراض أن محاولة الأسد تعيين بشار خلفا له، الذي يصغر هؤلاء بجيل كامل، لم يتم تقبُّله بشكل حسن. ولكن الأسد لم يتهيب في وقت الحاجة عن مواجهة المخلصين له منذ سنوات طويلة، كما تدل على ذلك حالة قائد القوات الخاصة في الجيش السوري اللواء علي حيدر. حيدر الذي عمل في منصبه لأكثر من عقدين، ونُظر إليه على أنه أحد أعمدة استقرار النظام، أُقيل من منصبه، وحتى أنه اُعتقل، في تموز/يوليو ١٩٩٤، بعد أن تفوّه بأقوال طعن فيها بالرئيس الأسد وبسياسته.

في صيف ١٩٩٤ كان حيدر، من مواليد ١٩٣٢، لواءاً مسناً مريضاً في أواخر حياته العسكرية. وفي بداية العام نفسه رفَّع الأسد عدداً من نظراء حيدر، وفي مقدمتهم إبراهيم صافي، الذي عُيّن قائداً للفيلق الثاني، وشفيق فياض، الذي عُيّن قائداً للفيلق الثالث، الذي كان قد أقيم للتو. وقد اختار الأسد أن يُبقي حيدراً في مكانه، وربما يكون قد لّمح له بأنه يحسن صنعاً إذا خرج إلى التقاعد. ولكن حيدر قرر ألا يُسلِّم بذلك. وفي خطوة استثنائية جمع ضباطه وهاجم على مسامعهم الرئيس الذي "انحرف عن ثورة البعث"، بسبب جهوده لدفع ابنه بشار قدما وبسبب حقيقة أنه لا يشاور ضباط الجيش في كل ما يتعلق بالمفاوضات مع إسرائيل. وهمس شاكياً في آذان سامعيه لقد "أصبحنا 'ملطشة' له". ولم يتأخر رد الأسد في الوصول. ففي اليوم ذاته أُقيل حيدر من منصبه وألقي في السجن، كما نُفذت حملة تطهير واسعة في أوساط الكوماندو والتي تم خلالها طرد الكثيرين من مقربيه من الخدمة، ومن بينهم أفراد عائلته.(٤٥)

ولكن يبدو أن قمة عملية تجديد الصفوف وإزالة الحواجز الممكنة من طريق بشار إلى القمة، تمثلت في إخراج رئيس الأركان حكمت الشهابي إلى التقاعد في الأول من تموز/يوليو عام ١٩٩٨ بعد ٢٤ عاماً من الخدمة. وذلك وفق القانون الذي يحدد السابعة والستين من العمر لخروج من هم في رتبة عماد إلى التقاعد.

---

(٤٥) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٨٤-١٨٥. وانظر أيضاً حنا بطاطو، ذكر سابقاً، الملاحظة ٢٥ للتمهيد، ص ٢٣٧- ٢٣٨.

وقد كان يُنظر إلى حكمت الشهابي، حتى ذلك الوقت، وبالتأكيد كان هو نفسه يرى ذلك أيضاً، على أنه الشخصية الثانية من حيث الأهمية في سورية، وطُرح اسمه، كما ذكر سابقاً، بشكل متكرر في قائمة المرشحين لوراثة الأسد عند حلول الوقت (وذلك على الرغم من كونه من الطائفة السنية). وفي بداية عام ١٩٩٩ أدخل تغيير في قانون الخدمة العسكرية الذي حدد السبعين سنا للتقاعد، وذلك من أجل إتاحة المجال أمام بديل الشهابي، علي أصلان، ولوزير الدفاع مصطفى طلاس، الذين وصلوا في العام نفسه سن الـ ٦٧ عاماً، للاستمرار في أداء مهامهم. وفي منتصف عام ٢٠٠٠، وبعد أن ترك علي أصلان منصبه، أصدر بشار أمرا يمدد جيل التقاعد إلى الثانية والسبعين، وذلك من أجل أن يفسح المجال أمام مصطفى طلاس لعامين آخرين من الخدمة.[٤٦]

حملة التطهير والتجديد بين صفوف كبار الضباط استمرت أيضاً في السنوات التالية. فقد أُعلن في حزيران/يونيو ١٩٩٩ أن اللواء محمد الخولي قد خرج إلى التقاعد. الخولي، هو أحد الضباط العلويين الكبار المقربين إلى الأسد، وقد رافقه على مدى سنين طويلة وفي مهام مختلفة، من بينها رئيس إدارة المخابرات الجوية - وهو المنصب الذي احتفظ به على امتداد غالبية السبعينيات والثمانينيات. وفي عام ١٩٨٧ نقل الخولي من منصبه وعُيّن نائبا لقائد سلاح الجو وذلك بسبب تورطه في قضية هنداوي.[٤٧] ولكن وعلى الرغم من التقديرات التي قالت بأن الأسد قد أراد التخلص من الخولي بسبب الإرباك الذي سببه له، فإن ما حدث كان خلاف ذلك، فقد أُعلن في عام ١٩٩٤ عن ترقيته إلى منصب قائد سلاح الجو. ولكن في حزيران/يونيو ١٩٩٩ وصل دور الخولي للذهاب إلى بيته.[٤٨].

---

(٤٦) وكالة رويترز، ٢٨ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩. **الحياة**، ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩. راديو مونت كارلو، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٤٧) محاولة المخابرات السورية التي جرت قبل عام من ذلك، لضرب طائرة العال الإسرائيلية التي كانت على وشك الإقلاع من مطار هيثرو في لندن.

(٤٨) **الحياة**، ١٤ حزيران/يونيو ١٩٩٩. وانظر أيضاً إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٨٣-١٨٤.

وفي حزيران/يونيو ١٩٩٩ أُعلن كذلك عن خروج محمد ناصيف خير بـــك، والذي عمل نائباً لمدير إدارة المخابرات العامة وكان عملياً خلال العقود الأخـــيرة رجلها القوي، إلى التقاعد.(٤٩) ويعتبر منصب مدير الإدارة منصباً رمزياً، وكـــان يشغله على الأغلب أبناء الطائفة السنية. وعند كتابة هذه السطور كان يشغل هذا المنصب هشام الإختيار، وشغله قبله علي حمود، الذي عُيّن بعـــد ذلـــك وزيـــراً للداخلية. وعمل في المنصب خلال الفترة ١٩٩٨ - ٢٠٠٠ علي الخوري، شـــيعي - إسماعيلي. وقبله في الفترة ١٩٩٤ - ١٩٩٨ بشير النجار، رغم أنه من الطائفـــة السنية (وقد اُتهم نجار بالرشوة وقدم في تشرين الأول/أكتوبر وحكم عليه بالسجن ١٢ عاماً. وفي آب/أغسطس ٢٠٠٢ انتحر في سجنه).(٥٠)

وقد تم إخراج خولي وخير بك إلى التقاعد وفق قانون الخدمة العسكرية الذي يُلزم بخروج ذوي رتبة لواء إلى التقاعد في عمر الثانية والستين. ولكن يبدو أن هذه الخطوة لا ينقصها المغزى السياسي، وخاصة على ضوء حقيقة أنه قد تم التمديـــد لعدنان بدر حسن في هذا المنصب في نهاية عام ١٩٩٩ لمدة ثلاث سنوات أخرى، رغم أنه بلغ الثانية والستين وخرج إلى التقاعد في نهاية عام ٢٠٠٢ فقط.(٥١)

وفي شباط/فبراير ٢٠٠٠ خرج إلى التقاعد رئيس شعبة المخابرات العسكرية، علي دوبا الذي وصل إلى السادسة والستين من عمره. وقد عمل دوبا في منصـــبه منذ عام ١٩٧٤ ووُصف على أنه أحد الشخصيات القوية في قيـــادة المخـــابرات السورية. وقد حل محله نائبه حسن خليل. ولكن، كما أُشير سابقاً، فـــإن آصـــف شوكت كان الرجل القوي في هذه الشعبة.(٥٢) وفي النهاية، تم، في حزيران/يونيـــو ٢٠٠٠، استبدال رؤوف الكسم، الذي عمل رئيساً لمكتب الأمن القومي منذ عام ١٩٨٧، بمحمد سعيد بخيتان. وكان الاثنان من السنة، والمكتب مدار الحديث هو

(٤٩) **الحياة**، ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٩٩. **النهار**، ١ تموز/يوليو ١٩٩٩.

(٥٠) **النهار**، ٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩. **الحياة**، ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

(٥١) قناة تلفزيون الجزيرة، ١ أيار/مايو ٢٠٠٢. راديو مونت كارلو، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٥٢) وكالة رويترز، ٦ شباط/فبراير ٢٠٠٠. **القدس العربي**، ١٤ شباط/فبرايـــر ٢٠٠٠. **فـــورين ريبورت**، ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

عبارة عن هيئة مهمتها التنسيق بين نشاطات مختلف جهات الأمن الداخلي، وكان على جانب قليل من الأهمية.[٥٣]

وبالإضافة إلى تعزيز موقع بشار في الجيش وفي قوات الأمن، حرص هو، ووالده أيضاً، على بناء وتسويق شخصية بشار كوريث مرتقب، سواء بين المواطنين السوريين، أو في العالم العربي وفي الغرب. وظهرت في البداية الحاجة إلى تقديمه أمام الأضواء، ذلك أن القليلين في سورية وخارجها عرفوه قبل استدعائه للمهمة. وبالفعل ومنذ عودته إلى سورية حظي بشار بتغطية واسعة في وسائل الإعلام السوري. ومع ذلك، وعلى خلاف باسل، الذي شارك بشكل نشط في مباريات الفروسية، على سبيل المثال، اكتفى بشار بمنح الجوائز للفائزين. كما ترك أثره على تقدم نشاط الجمعية العلمية السورية والتي شغل منصب مديرها منذ عودته إلى سورية.[٥٤] (أنظر الفصل الخامس).

وفي إطار محاولة تركيز الاهتمام على شخصيته، قُدِّم بشار كشاب مفعم بالحيوية، ودينامي وممتلئ بالنشاط، وتم التركيز بشكل خاص على جهوده لإدخال التحديث والانفتاح إلى سورية، وكذلك تطوير المعرفة لاستخدام الكومبيوتر والإنترنت. وقد ظهر هذا التوجه من خلال المقابلات التي بدأ بإعطائها للصحافة الأجنبية، والتي أكد خلالها، مرارا وتكرارا، على ضرورة إعداد سورية للقرن الحادي والعشرين. وفي مقابلة أجراها مع صحيفة **الحياة** في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧، قدم بشار نفسه كمتصفح ماهر لشبكة الإنترنت، وأردف يقول إنه من الهام جداً الدفع باتجاه دمج العالم العربي بشبكة الإنترنت وذلك حتى تجد وجهة النظر العربية مكانا لها فيها، وحتى لا تبقى الشبكة تحت السيطرة المطلقة للجانب الآخر (إسرائيل).[٥٥] وقال أقوالاً مشابهة لهذه للأسبوعية المصرية **الأسبوع العربي** جاء فيها إن "هناك ضرورة لتأمين وجود إعلام عربي منفتح يستفيد من التكنولوجيا

---

(٥٣) **الحياة**، ١٨، ٢١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٥٤) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٧٦-١٧٧.

(٥٥) **الحياة**، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧.

المتطورة من أجل نقل مواقفنا. ذلك أن إعلام كهذا، يحترم عقلية المشاهد العربي، هو القادر على التأثير على الرأي العام ودفعه لتأييد مواقفنا".(٥٦)

وقد قُدِّم بشار أمام الجمهور السوري والغربي بوصفه شخصاً نظيف الكفين، "السيد النظيف" [مستر كلين]، الذي يستمع أو يصغي إلى تطلعات الجمهور المطالب بخوض نضال بلا هوادة ضد الفساد. وليس من قبيل الصدفة أن يكون اسم بشار قد رُبط، في التقارير الصحفية الأجنبية الواردة من دمشق، بالصراع المتزايد من قبل النظام السوري في الكشف عن الفساد في الأجهزة الحكومية. بالإضافة إلى ذلك تم إبراز شعبيته، وانفتاحه وخاصة قُرب بشار إلى الجمهور الواسع، والذي أكثر من اللقاء معه بدون حاجب أو رقيب خلال الجولات التي قام بها في أرجاء الدولة، بما في ذلك في أماكن لم تطأها أقدام والده أبداً، مثل مدينة حلب. وخلال إحدى زياراته (في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩) توقف ليشرب الشاي في أحد المحلات في السوق، وأثار بذلك ضجة كُتبت حولها التقارير المفصلة في الصحافة السورية والأجنبية.

وكانت قد بدأت تظهر في الصحافة السورية، منذ بداية عام ١٩٩٧، إشارات أولية، وإن لم تكن كاملة الوضوح، حول نية حافظ الأسد بتوريث السلطة لابنه. ففي شباط/فبراير نشرت صحيفة **الثورة**، لسان حال الحكومة السورية، **مقالاً بقلم الدكتور بهجت سليمان، من مقربي بشار ومسؤول كبير في إحدى أجهزة الأمن الداخلي، أشار فيه لهذا التوجه**، ومما جاء في المقال أن "بشار أثبت خلال زمن قصير أنه فرع من الشجرة المباركة [سلالة الأسد]، وهو نفسه استجاب لطلب أبناء وطنه لأداء مهمة باسل والحفاظ على إرث القائد الكبير في الطريق إلى الألفية الثالثة..".(٥٧) ونُظمت، في الأعمدة الثقافية، القصائد لتمجيد القائد الخالد ولنظامه، وذكر اسم بشار بوتيرة متزايدة. وبدأت تظهر في الشوارع

---

(٥٦) **الأسبوع**، ٢٣ أيار/مايو ٢٠٠٠. نشرت مقتطفات من المقابلة في ص حيفة **البعث**، ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(٥٧) **الثورة**، ١٩ كانون الثاني/يناير ١٩٩٧.

الإعلانات واللافتات، التي تحمل صورته، بالإضافة إلى الشعارات التي أُعدت من أجل إيصال الفكرة إلى الجمهور بأن بشار هو الوريث المرتقب، مثل: "باسل كان الرمز.. بشار هو الأمل".(٥٨) كما أن مفتي سورية، مثل بقية الشيوخ، تم توجيههم لإبراز بشار في خطبهم، وحتى أنه تمنى على بشار في إحداها أن "يقبل على نفسه، وينجح في، تحمل العبء الذي يحمله والده".(٥٩)

وبدأ بشار نفسه في نهايات التسعينيات بمنح مقابلات واسعة لوسائل الإعلام العربية والغربية، حيث أوضح فيها نظريته ورؤيته لقضية مستقبله الشخصي، بدون أن يزيل الضبابية المقصودة التي زرعها هو ووالده حول إمكانية أن يرث كرسي الحكم. وفي مقابلة منحها لأسبوعية **الكفاح العربي** في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩، أوضح بشار "أنا لا ألهث خلف المناصب، لكنه في حالة تقوم القيادة أو الحزب بتعييني إلى منصب فإنني مستعد لقبوله".(٦٠) وفي مقابلة أخرى منحها في شباط/فبراير ٢٠٠٠ استمر بشار في التوضيح:"أنا واثق من ضرورة تشجيع التغييرات الفكرية، وأعطي هذه القضية أهمية بالغة أكثر من أداء مهمة رسمية من هذا النوع أو ذاك. لقد عرفت سورية قيادة سياسية رائعة [في ظل حافظ الأسد] ويجب توظيف جهد كبير من أجل ضمان تقدم مشابه لهذا الذي حققناه في المجال السياسي في المجالين الاقتصادي والاجتماعي أيضاً. لقد تم إنجاز بعض الخطوات الأولية وأنا آمل أن تؤتي ثمارها بالسرعة الممكنة. إن قدرتنا على الدخول إلى القرن الحادي والعشرين مرهونة بمدى استعدادنا في تلك المجالات".(٦١)

بشار على الصعيدين العربي والدولي

في نهايات عقد التسعينيات، وعندما بدا أن الجميع قد اعتادوا على وجود بشار في مقدمة المسرح، بدأ والده بمنحه صلاحيات سلطوية وكَشْفِه أكثر فأكثر

---

(٥٨) التلفزيون السوري، ٢١، ٢٣، كانون الثاني/يناير ١٩٩٩.

(٥٩) صاندي تيليغراف، ١٤ آذار/مارس ١٩٩٩. وانظر أيضاً راديو دمشق، ١٤ تموز/يوليو ١٩٩٩.

(٦٠) **الكفاح العربي**، ٣ شباط/فبراير ١٩٩٩.

(٦١) وكالة AP، ٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠.

لوسائل الإعلام، وإن استمر على إحجامه عن الإعلان عنه كوريث. وقـد ركـز الأسد وابنه جهودهما على مجال العلاقات الخارجية، وذلك من خلال الرغبة في إكسابه الخبرة الضرورية في هذا المجال الحيوي، الذي خصه الأسد الأب، كما هو معروف، بأهمية عظيمة، وكذلك من أجل منح شرعية لترشيحه عن طريق تحويله إلى أعظم رجل في العالم. ويمكن الافتراض أيضاً أن الأسد فضّل توجيه ابنه إلى مجال العلاقات الخارجية حتى لا يكشفه أمام القضايا الداخلية السورية المرهِقة، قبل الأوان، حتى لا ترتبط بشخصيته، وهو أمر غير مرغوب.

مثال بارز على ولوج بشار في المواضيع الخارجية يمكن أن نجده في سلسلة الزيارات التي قام بها إلى عدد من الدول العربية في العام الذي سبق وفاة والده. فقد زار الأردن والبحرين، والكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة. وأخيراً وصل، في تموز/يوليو ١٩٩٩، في زيارة إلى المملكة العربية السعودية، والتي أدى خلالها **العمرة**، بالإضافة إلى ذلك أجرى بشار في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩ زيارته الأولى للغرب، وبالتحديد إلى فرنسا، حيث التقى هناك الرئيس جاك شيراك، والذي سيصبح فيما بعد أحد كبار المؤيدين المتحمسين والراعين له بعد تسلمه الرئاسة.(٦٢)

ومن المناسب أن نذكر هنا توجّه بشار إلى وسائل الإعلام الغربية وذلك في محاولة لتجنيدها لتأييده ولتأييد طريقه. ويمكن أن نجد مثالاً على ذلك في المقابلة التي منحها لصحيفة **واشنطن بوست**، وذلك قبل شهرين من وفاة والده. وأكد بشار في المقابلة التزامه بدفع إصلاحات بعيدة المدى في سورية، وكذلك ارتباطه بالثقافة الغربية. وأوضح أن "التغيير في سورية قد بدأ بطيئا بالفعل، إلا أن هذه هي طبيعة الأمور هنا. إن الاستقرار في حياة العائلة، وفي حياة المجتمع والثقافة، هي أهم من كل شيء. ولا يمكن لأي تغيير، مهما كان منطقياً وملحاً وفق المقاييس الغربية، أن يكون مقبولا بدون نقاش مديد ومستفيض للمخاطر والآمال الموجودة فيه. إلاّ أن ذلك لا يعني أن سورية ستغلق الأبواب على نفسها... فبعد زمن غير طويل

---

(٦٢) وكالة الأنباء الفرنسية، ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩.

سيدخل الإنترنت إلى كل بيت وسينهار الحاجز القائم اليوم أمام تدفق المعلومات... وكنت أتمنى لو أن الجميع يستطيعون رؤية كل شيء، إذ أنه كلما كنتَ مكشوفا أمام معلومات أكثر فإنك تتطور.. لا يوجد حدود للمعرفة، ومع ذلك، يوجد للناس هنا شكوك حول هذا الموضوع.. الجيل الجديد يلهث خلف الأفكار الجديدة وخلف الأمل..."[٦٣] ولم يُخفِ كاتب الصحيفة تأثّره الشديد من أقوال بشار فكتب يقول: "لقد اعترف بشار بأنه طموح، ومع ذلك أضاف أنه يعترف بأن سورية ليست دولة ذات نظام ملكي تنتقل السلطة فيها بالوراثة، ومع ذلك، أشار بشار أمامنا إلى أنه سيكون عليه أن يثبت نفسه على الساحة السياسية المعقدة وذات التقاليد المتجذّرة". وأضاف بشار قائلا للمراسل إنك "قد تعتقد أن هذا أمر غريب. ولكن لم نبحث في يوم من الأيام هذا الموضوع داخل العائلة [موضوع وراثة السلطة] فشَغل منصب عام هو شيء والعمل لأخذ السلطة هو شيء آخر تماما" وفي النهاية، فإن الخلاصة التي توصل إليها المراسل هو أن "بشار الأسد إنسان هادئ ودمث الأخلاق، يحب أغاني فيث هيل وبيل كوليتر، ويُحمِّل تلك الأغاني من الإنترنت... وفي معرض دمشق الدولي الذي افتتحه مؤخراً، قضى ساعات عديدة في التجول بين الأجنحة وهو يتحدث في ميزات ونواقص الهواتف المحمولة والخدمات السريعة".[٦٤]

وقد أبرزت الصحافة العربية، بشكل خاص، شبكة العلاقات التي حاكها بشار مع أبناء جيله، أولياء العهد في دول الخليج. كذلك تم إبراز شبكة العلاقات الحميمة مع ملك الأردن، الشاب، عبد الله الذي شغل كرسي المملكة في آذار/مارس ١٩٩٩. فبعد عودته من زيارة له عند بشار وأبيه في نيسان/أبريل ١٩٩٩ أبدى عبد الله ملاحظة قال فيها إن "بشار مثلي، ابن عصر الإنترنت"،[٦٥] وهذا تعبير عن اللغة المشتركة التي وجدها الاثنان بينهما، وكذلك تعبير عن الحقيقة

(٦٣) **واشنطن بوست**، ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

(٦٤) المصدر السابق.

(٦٥) **يديعوت أحرونوت**، ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٩.

بأن بشار إنسان أكثر انفتاحا من والده على التطورات التكنولوجية والعلمية في العالم.

وفي عام ١٩٩٨ أخذ بشار على عاتقه معالجة "الملف اللبناني". ويمكن الافتراض أن الرئيس الأسد حرص على وضع هذا الملف بين يدي ابنه بسبب الأهمية التي كان يوليها له، بالإضافة إلى حقيقة أن لبنان لم يعد يعتبر "حبة بطاطا ساخنة"، بعد أن نجح السوريون في فرض إرادتهم كاملة عليه. والميزة الهامة الأخرى في التعامل مع الموضوع اللبناني تكمن في حقيقة أنه مرتبط بمواجهة عدد من مراكز القوى في سورية، مثل نائب الرئيس خدام ورئيس الأركان الشهابي، اللذين وُضع الملف بين أيديهما في السابق، واللذين لم يكفا عن التدخل في لبنان.

ويمكن الافتراض أن الانشغال في الملف اللبناني ساعد بشار في الوقوف عن كثب على حقيقة وجوهر الموضوع، وخاصة تعقيدات الوضع، في جارة سورية. ومع ذلك من الصعب القول إن شكل معالجة هذا الموضوع قد أبقى انطباعاً قوياً في لبنان وخارجها، وهو بالذات ما أثار شكوكاً حول قدرة بشار في مواجهة الواقع المعقد السائد في لبنان، والقضايا الأكثر تعقيدا، منذ اللحظة التي تنتقل إلى يديه أعباء السلطة. ومع ذلك فإن نجاح بشار، بمساعدة والده، في إخراج نائب الرئيس ورئيس الأركان من الساحة اللبنانية، ساعد في تقويته على الساحة الداخلية السورية.

غسق الآلهة

في العاشر من شباط/فبراير ١٩٩٩ جرى في سورية استفتاء شعبي للموافقة على ترشيح حافظ الأسد لفترة ولاية خامسة. وحسب التقارير، صوت بـ "نعم" ٨,٩٦١,٠١١ مصوت (أي أن نسبة التأييد بلغت ٩٩,٩٨٧%)، وصوّت ٢١٩ مصوت فقط بـ "لا". كما أُعتبر ٩١٧ صوتاً غير صالحة.[٦٦] وهي النسبة نفسها التي حصل عليها في استفتاءات سابقة، ولكن كان من الواضح لكل ذي عقل سليم

---

(٦٦) راديو دمشق، ١٢ شباط/فبراير ١٩٩٩.

أن العلاقة بينها [الاستفتاءات] وبين الواقع علاقة صدفة. فعملياً لم تجهد غالبية مواطني الدولة نفسها في المشاركة في "احتفال الديمقراطية" الذي نظمته لهم السلطة.

هذا وقد أدى الأسد يمين القسم كما هو مقرر أمام مجلس الشعب بعد شهر من إجراء الاستفتاء، . ولكن قضية "الخطاب الذي لم يلقه"، والتقارير حول التدهور الواضح في وضعه الصحي أشارت إلى أن قضية نقل السلطة أصبح قضية ملحة أكثر من أي وقت مضى. وكان أحد تعابير قوة موقع بشار في القيادة هو استعداده لرفع أكمامه للبدء بحرب لا هوادة فيها ضد عمه رفعت، الذي عاد إلى سورية في صيف ١٩٩٢ في أعقاب وفاة ناعسة، والدة حافظ ورفعت.

وبعد عودته إلى سورية حرص رفعت على المحافظة على نغمة منخفضة، ولكن وعلى الرغم من ذلك كان من الواضح أنه لم يتنازل عن تطلعاته السياسية، وعمل خلف الستارة، وخاصة خارج سورية للحفاظ على موقعه وتقويته كوريث محتمل. وتركز التوجه الرئيسي لنشاطاته في وسائل الإعلام التي يمتلكها، وفي مقدمتها قناة الأخبار الفضائيةANN(Arab News Network)، بإدارة ابنه سومر، الذي بدأ يبث من لندن في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧، وذلك للالتفاف على الرقابة الحكومية. كذلك جاء في التقارير أن رفعت يعمل على توطيد موقعه وسط الطائفة العلوية، ومن أجل ذلك اختار لنفسه نمط حياة متدين، فأطلق لحيته وأكثر من الصلاة.[٦٧]

وقد أثارت تصرفات رفعت غضب أخيه، وصدر في الثامن من شباط/فبراير ١٩٩٨ في دمشق أمر رئاسي يجرده من صفة نائب الرئيس لشؤون الأمن القومي، وهو لقب فارغ من أي مضمون تولاه منذ أواخر ١٩٨٤. ويبدو أن الرئيس أراد بذلك أن يوضح بشكل جلي أنه يستبعد ترشيح رفعت لوراثته. كما أن الأسد حدد تصرفات أخيه جميل، الذي عمل منذ نهاية السبعينيات كـ "مدير سياسي"

---

(٦٧) **هآرتس**، ٤ شباط/فبراير ١٩٩٧. **النهار**، ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٩٩.

لإقليم العلويين.[٦٨] وقد حدثت القطيعة بين جميل وأخيه على خلفية صراع القوى بين الأسد ورفعت (١٩٨٣ - ١٩٨٤)، ويبدو أن مردّه إلى إحساس الرئيس بأن جميل لم يسارع إلى الوقوف إلى جانبه.

وعلى الرغم من كل الضربات التي تلقاها من أخيه على امتداد السنين، فإن رفعت لم ييأس، واستمر في تلميع صورته العامة بواسطة الإمبراطورية الإعلامية التي يمتلكها، وكذلك بواسطة علاقاته السياسية مع شخصيات بارزة في العالم العربي، وهي العلاقات التي كانت كالشوكة في حلق النظام السوري. وقد أكثر رفعت من زياراته للسعودية ولقاء أصدقائه القدامى مثل ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز (اثنتين من زوجاهما، وكل منهما متزوج بأكثر من واحدة، أخوات).

وفي تموز/يوليو ١٩٩٩ شارك رفعت في تشييع الحسن ملك المغرب، والذي هو أيضاً من مقربيه. وقد امتنع حافظ الأسد من المشاركة في التشييع بسبب مشاركة رئيس حكومة إسرائيل في ذلك الوقت ايهود باراك. وخلال مراسم التشييع التقى رفعت بياسر عرفات، وفي أعقاب هذا اللقاء وُجهت الدعوة لابنه (سومر) لزيارة السلطة الفلسطينية، وقد أثارت هذه الخطوة الغضب في القيادة السورية، التي كانت علاقاهما مع السلطة الفلسطينية في الحضيض.(٦٩)

ويبدو أن الأسد وابنه انزعجا من تصرف عرفات هذا ورأيا فيه تحدٍ لبشار. وبما ينسجم مع ذلك قررا العمل ضده بقوة، بل ووضعا هذه المهمة بيد بشار من أجل أن يثبت أنه مؤهل لمواجهة عرفات بدون مساعدة والده. وبالفعل أُعلن في نهاية تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩ عن موجة اعتقالات في أوساط مؤيدي عرفات على الشاطئ العلوي، كما اقتحمت عناصر من الجيش والأمن السوري مجمعا

---

(٦٨) سانا، ٨ شباط/فبراير ١٩٩٨. **نيويورك تايمز**، ١٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩.

(٦٩) Eyal Zisser, "Syria", in Bruce Maddy-Wietzman (ed), MECS, vol. XXIII (1999), PP.555-556.

سكنياً وميناء غير شرعي أقامه عرفات على أراضي دولة سيطر عليها عرفات مع مرور السنين. وقد قتل خلال الاشتباكات عدد ممن كان لهم علاقة من الطرفين".(٧٠)

خطوة أخرى باتجاه زيادة تدخل بشار في المواضيع الداخلية، والتي كانت خطوة لا خيار فيها بسبب إفلاس السياسة الاجتماعية الاقتصادية للنظام السوري، تمثلت بإقالة رئيس الحكومة محمود الزعبي في آذار/مارس ٢٠٠٠، والذي عمل في المنصب منذ ١٩٨٧، وحل محل الزعبي مصطفى ميرو. وميرو هو سني من مواليد ١٩٤١، من قرية التل الواقعة إلى الشمال من دمشق. وضمت الحكومة التي أقامها ميرو ٣٥ وزيراً منهم ٢٢ وزيراً جديداً. وبرز من بينهم وزير الإعلام عدنان عمران، وكذلك محمد ناجي العطري نائب رئيس الحكومة لشؤون الخدمات، وخالد رعد نائب رئيس الحكومة للشؤون الاقتصادية، وعصام الزعيم وزير الدولة لشؤون التخطيط، فيما حافظ على مناصبهم كل من: محمد العمادي وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية، ومحمد خالد المهايني وزير المالية، وكذلك مصطفى طلاس وزير الدفاع، ومحمد حربه وزير الداخلية، وفاروق الشرع وزير الخارجية (أنظر الفصل الثالث).(٧١)

وقد حددت المهمة الأساسية للحكومة الجديدة، من قبل الناطقين الرسميين على أنها "بذل الجهود لتطوير الوضع الاقتصادي في الدولة، وقيادة عملية التحديث والإصلاح الاقتصادي".(٧٢) وبالفعل لوحظ في أعقاب إقامة الحكومة تسارع في أدائها، والذي وقف خلفه بدون شك بشار، وتمت بسرعة قياسية، بالمقاييس السورية، المصادقة على ميزانية الدولة للعام الجاري وللعام القادم، وكذلك سلسلة من المشاريع والقوانين الاقتصادية، مثل الخطة متعددة السنوات لمكافحة البطالة،

---

(٧٠) وكالة الأنباء الفرنسية، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩، **الشعب العربي**، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩.

(٧١) سانا، ١١ آذار/مارس ٢٠٠٠. وانظر أيضاً **الحياة**، ٢١ آذار/مارس ٢٠٠٠.

(٧٢) راديو دمشق، ١١ آذار/مارس ٢٠٠٠.

وكذلك مشروع حوسبة المؤسسة التعليمية، وقانون الاستثمار الجديد وغير ذلك. هذا التوجه الذي تمت قيادته من قبل مجموعة الــوزراء الجـــدد في الحكومـــة وفي مقدمتهم وزير التخطيط، شهد تسارعاً إضافياً مع تعيين بشار رئيساً (أنظر الفصل الخامس).

ومع ذلك، دلت طريقة إقامة الحكومة، وطريقة إدارتها، على وجــود جـــدل داخلي في النظام بين الأوساط المحافظة، التي خشيت من تغييرات دراماتيكية ومـــن فقدان قوتها، وبين بشار، الذي أراد إدخال الإصلاحات والتغييرات. وعليه فقـــد شكلت تركيبة الحكومة حلاً وسطاً بين معسكر الإصلاحات وبين معسكر الوضع القائم. فإلى جانب رئيس الحكومة، على سبيل المثال، والذي لا توجد لديـــه أيـــة خلفية اقتصادية (وهو يحمل لقب دكتوراه في الأدب العربي من جامعة يريفـــان في أرمينيا)، جلس كبار الوزراء الاقتصاديين في الحكومة السابقة. وكان في هذا دليلاً على محدودية قوة بشار وعلى حساسية ميزان القوى، غير الظاهر للعيان، بينه وبين مراكز القوى في الدولة. وهناك شك إذا ما كان بشار نفسه قد تعلم العـــبرة مـــن هذه المحاولة، وهي أنه وبعد أن سيطر على السلطة في الدولة حاول دون أن ينجح في إدخال "الربيع إلى دمشق" (أنظر الفصل الرابع).

جهد آخر بذل، وفُهم على أنه جزء من ترسيخ مكانة بشار، وخاصة لـــردع معارضيه المحتملين لموقعه كوريث، وتمثل هذا الجهد في الحملة الجديدة في النضـــال ضد الفساد، والتي كانت سورية قد أعلنت عنها في بداية عام ٢٠٠٠، حيث تمت في إطار هذه الحملة إقالة مئات الموظفين في أجهزة الدولة من مناصبهم، وقُـــدمت ضد عدد منهم لوائح اتهام أو أُصدرت بحقهم أوامر بحجز ممتلكاتهم. وتمثلت ذروة هذا النضال بإدانة رئيس الحكومة السابق محمود الزعبي، إذ أقيل محمود الزعبي مـــن منصبه في بداية آذار/مارس ٢٠٠٠، وأُعلن في بداية نيسان/أبريل عن تقديم لائحة اتهام ضده على "نشاطات تتعارض مع قيم الحزب وتقاليده"، وكذلك صدر أمـــر بالحجز الاحتياطي على أملاكه وأملاك عائلته. وأُعلن بموازاة ذلك عن إقالة الزعبي من القيادة القطرية لحزب البعث، وكذلك تعليق عضويته في الحـــزب. وأُعلـــن في

الثاني والعشرين من أيار/مايو أن الزعبي قد انتحر بإطلاق النار على نفسه عندما وصل عناصر الأمن لاعتقاله. وأُعلن في دمشق أن أحد التهم الرئيسية الموجهة ضده طالت تورطه في صفقة طائرات الايرباص التي وقعت عليها سورية مع فرنسا أواسط التسعينيات (أنظر الفصل الخامس).[٧٣]

وأثارت حقيقة تركيز النضال ضد الفساد على الزعبي، وهو شخصية ضعيفة من الناحية السياسية، في الوقت التي تجاهلت مسؤولين كبار آخرين في القيادة السورية، أثارت شكوكا لدى الجمهور في مدى جديتها. وقد اقتبست صحيفة **القدس العربي** بعض الأقوال التي ترددت في دمشق لجهة إحجام النظام عن الأقدام على اتخاذ إجراءات ضد مسؤولين كبار وذلك لخشيته على استقراره.[٧٤] وفي حزيران/يونيو ٢٠٠٠ أُفيد بأن الحملة ضد الفساد وصلت إلى باب مترل رئيس الأركان السابق حكمت الشهابي، وأن الشهابي نفسه، الذي خضع لعملية بروستات في بيروت، غادر من هناك إلى لوس أنجلوس، شريطة ألا يعود.[٧٥] ولكن يبدو أن علاقات الشهابي مع القيادة وماضيه العسكري قد عملت لصالحه وعاد إلى دمشق في تموز/يوليو ٢٠٠٠، بعد وفاة حافظ الأسد. وحتى أنه بعد ذلك قابل بشار، الذي كان قد تسلم السلطة، وأعرب عن تأييده له.[٧٦] وكما أوضح وزير الدفاع مصطفى طلاس في مقابلة صحيفة: "إن حملة الفساد ليست موجهة ضد قادة الجيش العاملين بوفاء لمصلحة الوطن، وبديهي أن الشهابي ليس متهما بشيء".[٧٧]

وفي نيسان/أبريل ٢٠٠٠ أفادت تقارير من دمشق أن السلطات تنوي عقد المؤتمر القطري لحزب البعث في شهر حزيران/يونيو. وكان المؤتمر الأخير للحزب

---

(٧٣) **البعث**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً **الحياة**، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(٧٤) **القدس العربي**، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(٧٥) **الحياة**، ٦،٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٧٦) وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٤ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(٧٧) **الوطن**، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

قد عقد في كانون الثاني/يناير ١٩٨٥، في ظل صراع قوى بين الرئيس الأسد وبين أخيه رفعت. وحسب دستور الحزب كان من المفروض أن ينعقد المؤتمر مرة كل أربع سنوات من أجل انتخاب مؤسسات قيادة الحزب والمصادقة على نهجها. لكن حافظ الأسد فضل الامتناع عن عقده منذ عام ١٩٨٥، وذلك حتى يحول، على ما يبدو، دون إحداث هزة في القيادة السورية وربما انشغال نشطاء الحزب،أيضا بالقضايا الشخصية أو السياسية. ودل قرار الأسد بعقد المؤتمر في حزيران/يونيو ٢٠٠٠ على نيته استخدامه من أجل ترسيخ موقع ابنه بشار كوريث له. ولكن الرئيس الأسد توفي، كما هو معروف، قبل أسبوع من ذلك.

الفصل الثاني

الاستيلاء على السلطة

"ليس من المنطقي أنه وبسبب حقيقة كون بشار ابن حافظ الأسد أن يُسحب منه حقه في العمل كرئيس للدولة. فالقانون السوري لا يحظر على ابن الرئيس أن يشغل منصب الرئيس الذي شغله والده".

(وزير الإعلام عدنان عمران للصحفيين الأجانب، في أعقاب المصادقة على ترشيح بشار الأسد رئيساً لسورية، الأهرام، ٢٣حزيران/يونيو ٢٠٠٠).

في يوم السبت، العاشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، في تمام الساعة السادسة مساء، أوقف التلفزيون السوري إرساله، وظهرت على الشاشة شخصية مروان شيخو، وهو رجل دين معروف، بتقاسيم وجهه المليئة بالحزن، والذي اختار في السنوات السابقة العيش في كنف "الرئيس المؤمن"، وحتى أنه حظي بسبب ذلك بمقعد في مجلس الشعب السوري. وأعلن بصوت تخنقه الدموع البيان التالي، والذي بدأ بمقطع من القرآن (سورة الأحزاب، الآية ٢٣): ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً﴾

الأخوة المواطنون، الأخوة العرب في كل مكان:

القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث، والقيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية، ومجلس الشعب، والحكومة، والقيادة العامة للجيش والقوات المسلحة، والمنظمات الشعبية، والاتحادات المهنية، وأبناء الفقيد العظيم، بشار وماهر ومجد وبشرى، وعائلة الأسد وعائلة زوجته تنعي للأمة العربية وللشعب السوري وفاة الأمين العام لحزب البعث، رئيس الجمهورية القائد حافظ الأسد.

ففي صبيحة العاشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠ لفظ أنفاسه القائد الذي قل نظيره، القائد ذو الحكمة النادرة. اليوم رحل القائد الذي وقف مدافعا عن حقوق الأمة والوطن. توفي القائد الذي تميز بقيمه، وبمثله، وبسياسته وبنهجه، توفي القائد الذي ناضل أكثر من نصف قرن من أجل مجد العرب وحريتهم، ومن أجل الحفاظ على شرفهم واستعادة حقوقهم. توفي القائد الذي واجه العواصف الهوجاء من حوله والذي استمر في الصمود دون أن تضعف شجاعته ودون أن تلين عزيمته. القائد الذي ظلت مواقفه صلبة لا تتزعزع.

لقد كان مقداماً في اتخاذ القرارات، والأقوى في تفادي أعداء الأمة وخصومها، والعطوف في حب الإنسان. اليوم هوى الكوكب الذي أضاء سماء سورية والعرب لأكثر من ثلاثة عقود والذي منحهم من عقله وجسده وقلبه. القائد الذي حمل العبء بصبر ورفع علم الأمة عالياً. وحارب وجاهد وناضل وحمل العبء بأناة وصبر من أجل أن يكون وطنه آمنا ومزدهرا وقوياً.. وكان أسداً في مواجهة الملمات الصعبة والعاصفة، وكان جندياً ومقاتلاً مؤمناً بأن لا قيمة للحياة بدون وطن عزيز حر وموحد. وكان الرئيس العارف لمسؤوليته في بناء الوطن، وتلبية احتياجاته، وفي النضال لتحرير أراضيه المغتصبة. وكان الأب، الأب المحبوب من مواطنيه، الذين حزن لحزنهم وفرح لفرحهم، لقد فقدنا اليوم، أخي، الأخ، الصديق، الحبيب والأب والقائد المعلم...".[١]

الحقيقة انه كان من الممكن التخلي عن هذه الورقة بإشارة يد واحدة، ولكن يبدو أنها تعكس بشكل دقيق أحاسيس الكثير في سورية وخارجها، ذلك أنه، بوفاة الأسد، وصلت إلى نهايتها فترة غاية في الأهمية، فترة عصيبة، في تاريخ سورية. وعلاوة على ذلك، وبما أن الكثيرين رأوا في الأسد، وهم محقون في ذلك إلى درجة كبيرة، حجر الزاوية في النظام الذي أسسه ووقف على رأسه، لم يكن مفاجئا أن يثير غياب الأسد المخاوف حول سلامة واستقرار النظام، وبداهة، على استقرار الدولة كلها، التي استطاع المحافظة عليها خلال حكمه.

---

(١) التلفزيون السوري، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

وفي ما يبدو انه تخوف من آثار الإعلان عن وفاة الأسد، امتنع التلفزيون السوري عن بث مقاطع من القرآن، وهي العادة المعمول بها في الدول العربية في مثل هذه الحالات. ونُقلت في بث مباشر جلسة مجلس الشعب التي عقدت بشكل متسرع من أجل تعديل البند ٨٣ في الدستور. وهو البند الذي حدد العمر الأدنى للرئيس بأربعين عاماً، وشكل أحد العوائق في طريق بشار إلى كرسي الرئاسة. وقد حدد النص الجديد الذي أقره مجلس الشعب أنه يجب على الرئيس أن يكون قد أتم الرابعة والثلاثين على الأقل، أي من عمر بشار.(٢)

وبعد ذلك بيوم واحد، في الحادي عشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، أصدر القائم بأعمال رئيس الجمهورية بشكل مؤقت، نائب الرئيس الأول عبد الحليم خدام، مرسومين، عيّن في أولهما بشار قائداً للجيش وللقوات المسلحة (المرسوم رقم ٩)، ورفّع في ثانيهما بشار إلى درجة فريق، وهي أعلى درجة في الجيش، والتي كان يحملها والده (المرسوم رقم١٠). وفي المساء ذاته اجتمعت قيادة الجيش، بقيادة وزير الدفاع مصطفى طلاس ورئيس الأركان علي أصلان، وأعربت عن ولائها لبشار.(٣)

لقد دلت الطريقة التي سارعت قيادة النظام بالرد بها، دلت على أنه كان هناك من توقع وفاة الأسد، وإن لم يكن باليوم أو بالساعة بدقة، وأنه كان هناك إجماع على الشكل الذي يجب وفقه ملء الفراغ الذي أبقاه المتوفى خلفه، حتى وإن ذهب إلى العالم الآخر قبل الأوان. وهكذا، ومع وفاة حافظ الأسد في ساعات الصباح الباكر من يوم السبت، خلال مكالمة هاتفية مع الرئيس اللبناني إميل لحود،(٤) راجت الشائعات الأولى حول وفاته في ساعات ما بعد الظهر الأولى،(٥) وبُث البيان الرسمي (في وسائل الإعلام) في ساعات المساء الأولى، وذلك على ما يبدو،

(٢) راديو دمشق، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **تشرين**، ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. للإطلاع على النص الأصلي للدستور السوري أنظر **الثورة**، ١ شباط/فبراير ١٩٧٣.

(٣) **تشرين**، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٤) وكالة الأنباء اللبنانية، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٥) مقابلة مع دبلوماسي غربي يعمل في دمشق، واشنطن، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

بعد أن استعدت قيادة النظام لنقل منظم وسريع للسلطة إلى يد بشار.

وبعد أسبوع من ذلك استغلت السلطات عقد اجتماع مؤتمر حزب البعث، وخلال مداولاتها التي تفتقد إلى المنطق، انتخب بشار أمينا عاماً للحزب(*)، وعضواً في مؤسساته الكبيرة – القيادة القطرية واللجنة المركزية – وقد عدد مساعد الأمين العام للقيادة القطرية، سليمان قداح، الأسباب التي دعت لانتخاب بشار زعيما للحزب، فقال إن "لبشار عدداً من الصفات الشخصية التي اتصف بها الزعيم الراحل ومن بينها الحكمة والشجاعة ومواجهة الشدائد والالتزام المطلق بمصالح الشعب".(٦) أما تركي صقر، رئيس تحرير صحيفة **البعث** الناطقة بلسان الحزب فقد شد على يديه قائلا إن "بشار قد ورث عن والده الحكمة والشجاعة والحصافة السياسية للزعيم حافظ الأسد، وهو الشخص الأكثر مناسبة ليكون قائد دفة سفينة الوطن، في الوقت الذي تواجه هذه السفينة الأخطار والتحديات وتبحر في مياه هائجة".(٧)

وبعد ذلك انتخبت القيادة القومية بشار مرشح الحزب للرئاسة. ذلك أن القانون السوري ينص على أن القيادة القطرية تنتخب مرشحا للرئاسة، والذي يجب أن يحظى على موافقة مجلس الشعب، وبعد ذلك أيضاً، مصادقة الجمهور. وفي شرحهم لأسباب اختياره قال أعضاء القيادة إن "الرفيق الدكتور يجسد بشخصيته وأعماله الربط بين الأجيال – الجيل الذي قاد التحول والتغيير العظيم في تاريخ سورية [ثورة البعث]، والذي جمع الخبرة خلال سنوات النضال الذي خاضه، والجيل الشاب الذي ترعرع تحت جناحي الحركة التصحيحية [كناية عن صعود حافظ الأسد إلى السلطة]، والذي يعمل اليوم بكل قوته لتطوير ودفع التحديث في الدولة. إن الربط بين هذين الجيلين، والذي وجد تعبيراً له عبر ترشيح بشار للرئاسة، هو ضرورة لضمان الاستمرارية والتحديث، وخاصة لضمان تقدم الدولة.

(*) هذا غير صحيح (الناشر).

(٦) التلفزيون السوري، ١٨، ١٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٧) **البعث**، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

كما أن تقديم ترشيح بشار يستجيب لرغبة الجماهير، وهو ما يشــكل ضــرورة لمواجهة التحديات التي تواجه قطرنا، والتي تتلخص بشعار "التجديد على قاعــدة الاستمرار"، التطور من خلال المحافظة على الاستقرار، وفي النهاية، التعامل العملي والحاسم في دفع شؤون الدولة قدما على أساس الالتزام بالمبادئ والقيم، ومن خلال تسخير كل موارد المجتمع والمحافظة على الوحدة الوطنية قوية".[٨]

وفي السادس والعشرين من حزيران/يونيو ٢٠٠٠ عقد مجلس الشعب اجتماعا له صادق فيه على ترشيح بشار للرئاسة. وفي أعقاب هذه المصادقة عُرض الترشيح للمصادقة عليه في استفتاء شعبي، والذي ترافق مع مسيرات تأييد في كافة أرجــاء سورية، والتي نظمت، في جزء منها على الأقل، من قبل السلطات، والتي بــدأت عملياً منذ اليوم الذي توفي فيه الأسد.[٩] أما الاستفتاء الشعبي نفسه فقد جــرى في العاشر من تموز/يوليو ٢٠٠٠. ووفــق المعطيــات الرسميــة فقــد شــارك فيــه ٨,٩٣١,٦٢٣ مصوتاً، من أصل ٩,٤٤٢,٠٥٤ من أصحاب حــق التصــويت (الذين يشكلون نسبة مشاركة بلغــت ٩٤,٥٩%). وقــد فــاز بشــار بتأييــد ٨,٧١٨,٦٨٩ من أصوات المقترعين، الذين يشكلون ٩٧,٢٩%. وقد صوت ضد ترشيحه ٢٢,٤٣٩ شخصاً، الذين هم ٠,٢٥١% من مجموع المصوتين. كــذلك اعتبرت ٢١٩,٣١٩ بطاقة تصويت لاغية.[١٠] وسارعت مصادر سورية إلى القول أن حقيقة حصول بشار على ٩٧,٢٩% وليس ٩٩,٩٩% التي كان يحصل عليهــا والده، هي دليل على نزاهة الاستفتاء. ولكن مراقين أجانب شككوا، كمــا هــو الحال في الماضي، بموثوقية النتائج.[١١]

وأدى بشار اليمين أمام مجلس الشعب في السابع عشر من تموز/يوليو ٢٠٠٠، وشرح في خطابه أسس سياسته، والتي اُختصرت من قِبَله بشعار "التغيير في ظــل

---

(٨) راديو دمشق، ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٩) **تشرين**، ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً قناة تلفزيون الجزيرة ١٠، ١١ حزيران/يونيــو ٢٠٠٠.

(١٠) راديو دمشق، ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٠. **تشرين**، ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(١١) **نيويورك تايمز**، ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

الاستمرار والاستقرار". وقد أكد بشار بشكل خاص على ضرورة "تقديم أفكار جديدة جداً في كل المجالات، ولكن إلى جانب ذلك ترميم وتطوير الأفكار الجديدة، التي لا تتناسب والواقع القائم، وحتى التخلي عن أفكار قديمة لم يعد بالإمكان جني أي فائدة منها". وأضاف إنه "يجب تعزيز أجهزة الرقابة، والإحساس بالمسؤولية، واحترام القانون، وكذلك النضال ضد الهدر والفساد. ويجب أن تسود الشفافية الثقافية والقيم كظاهرة ثابتة في الحياة السياسية في الدولة". وحذر بشار من المطالبة بتغييرات جوهرية في الواقع السوري: "إن الديمقراطيات الغربية هي حدث استثنائي في تاريخ طويل، والذي نجم عنه زعماء وتقاليد أنتجت الثقافة الحالية للمجتمعات الديمقراطية. مقابل ذلك، علينا أن نتبنى ديمقراطية خاصة تعتمد على تاريخنا وثقافتنا وحضارتنا، والتي تنبع من ضرورات المجتمع والواقع الذي نعيش فيه".(١٢)

لقد كان خطاب بشار بشير خير لجماعة كبيرة من المفكرين في سورية، الذين رأوا فيه دعوة من جانب الرئيس المنتخب للبدء بمعركة لإدخال إصلاحات بعيدة المدى. ولكن من المشكوك فيه أن يكون بشار قد قصد ذلك، ومن المحتمل جداً أنه لم يكن هو نفسه يعرف بوضوح الطريق التي يريد وضع العربة السورية عليها. وفي النهاية، فإن هذا الخطاب، مثل الكثير من خطابات بشار اللاحقة، كان مليئا بالشعارات، لكنه افتقد إلى ذكر أي خطوة عملية ينوي المبادرة إليها أو تنفيذها.

الأصداء الأولى

الوحيد الذي أعلن خروجه على انتخاب بشار للرئاسة كان عمه رفعت، الذي كان موجوداً في المنفى في اسبانيا. وجاء في إعلان، بث باسمه في شبكة ANN، إنه يشكك بشرعية عملية تنصيب 'شقيقنا'، بوصفها "طعنة سكين في ظهر القانون [السوري] والذي فيه ما يكفي للتسبب بسحب الشرعية الدستورية لمؤسسة الرئاسة،

(١٢) راديو دمشق، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

ذلك أنه يتجاهل تلقائياً إرادة الشعب".[١٣] واستمر ابن رفعت في هذا الخط وأعلن أن الاستفتاء الشعبي الذي تمت فيه المصادقة على ترشيح بشار ليس شرعياً، وإنه وعلى خلاف بشار، فإن رفعت يتمتع بتأييد وبشرعية في أوساط الجمهور السوري، وحتى أن سومر وصف مسيرات التأييد لبشار بأنها "عرض كاذب".[١٤]

ولكن وبعد أن اتضح أن عملية نقل السلطة مرت بسلام وأنه لا يوجد لدعوات رفعت أية استجابة في أوساط الجمهور السوري، توقف رفعت عن توجيه انتقاداته كما أنه أعلن عند تأييده للأقسام "الإيجابية" في خطاب القسم، وأن أقوال بشار تدل على بداية "حركة تصحيحية جديدة بقيادته".[١٥] ومع ذلك، أفادت مصادر سورية عن صدور أمر اعتقال ضد رفعت في حال حاول العودة إلى سورية، الأمر الذي يدل على تخوف بشار منه.[١٦]

صرخة التحدي التي أطلقها رفعت، مهما كانت هامشية، ألقت ظلا أولياً على حكم بشار. وفي نهاية المطاف، فإن الخلافات في الرأي بين بشار ورفعت، وبينه وبين عمه الثاني جميل، تدل على أن عائلة الأسد الموسعة لا تصطف كرجل واحد خلف الابن الوريث. وبالفعل، استمر رفعت في تشكيل مصدر قلق للحاكم الشاب في دمشق. وفي الأشهر التي تلت تنصيبه وصلت تقارير عن اتصالات أجراها رفعت وابنه مع زعماء 'الأخوان المسلمين' في لندن، وذلك بهدف دراسة إمكانية الإعلان عن هدنة بين الصقور القدامى، والإعداد لحلف بقيادة رفعت لتقويض حكم بشار. وبعد ذلك أيضاً وردت تقارير عن محاولة رفعت إجراء اتصالات مع ممثلين إسرائيليين في أوروبا من أجل ضمان تأييدهم له إذا حاول العودة إلى سورية.[١٧] وكذلك استمر رفعت في استخدام النفوذ الذي يتمتع به في

---

(١٣) راديو دمشق، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(١٤) **الحياة**، ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(١٥) قناة ANN، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(١٦) راديو BBC، ١٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(١٧) وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **هآرتس**، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. قناة ANN، ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

أوساط القيادة السعودية بهدف الدفع باتجاه المصالحة مع بشار وفسح المجال أمام موطئ قدم جديد له في دمشق.[١٨]

وقد تم توجيه الانتقاد لعملية انتخاب بشار للرئاسة من داخل سورية، كإشارة تحذير لما قد يحدث فيها، للمرة الأولى، في الشهور التي تلت ذلك. وكان الأشد من بين تلك الانتقادات، النقد الذي وجهه زعيم أحد الفصائل في الحزب الشيوعي (المكتب السياسي)، رياض الترك، الذي نُقل عنه قوله إنه لا ينوي التصويت لصالح بشار في الاستفتاء الشعبي المرتقب، ذلك لأن "طريقة إدارة الأسد الأب حولت سورية إلى مركز تجاري لعائلته، وهذه الدولة ليست سوى سجن واحد كبير". وحتى أن الترك قد وصف خطوة تخفيض الحدّ الأدنى لعمر الرئيس من ٤٠ إلى ٣٤ عاماً بأنها "مثيرة للسخرية".[١٩] وخلال الشهور الأولى من عام ٢٠٠١ كان الترك والكثيرون ينوون بذل محاولة لاستغلال تبادل السلطة من أجل إطلاق صرخة تحدي ضد النظام السياسي الذي أرساه نظام البعث. مما جعلهم يدفعون على ذلك ثمناً غالياً (أنظر الفصل الرابع).

وفي النهاية، تجدر الإشارة إلى أنه وإلى جانب تصريحات الأسف لوفاة الرئيس والتأييد الجارف لبشار، سُجلت في سورية ردود أكثر تحفظا تجاه السلالة الأسدية. فعلى سبيل المثال، أُفيد من مدينة حماة، التي خبرت الدمار والموت خلال عملية القمع الوحشي للتمرد الإسلامي ضد النظام في شباط/فبراير ١٩٨٢، أنه لا يُشعَر بوجود جو حداد وأن مجالس العزاء التي أقامتها السلطات من أجل أن يتمكن ممثلو السلطة من تقبل تعازي المواطنين فيها، بقيت فارغة ولا حاجة لها. وكان هناك من بين مواطني المدينة من تجرأ على القول في آذان الصحفيين "خسارة بأن الأسد مات موتا طبيعياً وإنه لم يمت عقابا على ما فعله في المدينة".[٢٠] وكانت هذه إشارة

(١٨) أنظر على سبيل المثال، **الرأي العام**، ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

(١٩) **لوموند**، ٢٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٢٠) **الاندبيندنت**، ١٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً **واشنطن بوست**، ١٨حزيران/يونيو ٢٠٠٠

تحذير إلى أن الاحتجاج الإسلامي الذي قمع بقوة في بداية الثمانينيات لازال يتحرك، وإن كان ذلك تحت الأرض، وأنه من الممكن أن يعود ويتفجر، وأن يشكل تحدياً حقيقياً للنظام.

لماذا بشار؟

على الرغم مما بدا على أنه تأييد جماهيري جارف لبشار، فإن الأمر لم يكن كذلك من مختلف مراكز القوة في الدولة. ويجب الاعتراف أن انتخاب بشار، وما بدا أنه نقل سلس للسلطة إلى يده، أدى إلى تململ في أوساط عدد غير قليل من المختصين بالشأن السوري. ذلك أنه وبالإضافة إلى غياب النضج الشخصي، ونقص الخبرة والثقة بالنفس، وبقية العيوب التي سارع الكثيرون بإخراجها من شخصية الزعيم الجديد، كان الأمر المتفق عليه من قبل الجميع أن بشار تعوزه الكاريزما والقدرة على القيادة. أو، حسب أقوال باتريك سل: "بشار تعوزه "غريزة القاتل" الضرورية جداً لكل من يريد أن يحكم هذه الدولة".[٢١] ولا عجب أن يسارع أوري لوبراني، المنسق السابق لنشاطات إسرائيل في لبنان، إلى حسم أمر بشار بشكل سلبي عندما أعلن في فترة انتخابه: "لقد ذهبوا ونصّبوا على سورية شاب عمره ٣٤ عاماً. ابن ليلة صنعوا منه قائدا. ما الذي يفكر فيه الآن الجنرالات في الجيش السوري؟ هل سيصدر لنا هذا الولد العلوي الأوامر؟ وهل لديه التجربة، والشجاعة والكفاءة؟ أنا أعطيه ببالغ الصعوبة ٥٠% للبقاء".[٢٢]

هذا المزاج من التفكير عَبّر عنه بشكل جيد الدكتور ادموند شولنبرغ، الذي اعترف في مقابلة أجراها بعد عام من انتخاب بشار للرئاسة: "إذا كان لابد من قول الحقيقة، فأنا أعتقد أن بشار الأسد الذي عرفته هو إنسان أرق من أن يكون رئيس دولة. ولم أتصور أنه سيكون عدوانياً أو صلداً بما فيه الكفاية حتى يتمكن من حكم سورية. من جهة أخرى لا أستطيع أن أتجاهل صلابته، فبشار المختص كان إنسانا يمتلك قدرة عالية على التركيز. وقد عمل بمثابرة كبيرة من أجل أن

(٢١) مقابلة مع باتريك سيل، تل أبيب، ١١ آذار/مارس ٢٠٠٠.

(٢٢) **يديعوت أحرونوت**، ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

يصل إلى الهدف الذي حدده لنفسه، وهو أن يكون طبيب عيون، وربما تستطيع ميزة الإصرار هذه على مساعدته".[٢٣]

تم في العالم الغربي استقبال صعود بشار إلى السلطة بسخرية صريحة على الشخص، ولكن بالأساس على الدولة السورية، نفس "الجمهورية الديمقراطية الشعبية الاشتراكية" التي حولها حافظ الأسد وابنه إلى مزرعة عائلية.[٢٤]

ومن المهم الإشارة أيضاً إلى أنه تم في سورية نفسها الإعراب عن الشكوك في ما يتعلق بقدرة بشار على قيادة الدولة. وقد شهدت على ذلك هزة أكتاف الكثيرين في الشارع السوري عندما وجه إليهم السؤال: "لماذا بشار؟"، أو بشكل أدق، ما الشيء الموجود في بشار حتى يصبح وريثا مناسبا لوالده؟ وكان رد هؤلاء وفي مقدمتهم سائقي سيارات التاكسي في دمشق: "لا يوجد أحد غيره"،[٢٥] وهذه الشهادة بألف شهادة. ذلك أن الكثيرين في سورية يرون أن صعود بشار إلى السلطة كان خيار الفشل، في ظل غياب مرشح آخر مناسب للرئاسة. وقد ساهم في صنع هذا الواقع، بدرجة غير قليلة، حافظ الأسد نفسه، ذلك أنه كرس كل سنواته الأخيرة لضمان وراثة ابنه واستبعد أي مرشح محتمل آخر.

إذاً، يبدو أن بشار قد فاز بمنصبه بلا كد أو تعب. ولكن يجب ألاّ نرى في انتخابه خيار اللاخيار، بل كقرار واعٍ من مراكز القوى في سورية بعدم حسم قضية وراثة السلطة في هذه اللحظة، بل تأجيل الحسم إلى المستقبل، والاكتفاء في هذه الآونة ببشار كفترة انتقالية من عصر الأسد إلى العصر القادم. وتدل هذه الحقيقة كذلك على قدرة حافظ الأسد على "تخدير" الجيش، الذي كان في الماضي يشكل رعبا للسياسيين (أنظر الفصل الثالث).

إذاً، مرد نجاح بشار في السيطرة على كرسي الحكم كامن في الأسباب التالية:

---

(٢٣) **هآرتس**، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٢٤) أنظر على سبيل المثال **الشرق الأوسط**، ١٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **القدس العربي**، ١٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٢٥) مقابلة مع أكاديمي سوري، اورلاندو، فولوريدا، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. وانظر أيضاً الخلاصة.

أولاً، إدراك القيادة السورية ضرورة ملء الفراغ الذي تركه غياب حافظ الأسد، الزعيم الذي لا يضاهى، ومؤسس ومرسخ النظام، من أجل قطع الطريق على أي تهديد من الداخل أو من الخارج، على استقرار النظام. وبرز بشكل خاص التخوف من صراع القوى داخل قيادة النظام نفسها على المنصب الشاغر، وهو الصراع الذي قد يؤدي إلى تفجيره من الداخل. وثانياً، بقاء بشار المرشح المناسب الوحيد على الساحة الداخلية لسورية، ذلك أن معظم المرشحين الآخرين، وعلى الأقل هؤلاء الذين رأوا في أنفسهم مرشحين محتملين لوراثة موقع الأسد، تم إبعادهم عن الساحة السياسية، من قبل الرئيس، خلال السنوات السابقة لوفاته. وثالثاً، لقد لعبت لصالح بشار حقيقة أنه ابن وخيار والده، وهو الأمر الذي أعطى شرعية معينة لحكمه وأكسب صعوده إلى السلطة نفحة من الاستمرارية.

كذلك لعبت لصالح بشار حقيقة أنه لم يُنظر إليه، هو نفسه، كشخصية مهددة يمكن أن تشكل خطراً حقيقياً على مكانة المسؤولين الكبار في القيادة السورية، أو مراكز القوى الأخرى في الدولة - لا بشار نفسه ولا قناعاته، التي نُظر، ولا يزال يُنظر إليها، على أنها هوائية وعامة وغير مبلورة. وقد استطاع وزير الدفاع مصطفى طلاس، الصديق والمقرب من حافظ الأسد، التعبير عن ذلك بشكل جيد عندما قال إنه "كان هناك احتمال بأن يكون خدام المرشح، أو حتى أن أكون أنا المرشح، ولكن ذلك لم يخطر ببالي لأنني على أبواب السبعين من عمري، ونفس الشيء بالنسبة لزميلي، وإذا كان أحدنا قد عين رئيساً، فكان يجب علينا أن نعين رئيساً كل عامين. أما اختيار بشار فهو بمثابة الإعراب عن الشكر للأسد الذي أعطى لسورية الكثير الكثير".[٢٦] وأضاف طلاس إن "بشار إنسان شاب وواعد وهو جدير بالثقة، ونحن سنساعده في كل الأحوال".

كما أنه من المناسب العودة للإشارة إلى أنه نُظر إلى بشار في أوساط واسعة من الجمهور السوري، وخاصة في أوساط المفكرين، ورجال الأعمال، وأبناء الجيل الصغير، على أنه من سيُدخل التغيير أو الثورة في الواقع السوري، وذلك كما تدل

(٢٦) التلفزيون المصري، ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

أقوال عزيز شكري، عميد كلية الحقوق في جامعة دمشق، الذي تحول مع مرور السنين، إلى واحد من المتحدثين باسم النظام السوري في الغرب: "إنني متفائل جداً به. فنحن أمام إنسان صاحب عقل منفتح ويثبت قدرة محترف في الواقعية السياسية. وهو سينتصر لأن الشعب معه، وسيعيد عاجلاً أم آجلاً ترتيب البيت [السوري] بدعم من الشعب".(٢٧) ولم يغب هذا التأييد لبشار عن نظر القيادة السورية التي أرادت ملء الفراغ، الذي نشأ بغياب الأسد الأب، بسرعة، وبناء نفسها من تأييد بشار في تلك الأوساط.

وهكذا، محمولا على ظهر موجة ترقب التغيير والتبديل، ومدعوما بتأييد حذر ومتحفظ من قبل مراكز القوى وفي مقدمتها الحرس القديم الذي أحاط بوالده، وصل بشار - أبكر من اللازم أو متأخرا أكثر من اللازم - إلى كرسي الرئاسة في دمشق. وكل ما تبقى هو الانتظار لنرى ما إذا كانت السنوات الست، التي بذل خلالها والده جهوده لتأهيله، كافية من أجل إعداده لهذه اللحظة.

(٢٧) **كريستيان ساينس مونيتور**، ١٨ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

الفصل الثالث

بشار الأسد - الرجل ونظامه

لقد كان نظام البعث السوري، الذي ورثه بشار الأسد، كما أسلفنا، نظاماً شخصياً، حيث كان الأسد الأب دعامته والعنصر الموحد بين عناصره المختلفة، والمتناحرة أحياناً. وقد شكلت شخصية الأسد، داخل سورية وخارجها، مصدر قوة استمد منها النظام قوته، واستطاع بمساعدتها، أكثر من مرة، حشد تأييد لنفسه في أوساط القطاعات المختلفة في المجتمع السوري. وفي الوقت نفسه كان النظام السوري نظاما عائلياً، عشائرياً وطائفياً، شكلت فيه الطائفة العلوية مكونا هاماً، وعمليا، العنصر الذي يلعب بفضل قوته، ببقية مكونات النظام. ومن هذه الزاوية يعكس النظام السوري الصعود الكبير للطائفة العلوية في سورية على امتداد النصف ا لثاني من القرن العشرين - من موقع الطائفة الصغيرة المتواضعة إلى موقع الطائفة الحاكمة.(١)

ومع ذلك فإنه من الصواب أن نصف النظام الذي أسسه حافظ الأسد على أنه نظام متعدد الوجوه. وكان يظهر في كل مرة من المرات، وجها من وجوهه المختلفة، الشخصية، العائلية، العشائرية، الطائفية، والحزبية (بوصفه نظام البعث)، أو العسكرية (بوصفه يعتمد على الجيش وقوات الأمن). ولكن وقبل كل شيء كان مُنتَجاً وواضحاً لثورة البعث في آذار/مارس ١٩٦٣. وهكذا نجد أنه عكس بشكل ناجح النظام الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي الذي تم تأسيسه في الدولة

(١) أنظر إيال زيسر، "العلوية - سادة سورية - من طائفة أقلية إلى طائفة حاكمة". وفي شولاميت فولكوف (إعداد)، **أقليات غريبة ومختلفة**، القدس، مركز زلمان شازار لتاريخ إسرائيل، ٢٠٠٠، ص ٢٤٣، ٢٦٢.

في أعقاب الثورة، وفي مركزه تحالف قوى بين أبناء الطائفة العلوية وأبناء الطائفة السنية (اللتين شكلتا، ومازالتا، غالبية القيادة السورية)، وأبناء الأقليات (المسيحيين والدروز والإسماعيليين الذين يرون في السيطرة العلوية ضمانا لأمنهم الطائفي والشخصي والاقتصادي)، والنخبة الاقتصادية السنية (وهي جماعة هامشية، والتي استطاعت عبر عملية بطيئة وتدريجية قطف ثمار سياسة الانفتاح الاقتصادي والسياسي للأسد، وخاصة منذ بداية التسعينيات).[٢]

إذا، لقد استلم بشار الأسد جهازاً سلطوياً وسياسياً قادراً على أداء عمله، وإن كان يصدر صريراً [متآكلاً]، وهذا ما منحه فترة مائة يوم مريحة هو أحوج ما يكون إليها. وقد استند على هذا الجهاز، وإن حاول مع ذلك أن يدخل عليه بعض التغييرات التي تقوم في أساسها على دمج بعض القطاعات، وخاصة تقوية مؤسسات الحكم المدنية (الحكومة، مجلس الشعب، الأحزاب السياسية، والمنظمات غير البرلمانية وحتى غير الحكومية). وقد نبعت تلك المحاولات، على ما يبدو، من الإدراك بأن المفتاح لمستقبل سورية كامن في تطوير أداء أطر الحكم المدنية، وخاصة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية، وفي التخلص من حالة الكبت السياسي الذي سيطر على سورية حوالى أربعة عقود. وأخيراً، في تشجيع الأسس الاجتماعية الموجودة، خارج التركيبة المؤسساتية على الاندماج في الفعل السياسي. ولكن محاولات بشار إدخال الإصلاحات، ولو بشكل محدود، لم تفلح بشكل جيد، حتى الآن على الأقل، وقد اختار هو، أو اضطر، الالتزام بجدول الأعمال القديم والجيد.

لقد دار حديث كثير حول الطريق الجديد الذي يريد بشار وضع سورية عليه. واتضح أنه لا يتطلع إلى إحداث تغيير شامل، على طريقة النموذج الديمقراطي الغربي الماثل أمامه. وكما ذكرنا سابقاً، فإن بشار كان قد حذّر في خطاب القسم مستمعيه من التوقعات غير الواقعية لتغييرات دراماتيكية، سورية ليست بحاجة إليها، أو أنها غير ناضجة لها. وبالفعل، وفي إطار نضاله في معسكر الإصلاح وضع بشار الخطوط الحمراء التي يُحظر تجاوزها خلال النقاش العام الذي يريد طرحه في

(٢) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ذكر سابقاً، الملاحظة ٢٢ في التمهيد، ص ٣٨-٤١.

سورية: شخصية وأفعال والده الراحل، موقع ووظيفة الجيش وقوات الأمن، الموقع القيادي لحزب البعث المُرسى في القانون السوري، الرؤية الاشتراكية التي لا زالت تشكل نبراسا يهتدي النظام بنوره (أنظر الفصل الرابع).[٣]

وفي مقابلة منحها إلى صحيفة **الشرق الأوسط** أوضح الرئيس الشاب الطريق الأمثل لإجراء النقاش العام في سورية، وما هو المعنى الحقيقي للانفتاح السياسي الذي يريد إرسائه: "من المناسب أن نذكر أن الوطن هو مثل العائلة، وعليه فليس من المنطقي أن يتحدث أفراد العائلة عن مشاكلهم الداخلية في الوقت الذي يكونون خارجه. حيث أنهم إذا فعلوا ذلك فإنهم سيفقدون احترام الآخرين. وكذلك إذا كان من الممكن أن ننظر إلى الدول العربية بوصفها أقارب في عائلة كبيرة، فإنه من غير المناسب أن يتحدث ابن العائلة الصغيرة مع أقاربه، حتى إذا كانوا أبناء العائلة الأوسع، حول مشاكله الشخصية... ".[٤] وبالمناسبة، ومن خلال هذه الأقوال، يمكن أن نتفهم ادعاءات عناصر معسكر الإصلاح في سورية والتي تقول إن حافظ الأسد حول سورية إلى مزرعة للعائلة، وأن جل ما يتطلّع إلى فعله هو الحفاظ عليها كما هي، مزدهرة ومتفتحة وأكثر حرية مما كان عليه الحال أيام والده".[٥]

شخصية الرئيس الشاب

لم يكن بشار يريد طرح بديل لنموذج النظام الذي أرساه والده، أي نظاماً رئيسياً يتمحور حول هيئة وشخصية القائد. وحتى أنه خلال السنوات الأولى من ولايته حاول بدأب ملء الفراغ الذي خلفه والده، وأن يؤسس لنفسه مكانة الأول بين متساويين سواء على صعيد القيادة السورية أو الجمهور بأكمله. وقد حاول بشار فعلاً في بداية طريقه، وإن كان ذلك لرفع العتب على الأقل، تليين عبادة

(٣) **المستقبل**، ٥ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(٤) **الشرق الأوسط**، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٥) **الحياة**، ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠، **القدس العربي**، ٢٦ حزيران/يونيو، ٢١ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

الشخصية لـــ "الرفيق المناضل، القائد، الرئيس حافظ الأسد". وكجزء مـــن هـــذا التوجه أمر بإزالة صوره عن جدران المنازل ولتخفيف عبارات التملـــق المتبعـــة في الصحافة السورية (مثل الامتناع عن تلقيبه بـــ "الرئيس الخالد".[6]

وقد سارعت صحيفة **تشرين** إلى الثناء على بشار لتواضعه وقالت لقرائها إن الأسد الأب، على الأغلب، كان يعارض في أعماقه عبادة شخصيته، إلا أن الشعب أراد أن يسبغ عليه الاحترام والتقدير، و لم يبق أمام الأسد من خيـــار إلا تجاهـــل ذلك.[7] ومع ذلك، يشار إلى أن صورة بشار لم تُزل من على جدران المنازل. وقد كشفت نظرة إلى الصحافة السورية أنه لم يطرأ تغيير دراماتيكي على الشكل الذي تتعامل به بالنسبة لبشار مقارنة مع والده. وقد تلقت وسائل الإعـــلام الســـورية صعود بشار بأقوال الثناء والتهليل، مع التغييرات التي يقتضيها الفارق بين شخصية الأب وابنه.

وقد قُدِّم بشار كرئيس شاب حازم، ونشط، ونظيف الكفين، متفاني ومخلص، مثقف وسريع الاستيعاب، ذي عقل منفتح وقريب من الجمهور، ومع ذلك فهـــو متمسك بمبادئه ويقف للدفاع عن الأمة والوطن. هذا التعبير المفتعل للشكل الذي أراد بشار تقديم نفسه من خلاله موجود في الأوصاف التي سردها محررو الصحف السورية – الذين خصهم بمقابلات واسعة في بداية سني حكمه – حول تجربة اللقاء به وعلى الانطباع الذي تركه لديهم. تلك الصفات، التي يوجد فيها مع ذلك بُعد أصيل، تدل بطريقة ما على الفرق بين بشار وبين والده، وربما أيضاً بينـــه وبـــين زعماء آخرين في العالم العربي، وبطبيعة الحال حول الشكل الذي يرى فيه نفســـه ويريد أن يراه به الشارع العربي.

وعلى سبيل المثال، كتب محرر صحيفة **المجد** الأردنية إن "هذا القائد الشـــاب ليس رئيساً من نوع مختلف، بل صاحب قدرات ليصبح زعيماً عربياً عظيماً. ومن المرتقب أن يلعب دوراً متميزاً في تاريخ الأمة، ليعيد للزعامة العربية الإقدام والثقـــة

(٦) **الحياة**، ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(٧) **تشرين**، ١٩ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

التي افتقدها. وقد وجدت خلال لقائي معه أنه شخص ودود، ومتواضع، وواثـــق بنفسه، وقوي الإرادة وذو تجربة واسعة ومنفتح. ويلاحظ عليه أنه ذو نظرة شاملة ورؤية واضحة. وهو مثابر، ومصر على تحدي الوضع القـــائم، ومتمســـك بمبـــدأ المقاومة والنضال، وقريب من المزاج العام للشارع وواثق بقدرة الأمة على التغلب على مصاعبها".(٨)

أما محرر **اللواء** فقد كتب يقول: "إنك عندما تدخل إلى القصر الرئاســـي في حي المهاجرين، فإن كل شيء من حولك ينضح بالبساطة والوضـــوح. وعنـــدما تجلس إلى جانب الرئيس الشاب فإنك تشعر بسرعة بأنك أمام نموذج جديد مـــن القادة، حيث يعكس كل تصرف لديه الإحساس بالطمأنينة والهدوء، ويلاحظ من طريقة تصرفه الحكمة والمنطق القوي. وعندما تخرج الكلمات من فمه، بوضـــوح وبلهجة ودية، تدرك أنك أمام زعيم مؤمن بالحوار الديمقراطي كنهج حياة. هـــو يعمل ساعات طويلة، ليلاً نهاراً، ذلك أنه وعد في خطاب القسم الذي ألقاه بالعمل من أجل شعبه. ولا يهتم بشيء سوى عمله. وللحقيقة فإن العمل الـــذي ينتظـــره كثير جداً جدا".(٩) وأخيراً ادعى محرر صحيفة **القبس** الكويتية إنه فوجئ عنـــدما اكتشف أن قصر الروضة، الذي التقى فيه بشار، غير محروس تقريباً، وأضـــاف إن بشار "يتحدث بسرعة، ويعبر عن آرائه بسهولة وبشكل واضح وقاطع، ويظهـــر انفتاحا وحميمية تجاه محدثه، وهو الأمر الذي لا يخطر بالبال عند الزعماء العـــرب الآخرين".(١٠)

وقد تأثر كذلك بعض الصحفيين الغربيين ببشار بنفس الطريقة. وقال مراسل صحيفة **الأوبزيرفر** اللندنية، الذي قابل بشار وعقيلته من أجل الإعـــداد لتقريـــر مصور حول أسماء بمناسبة الزيارة التي ســـيقومان بهـــا إلى بريطانيـــا في كـــانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، قال إنه في نهاية المقابلة طلب الرئيس وقف جهاز التسجيل

(٨) **المجد**، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(٩) **اللواء**، ١ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

(١٠) **القبس**، ٢١ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

ووضع دفتر الملاحظات جانباً. "وكان واضحاً أن بشار يريد أن يتحدث معنا، ذلك أن الجانب الرسمي من اللقاء قد انتهى. وبالفعل، وبعد أن تخلصنا من القيود التي تمليها علينا الرسميات، أمكننا أن ندير حوارا حصلنا من خلاله على فكرة حول نظرة الاثنين للعالم. وكان أهم شيء هو الحوار الذي دار بينهما. إذ أنهما أدارا حواراً مباشراً، يعج بالدعابة، وتبادل الأفكار مثل زوج من لاعبي التنس الذين يتبادلان الضربات".[11]

انطباع مماثل تركه أيضاً بشار على زعماء الدول الغربية، فقد قال زعيم أوروبي كبير إنه خلال محادثات أجراها مع بشار أظهر الرئيس إلماما بالتفاصيل و لم يكن بحاجة إلى مساعدة مستشاريه أو لبطاقات الملاحظات المعدّة من أجل إجراء حوار جدي وهادف. كما تحدث بشار بحرية عن العوائق التي يضعها أمامه عدد من نظرائه في القيادة السورية في محاولته إدخال الإصلاحات في الدولة. بينما شهد زعيم آخر أنه وجد في بشار محاوراً مثقفاً وودوداً، يمتلك فضولا كبيرا وتعطشا للمعرفة. وعندما تم النظر في قضية الصرع العربي الإسرائيلي، ظلت نغمة حديثه موضوعية وخالية من العواطف، رغم أنه أظهر العداء، وبخاصة الشك وعدم الثقة تجاه جارته من الجنوب. وعلى الرغم من ذلك، فإن السؤال الذي طرحه القادة الأوروبيون الذين التقوا بشار على أنفسهم، كان هل تكفي الصفات التي يتمتع بها لكي يحكم سورية، ذلك أنه وفي المفاوضات التي أجروها معه ظهر ضعفه، أكثر من مرة، مقابل نظرائه في القيادة، مثل وزير الخارجية فاروق الشرع، الذي أكثر من مقاطعة زعيمه لتصحيح أقواله، وهو فعل غير وارد في الثقافة السياسية العربية.[12]

ومهما يكن من أمر، فإن الرسائل التي أراد بشار، ونظامه، نقلها إلى الجمهور في سورية، حول شخصية القائد الشاب ظهرت من خلال التأكيد على النقاط التالية:

---

(١١) **الأوبزيرفر**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(١٢) مقابلة مع بيتر مندلسون، رامات غان، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. مقابلة مع دبلوماسي ألماني، تل أبيب، ١٥ آذار/مارس ٢٠٠٢.

الاستمرارية والالتزام بإرث الأب

خلال السنوات الأولى لحكمه، وخاصة بعد أن ذاق مرارة محاولته قيادة عملية التغيير (أنظر الفصل الرابع)، لوحظت محاولة بشار لتقديم نفسه على أنه استمرار للخط الذي انتهجه والده، حيث "أن الوفاء والالتزام بإرث والده كان مصدر الشرعية لحكمه".(١٣) وأكثر من ذلك، فإنه وفي عدة تصريحات له قدم بشار نفسه على أنه، وأبناء جيله، يبزّون جيل والده في التزامهم وبتمسكهم بالقيم القومية العربية.(١٤) ومن الطبيعي، أن هذا كان أحد الأسباب لمحاولة بشار أن يحل محل والده كقائد لمعسكر الرفض، أو على الأقل، المعسكر الذي يرفع راية تبني أسلوب متعنت وصلب تجاه إسرائيل والغرب (أنظر الفصل السابع).

كما أن بشار استمر في التمسك بالأفكار الأساسية لوالده في المجال الاجتماعي الاقتصادي والسياسي، وامتنع عن طرح بدائل جدية لها. وحتى أنه في أكثر من مناسبة، وصف أعماله ونبوءته كاستمرار لطريقه: "إن كل ما أتطلع إليه هو أن أرفع البنيان الذي أقامه والدي"،(١٥) أو "لقد عرفت سورية قيادة سياسية رائعة ويجب بذل جهد كبير من أجل تحقيق تقدم مشابه للتقدم الذي حققناه في المجال السياسي في فترة حكمه [والده] في المجالين الاقتصادي والاجتماعي".(١٦)

إن هذه القضية جديرة بالتأكيد عليها، فقد تم الحديث مراراً وتكراراً عن كون بشار ابن جيل الإنترنت، ويخيّل إليّ أن أول شخص استخدم هذا المصطلح لوصفه هو الملك الأردني عبد الله، الذي كان يعبر عن أمله بأن يظهر بشار كشخص ذي تفكير غربي. ولكن وعلى خلاف الملك عبد الله، الذي قضى سنوات طويلة في بريطانيا والولايات المتحدة، فإن بشار قضى معظم سنواته في بيت والده في دمشق. وبالفعل، عندما سئل عن علاقاته بالملك عبد الله قال بشار

(١٣) باتريك سيل، راديو BBC، ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً **الحياة**، ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

(١٤) أنظر الفصل الأول، الملاحظة ١٠.

(١٥) **النهار**، ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

(١٦) **الشراع**، ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

إنه "توجد بيننا علاقة خاصة، والتي نشأت بيننا قبل أن أصبح رئيسا. ومن الطبيعي أن تترك حقيقة أننا من نفس الجيل، ولنا الهوايات نفسها، أثرا على شبكة العلاقات التي نسجت بيننا. ولكن عندما يصل الإنسان إلى موقع الحسم والمسؤولية، يتحول إلى جزء من المجتمع الذي ينتمي إليه، حيث توجد فيه أجيال مختلفة ورؤى مختلفة كذلك. ومن هنا قد يتقاطع نهجي مع نهج الملك عبد الله، وربما أيضاً، مع نهج حكام آخرين، أكثر من مرة، وخاصة في ما يتعلق بنظرتنا إلى المواضيع الداخلية، ولكن في الوقت نفسه توجد الكثير من الفوارق الناجمة عن الاختلاف بين دولتينا".[١٧]

ومع ذلك، يتضح للوهلة الأولى، من خلال الأقوال التي اُقتبست عن بشار، أن الالتزام الذي يظهره لإرث والده ليس مطلقا كما كان متصورا خلال السنوات الأولى لحكمه، وأنه يدرك ضرورة الانقطاع عنه عندما يصبح الأمر ممكنا. ففي مقابلة مع صحيفة **الواشنطن بوست**، قبل صعوده للسلطة، اعترف بشار بأن "الفرق بين أبي وجدي كان صغيرا جداً ذلك أن الحياة كانت تتغير بوتيرة بطيئة جداً، أما الفرق بيني وبين والدي كبير جداً.. والفرق بيني وبين هؤلاء الأصغر مني بعشر سنين أكبر بكثير".[١٨] ويتضح من تلك الأقوال أن بشار يدرك بأنه من غير الممكن وقف الزمن وإبقاء سورية في المكان الذي وضعه فيها والده الراحل.

رائد التقدم والتحديث

لقد حرص بشار على تقديم نفسه بوصفه من سيقود سورية إلى القرن الحادي والعشرين. وقد تم التأكيد على هذه القضية بشكل متكرر من قبله ومن قبل وسائل الإعلام، وحتى أنه قد تم التعبير عن هذا الأمر في البيان الذي أصدره حزب البعث حول ترشيح بشار للرئاسة (أنظر الفصل الثاني). فقد قالت صحيفة **تشرين** عشية الاستفتاء الشعبي للمصادقة على ترشيحه للرئاسة إن "بشار فتح الباب أمام إدخال تكنولوجيا المعلومات كنهج تفكير، ونشر بذلك النشاط في الدولة وأدخل

---

(١٧) **تايمز**، ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(١٨) **واشنطن بوست**، ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

التحديث".[١٩] وبعد يومين من ذلك قالت الصحيفة إن "شعوب الأرض دخلت في هذا القرن سباقا باتجاه التقدم العلمي والتكنولوجي. ولا يوجد أمام سورية من خيار سوى الانضمام إلى هذا السباق والقفز من فوق كل الحواجز في الطريق إلى الهدف".

ولكن بشار، مثل الكثيرين في سورية الذين تطلعوا إليه على أنه الأمل في التغيير، سيكتشفون في ما بعد أن طريق التقدم والتحديث طويلة وشاقة. فنظرة إلى الخطوات التي أراد بشار تنفيذها منذ تسلم السلطة، والتي أفشل غالبيتها أقرانه في السلطة، أو في الواقع السوري، تدل على حالة من عدم النضج، إلا أنها تدل كذلك على رغبته الصادقة في إدخال التغيير (مثل محاولته إدخال الإصلاحات الاقتصادية، ومحاولته إضعاف سيطرة حزب البعث على مؤسسات السلطة... الخ). ولكن من المشكوك فيه أن يكون واضحاً لبشار الهدف النهائي الذي يريد الوصول بسورية إليه، ومن المشكوك فيه أكثر إذا ما كان بمقدوره الوصول بها إلى هذا الهدف. ففي صيف ٢٠٠٣ أجهد بشار نفسه في التوضيح بأنه لا يعمل على التغيير بل على تطوير الدولة، أي التقدم المتدرج على نفس المسار الذي تحركت عليه في الماضي.[٢٠]

التفاني والانفتاح والقرب من الناس

منذ صعوده إلى سدة الحكم أظهر بشار حيوية الشباب والمتعة في العمل. والمقارنة بين حجم نشاطاته (لقاءات العمل، الزيارات وإصدار القوانين والمراسيم) وبين حجم عمل والده، يميل بشكل واضح لمصلحته. ففي مقابلة أعطاها لصحيفة **الشرق الأوسط** تحدث الرئيس الشاب عن برنامج يومي مكتظ يبدأ عند الساعة السابعة والنصف صباحاً، وينتهي في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا. وقد اشتكى بشار من أنه لا يمتلك الوقت لممارسة هواياته، أو للاستمتاع بوقته، وأنه يكتفي بالقراءة، وبشكل خاص كتب التاريخ، وأيضاً، وهذا ليس مفاجئاً، في

(١٩) **تشرين**، ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(٢٠) **القبس**، ٢١ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

مشاهدة الأفلام الوثائقية.[٢١] ومع ذلك، عادت مصادر إسرائيلية وادعت إن هـذا مجرد تظاهر وحسب، وإن بشار يجد، في ألعاب الحاسوب والتلفزيون، ملجأ مـن مشاغله اليومية. وحتى أن رئيس الموساد السابق، أفرايم هاليفي، وصف بشار، على هذه الخلفية، بالقول إنه إنسان يعاني من مشاكل شخصية صعبة، تؤثر على أدائه.[٢٢] ولكن، حتى إذا كان الأمر صحيحاً، فإنه مثل زعماء عرب آخرين، بما فيهم والده الراحل (وكذلك الملك حسين وابنه عبد الله)، فـإن حقيقـة أهم لا يخصصون كل نشاطهم لإدارة متواصلة لشؤون الدولة، لا يكفي لنشكل شـهادة على زعامتهم ولا على قدرهم على البقاء في السلطة.

ومثل عدد من نظرائه في العالم العربي، وعلى خلاف والده الراحـل، جهـد بشار لإظهار الانفتاح وخاصة الوصول إلى الجمهور العـريض. صـحيح إنـه لا يتجول متنكراً في شوارع دمشق، على عادة نظيره الأردني، ومع ذلك، فهو يكثر، وفق المصطلحات السورية على الأقل، وبالتأكيد مقارنة بوالده، من زيارة مختلـف مناطق الدولة. وعندما الهار سد زيزون في حزيران/يونيو ٢٠٠٢ وغطـت مياهـه مناطق شاسعة شمالي الدولة وأضحى عشرات آلاف المواطنين بلا مـأوى سـارع بشار إلى المنطقة المنكوبة. وبدون أن يرتدي بزة رسمية، زار معسكرات الخيام الـتي آوت مصابي الكارثة وتحدث معهم. وفي تقرير مصور حول زيارته تلك ظهر وهو يكرر السؤال كيف حدثت الكارثة، وإذا ما تم اتخاذ كل الإجراءات المطلوبة مـن أجل التخفيف عن المصابين ومد يد العون المطلوب لهم (أنظر الفصل الخامس).[٢٣]

زيارة تاريخية أخرى قام بها بشار في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ إلى منطقة الحسكة الواقعة شرقي الدولة، وقد عُزيت للزيارة أهمية سياسية بالغة لأنها جاءت في ظـل الهجوم الأمريكي المخطط على العراق. وهنا أيضاً خصص بشار، ولكن هذه المرة

(٢١) **الشرق الأوسط**، ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(٢٢) **يديعوت أحرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً مقابلة أفـرايم هـاليفي، رئـيس الموساد ورئيس مجلس الأمن القومي سابقاً، مع تركه المنصـب، **يـديعوت أحرونـوت**، ٢٢ آب/أغسطس ٢٠٠٣.

(٢٣) التلفزيون السوري، ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

بالبزة وربطة العنق، وقتاً كبيرا للقاءات مع المواطنين ولزيارة المصانع، والمؤسسات التعليمية والمنشآت الزراعية في عاصمة المحافظة وما حولها.[٢٤] وقد اعتاد مواطنو سورية على رؤية بشار يشارك في الاحتفالات والمناسبات الرسمية وشبه الرسمية، مثل زراعة الأشتال - وبالحذاء الرياضي - بمناسبة عيد الشجرة السوري.[٢٥]

نموذج ساطع آخر على الرياح الجديدة التي تهب من قصر بشار، تمثل في زيارته التاريخية التي قام بها إلى حلب في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، ومباشرة بُعيد توليه السلطة. بشار زار المدينة، كما سبق وأسلفنا، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩ (أنظر الفصل الأول)، لكن جولته الثانية الآن، بعد أن أصبح رئيساً، حظيت بتغطية صحفية واسعة. فقد أفادت صحيفة الثورة "إن زيارة بشار لا تزال الحديث الأهم في حلب، ويتحدثون عنها بحب وبثقة. وفي شارع النيل دخل الرئيس بشار إلى دكان متواضع اسمه 'الكنار' من أجل أن يشتري بعض الحاجيّات. وقد قال صاحب الدكان أن الشاب الذي دخل إلى حانوته ذكره بالرئيس بشار الأسد، وبينما لا يزال يتخبط بالسؤال إذا ما كان هذا هو الرئيس أم لا، حل بشار له المشكلة وأخبره بأنه هو الرئيس. وفي اللحظة نفسها دخلت إلى المحل ابنة صاحب المحل وسألت بهمس: "هل من المعقول أن يكون من يقف أمامنا هو الدكتور بشار؟" وقد قالت هذه المرأة فيما بعد إن "الرئيس بشار ابتسم طويلاً حيال الاستغراب والانفعال اللذين سيطرا علي، وبعد ذلك سألني عن عمري، وتحصيلي العلمي ومكان عملي. ولم أستطع أن أُخرج كلمة واحدة من فمي، وفي النهاية قلت له إنني آمل أن يراه أبنائي من بعدي". وبعد ذلك استأنف بشار جولته في المدينة. وفي ساعات الظهر الأولى توقفت سيارته أمام محل للحلويات في منطقة سيف الدولة. وأشار شرطي مرور للسيارة بعدم التوقف في منطقة يحظر فيها الوقوف. وقد استجاب الرئيس له وتوقف في منطقة قريبة يسمح الوقوف فيها. الشرطي، فواز محمد حمام، وقف إلى جانب السيارة وعندما رأى أن الرئيس بشار

---

(٢٤) **تشرين**، ١٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً التلفزيون السوري، ١٧، ١٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٢٥) أنظر على سبيل المثال التلفزيون السوري، ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

هو الذي يقودها، امتلأ خوفا وخجلا. ولكن الرئيس صافحه بحرارة القائد الـــذي يحب شعبه، وسأله: "ما الأخبار؟ ما هي أخبار المرور في حلب؟ هل هـــي مريحـــة أكثر من ذي قبل؟".(٢٦)

وخلال زيارته لحلب شاهد بشار مسرحية "طاب الموت يا عـــرب" الـــتي تم إخراجها من قبل اتحاد البِر الأرمني في المدينة. وهذه المسرحية التي تـــدور حـــول الصراع العربي الإسرائيلي، تُوجّه نقداً فظا على طريقة تصرف الدول العربية في هذا الموضوع، وإن لم يكن ضد البعث السوري. وقد حظيت علـــى شـــعبية كـــبيرة، ولذلك أثارت فضول بشار. وقد دل التقرير الذي استعرض زيارتـــه للمدينـــة أن "بشار الأسد دخل القاعة بهدوء بعد أن كانت المسرحية قد بدأت، بدون حـــراس وبدون أن تتخذ أية إجراءات أمنية خاصة. وقد جلس في أحد المقاعد الخلفية. وقد سارع مخرج المسرحية، همام الحوت، إلى قطع العرض وزف البشـــرى لجمهـــور الحضور بأن: "الرئيس بشار يجلس بيننا مثلما وعد في خطاب التنصيب، والذي قال فيه "توقعوا أن تشاهدوني بينكم في كل مكان، ســـواء في مكـــان العمـــل، أو في الشارع، أو في أماكن تسليتكم". وبعد يوم من ذلك دعا الرئيس بشار المشاركين في المسرحية إلى مأدبة عشاء، تحدث خلالها معهم عن الطريقة التي يمكن وفقها ربط المسرح مع ضرورات الثقافة السياسية".(٢٧)

ويدل هذا الوصف على فضول بشار، كما يدل على استعداده للتعلم من الآخرين، كما دلت على ذلك زيارته إلى المعرض السياسي لرسام الكاريكـــاتير علي فرزات في دمشق عام ١٩٩٤. وكانت السلطات السورية قد منعـــت في ذلك الوقت نشر تلك الرسوم الكاريكاتيرية، وعليه فقد أثارت زيارة الأســـد، الذي كان لا يزال في ذلك الوقت في بداية طريقه للقيادة، مفاجأة كبيرة. وقال بشار لذلك الفنان إنه لا يرى أي سبب يمنع نشر رسومه. ومنذ أن صـــعد إلى السلطة منحه تصريحاً لنشر أول صحيفة "حرة" في سورية من جيل كامل، هي

(٢٦) **الثورة**، ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(٢٧) **الحياة**، ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

صحيفة "**الدومري**" (أنظر الفصل الرابع).[٢٨]

وفي هذا السياق، يجدر التذكير بزيارات بشار المغطاة إعلامياً إلى "أوكار الأفاعي" – مسجد عمر بن الخطاب في حماة ومسجد التوحيد في حلب، حيث شارك في أواخر عام ٢٠٠٢ في صلاتي يوم الجمعة الأخير من شهر رمضان وصلاة عيد الفطر.[٢٩] وقد جاءت الصلاة في مدينة حماة، والتي كانت، كما سبق ذكره، معقلاً للمتمردين المسلمين ضد نظام البعث في بداية الثمانينيات، لإظهار الثقة بالنفس، وربما أيضاً كرسالة مصالحة للأوساط الإسلامية في المدينة.

تلك الزيارات تشكل نمطا ثابتا في تصرف بشار، الذي لا يرتدع عن عقد لقاءات، ربما تكون، أو هي فعلاً كذلك، مصدرا للإرباك. ففي شهر حزيران/يونيو ٢٠٠١، وبعد وقت قصير من زيارة البابا لسورية، والذي أدلى خلالها الأسد بأقوال فُهمت من قبل الكثرين على أنها تصريحات معادية للسامية (أنظر الفصل السابع)، قام بشار بزيارة باريس والتقى مع الجمعية الوطنية ومع أعضاء مجلس مدينة باريس. وقد وُجهت له خلال اللقاءات انتقادات شديدة بسبب تصريحاته،[٣٠] إلا أنه لم يتوانى عن عقدها ويبدو أنه قد انتبه جيداً إلى ما قيل فيها. والإثبات على ذلك هو أنه قد توقف عن إطلاق تصريحات من ذلك النمط، وتوقف عملياً بشكل نهائي عن ذكر اليهود في أقواله.

مثقف ومفكر

لقد حرص بشار على تقديم نفسه كمفكر، ففي مقابلة مع صحيفة **الشرق الأوسط** قال إنه معتاد على تخصيص بعض الوقت كل يوم للتأمل والتفكير.[٣١] ولكن إذا كان فعلاً يختفي خلف هيئة بشار الفارعة والمتقشفة واليابسة إلى هذا الحدّ ذلك المثقف فإنه من الصعب أن نعثر عليه. فقد لوحظت عليه في خطاباته

---

(٢٨) **الحياة**، ٨ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٢٩) التلفزيون السوري، ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

(٣٠) **هآرتس**، ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠١. وكالة رويترز، ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

(٣١) **الشرق الأوسط**، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠١.

بالذات الطريقة التعليمية والتفاخر أمام مستمعيه بعرض تحليل معمق يظهر فيه العناصر المختلفة للقضية المطروحة، ويحاول النزول إلى جذورها. ويجب الاعتراف أن ا لكثيرين ينظرون إلى خطابات بشار وتصريحاته على أنها مزعجة، وغامضة، بل ومجردة، وتفتقر بشكل خاص إلى الحيوية والنكهة الشخصية.

وعلاوة على ذلك، وجد مستمعو بشار مرات كثيرة صعوبة في النزول إلى عمق أفكاره ومقاصده. فعلى سبيل المثال، عندما سئل بشار في المقابلة التي منحها لصحيفة **الديلي تيليغراف** البريطانية في شباط/يناير ٢٠٠٤، إذا ما كانت سورية تطور سلاحا غير تقليدي، مثلما تتهمها بذلك إسرائيل والولايات المتحدة، اختار الإجابة بمحاضرة طويلة حول الحق الأخلاقي لسورية في تطوير مثل هذا السلاح وذلك استناداً إلى حقيقة أنها موجودة في حالة حرب مع إسرائيل. وسارع محري المقابلة، الذي لم يستطع الولوج إلى عمق التمييز الذي قدمه بشار بين البعد النظري والبعد العلمي، سارع إلى الإعلان بأن بشار اعترف أمامه بأن سورية تطور فعلاً سلاحا من هذا القبيل، وتسبب الأمر بإرباك كبير للسوريين. وحتى أن متحدثين رسميين في دمشق سارعوا إلى تكذيب أن يكون هذا قصد بشار، وادعوا أنه لم يتم فهمه كما يجب.(٣٢)

ويبدو أن بعض سوء الفهم بين بشار وبين الإدارة الأمريكية يعود في جانب منه إلى أجوبة بهذه الروحية، والتي كان بشار قد قدمها لوزير الخارجية الأمريكية كولن باول، وذلك عندما طلب منه وقف تهريب النفط العراقي عبر سورية، وبعد ذلك إغلاق مكاتب المنظمات الإرهابية الفلسطينية في دمشق وإلى وقف الدعم السوري لحزب الله.(٣٣)

في عقدة الهوية

إن التزام بشار بالعروبة لا يتطلب، للوهلة الأولى، تفسيرا أو إثباتا. وبالفعل فقد عاد في الكثير من تصريحاته وأكد كونه ابنا وفياً للأمة العربية، وكون سورية،

---

(٣٢) **ديلي تيليغراف**، ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. وكالة رويترز، ٦، ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٣٣) **الشرق الأوسط**، ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

كذلك، السور المنيع للعروبة، أو حسب أقوال صحيفة **تشرين**: "بشار الأسد هو الصوت القومي الأكثر وضوحاً وصراحة والذي يعبر اليوم بجرأة وشجاعة، وبمنطق أيضاً، وبالحكمة ورجاحة العقل، عن أهداف الشعب العربي وقيمه ومبادئه. وهو لا يمثل سورية، التي تشكل لوحدها قوة عربية وإقليمية هامة، بل يمثل تطلع الأمة [العربية] في كل مكان من المحيط [الأطلسي] إلى الخليج [الفارسي]، وضميرها، وآمالها وتطلعاتها، وكذلك مخاوفها".[٣٤] وفي هذا السياق قال بشار وأوضح: "لقد حاول الكثيرون تحطيم فكرة القومية العربية وذلك عن طريق مواجهتها بمشاعر محلية وطنية [قطرية]، والتي تصل إلى حدّ الانعزالية. وكان هناك حتى من حاول خلق التناحر بين القومية والإسلام.. كذلك كان هناك من حاول تحويل العروبة إلى رديف للتخلف والانعزالية.. ولكن كل هذا، طبعاً، غير صحيح".[٣٥]

لكن ورغم تصريحاته القاطعة حول التزامه بالعروبة، ظهر بشار أكثر من مرة كصاحب هوية قومية سورية، بشكل لا يقل، وربما بشكل أكبر من الهوية العربية. وهذا ليس بالأمر المفاجئ، ذلك أن بشار تربى في "سورية الأسد"، دولة لم تكن موضوعة كما كانت في الماضي في ظل علامة استفهام كبيرة في ما يتعلق بقدرتها أو بحقها في الوجود كدولة مستقلة. ويمكن أن نجد تعبيراً عن الرؤية السورية - العربية التي تُبرز الدولة الإقليمية السورية، وترى فيها حجر الزاوية الذي يمكن بل وربما يجب تأسيس سياسة سورية الإقليمية والدولية بالاعتماد عليها مهما بلغت عدوى العروبية، في سلسلة من تصريحات لبشار على مدى سنوات، بعضها قبل أن يصعد إلى سدة الحكم.

مثال واضح على ذلك موجود، على سبيل المثال، على موقع الإنترنت الخاص بالجمعية المعلوماتية التي يقف بشار على رأسها، والتي دُشنت من قبله في نيسان/أبريل ١٩٩٨. فمن يدخل إلى الموقع يعلم أنه حدثت في سورية، أو بشكل أدق في الحيز السوري، أحداث مصيرية كانت لها مساهمة حاسمة في تطور

---

(٣٤) **تشرين**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٣٥) راديو دمشق، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

الحضارة: "اختراع الأبجدية واستخدامها لأول مرة، جمع أول إبداع موسيقي في التاريخ، أول ثورة زراعية في العالم، زراعة القمح، إنتاج أول أداة موسيقية، وأخيراً إقامة وإدارة أول مكتبة وأول أرشيف على أرضها". كذلك يمكن أن نعرف من خلال الموقع "على امتداد مئات آلاف السنين، منذ ظهر فيها الإنسان للمرة الأولى، لم تبادر سورية إلى مهاجمة بلد آخر، رغم أن الكثيرين قد غزوها على مر العصور. إلا أن التماس مع الغازين تحول إلى فعل ايجابي ساهم في كل الحضارات التي كانت على اتصال مع الحضارة السورية. فعلى سبيل المثال، منحت سورية للإمبراطورية الرومانية خمسة قياصرة، وكذلك أحد كبار مهندسي العمارة الذين شهدتهم الإنسانية وهو "أبولودوروس الدمشقي".[٣٦]

إن قراءة هذه الأقوال تُمكّن من فهم السبب الذي دفع بشار إلى اختيار تمثال 'فيليب العربي' بالذات لإهدائه للبابا يوحنا بولس الثاني كهدية تذكارية خلال زيارته إلى دمشق في أيار/مايو ٢٠٠١، والذي جلس على كرسي القيصر في روما في الفترة ٢٤٤ - ٢٤٩. وفي بيان للصحافة قال الناطق باسم القصر الرئاسي في دمشق إن "ماركوس يوليوس فيليبوس أنطونيوس، الملقب ب'فيليب العربي'، حكم روما في الفترة ٢٤٤ - ٢٤٩. وهو من مواليد "شهبا" الواقعة جنوب سورية سنة ٢٠٠. ويمكن أن نذكر من أعماله الهامة خلال سنوات حكمه، القضاء على الرق، وتحرير السجناء والسماح للمنفيين السياسيين بالعودة إلى بيوتهم. كما اشتهر فيليب بالتزامه بمبدأ سيادة القانون والتعامل بالتسامح الديني. ويعتقد مؤرخون أنه كان أول من وقّع على اتفاق سلام مع الإمبراطورية الفارسية"[٣٧] (من الصعب تجاهل الخيط الواصل الذي أراد مؤلف أقوال المديح هذه من وصله بين قيصر روما وبين الحاكم السوري، والذي قُدم في وسائل الإعلام كمن يدعو ليبني مبدأ القانون وتغليب التسامح الديني، وكمحرر أسرى وكمن سمح للمنفيين السياسيين بالعودة إلى بيوتهم).

---

(٣٦) للدخول إلى موقع الرابطة أنظر. www.scs-syrian.com

(٣٧) **الحياة**، ٦ أيار/مايو ٢٠٠١.

ويتضح أن الحيز السوري لم يمنح للإنسانية فقط قياصرة روما، بل باباوات أيضاً. ففي أقوال مباركته للبابا يوحنا بولس الثاني ذكّر بشار ضيفه بالقول: "ها أنت تطأ أرض سورية، مهد التاريخ الإنساني ومكان ولادة الحضارات الأكثر قدما.. ها أنت اليوم ضيف شعب كريم، كل أبنائه يعبدون الله الواحد ويستمدون منه اتكالهم.. وهم يفتخرون بماضيهم المجيد وبثقافات أجدادهم الكثيرة. وقد نقل لهم هؤلاء إرثا تاريخياً غنياً جعل من سورية مكانا للتسامح والحب، وملجأ للمطاردين وملتقى لجميع الأديان التوحيدية التي نزلت على مدى التاريخ. وأوضح شهادة على ذلك هي الأماكن الأثرية الكثيرة ودور العبادة المنتشرة في كل أنحاء سورية. وكذلك حقيقة أن ثلاثة من بطاركة الكنيسة الشرقية اتخذوا من دمشق مقاما لهم، وأن ثمانية من أبناء سورية جلسوا على كرسي البابا في الفاتيكان".[٣٨]

وقبيل زيارته التي قام بها إلى روما في شباط/فبراير ٢٠٠٢ تحدث بشار بدفء حول الإمبراطورية الرومانية التي سيطرت على الحيز السوري خلال مئات السنين فقال: "نحن السوريين كنا فعلاً مواطني الإمبراطورية الرومانية، حيث تدل حقيقة أن خمسة قياصرة سوريين حكموا روما على أن مواطني الإمبراطورية تعايشوا بتآخي. وفعلاً، عندما نتعلم [في المداس في سورية] التاريخ [تاريخ الحيز السوري في فترة حكم الإمبراطورية الرومانية]، لا نستخدم كلمة "احتلال" بل نشير إلى أنه كانت توجد إمبراطورية رومانية. حيث إنه في حالة الاحتلال لا يتمتع الإنسان بأية حقوق مهما كانت، ولم يكن هذا حال السوريين في الحقبة الرومانية".[٣٩]
وبمناسبة الزيارة التي قام بها بشار إلى أثينا في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، كتب خلف الجراد، رئيس تحرير صحيفة **تشرين**، إن: "العلاقة بين السوريين واليونانيين تمتد على مدى آلاف السنين، حيث يدور الحديث عن حضارات يبلغ عمرها آلاف السنين والتي اُشتهر أبناؤها بفضل اشتغالهم بالأدب والفلسفة والعلوم. كما أن أجدادنا الفينيقيين والكنعانيين والآراميين أقاموا صلات ثقافية واقتصادية مع

(٣٨) راديو دمشق، ٦ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٣٩) **الحياة**، ٢١ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

نظرائهم في أثينا وإسبارطة، والرئيس بشار ونظيره اليوناني يقومون اليوم إذاً بتجديد هذه العلاقة... ".[٤٠]

وخلال زيارته إلى لندن في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢ أعلن بشار، خلال مأدبة العشاء التي أجراها على شرفه رئيس بلدية لندن، أن "البعد الجغرافي بين دول العالم لم يشكل أبداً حاجزا أمام تطوير العلاقات المثمرة بينهم. وقد أقمنا [السوريون والبريطانيون] علاقات في الكثير من المجالات. فالفينيقيون قد وصلوا إلى بريطانيا منذ العام ١١٠٠ قبل الميلاد، والقيصر الروماني سيبطيميوس سيفيروس، السوري الأصل، مدفون في مدينة يورك، حيث كانت الدولتان جزءا من الإمبراطورية الرومانية".[٤١]

وأخيراً وخلال زيارته لمدينة الحسكة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ توجه بشار إلى المواطنين الذين تجمعوا لاستقباله في عاصمة المحافظة وقال: "كلكم تعرفون أن الوضع السائد في العالم وفي المنطقة من أعقد الأوضاع التي شهدناها خلال العقود الأخيرة. يمكن أن نغرق في التفاصيل، لكن يمكن أن نلخص ما يحدث حولنا في الجملة التالية: إن هناك من يحاولون منع الشعوب من حق الوجود بشكل لائق والحفاظ على شرفها. أي إن هناك من يريدون منعكم من العيش بشرف.. ولكن إذا عدنا لتاريخ سورية – أوليس لسورية تاريخ من ٦٠٠٠ عام، واليوم نحن نعرف [أن لها تاريخ] ١٠٠٠٠ عام – إذا عدنا إلى الوراء نكتشف أن كلمة خنوع غير موجودة في القاموس السوري، هي لم تكن موجودة فيه في الماضي، وهي ليست موجودة فيه اليوم ولن تدخل إليه في المستقبل أيضاً، ذلك أنه لا توجد قوة في العالم بإمكانها أن تجبرنا على القبول بما لا نريده، [لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تجبرنا] على التنازل عن حقوقنا.

"لا يعني هذا الكلام أننا أسرى في أيدي التاريخ، إننا نتطلع دائماً نحو المستقبل. إلا أن الإنسان الذي لا يوجد له ماضي هو إنسان بلا حاضر وبلا

---

(٤٠) **تشرين**، ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

(٤١) التلفزيون السوري، ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

مستقبل. وأنا أؤكد لكم بصدق أنه لكما كانت الظروف أصعب وأشد، فإننا سنعمل لتقوية أنفسنا ولتطوير الدولة. إن هناك من يعتقد أن الضغوط الخارجية ستدفعنا إلى التراجع، إلا أننا نقول لهؤلاء أننا سنتقدم وسنتطور".[٤٢] لقد كان هناك من رأى في أقوال بشار هذه ليس تعبيراً عن رؤية سوريّة في أساسها فقط، بل ضرورة لبشار لإظهار الإصرار والصلابة في مواجهة السهام التي أطلقت باتجاهه بسبب عمره الصغير ونقص خبرته (هذا الإصرار ميّز أكثر من مرة طريقة تصرفه في مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة).

تجدر الإشارة إلى أن الرؤية التي تستمد ايحاءها من مقولة "سورية التاريخية" أو "سورية الكبرى"، أصبحت شائعة جداً في دمشق في السنوات الأخيرة. ويلاحظ هذا الأمر من خلال تعامل نظام البعث مع الحزب القومي السوري ومؤسسه أنطوان سعادة (أنظر الفصل الرابع). وتدل على ذلك أيضاً أقوال وزير الدفاع مصطفى طلاس، بمناسبة صدور كتاب طلاس، **سورية الطبيعية، بحث جيوبولتيكي وجيوتاريخي**، والتي جاء فيها: "إن هذا الكتاب لا يتعارض مع فكر البعث، وذلك لأن وحدة **بلاد الشام** [سورية الجغرافية] تستطيع أن تشكل قاعدة لوحدة عربية ولجمع شمل العرب. فمن **بلاد الشام** يمكن أن تبدأ مسيرة توحيد المناطق الثلاثة الأخرى التي تكوّن العالم العربي: شبه الجزيرة العربية – وادي النيل – وشمال أفريقيا. وأكثر من ذلك فقد خرجت من بلاد الشام الفتوحات الإسلامية على يد بني أمية. إننا مهتمون بهذه الوحدة كهدف مرحلي سيفضي إلى الوحدة العربية، والتي هي هدفنا الاستراتيجي".[٤٣]

ولكن إذا كان طلاس قد كشف عن الالتزام بنبوءة "سورية الكبرى"، فيبدو أن بشار ركز بالذات على الدولة الإقليمية السورية، أي على نبوءة "سورية أولا". وفي نهاية المطاف فإن بشار كان ابن خمس سنوات عندما تولى والده السلطة، وهو لا يعرف واقعاً آخر باستثناء واقع الدولة الإقليمية السورية.

---

(٤٢) **تشرين**، ١٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٤٣) **الحياة**، ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

بين العلوية والإسلام

يبدو أن قضية الأصل العلوي لبشار لم تُلمس تقريباً في السنوات الأولى لحكمه، لا في شكل تصرفه الشخصي أو السياسي ولا في الجهاز السلطوي الذي بناه حوله. ومن المحتمل أن يكون بشار غير محتاج إلى التأكيد على أصله العلوي من أجل تجنيد أبناء الطائفة، حيث أن نقل السلطة إليه كان سلساً، وهو لم يضطر لشق طريقه إلى القصر وهو محاط بمجموعة من ضباط الجيش العلويين. ومن الممكن تفسير عدم التركيز على الأصل العلوي لبشار كونه ترعرع في دمشق (بخلاف والده، الذي ترعرع في قرية في قلب إقليم العلويين)، وشعر بالارتياح بالهوية السورية، التي كانت ذات مغزى بالنسبة له أكثر من تلك العلوية.

لا عجب إذاً أن بشار اختار أن يتزوج أسماء الأخرس السنية، وعلى هذه الخلفية يمكن فهم محاولته لتسريع توجّه "تشييع" الطائفة العلوية، التي كانت قد بدأت من قبل منذ أيام والده، بمساعدة وبغطاء ايرانيين. فخلال العقود الأخيرة أُرسل رجال دين ايرانيون، وحتى رجال دين شيعة من لبنان ومقربون لمنظمة حزب الله، من أجل الوعظ في القرى العلوية السورية، وحتى أن شباناً علويين أرسلوا لتلقي التعليم في المؤسسات الدينية في ايران. ومع ذلك، يبدو أن هذه العلمية لم تأت من أجل أسلمة أو من أجل تحويل أبنائها إلى شيعة أتقياء، بل فقط من أجل منحها، ومنح النظام الذي خرج من قلبها، شرعية من جانب المجتمع السني الذي يشكل الغالبية في سورية.(٤٤)

ومن المنطقي الافتراض أنه في ما يتعلق بموقع ومكانة الإسلام في سورية، فإن بشار قد ورث نظرة والده، ونظرة حزب البعث، كما هي. وهذه النظرة ترى في الإسلام دعامة هامة في تاريخ وميراث الأمة العربية الثقافي، ولكنها لا ترى فيه دينا للحكم. وتجدر الإشارة إلى أن مؤسس حزب البعث، المسيحي ميشيل عفلق، أراد

---

(٤٤) Martin Kramer, "Syria's Alawis and Shi'ism", in Martin Kramer (ed) Shi'ism, Resistance and Revolution, Boulder, Colorado: Wetview Press, 1987, PP. 203-204. وانظر أيضاً **هآرتس**، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

أن يرى في القومية العربية ما يشبه الدين الجديد الذي سيحل في المستقبل محل الإسلام. إلا أنه ومع صعوده إلى السلطة تراجع حافظ الأسد، ولو بشكل جزئي، عن هذه النظرة، وتبنى عوضا عنها "سياسة إسلامية" هدفت إلى تحويل سورية إلى "دولة إسلامية" تستمد شرعية دينية من تبني الإسلام ومؤسساته، والتي تتطلع إلى التحول إلى دولة مثل مصر أو إيران أو الأردن، والتي يلعب فيها الدين دوراً مركزياً في حياة الفرد، والمجتمع والدولة.

ومع ذلك امتنع بشار عن افتتاح خطاب القسم الذي ألقاه بتعبير "بسم الله..."، وهو تعبير ضروري في خطاب كل سياسي يحترم نفسه في العالم العربي - الإسلامي، وبذلك سار على خطى والده، الذي امتنع حتى عن بدء خطاباته بذلك، أو أن يضمنها أية اقتباسات دينية.(٤٥) ومن الخطابات واللقاءات التي أجراها بشار في السنوات الأخيرة ترتسم شخصية إنسان علماني لا توجد فيه ولو ذرة من التدين الإسلامي. وفي هذا السياق تُذكر شهادة الدكتور ادموند شولنبرغ، التي قال فيها إن بشار اعتاد على شرب الخمر (أنظر الفصل الأول).

ومع ذلك، فإن من بين الخطوات الأولى التي قام بها بشار منذ دخوله إلى السلطة هو أنه ألغى مرسوماً كان والده قد أصدره في بداية ١٩٨٢، في أعقاب كسر التمرد الإسلامي، حيث حظر على الطالبات في مختلف المؤسسات التعليمية في أنحاء سورية وضع الحجاب.(٤٦) وبعد ثلاث سنوات من ذلك، في حزيران/يونيو ٢٠٠٣، أصدرت دمشق مرسوماً سمح للجنود الذين يؤدون الخدمة الإلزامية بالصلاة في معسكرات الجيش، رغم أن العادة المتبعة هو إبعاد كل من يشتبه بميله إلى دين معين بعينه من صفوف الجيش.(٤٧) وكوالده، حرص بشار أيضاً على تكريس شخصية الحاكم المؤمن الملتزم بالإسلام والعامل باسمه. ففي تموز/يوليو

---

(٤٥) راديو دمشق، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(٤٦) باتريك سيل، **الأسد**، ص ٤١٥. وانظر أيضاً مقابلة المؤلف مع أكاديميين سوريين، واشنطن، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦، ١١ حزيران/يونيو ١٩٩٨. وكذلك **النهار**، ٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(٤٧) **أخبار الشرق**، ١٥، ١٧ أيار/مايو ٢٠٠٣.

١٩٩٩، وبعد ذلك أيضاً في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، تمت تغطية العمرة التي قام بها بتقارير موسعة. وتقدم وسائل الإعلام السورية تقارير دائمة عن مشاركته في صلاة الأعياد في المساجد في مختلف أنحاء الدولة. وقد حظيت بانتباه خاص، كما سبق وأسلفنا، صلاة يوم الجمعة التي أداها في مدينة حماة.(٤٨)

وجدير بالذكر أيضاً أن الصعود إلى السلطة ترافق بأداء قسم الثقة (البيعة) لبشار التي تضمنت خطبا في المساجد في كافة أنحاء سورية. وقد اختار راديو دمشق أن ينقل في بث مباشر الخطبة التي ألقاها مروان شيخو في مسجد الشيخ محي الدين العربي، وقال فيها إن "حافظ الأسد رعى قيم الدين. ودافع عن حقوق الأمة، وعن شرفها وعن أماكنها المقدسة. وقد قال لي أكثر من مرة أن عَلَم **الإسلام** سيبقى يرفرف فوق أرض سورية وأن سورية كانت وستبقى شعلة الإسلام، كما هي منارة للثقافة العربية وللإيمان..".

الأقوال التي لا تقل عبرة عن ذلك كانت الأقوال التي قالها، وتلك التي امتنع عن قولها في ما يتعلق ببشار: "بشار، الفريق بشار، تربى في بيت والده المؤمن، وحصل منه على قيمه... وقد قالت الجماهير له "نعم" من أجل أن يحمل الوديعة التي تلقاها من والده، من أجل أن يضع حداً للدمار وأن يقتلع الفساد من جذوره.. [مواطنو سورية] قالوا له "نعم" من أجل أن يُحدّث الدستور و"يقضي" على البيروقراطية، ويحسن الوضع الاقتصادي ويرفع مستوى المعيشة، وفوق كل شيء، من أجل أن يحصن سورية حتى تعيد لنفسها حقوقها المسلوبة".(٤٩)

كما أنه وقبل وفاة والده، أمر بشار بإطلاق سراح آلاف من عناصر 'الأخوان المسلمين' الذين كانوا معتقلين في السجون السورية منذ الثمانينات. وخلال الشهور الأولى من حكمه أطلق بشار سراح مئات الأشخاص من حركة التحرير الإسلامي المتطرفة، الذين اعتقلوا أواخر ١٩٩٩، على ما يبدو، بسبب معارضتهم

(٤٨) **الحياة**، ١١ تموز/يوليو ١٩٩٩. **تشرين**، ٤ تموز/يوليو ٢٠٠١. سانا، ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً راديو دمشق، ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

(٤٩) راديو دمشق، ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

لمحادثات السلام بين إسرائيل وسورية.[٥٠] بالإضافة إلى ذلك عمل بشار خلال عام حكمه الأول على السماح للاجئين السوريين، وسواهم، بالعودة إلى سورية. وحتى أنه أصدر، في حزيران/يونيو ٢٠٠٠، مرسوماً يمكّن المواطنين المقيمين في الخارج منذ أكثر من عقد دَفْع بدل مالي عن الخدمة العسكرية. وفي نيسان/أبريل ٢٠٠١ أصدر أوامره بمنح كل السوريين المقيمين في الخارج جوازات سفر لمدة عام، وذلك حتى يتمكنوا من العودة إلى سورية وتسوية أمورهم مع الجهات القضائية. ومع أن هذه الخطوة جاءت لتشجيع استثمار الأموال في الدولة، إلاّ أنها فُسّرت على أنها بادرة حسن نية لـ 'الأخوان المسلمين'، الذين تمكنوا من العودة إلى سورية كأفراد. واتضح بعد فوات الأوان، أن قلة فقط استفادت من هذه الإجراءات التي أدخلها بشار إذ أن الكثيرين ممن توجهوا إلى السفارات السورية في مختلف أنحاء العالم اصطدموا بعقدة البيرقراطية، وبطلبات رشوة، وفي بعض الأحيان حتى بمحاولات تجنيدهم في صفوف المخابرات السورية مقابل إعادتهم.[٥١]

وقد استغلت حركة 'الأخوان المسلمين' عملية نقل السلطة في سورية من أجل المحاولة لبدء صفحة جديدة في علاقاتها مع النظام في سورية. فعلى سبيل المثال، أعلن صدر الدين البيانوني من مقر إقامته في لندن إنه وعلى الرغم من معارضته للطريقة التي صعد بها بشار إلى السلطة، فهو مستعد لمد يده إليه في النضال المشترك من أجل الدفع باتجاه تقدم المجتمع السوري، شريطة أن يفتح هذا أيضاً صفحة جديدة في علاقاته مع الحركة، وأن يطلق سراح السجناء السياسيين وأن يسمح بالتعددية السياسية. وأضاف بيانوني أن "بشار ورث إرثاً ثقيلاً لعشرات السنين من الحكم الاستبدادي، لكنه لا يتحمل مسؤولية ما حدث في الماضي في حماة أو في أي مكان آخر، بل تنحصر مسؤوليته بما يحدث بعد أن يؤدي يمين القسم".[٥٢] وقد طلب من بشار أن "يسمح لنا بأن نعبر عن أنفسنا، لقد أطلق سراح ٥٠٠٠ من

(٥٠) **الحياة**، ١٧ حزيران/يونيو، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(٥١) **تشرين**، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً وكالة رويترز، ٢١ تموز/يوليو ٢٠٠٠. وكالة AP، ٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(٥٢) وكالة رويترز، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

رجالنا في العقد الأخير، لكن يزال ٤٥٠٠ منهم داخل السجون، وحوالى ٥٠٠٠ آخرين في المنفى، حيث يبلغ عدد هؤلاء مع عائلاتهم عشرات الآلاف".

ويبدو أن زعماء 'الأخوان' أرادوا أن يستفيدوا من الجو الجديد ومن الانفتاح والحوار الحاصل، ولو لزمن قصير، في سورية مع صعود بشار إلى السلطة. وقد أملوا أن يتمكن 'الأخوان' في ظل هذه الأجواء، والتي فُسّرت عند العديد منهم كمؤشر على ضعف النظام ونقص الخبرة لدى بشار، من إعادة تأسيس مكانتهم في سورية. كما أنه لم يكن بإمكانهم تجاهل المعارضة الشديدة للنظام من قبل المثقفين في دمشق، وكذلك استئناف نشاطات عناصر المعارضة المختلفة في سورية. وسارعت إلى الانعقاد، بشكل مفاجئ، ندوات المثقفين والشخصيات المعروفة، التي وجهت خلالها، وفي فترات متقاربة، انتقادات للنظام ودعوات لتغيير الواقع في سورية من أساسه. ولكن صوت 'الأخوان' ومؤيديهم لم يسمع بينها، وهو ما يدل على عدم ملاءمتها للواقع السوري. ويبدو أن زعماء "الأخوان" أقروا بذلك، ومن هنا جاءت الحاجة التي لمسوها للتذكير بحقيقة وجودهم (أنظر الفصل الرابع).

رجل العائلة

تدل أقوال بشار إلى صحيفة **الشرق الأوسط**، التي أوردناها في بداية الفصل، على رؤيته المستمدة من التراث، وخاصة من الواقع الاجتماعي الثقافي القائم في سورية. ومن خلال هذه الرؤية، ومن خلال الالتزام بشخصية آب – العائلة السورية، تزوج، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠، من عروسته أسماء الأخرس. ولأسبابه التي احتفظ بها لنفسه، فضل إقامة حفلة زفاف متواضعة بعيداً عن عيون وسائل الإعلام، وحتى إنه ربط الأمر بمعاناة الشعب الفلسطيني الذين يناضل ضد الاحتلال الإسرائيلي.

هذا وقد كُتب الكثير عن كون أسماء من الطائفة السنية، لكن يبدو أن زواجه حقق له ربحا سياسياً عاجلاً، على خلاف زواج والده من أمه، التي كانت كما ذكرنا من عائلة مخلوف التي تتمتع بقوة كبيرة. وبعد عام من زواجهما ولد ابنهما البكر، حافظ. وفي بداية تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣ ولدت ابنتهما الأولى

زين.[٥٣] وقد ظهرت أسماء كسيدة شابة ومليئة بالحيوية وعلى خلاف والدة بشار، التي امتنعت عن الظهور أمام العامة، درجت على مرافقة زوجها في زياراته الرسمية التي قام بها لدول مختلفة في العالم، وظهرت خلالها بمظهرها الغربي مؤثِّرة وواثقة. وكما هو متبع في أوساط الزعماء العرب، أخذت أسماء على عاتقها مهمة متابعة المواضيع الخيرية والاجتماعية في سورية. وقد بادرت إلى إقامة صندوق 'الفردوس' لتطوير القرية السورية، والذي يعمل على تشجيع المبادرات المنتجة صغيرة ومتوسطة الحجم في القرى والأرياف. وأكثرت خلال ذلك من جولاتها المغطاة إعلامياً.[٥٤]

وفي مقابلة مع صحيفة **الأوبزيرفر** البريطانية قالت أسماء إنه خلال الشهور الأولى التي أعقبت زواجها اعتادت على التجول متخفية، تلبس الجينز و'التيشيرت'، في مختلف المناطق القروية في سورية. "لقد أردت التعرف إلى السوريين قبل أن يتعرفوا عليّ، وقبل أن يعرفني العالم، وكان هذا الأمر بالنسبة لي كالحب من النظرة الأولى. الناس لم يعرفوني، واستطعت أن أطلع منهم على المشاكل التي يواجهونها، وما الذي يتمنونه لأنفسهم وبماذا يحلُمون.. أنا لم أتجسس عليهم، أردت أن أطلع منهم على أحوالهم وأعمالهم في حياتهم اليومية".[٥٥]

ولاشك في أن أسماء شكلت دعما لبشار في كل ما يتعلق بإبراز شخصيته كإنسان متحضر ومنفتح، الذي يكرس جل جهده ونشاطه في تقدم دولته. وقد قالت هي نفسها، وهي تلمح إلى العلاقات وموازين القوى بين الزوجين: "إنني أترك أعمالي تتحدث بدل أن أتحدث عنها بنفسي. وقد تبنّيت هذا الأسلوب لنفسي خلال إقامتي في بريطانيا. لا أريد أن أتحدث [باسم بشار]، ولكن منذ

---

(٥٣) سانا، ٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **الشرق الأوسط** ٢ كانون الثاني ٢٠٠١. وانظر أيضاً في إعلان في شأن الخطبة، **الوطن**، ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. وكذلك **الشرق الأوسط**، ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **الحياة**، ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٥٤) **تشرين**، ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٥٥) **الأوبزيرفر**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

اللحظة الأولى عرف أنني امرأة عاملة، وإن عملي، على سبيل المثال في شركة جي بي مورغان، يسرق الكثير من وقتي. وهو قد عرف أيضاً أن لهذا العمل أفضلية كثيرة في نظري".(٥٦)

نظام بشار

لقد عدنا وأكدنا مرارا أن بشار حاول خلال السنوات الأولى لحكمه القيام بعملية صيانة للتركيبة السياسية التي أسسها والده من دون أن يُدخل فيها تغييرات حقيقية. ومن المبكر أن نحلل نظام بشار، الذي يشبه من نواحي كثيرة نظام والده. لكن من المناسب أن نشير إلى عدة أمور لابد من تأكيدها:

الطاقم القريب

بالنسبة لكثيرين، فإن بشار وصل من مكان ما، أي أنه كما أسلفنا لم يأت من الجهاز العسكري أو من الحزب الذي استمد الرئيس تأييده منه وجنّد منه المقربين وشركاء الدرب. ومع ذلك، يبدو أن بشاراً حاول أن يبلور طاقما يساعده على تطبيق أفكاره وقيادة سورية للتغيير، مهما كان محدودا. وقد اعتمد هذا الطاقم على مجموعة من الشباب من أبناء جيله، القريبين من أفكاره، والذين هم مثله لم يأتوا من مكان محدد. ويُعد من جملة هؤلاء المقربين عدد من وزراء الحكومة السورية، الذين أتى بهم من الجمعية المعلوماتية السورية، حيث ساعدوه هناك بنشر بشرى الكومبيوتر والإنترنت في سورية (وهؤلاء هم وزير السياحة، ووزير الاتصالات، وفي ذلك الحين وزير التعليم العالي، وكذلك عماد زهير مصطفى، الذي عُيّن في شباط/فبراير ٢٠٠٤ سفيرا لسورية في واشنطن. وإلى جانبهم أيضاً، يُذكر مقربون آخرون مثل إياد غزال، المدير العام لشبكة القطارات، والذي عرفه بشار عندما كان يعمل تحت إمرته في القصر الرئاسي بدمشق، وذو الهمة شاليش، وهو عسكري سابق، والآن رجل أعمال، وكذلك رامي مخلوف، قريب عائلة لبشار ورجل أعمال نجح بالاعتماد على نفسه. ولكن من المشكوك فيه إذا ما كان

(٥٦) المصدر السابق.

هذا الطاقم قادراً على مساعدة بشار في السيطرة على الدولة، ذلك أنه لا يوجـد لأعضائها مراكز قوى خاصة بهم، ولا توجد لهم سيطرة أو تأثير حقيقي على جهاز الحكم في سورية.(٥٧)

إن عدم ملائمة هذه المجموعة من مقربي بشار لإدارة شؤون الدولة، وخاصـة لجهة تأمين وجود النظام، يظهر في كل نظرة مقارنة بينها وبين مجموعـة حـافظ الأسد (عائلات الأسد ومخلوف، أبناء عشيرة الكلبية، ضباط الجـيش العلويـون، وأخيراً مقربو وأصدقاء حافظ الأسد، وغالبيتهم من أبناء الطائفة السنية).

العائلة وأبناء العشيرة والطائفة

للوهلة الأولى، يبدو أن عناصر العائلة والعشيرة والطائفة لاتزال تلعـب دوراً هاما في نظام بشار (يوجد في محيطه المقرب أخوه ماهر، وبشكل خـاص أيضـاً صهره آصف شوكت، وتوجد أيضاً مجموعة من الضباط العلويين، وفي مقدمتـهم نائب رئيس الأركان علي حبيب، من عشيرة الأسد، والذين ينظر إليهم على أنهـم من المقربين الشخصيين في قيادة الجيش)، ولكن يبدو أن أخيـه وصـهره يبقيـان بعيدين عن كل ما يتعلق باتخاذ القرارات في شؤون الدولـة، وكـذلك الضـباط العلويون الموصوفون كمقربين له ليس من الضروري أن يكوّنوا مجموعة موحـدة ترى في بشار زعيما لها. ويبدو أن بشاراً يجد صعوبة في ترسيخ حكمه على أسس عائلية وعشائرية وطائفية قوية، كما فعل والده في حينه، وربما حتى أنه لا يعير ذلك الأهمية الكافية.

وقد لوحظت المصاعب، التي يواجهها بشار في ترسيخ مكانته وحشد التأييد له، بشكل خاص في التعامل الذي حظي به في أوساط حمولته، وكما ذكرنا مـن

---

(٥٧) أنظر على سبيل المثال **لو بوان**، ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٠. **الشـراع**، ٢٩ أيـار/مـايو ٢٠٠١. سانا، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. **الحياة** ١٤، ١٦ كـانون الأول/ديسـمبر ٢٠٠١. **أخبار الشرق**، ٢٦ أيار/مايو ٢٠٠٢. **يديعوت أحرونـوت**، ١٥ أيلـول/سـبتمبر ٢٠٠٢.
Eyal Zisser, "Who Really Rules Syria?", MEQ. Vol. X, No. 1 (Winter 2003), .PP.15-23

قبل، ومع تنصيبه، امتنعت عائلة الأسد الموسعة من الوقوف إلى جانب الرئيس الشاب بشكل واضح (أنظر الفصل الثاني). صحيح أن عمه رفعت مقيم في المنفى، لكن عمه جميل مازال في سورية وحتى أنه أُنتخب في آذار/مارس ٢٠٠٣ عضواً في مجلس الشعب ممثلاً عن محافظة اللاذقية. وحتى أن مشاكل حصلت داخل العائلة الصغيرة، كما يظهر من تقارير عن مشاحنات بين ماهر وبين "الزوج الملكي"، بشرى وآصف شوكت. بالإضافة إلى ذلك انتشرت شائعات عن توترات بين أنيسة، أم بشار، وبين زوجته أسماء.[٥٨] وصحيح أن التقارير الإسرائيلية عام ٢٠٠٣، التي تحدثت عن أن مدير مكتب ماهر قد توجه باقتراح إلى جهات إسرائيلية للبدء بمفاوضات سورية إسرائيلية، قد تم تكذيبها بشكل قاطع من قبل السوريين، إلا أنها أيضاً تدل على المصاعب التي يواجهها بشار في ضبط أبناء عائلته.[٥٩]

القيادة القريبة (الجماعة)

لقد وقفت إلى جانب حافظ الأسد جماعة [نخبة] قيادة كانت تربطها بالرئيس أربع أنوع من صلات القرابة: القرابة العائلية، العلاقة العشائرية أو الطائفية، علاقات الصداقة الشخصية، وعلاقات العمل. وكانت غالبية الأشخاص في تلك الجماعة، والذين لم يكونوا جميعهم من جيل حافظ الأسد، بشكل عام من السنة، مثل نائبي الرئيس (عبد الحليم خدام وزهير مشارقة) ووزير الدفاع مصطفى طلاس ووزير الخارجية فاروق الشرع وآخرين.[٦٠]

ومع بداية ولاية بشار، بقيت القيادة السورية، عملياً، على ما هي عليه، وذلك على خلاف ما حصل في الأردن، على سبيل المثال، حيث هز الملك عبد الله هناك أركان القيادة العسكرية والسياسية عندما قام بتبديلها بشكل كامل، تقريباً،

(٥٨) **معاريف**، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠٣، ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٥٩) **الوطن**، ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **فورين ريبورت**، ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

(٦٠) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ٤٨-٥٣.

خلال زمن قصير. وتركزت التغييرات التي أُدخلت على القيادة السياسية والأمنية في سورية على استبدال المسؤولين الكبار فيها. وقد امتنع بشار عن ترفيع الضباط الشباب الموالين له، إذا كان يوجد مثلهم، إلى المناصب الهامة، وذلك حتى يكونوا مراكز قوة يعتمد على دعمهم ساعة الحاجة. وحتى أن التغييرات في الجهاز الحكومي المدني - تجديد وجه الحكومة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ وفي أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، والتنقلات في أجهزة الحكم المحلي، ومؤسسات الحزب والمؤسسة الإعلامية - كانت في غالبيتها عديمة القيمة. وكان الحديث يدور، على أبعد تقدير، عن استبدال حزبيين وموظفين قدامى بحزبيين وموظفين شباب، وهم يحملون نفس رؤية المحافظة على الوضع الراهن.

لقد حذّر والد بشار كبار المسؤولين في القيادة السورية، وخاصة العسكرية - الأمنية، وسمح لهم بالوصول باطمئنان إلى سن التقاعد، وعندها تم إخبارهم بأن عليهم أن يخلوا أماكنهم. وكانت هذه العملية، كما سبقت الإشارة، ضرورية من أجل تنصيب بشار. التكتيك ذاته استخدمه الابن مع الحرس القديم لوالده. إلاّ أن إبعاد الحرس القديم خلال السنوات التالية - وهي خطوة كان من الصعب تفاديها بسبب تقدم عناصره في العمر - وإن كان قد يسهل الأمر على بشار على المدى القصير، إلا أنه لن يكون مناسبا لترسيخ مراكز القوة الخاصة به، وبالتأكيد ليس من النمط الذي يساعده على تطبيق الإصلاحات الضرورية أو على ضمان بقاء حكمه على المدى البعيد.

وخلال السنوات الأولى لحكمه لم يكن لبشار عملياً جماعة مقربة منه تتمتع بالقوة، وذات موقع خاص وسيطرة على مراكز القوى، للاعتماد عليها أو لأخذ مشورتها. إن القيادة السورية الحالية لم تكن وفيّة لبشار وفاء شخصياً لا يرقى إليه الشك، بل إنها أدت الولاء الرسمي، وفق ما يقتضيه تسلسلها القيادي. ولكن ذلك، كما هو معروف، لا يكفي، فقد ظهر غياب القيادة [الجماعة] المقربة والمنظمة أكثر من مرة، وبشكل واضح، بسبب صغر سن بشار ونقص تجربته. وقد ظهرت ادعاءات في إسرائيل والغرب، أكثر من مرة، بأن بشار قد قِيد وأُدير أكثر من كونه

قد قاد وأدار، وأن عملية اتخاذ القرارات في سورية تعوزها آلية توازنات وضوابط. وفي حالات كثيرة ظهرت القيادة القديمة كعنصر معتدل [ملطف]، ومن ذلك، على سبيل المثال، إظهار تحفظها من التشجيع الذي منحه بشار لنشاط حزب الله في جنوب لبنان، وفي محاولاتها تهدئة الخواطر هناك. وقد أذيعت تقارير في إسرائيل بأن من عمل على امتداد سنوات "الممثل الأعلى السوري" في لبنان، غازي كنعان، تحفظ على تصعيد حزب الله لنشاطاته ضد إسرائيل في بداية ٢٠٠٢، والذي تم بتشجيع من بشار (أنظر الفصل السابع).(٦١)

إن من الأهمية بمكان معرفة نظرة بشار إلى طابع قيادة السلطة المحيط به. ففي مقابلة مع محطة تلفزيون **العربية**، وفي رد على سؤال حول ما إذا كان الحرس القديم يحاصر خطواته، رد بشار بأن مصطلح 'الحرس القديم' إنما هو مصطلح صحفي. وبشكل عام، هل نعني عندما نقول قديم أنه قديم في العمر؟ أو للقديم في منصبه؟ أو نقول ذلك لأنه يدافع عن مصالحه؟ أنا أعتقد أن المقصود بذلك هو الحالة الثالثة، أي أن الحديث يدور عن أشخاص يحافظون على مصالحهم. ولكن يوجد مقابلهم الحرس الشاب. لكن المشكلة لا ترتبط بهؤلاء أو بهؤلاء. فالأمر مرتبط بجدول الأعمال العام الموجود في الدولة. فها نحن قد استبدلنا الكثير من الأشخاص، ولكن من أجل الحقيقة يجب استبدال كل من لا توجد له قيمة، سواء أكان ينتمي إلى الحرس القديم أو الشاب".(٦٢)

الضباط العلويون

لقد كان النظام الذي أورثه حافظ الأسد لابنه يعتمد على شريحة كبار الضباط العلويين، والتي يرتبط النظام بها من أجل ضمان استقرار الدولة وضمان استقراره. وقد كان هؤلاء الضباط شركاء، بعضهم علانية وبعضهم خفية، في جهاز السلطة السوري. ولم تنبع مكانتهم وقوتهم من بنود أو من روح الدستور

(٦١) **هآرتس**، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **يديعوت أحرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٦٢) قناة تلفزيون العربية، ٩، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٣.

السوري فقط، بل عكست موازين القوى السائدة في التحالف الذي يعتمد عليه النظام. وعلى الرغم من أن العلويين يشكلون أقلية نسبتها ١٢% فقط من مجموع السكان في سورية، إلا أن الغالبية الساحقة من قادة الجيش ورؤساء أجهزة الأمن كانت من العلويين حيث وصلت نسبتهم إلى ٩٠ %.

ويمكن بالفعل الإشارة إلى عدد من الضباط المقربين لبشار، وذلك بسبب المناصب التي يشغلونها، وفي مقدمتهم نائب رئيس الأركان ورئيس الأركان. ولكن قضية إلى درجة يرى فيها الضباط بشار على أنه "واحد منهم" لا زالت مفتوحة. فقد امتنع بشار عن إقامة علاقات شخصية واستمر في الاعتماد على النظام المعمول به في التسلسل القيادي وعلى إحساس التعاضد العشائري الذي نماه والده، والذي لا يزال موجوداً بفعل قوة الاستمرار. ولكن منظومة تعتمد القوة والعنف، مثل هذه المنظومة السورية، لا تُظهر حالة ضعف أو حالة فراغ في السلطة على المدى الطويل. ولكن ضعف بشار قد يشجّع أحد أصحاب مراكز القوى للتدخل باستخدام القوة. ويمكن الافتراض أن يكون هذا واحداً من الجنرالات العلويين، ربما حتى ضابط ذي رتبة متدنية نسبياً، والذي يتطلع اليوم إلى بشار وإلى طريقة إدارته باستغراب، والذي قد يصل إلى نتيجة مؤداها أنه إذا كان بإمكان بشار أن يكون رئيساً، فبكل تأكيد بإمكانه أن يكون هو كذلك. ويمكن وفي ظروف معينة أن يحاول تأسيس نخبة سلطوية جديدة على أساس التحالف الحاكم، وأن يبعد بشار وأبناء عائلة الأسد عن سدة الحكم.

ومن المناسب التذكير بأن طبقة الضباط السوريين كانت موجودة في حالة سبات على امتداد سني حكم حافظ الأسد، وأصبحت منقطعة عملياً عن كل ما يرتبط بإدارة الدولة (باستثناء بعض الأحداث المحددة مثل قمع تمرد 'الأخوان المسلمين' وتمرد رفعت الأسد). ولكن من المنطقي الافتراض أن الغرائز التي دفعت، في الخمسينيات والستينيات، الضباط، بشكل متكرر، إلى التدخل في ما يجري في الدولة لإحداث التغيير، ستعود لتستيقظ من جديد، عاجلاً أم آجلاً.

جهاز الإدارة المدنية

يقف في واجهة النظام السوري نظام سلطة رسمي يتشكل من المؤسسات التي توضع في يدها الإدارة الدائمة للدولة، وبشكل أساسي، حياة مواطنيها اليومية. وهذا النظام المتسلسل من المؤسسات، يستند إلى الدستور السوري أو إلى دستور حزب البعث، وهو يضم رئاسة الجمهورية، ومجلس الشعب والحكومة، ومؤسسات حزب البعث. وأهمية هذه المؤسسات تنبع من كونها أداة في يد النظام لحشد الشرعية العامة (الجماهيرية) والدستورية لخطواته. وتعمل هذه المنظومة من أجل مكافأة مؤيدي النظام، حيث أنها تمنحهم القدرة على الوصول إلى القوة السياسية وإلى القيادة الاقتصادية والاجتماعية. وحول تأثير هذه المنظومة على إدارة الحياة اليومية تشهد محاولة بشار الاعتماد عليها لتنفيذ الإصلاح في المجالات الاجتماعية والاقتصادية. ويبدو أن بشاراً قد أعطى أهمية كبيرة لإيجاد مجموعة من المقربين من أوساط الإدارة المدنية، التي ستساعده في التقدم العلمي والتكنولوجي لسورية أكثر من بناء حرس يعتمد على ضباط الجيش ونشطاء الحزب، حسب النموذج الذي اتبعه والده.

الحكومة السورية

إن المهمة الأساسية للحكومات في الدول العربية ليس بالضرورة إدارة شؤون الدولة بل لاستخدامها كيس ملاكمة أو وسيلة لحرف الانتقاد الجماهيري عن الرئيس أو الملك. ولهذا السبب يُكثر الحكام العرب من تبديل الحكومات كأداة لمواجهة الضغوط من الداخل، ومن هذه الزاوية، يتضح، أن بشار الأسد ليس استثناء عن ذلك.

فقد لُمست بصمات بشار منذ الحكومة التي أقيمت في آذار/مارس ٢٠٠٠. وكان هذا هو التبديل الأول للحكومة منذ حوالى عقد، وتم خلاله تبديل رئيس الحكومة محمود الزعبي (الذي شغل المنصب منذ ١٩٨٧) بمصطفى ميرو، وهو عضو قديم في حزب البعث، والذي عمل على امتداد العشرين سنة الأخيرة كمحافظ لكل من درعا والحسكة وحلب. كما أُبعد عن وظائفهم عدد من كبار

الوزراء القدامى، وحلّ مكانهم وزراء أصغر سناً، والذين وُصفوا على أنهم مقربين من بشار ومن فكره. وقد برز من بينهم بشكل خاص عصام الزعيم، من مواليد ١٩٤٠، الذي عُيّن وزيراً للتخطيط ودعا إلى إصلاحات اقتصادية (أنظر الفصل الخامس). ولكن، مع ذلك، اضطر بشار إلى التسليم باستمرار وجود وزيري المالية والاقتصاد القديمين، محمد العمادي وخالد المهايني، وذلك كحل وسط بينه وبين الحرس القديم الذي عارض إدخال تغييرات دراماتيكية، أكثر من اللازم، على تشكيلة الحكومة.(٦٣)

التوجه لدفع العناصر المهنية الشابة المقربة من بشار، لُمس بشكل قوي من خلال عملية توسيع الحكومة التي تمت في حكومة ميرو في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، والتي تمت فيها عملية استبعاد الوزراء القدامى حيث جرى استبدالهم بوزراء جدد. وكان من بين الوجوه الجديدة في الحكومة وزير الداخلية علي حمود، من مواليد ١٩٤٤ والذي حلّ محله محمد حربه. وكان حمود قد عمل في الماضي رئيساً للمخابرات العامة وشارك في قمع التمرد الإسلامي. ولم يكن أقل أهمية من ذلك استبدال وزيري المالية والاقتصاد القديمين. وقد عُيّن في منصب وزير المالية محمد الأطرش، من مواليد ١٩٣٤. والأطرش حاصل على شهادة دكتوراه في الاقتصاد من جامعة لندن، وعمل في الماضي مستشارا في البنك الدولي. وكان قد عمل وزيراً للاقتصاد في الثمانينات إلاّ أنه استقال بسبب خلافات مع رئيس الحكومة في ذلك الوقت رؤوف الكسم. أما منصب وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية فقد عُيّن فيه غسان الرفاعي، من مواليد عام ١٩٤٢، يحمل شهادة دكتوراه من جامعة ساسكس، والذي كان قد عمل في الماضي كواحد من نواب المدير العام للبنك الدولي للسياسة الاقتصادية. أما وزير التخطيط، عصام الزعيم فقد عُيّن وزيراً للصناعة.(٦٤)

---

(٦٣) أنظر Eyal Zisser, "Syria", in Bruce Maddy-Wietzman (ed), MECS. vol. XXIV (2000), pp.535-536. إيال زيسر، "من يحكم سورية فعلاً؟"، مصدر سبق ذكره، الملاحظة ٥٧، ص ٢١-٢٣.

(٦٤) سانا، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. **الحياة**، ١٤، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

ولكن يبدو أن أهم خطة أقدم عليها بشار كانت ضم ثلاثة من مساعديه السابقين في الجمعية المعلوماتية إلى الحكومة. وعلى خلاف الأسد الأب، الذي أحضر معه إلى السلطة زملائه من الجيش أو من رفاق نضاله السياسي، فإن بشار أحضر معه شركاء لحلم "ثورة الكومبيوتر والإنترنت". ومن بين هؤلاء سعد الله آغا القلعة، من مواليد ١٩٥٠، وحاصل على الدكتوراه في علوم الكومبيوتر من جامعة باريس والذي كان مسؤولا عن الإعلام في الجمعية العلمية السورية. ووزير التعليم العالي حسن ريشة، من مواليد ١٩٤٥، وحاصل على الدكتوراه في الهندسة من البوليتيخنيون من لينينغراد، والذي علم رئيساً للجنة العلمية في الجمعية المعلوماتية. ووزير الاتصالات محمد بشير المنجد، من مواليد ١٩٤٧، حاصل على الدكتوراه في الإلكترونيات مع جامعة باريس. والذي كان يعمل نائبا لبشار في الجمعية.[٦٥] وبالمناسبة، فإن عماد زهير مصطفى، المقرب من بشار، والذي عُيّن من قِبله سفيرا في واشنطن، كان في السابق عميد كلية علوم الكومبيوتر في جامعة دمشق، وعضو الجمعية العلمية السورية.[٦٦]

ولكن، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، وبعد ثلاث سنوات من استلام ميرو لمهام منصبه، وُصفت حكومته بأنها حكومة "الفشل الذريع" ووصلت بسرعة إلى نهاية طريقها (أنظر الفصل الخامس). وحل محله ناجي العطري، من مواليد ١٩٤٤، وهو أيضاً من أعضاء حزب البعث القدامي، ويحمل إجازة جامعية في هندسة البناء من جامعة حلب، وشهادة ماجستير في تخطيط المدن من جامعة هولندية، وعمل في الماضي رئيساً لبلدية حلب، ورئيساً لرابطة المهندسين في المدينة وفي سورية كلها، ومحافظا لحمص. وكان عطري قد عمل في حكومة ميرو نائبا لرئيس الحكومة لشؤون الخدمات، وفي آذار/مارس ٢٠٠٣ عُيّن رئيساً لمجلس الشعب.[٦٧] وحيال

---

(٦٥) سانا، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

(٦٦) **الحياة**، ١٨ شباط/فبراير ٢٠٠٤.

(٦٧) **تشرين**، ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣. سانا، ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

الأقوال الصريحة التي كانت قد قيلت في سورية عن رغبة بشار بوضع وجوه جديدة في رئاسة الحكومة، وحتى أنها غير مرتبطة بحزب البعث، فإنه يجب أن نرى في تعيين عطري لشغل المنصب حلاً وسطاً بين بشار وبين قيادة الحزب، وإثباتا آخر على محدودية قوته كرئيس.(٦٨)

وإلى جانب تعيين العطري أُجريت في الحكومة السورية تغييرات واسعة، فبداية خُفض عدد الوزراء من ٣٥ - ٣٠ وزيراً، نصفهم من الوجوه الجديدة. فوزير الإعلام مثلاً، عدنان عمران حل محله أحمد الحسن، الذي كان قد عمل سفيرا لسورية في طهران. وظهرت من بين الوزراء الجدد بثينة شعبان وزيرة شؤون المغتربين، شعبان من مواليد ١٩٥٣، تحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي من جامعة يورك/وتحاضر في الشعر والأدب المقارن في جامعة دمشق، وقد عملت مترجما خاصاً لحافظ الأسد، وبعد ذلك لابنه بشار، وعُيّنت متحدثة باسم وزارة الخارجية السورية، ومن هناك رُقيّت إلى منصب وزيرة.(٦٩) وكان من التعيينات البارزة أيضاً تعيين هاني مرتضى، رئيس جامعة دمشق، وزيراً للتعليم العالي. وتعيين علي سعد، عميد كلية التربية في الجامعة ذاتها، وزيراً للتربية.(٧٠)

عصام الزعيم، الذي عُرف حتى ذلك الوقت، بانتقاده لبشار، أُقيل من منصبه، وبعد ذلك بوقت قصير صدر مرسوم بمصادرة ممتلكاته وأُعلن أنه متهم بالتحايل وبتلقي الرشوة. واتضح أن الزعيم والنافذين في مكتبه، وكذلك مسؤولين كبار في محافظة اللاذقية، متورطون في تخصيص ١٩,٥ مليون دولار لاحتياجات بناء معمل للنسيج في اللاذقية. إلاّ أن المعمل لم يُقَم أبدا، كما أن المال الذي خُصّص لذلك لم يذكر أبدا.(٧١)

---

(٦٨) **وول ستريت جورنال**، ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **الحياة**، ٢٧، ٢٨، أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(٦٩) **تشرين**، ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(٧٠) **تشرين**، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(٧١) **تشرين**، ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

مجلس الشعب

يقف مجلس الشعب على رأس المؤسسات الدستورية في سورية. وهو يضم ٢٥٠ عضواً منتخبا في انتخابات مناطق مرة كل أربع سنوات. وحوالى ٦٠% من أعضاء المجلس هم من أعضاء الجبهة الوطنية التقدمية، التي تضم كافة الأحزاب السياسية المسموح نشاطها في سورية، وعلى رأسها حزب البعث. أما بقية الأعضاء فهم مرشحون مستقلون. وتجدر الإشارة إلى أن مجلس الشعب هو هيئة رمزية وحسب، وليست لديه القدرة على اتخاذ القرار أو القدرة على التأثير في سياسة النظام أو على إجراءاته.

لقد جرت أول انتخابات لمجلس الشعب في عهد بشار في الثاني من آذار/مارس ٢٠٠٣، وقد منحت هذه الانتخابات لبشار، للوهلة الأولى، الفرصة ليحاول استخدام المجلس لإدخال تغيير معين. ولكن بشار امتنع عن إدخال تغيير كهذا: إذ بقي عدد أعضاء المجلس على حاله، وكذلك نسبة الأعضاء المستقلين. ففي انتخابات المجلس أُنتخب ١٦٣ عضواً من الجبهة الوطنية التقدمية، منهم ١٣٢ عضواً من حزب البعث و٣١ عضواً من الأحزاب الدائرة في فلكه.(٧٢) ورغم أن ١٠,٤٠٥ شخصاً قدموا ترشيحهم لعضوية المجلس، إلاّ أن الانتخابات دارت عملياً بين قوائم المرشحين المستقلين، وغالبيتهم من التجار ورجال الأعمال أو أصحاب المهن الحرة.

لقد انزلقت معركة الانتخابات أكثر من مرة إلى العنف، وكثرت فيها الاتهامات المتبادلة بشراء الأصوات وتخريب اللافتات الدعائية. وحتى أن التقارير الواردة من دمشق ذكرت أن كلفة الحملة الانتخابية بالنسبة للكثير من المتنافسين

---

(٧٢) **تشرين**، ٦ آذار/مارس ٢٠٠٣. **الحياة**، ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٣. تتوزع مقاعد المجلس على أحزاب الجبهة على الشكل التالي: حزب البعث-١٣٢، الاتحاد العربي الاشتراكي (صفوان قدسي)-٧، الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي (فايز إسماعيل)-٧، الحزب الشيوعي (جناح بكداش)-٤، الحزب الشيوعي، جناح يوسف فيصل-٤، حركة الاشتراكيين العرب (جناح عثمان)-٢، الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي (فضل الله نصر الدين)-٤، الاتحاد الاشتراكي العربي (أحمد الأحمد)-٣.

المستقلين قدرت بحوالى مليون دولار، وهي الحقيقة التي تشير إلى الطبقة الاجتماعية التي أتى منها هؤلاء المرشحون.(٧٣) ورغم الوجوه الجديدة (١٧٨ من أجل ٢٥٠ عضوا) في مجلس الشعب، وغالبيتهم من الشباب، إلاّ أنه بالمجمل لم تجلب الانتخابات أي تغيير في مكانة المجلس داخل المؤسسة السياسية. ورغم ذلك، فقد انتخب لرئاسة مجلس الشعب محمد ناجي العطري، الذي كان يعمل نائبا لرئيس الحكومة لشؤون الخدمات. وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، وبعد أن عُيّن عطري رئيساً للحكومة، حلّ محله في رئاسة المجلس عضو حزب البعث محمود الأبرش.(٧٤)

حزب البعث

يمنح الدستور السوري لحزب البعث الأولوية في الحياة السياسية في الدولة. إذ يقول البند السادس في الدستور إن "حزب البعث هو الحزب القائد في المجتمع والدولة والذي يقف على رأس الجبهة الوطنية التقدمية، وهو يعمل على توحيد قوى جماهير الشعب وحشدها في خدمة أهداف الأمة العربية".(٧٥) وتنتشر فروع حزب البعث في أنحاء سورية، ويصل عبرها فكر الحزب إلى كل أنحاء الدولة. وتنتخب فروع الحزب مرة كل أربع سنوات ممثليها إلى المؤتمر العام للحزب، وهذا بدوره ينتخب مؤسسات الحزب: اللجنة المركزية، التي تعد ٩٠ عضوا. وإلى جانبها القيادة القطرية التي تعد ٢١ عضواً، وتشكل هذه الأخيرة القيادة العليا لحزب البعث وأكبر مؤسسة له في سورية. وحول مكانة القيادة القطرية تشهد حقيقة أنها هي من تسمي المرشح للرئاسة، ووفقاً لهذه التوصية يطرح المرشح للمصادقة عليه من قبل مجلس الشعب، وبعد ذلك في استفتاء عام. ويقف على رأس الحزب الأمين العام، وهو المنصب الذي يشغله بشار الأسد، مثلما فعل ذلك والده من قبله.

---

(٧٣) التلفزيون السوري، ١٨كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. **الشرق الأوسط**، ٢٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. راديو مونت كارلو، ٤،٥ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٧٤) راديو دمشق، ١٨ آذار/مارس، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٧٥) للإطلاع على نص الدستور السوري أنظر الفصل الثاني، الملاحظة ٢.

ومنذ أن صعد حافظ الأسد إلى سدة الحكم، وخاصة في العقـود الأخـيرة، طرأت زيادة كبيرة على حجم حزب البعث. ويتضح من التقرير الذي نُشر بمناسبة انعقاد المؤتمر السادس للحزب، فوراً بعد وفاة الرئيس، أن عدد أعضاء الحزب بلـغ ١,٩٠٤,٥٨٠ عضواً، من بينهم ٤٠٦,٠٤٧ عضواً عاملاً (العضوية العاملة هـي أعلى مرتبة عضوية في الحزب، والتي يأتي قبلها عضو مرشح، ونصـير). وتجـدر الإشارة إلى أن عدد المنتسبين لحزب البعث عام ١٩٧١ بلغ ٦٥,٣٩٨ عضواً، وفي عام ١٩٨١ بلـغ ٣٧٤,٣٣٢ عضـوا، وفي عـام ١٩٩٢ بلـغ ١,٠٠٨,٢٤٣ عضوا.(٧٦)

إن الزيادة الكبيرة التي طرأت على حجم حزب البعث لا تشكل بالضـرورة مؤشرا على شعبيته في أوساط السكان، أو على مدى جاذبيتـه أو علـى مـدى الاقتناع بأيديولوجيته، بل إن ذلك يدل، على ما يبدو، على انتهازية بحتة للمنتسبين الجدد، والذين تحول الحزب بالنسبة لهم إلى طريـق مـريح للتقـدم الاجتمـاعي والاقتصادي والسياسي. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الحزب عـانى مـن أزمـة أيديولوجية وذلك في ظل انهيار النظم الاشتراكية في شرق أوروبا، وانهيار الاقتصاد السوري. كما أن التزام الحزب بالعروبة وبالوحدة العربية أصيب بتصدعات جرّاء موافقة النظام على دفع مسيرة السلام مع إسرائيل، وكذلك الحوار مع الغرب، وفي ظل تنامي أحاسيس سورية وطنية، حتى بين أوساط قادة النظام. وأخيراً يبـدو أن

(٧٦) **النهار**، ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً حنا بطـاطو، الملاحظة ٢٥ في التمهيد، ص ١٧٨. يتضح من التقرير أن حوالى ٦٧,١٨% من أعضاء الحـزب اليوم هم تحت سن الثلاثين عاماً. و١٨,٧٥% تتراوح أعمارهم بين ٣٠-٤٠ عامـاً. ويشـكل الطلبة حوالى ٣٥,٧% من أعضاء الحزب. بينما يشكل الفلاحون ١٦,٥%، والعاملون في الدولـة ٢٠,٦%. وتشكل النساء ٢٩,١٤% من مجموع الأعضاء. ويوجد في الجيش ٢٧ فرعـاً و٢١٢ شعبة و١,٦٥٦ حلقة حزبية يبلغ عدد أعضائها ٢٥,٠٦٦ عضواً. وتشير المعطيات الأخـرى في التقرير إلى سيطرة مطلقة للحزب على قطاعات اجتماعية كثيرة. فعلى سبيل المثـال، ٩٩٨ مـن أصل القضاة الـ ١,٣٠٧ العاملين في سورية اليوم هم حزبيون. ويبدو أيضاً أن غالبية المفكـرين أيضاً مجندون في الحزب. و٥٦% من المحاضرين في جامعة دمشق حزبيون، وكـذلك ٥٤% مـن محاضري جامعة حلب، و٧٩% من جامعة تشرين، و٨١% من المحاضرين في جامعة البعث.

التطورات الديمغرافية التي شهدتها سورية في العقود الأخيرة، وخاصة عملية الهجرة المتسارعة من الريف إلى المدينة (أنظر الفصل الخامس) تثقل على بقاء الحزب مناسبا لناحية السياق التاريخي لقطاعات السكان الذين من المتوقع أن يلعبوا دوراً هاما في حياة سورية في الأعوام القادمة. ويظهر ضعف حزب البعث بشكل خاص في أوساط السكان الذين يعانون من ضائقة في الأحياء الفقيرة حول مراكز المدن.

وفي ظل هذه الأقوال يمكن أن نفهم سبب المخاوف من فقدان حزب البعث مواءمته (لعصره) وتراجع وزنه العملي في الحياة اليومية السورية، وذلك رغم الازدياد الكبير في حجم الحزب، حسب ما ورد في مداولات مؤتمره في حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وفي خطابه أمام ممثلي المؤتمر أكّد بشار على ضرورة تجديد وجه الحزب وأشار إلى أن "الأفكار الأيديولوجية لحزب البعث لم يتجاوزها الدهر بعد، وأن الاشتراكية هي فكرة مرنة لا يمكن حصرها في قالب جامد ومحدد، ولذلك يمكن تطويرها والعمل على رقيها"، لكنه أضاف أن "جاذبية الحزب مشروطة بدرجة قدرته على مواءمة نفسه مع الواقع القائم اليوم في سورية، ومع التطورات في مجالات الحياة المختلفة فيها".(٧٧)

إذاً، يبدو أن بشار سيستمر في استخدام الحزب، لكونه أداة مريحة وجاهزة، والأهم من ذلك أنه لا يوجد بديل سواه، لحشد التأييد الجماهيري الواسع، وخاصة في الأرياف وفي أوساط قطاعات الفلاحين والعمال. وبالفعل فقد عمل بشار، كجزء من محاولته لإلزام الحزب بتأييد سياسته وتطبيق خطواته، على استبدال القيادة، وهي خطوة مطلوبة في ظل حقيقة أنها لم تمر بعملية تحديث على مدى سنوات طويلة، فأقيل عدد من أعضائها كما أن بعضهم قد توفوا. كذلك حاول بشار إدخال توجه الانفتاح المحدود داخل الحزب، وذلك عندما أمر بإجراء انتخابات حقيقية لقيادات الخلايا والفروع في أوساط المستويات الحزبية الدنيا، والتي تعودت في السابق على تلقي قائمة المرشحين مكتوبة من الأعلى، والتي كان عليهم الموافقة عليها فقط.

---

(٧٧) راديو دمشق، ١٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

وقبيل انعقاد مؤتمر الحزب، جرت في أيار/مايو ٢٠٠٠ انتخابات تمهيدية في كل الفروع، وما دون الفروع، وفي كل أوساط الحزب، حيث تنافس فيها ٢٤,٧٠٣ مرشحا على مقاعد المؤتمر الـ ٦٥٠. وتجدر الإشارة إلى أنه قد شارك في المؤتمر حوالى ١٠٠٠ عضو، بما فيهم الـ ٦٥٠ المنتخبين، بالإضافة إلى ٣٠٠ عضو من المؤسسات العليا غير المطروحة للانتخابات، وحوالى ٢٠٠ ممثل بصفة مراقب. وقد فشل خلال التنافس المفتوح عدد من أعضاء الحزب البارزين ومن بينهم عدد من وزراء الحكومة في تلك الفترة.[٧٨]

وخلال مداولات المؤتمر اُنتخب من جديد الأعضاء في القيادة القطرية وفي اللجنة المركزية – وهما المؤسستان الأعلى في الحزب. وتدل نظرة على قائمة الأعضاء الجديدة أنه قد أُبعد عنها عدد من السياسيين القدامى وكبار الضباط الذين فقدوا مناصبهم خلال السنوات الأخيرة مثل محمد خولي وعلي دوبا وحكمت الشهابي ومحمود الزعبي وآخرين. ودخل إلى القيادة القطرية ١١ عضواً جديداً وعلى رأسهم بشار الأسد ورئيس الحكومة مصطفى ميرو. بينما عُيّن للجنة المركزية ٦٢ عضواً جديداً من بينهم ماهر الأسد ومناف طلاس، ابن مصطفى طلاس. كما أن تمثيل الجيش في القيادة القطرية قد انخفض إلى اثنين – هما مصطفى طلاس ورئيس الأركان السابق علي أصلان – مقابل أربعة في الماضي. وحتى في اللجنة المركزية، حُدّد عدد أعضائها من أوساط الجيش بعشرين.[٧٩]

وفي أعقاب عقد المؤتمر، تم على مدى النصف الثاني من عام ٢٠٠٠ تبديل قيادات فروع الحزب في أنحاء سورية. وقد جاء أمناء الفروع الجدد والقيادات الجديدة في غالبيتهم من الشباب. وتم انتخابهم في انتخابات وصفت بأنها "ديمقراطية"، أو على الأقل مقارنة بما كان متبعاً في السنوات السابقة.[٨٠] وبعد

(٧٨) أنظر إيال زيسر، "سورية"، الملاحظة ٦٠، ص ٥٣٩-٥٤٠.

(٧٩) سانا، ٢٠ حزيران/يونيو. **تشرين**، ٢١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٨٠) أنظر على سبيل المثال سانا، ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، **الثورة**، ٥، ٦، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

ذلك، وفي بداية ٢٠٠٤، أصدر بشار مرسوماً حول تحديد السن الإلزامي للخروج إلى التقاعد بستين عاماً وانطباقه على أعضاء الحزب المتفرغين الذين يعملون في أجهزة الحزب، وذلك بغية إفساح المجال أمام الأعضاء الشباب.(٨١) ورغم ذلك، فإنه من المشكوك فيه أن يجد بشار بين أعضاء الحزب الشباب وبين احتياطي مرددي الهتافات في الحزب مؤيدين أوفياء لنهجه الإصلاحي، ذلك أن الحديث لا يدور عن مواجهة بين الجيل القديم والجيل الجديد، بل حول قضية البقاء السياسي لجهاز لا يزال أعضاؤه يرون فيه أداة هامة لتحقيق مكانتهم الشخصية والسياسية.

وفي تموز/يوليو ٢٠٠٣ اتخذت القيادة القطرية لحزب البعث قرارا ذا أهمية تاريخية موضوعه "الفصل بين هيئات الحزب وبين المؤسسات الحكومية في الدولة". وقد حمل القرار الرقم ٤٠٨ وجاء فيه إن: "دور الحزب القائد هو التخطيط والمراقبة والتوجيه والإشراف والمحاسبة. وعلى منتخبي الحزب ومؤسساته الامتناع عن التدخل في الأعمال المعتادة للمؤسسات الحكومية وإفساح المجال للرفاق الذين تم انتخابهم لتلك المؤسسات للقيام بواجباتهم.. وكل تعيين لمنصب إداري أو تنفيذي في وزارات الحكومة سيتم بناء على أساس ملاءمة المرشح لهذه المهمة دون الأخذ بعين الاعتبار انتمائه الحزبي".(٨٢)

لقد أثار هذا القرار جدلاً شعبياً واسعاً، بالمصطلحات السورية، بين هؤلاء الذين أرادوا أن يروا فيه الخطوة الأولى على الطريق لتنحية حزب البعث إلى هامش الساحة السياسية، وبين هؤلاء، وهم في غالبيتهم من المتفرغين الحزبيين، الذين أبدوا معارضة قاطعة لأي مساس محتمل بمكانته. وبالفعل، وإلى جانب الاقتراحات بإلغاء "القيادة القومية" للحزب وذلك، في إطار عملية إعادة التنظيم المطلوبة، (٨٣) سُمعت أصوات، في الصحيفة الناطقة باسم الحزب مثلاً، تقول بأن "الجهاز السياسي القائم قادر على التجدد وتحريك عمليات التغيير والتطوير، وعليه فلا

---

(٨١) **أخبار الشرق**، ٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٨٢) **الحياة**، ٤ تموز/يوليو ٢٠٠٣. **تشرين**، ٥ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

(٨٣) **الرأي العام**، ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٣. **الحياة**، ١١ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

حاجة إلى تغييره أو إلغائه طالما أنه لا يزعج عملية تطوير الدولة".[٨٤]

ومهما يكن من أمر، فإنه لا يزال من المبكر الآن إعطاء تقييم عما إذا كان بشار سينجح في السير في الاتجاه الذي يتطلع إليه. حيث انه كان يريد إضعاف سيطرة الحزب على مؤسسات الحكم وتمكين قوات أخرى من حمل جزء من الفعل السياسي، فإنه من المشكوك فيه أن يتيح له زملاؤه في الحزب فعل ما يريد. وظروف تشكيل الحكومة الجديدة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ شكّلت، كما أشرنا سابقاً، إثباتاً واضحاً على ذلك.

أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية

إلى جانب حزب البعث، يسمح في سورية بنشاط عدد من الأحزاب الأخرى وخاصة أحزاب اليسار مثل الحزب الاشتراكي بفصيليه، وأحزاب ذات ماضي ناصري، غالبيتها من بقايا الوضع السياسي الذي كان سائداً في سورية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. وتلك الأحزاب موحدة في إطار الجبهة الوطنية التقدمية، وهي هيئة أقيمت في عام ١٩٧٢ ويترأسها الرئيس. بالإضافة إلى ذلك، حريّ التذكير بعدد من المؤسسات والمنظمات الشعبية التي من المفترض أن تمثل قطاعات مختلفة من المجتمع السوري، مثل الاتحادات المهنية واتحاد العمال والفلاحين والمنظمات النسائية وغيرها.

وقد حاول بشار إحياء تلك الأحزاب، إلاّ أن محاولاته ذهبت أدراج الرياح، ذلك أنها مثلت الواقع الذي ساد في الدولة في الخمسينيات والستينيات، والتي كان خلالها الشارع السوري بشكل مطلق أسير سحر القومية العربية من مدرسة حزب البعث وحليفه (فيما بعد عدوه الكبير)، رئيس مصر جمال عبد الناصر. وقد كان استعداد النظام، منذ عام ٢٠٠٠ وما بعد، إشراك الحزب القومي السوري، وأحزاب أخرى، أبعد ما يكون عن أن يمثل انفتاحا حقيقياً من جانبه، أو أن يكون تلبية لرغبة الجمهور، الذي نقل، في قسم منه على الأقل، وفي أوساط شرائح سكان

---

(٨٤) **البعث**، ٣ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

المدن، تأييده إلى الأوساط الإسلامية (أنظر في الفصل الرابع).

ومع مرور السنين تحولت أحزاب الجبهة أيضاً إلى مزارع خاصة والتي يجري التحكم فيها من قبل زعيم الحزب وأبناءه وعائلته. وبالفعل، وبعد وفاة عدد من زعماء الأحزاب، تمّ الاستعاضة عنهم، ولشدة الارتباك، بأقرباء لهم. فقد حلّ محل المؤسس والزعيم التاريخي للحزب الشيوعي، خالد بكداش، الذي توفي عام ١٩٩٧، زوجته وصال فريحه. وإذا لم يكن هذا كافياً، فهذا ابنهما عمر، قد عُيّن، عضواً في اللجنة المركزية للحزب وبدأ بإدارة شؤونه من قبل أمه. وقد أثارت سيطرة أبناء عائلة بكداش على الحزب احتجاجات بين صفوف أعضائه، وخاصة في منطقة دمشق. وأعلن عدد منهم انشقاقهم عن الحزب وإقامة فصيل شيوعي مستقل باسم "**مجموعة قاسيون**".[٨٥] وكان يوسف فيصل، عضو اللجنة المركزية، كما أُشير سابقاً، قد ترك الحزب عام ١٩٨٥، حيث أقام كتلة خاصة به، عرفت باسم الحزب الشيوعي – جناح يوسف فيصل. وقبل ذلك أيضاً ترك الحزب رياض الترك الذي أقام الحزب الشيوعي – المكتب السياسي.

حزب آخر موجود في الجبهة الوطنية التقدمية هو **حركة الاشتراكيين العرب** والتي كان مؤسسها وزعيمها الأول أكرم الحوراني، وهو أحد أبرز قادة حزب البعث في الخمسينات. وقد وقف على رأس هذا الحزب على امتداد سنوات طويلة عبد الغني قنوت، وبعد وفاته في آذار/مارس ٢٠٠١ حلّ محله مصطفى حمدون. وكان الأخير يعد سابقاً على قيادة حزب البعث إلاّ أنه اختلف مع أصدقائه، ففرّ من سورية، وبقي مدة ٣٥ عاماً منفياً في العراق. وفي عام ١٩٩٨ سمح له بالعودة إلى سورية، ويبدو أن ذلك قد تمّ بوساطة عمه وليد حمدون، وهو عضو في القيادة القطرية لحزب البعث. وقد جاء اختيار حمدون بفضل صفقة عقدها مع أحمد قنوت، نجل الزعيم المتوفى، الذي طلب الحصول على موقع قيادي في الحركة. واضطر قنوت الابن إلى الاكتفاء بعضوية اللجنة المركزية في الحزب. وقد أثار اختيار حمدون غضب عدد من أعضاء قيادة الحركة، الذين حاولوا أن يمنعوا بالقوة

(٨٥) **الحياة**، ٨ آب/أغسطس ٢٠٠١، ٣ آذار/مارس ٢٠٠٢. **الوطن**، ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

إجراء الانتخابات لزعامة الحركة، وتقدموا بعد ذلك بدعوى أمام المحكمة في دمشق – وهذه هي الدعوى الأولى من نوعها في سورية – طلبوا فيها إلغاء عملية الانتخابات.[٨٦] وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن عبد العزيز عثمان، كان قد ترك هذه الحركة في بداية التسعينات، حيث أسس حزباً خاصاً به أسماه حركة الاشتراكيين العرب – جناح عثمان. وقد توفي عثمان في بداية عام ٢٠٠١ حيث حلّ محله ابنه غسان عبد العزيز عثمان.[٨٧] وفي مقابلة أجراها عثمان في بداية ٢٠٠٤ قال إن حزبه يضم ٨٠٠٠ عضو يعملون في اثني عشر فرعا في أنحاء الدولة، الأبرز من بينها فرعا طرطوس ودمشق.[٨٨]

ومن الأحزاب المشاركة كذلك في الجبهة هناك أيضاً حزب **الوحدويين الاشتراكيين**، بزعامة فايز اسماعيل، وهو أيضاً عضو سابق في حزب البعث وقد ترك الحزب في وقت سابق أحمد عقل الأسعد، وبعد ذلك كريم الشيباني. وقد أسس أحمد عقل الأسعد بعد ترك الحزب عام ١٩٧٤ الحزب **الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي**. وتوفي الأسعد في آذار/مارس ٢٠٠١ وورثه في منصبه ابنه فراس الأسعد.[٨٩]

وفي النهاية، تجدر الإشارة إلى حزب **الاتحاد العربي الاشتراكي** بزعامة صفوان القدسي. وقد ترأس هذا الحزب في السابق جاسم علوان الذي يعتبر واحداً من أشد خصوم حزب البعث في السنوات الأولى لحكمه في سورية. وقد وقف علوان من وراء التمرد الذي وقع ضد نظام البعث في تموز/يوليو ١٩٦٣، والذي قتل فيه الكثيرون من مؤيدي الحزب بما فيهم هو نفسه. وفي عام ١٩٦٤ عاد الحزب واستأنف نشاطه بزعامة جمال الأتاسي. وفي السبعينات، بزعامة فوزي الكيالي وإسماعيل القاضي، انضم الحزب إلى الجبهة الوطنية التقدمية. وفي أعقاب

(٨٦) **الرأي العام**، ١٩ أيار/مايو ٢٠٠١. **الوطن**، ٦ آذار/مارس ٢٠٠١.

(٨٧) **الوطن**، ٦ آذار/مارس ٢٠٠١.

(٨٨) **الرأي العام**، ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٨٩) **الشراع**، ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠١. **الوطن**، ٦ آذار/مارس ٢٠٠١.

هذا تركه عدد من الأعضاء، وفي مقدمتهم جمال الأتاسي ويوسف الجعيداني. وفي عام ١٩٨٤ أُنتخب صفوان القدسي أميناً عاماً للحزب ولا يزال في منصبه هذا حتى اليوم. ولكن مساهمة عائلة القدسي للحزب لم تقتصر على شغلها لمنصب الأمين العام. ففي آذار/مارس ٢٠٠٠، عُيِّنت زوجة صفوان، بارعة القدسي، ممثلة عن الحزب في الحكومة في منصب وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل. وعلى ملاءمتها لمنصبها تشهد حقيقة أنه تم في الفرصة الأولى، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، إعفاؤها من منصبها بعد التعديل الوزاري الذي أدخل على الحكومة.(٩٠)

وقد عمل النظام السوري على تشجيع أحزاب أخرى للانضمام إلى الجبهة الوطنية. ومن تلك الأحزاب الحزب القومي السوري، الذي كان يُعرف في الخمسينيات بأنه الخصم المر لحزب البعث في الصراع على السلطة في سورية. وتجدر الإشارة إلى أن النظام السوري أبدى في نهاية التسعينيات رغبة ببدء صفحة جديدة في علاقاته مع هذا الحزب، مثلا، عن طريق المقالات التي نشرت في الصحف السورية، والتي برّأت عملياً الحزب القومي من مسؤولية قتل عدنان المالكي، عام ١٩٥٥، وهو نائب رئيس الأركان وبعثي. وقد أدى مقتل المالكي إلى تصفية الحزب على يد القوى السياسية الفاعلة في سورية في ذلك الوقت، وفي مقدمتها حزب البعث.(٩١) وتمكن الحزب في عام ٢٠٠٢ من إقامة مهرجان احتفالي لإحياء الذكرى السنوية لإعدام أنطوان سعادة على يد السلطات اللبنانية، وبعد ذلك التقى بشار الأسد عدداً من كبار مسؤولي الحزب في لبنان، ومن بينهم عصام المحايري، رئيس المكتب السياسي للحزب، وجبران عريج، أمينه العام.(٩٢) وفي بداية عام ٢٠٠٣ دعي الحزب القومي السوري لحضور اجتماع أحزاب

---

(٩٠) **الوطن**، ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **الزمان**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠١. **الرأي العام**، ١٩ أيار/مايو ٢٠٠١. **الشراع**، ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

(٩١) للإطلاع على تفاصيل أخرى أنظر **الحياة**، ١١ آذار/مارس ١٩٩٩، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. راديو مونت كارلو، ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

(٩٢) **الوطن**، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. راديو مونت كارلو، ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. **السفير**، ٨ آب/أغسطس ٢٠٠١.

الجبهة، وبعد ذلك دفع بأكثر من عشرين مرشحا من قِبله للمشاركة في انتخابات مجلس الشعب التي جرت في آذار/مارس ٢٠٠٣. وقد كانت الحركة ممثلة عملياً على مدى اثني عشر عاماً من قبل باسل دحدوح، من دمشق، الذي تنافس كمرشح مستقل وليس كعضو في الحزب. وقبيل الانتخابات في آذار/مارس تم دمج مرشحي الحزب في قائمة الجبهة الوطنية التقدمية، وعلى رأسهم جوزيف سويد، والذي قُدِّم على أنه رئيس المكتب السياسي للحزب. وبالمناسبة لم يتم ذكر اسم باصيل دحدوح مع مرشحي الحزب وذلك بسبب "انحرافه عن مبادئه". وقد تمكن دحدوح وسويد على حدّ سواء، ومعهما مرشحين محسوبين على الحزب، من الفوز في انتخابات مجلس الشعب، والذي بات من الآن وصاعداً يضم حزبين يرى كل منهما نفسه استمرارا لطريق انطوان سعادة.(٩٣)

كذلك عمل النظام على استقطاب **التجمع الوطني الديمقراطي** بزعامة حسن عبد العظيم. وهذا التحالف هو عبارة عن تحالف واسع تأسس عام ١٩٧٩ وضم خمسة أحزاب معارضة: أولهما **الاتحاد العربي الاشتراكي الديمقراطي**، بزعامة عبد العظيم نفسه، والذي يتشكل من العناصر التي تركت الاتحاد الاشتراكي في أعقاب انضمامه في بداية السبعينات إلى الجبهة الوطنية التقدمية. كما ضم التحالف في عضويته - الحزب الشيوعي - المكتب السياسي. **حزب البعث العربي الاشتراكي الديمقراطي**، وهو جناح انشق عن حزب البعث، وضم بشكل رئيسي المؤيدين السابقين لصلاح جديد (الرجل القوي في سورية في الفترة ١٩٦٦ - ١٩٧٠)، ومؤيدي ابراهيم ماخوس الذي عمل وزيراً للخارجية في نظام صلاح جديد (وهما علويان). أما الحزب الرابع فهو حزب **الاشتراكيين العرب** بزعامة عبد الغني عياش، وهو جناح منشق عن الحزب الاشتراكيين العرب التابع لعبد الغني قنوت. وأخيراً **حزب العمال العربي** الثوري بزعامة طارق أبو حسن الذي أُسس في بداية الستينيات على يد ياسين الحافظ، الذي اعتبر في حينه

(٩٣) **الحياة**، ١٥ كانون الأول/ديسمبر، ٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. **الشرق الأوسط**، ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. **النهار**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٣. أنظر أيضاً راديو مونت كارلو، ٤، ٥ آذار/مارس ٢٠٠٣. **الزمان**، ٦ آذار/مارس ٢٠٠٣.

أحد واضعي الأسس الفكرية لجناح "البعث الجديد".[٩٤]

وفي بداية عام ٢٠٠١ التقى نائب الرئيس عبد الحليم خدام مع حسن عبد العظيم ومع رياض الترك من أجل دراسة إمكانية دمج التحالف الوطني الديموقراطي في الجبهة الوطنية التقدمية. ولكن هذا اللقاء لم يثمر ولم يَقُد إلى النتيجة المرجّوة.[٩٥] وفي أيلول/سبتمبر من العام نفسه، أُدخل الترك إلى السجن لمدة عام وذلك بسبب انتقادات وجهها للرئيس الراحل، وبذلك وصل الحوار بين النظام وبين التحالف في هذا الوقت، إلى نهايته. ومع ذلك بدأ أحد أحزاب التحالف، الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي، بإقامة سلسلة من المناسبات الجماهيرية، في ظل إغماض السلطات عينها عن ذلك، والتي شارك فيها عدد من ممثلي حزب البعث. كما أعلن الحزب عن عودة عدد من نشطائها المركزيين إلى العمل، وذلك بعد أن مارسوا العمل السري، أو على الأقل، امتنعوا عن النشاط العلني خلال العقد الأخير.

وبموازاة محاولته التوصل إلى تفاهم مع التحالف الوطني، بدأ النظام بإجراء حوار مع كريم الشيباني، رئيس **الحزب الاشتراكي العربي الناصري**، الذي تأسس في نهاية الثمانينيات. والشيباني نفسه علوي من اللاذقية، وكان في السابق عضواً في حزب الوحدويين الاشتراكيين، وانتخب من قبله ممثلاً عنه في مجلس الشعب عام ١٩٨٦، إلاّ أنه تركه أواخر الثمانينيات.[٩٦] إلاّ أن النظام حقّق نجاحا أكبر مع حزب **التجمع العربي الديمقراطي** برئاسة محمود الصوفي، الذي عمل وزيراً للدفاع في عام ١٩٦٣. وقالت تقارير صحفية في بداية التسعينات أن النظام هو من شجع على إقامة هذا الحزب، ولذلك كان من الطبيعي أن يتم دمج أسماء من مرشحي الحزب في قائمة مرشحي الجبهة الوطنية التقدمية لانتخابات مجلس الشعب التي

(٩٤) **الحياة**، ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠١. **الزمان**، ٥ أيار/مايو ٢٠٠١. **الشراع**، ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

(٩٥) **الحياة**، ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠١.

(٩٦) **الزمان**، ١٩ شباط/فبراير ٢٠٠١. **الشرق الأوسط**، ٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. **أخبار الشرق**، ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

أقيمت في آذار/مارس ٢٠٠٣. كما أن النظام نجح في جذب **الاتحاد الديمقراطي الوحدوي** إلى جهته، والذي أُقيم في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ بزعامة محمد بن محمود صوان، الذي كان قد انشق عن الاتحاد الاشتراكي.(٩٧)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العامل المشترك لكل القوى التي أراد النظام تقريبها منه كان تضامنهم المطلق مع السياسة الخارجية للنظام السوري وكذلك استعداد تلك القوى، على الأقل بشكل علني، بمنح الأفضلية للقضايا السياسية والأيديولوجية على الانشغال بـ "الصغائر"، مثل الدفع باتجاه تجديد الديمقراطية والحريات الشخصية السورية.

وخلاصة القول، إن بشار الأسد امتنع عن الدخول في صلب إجراء تغييرات حقيقية في جدول الأعمال الذي حدّده والده، على الرغم من أنه يبدوا أنه يريد إقامة جماعة من الموظفين الحكوميين الذين يساعدونه على دفع الإصلاحات الضرورية للدولة وفق رؤيته. والسؤال بالطبع هو إذا ما كان يستطيع فعل ذلك، أو بكلمات أخرى، هل بوسع مثل هذه المجموعة، مهما كانت متجانسة، أن تقود باتجاه تغيير حقيقي. وعلاوة على ذلك، ما هو شكل الرد الذي سيتخذه الضباط العلويون ومنتفعو الحزب، الذين يريد بشار، للوهلة الأولى، إقصائهم عن إدارة شؤون الدولة. وقد ذكر أكثر من مختص في الشؤون السورية، إنه إذا لم يفلح بشار في مد الجسور باتجاه أعضاء هاتين الجماعتين فإنه سيفشل في جهوده التي يبذلها لإدخال إصلاحات حقيقية في الدولة، وربما يفقد السلطة أيضاً.

---

(٩٧) أنظر **النهار**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

القسم الثاني

أمل لطريق جديد

الفصل الرابع

ربيع كاذب في دمشق

لقد لفت نظري أن الكثير من المقالات المنشورة في الصحافة العربية والغربية (حول الشأن السوري) استخدمت مصطلح "ربيع". ولكني لست واثقاً من أن الربيع هو أفضل فصول السنة. فهنالك من يفضلون الربيع، إلا أن هنالك أيضاً من يفضلون الشتاء أو الصيف. وعلاوة على ذلك فإن كلمة ربيع ترمز إلى شيء ما مؤقت، رغم أن الحديث يدور عن أحد فصول السنة. وعليه فإن استخدام هذا المصطلح (في سياق ما يجري في سورية) هو، حسب رأيي، استخدام خاطئ. فالفصول تتكرر في كل عام، والوضع على ما هو عليه منذ آلاف وملايين السنين. فمصطلح الربيع إذاً يتناقض تماماً مع المصطلح (الذي أردت استخدامه) من أجل وصف ما نقوم به في سورية، وهو مصطلح "تطوير". إننا لا نريد أن نبقى نُراوح في مكاننا. نريد تَقَدُّم وتطوير (قطرنا) ولذلك لا نستطيع أن نوافق على أن يقارنوا ما يحصل في سورية اليوم بالربيع.

(من مقابلة منحها الرئيس بشار الأسد لصحيفة ألبايس الأسبانية، أيار/مايو ٢٠٠١)

طبيعي أن تكون غالبية المواطنين السوريين لم تسمع باسم منذر الموصلي، عضو مجلس الشعب الذي يمثل منطقة دمشق. فالموصلي الذي عمل في الفترة ١٩٦٤ - ١٩٦٦ مديرا لمكتب الرئيس السوري في فترة أمين الحافظ، وتفرغ بعد ذلك لشؤون الصحافة والإعلام، اُنتخب عام ١٩٩٨ كعضو مستقل في مجلس الشعب. ولكن ومنذ انتخابه للمنصب، وتعيينه، بعد ذلك، عضواً في لجنة الشؤون

العربية والعلاقات الخارجية، قلّص الموصلي من حجم نشاطه البرلماني.[1] ومع ذلك يمكن، من خلال طريقه في مجلس الشعب، ومن المقاعد الخلفية، أن تُتاح الفرصة لأخذ العبر من صفحات التاريخ. فبعد عدة أيام من مصادقة مجلس الشعب على اقتراح إدخال التعديل على الدستور السوري في موضوع خفض العمر الأدنى لرئيس الدولة، وقف الموصلي خلال جلسة المجلس، التي نقلت هذه المرة مباشرة عبر التلفزيون السوري (كتعبير عن عصر جديد من الانفتاح مع صعود بشار الأسد إلى سدة الحكم) وقف واعترض على إجراء التعديل. وقد حرص الموصلي على التوضيح بأنه يؤيد،بشار ونهجه،تأييداً كاملاً. ولكنه حسب قوله، فإن القرار الذي اتخذه مجلس الشعب هو قرار غير قانوني على الإطلاق، ذلك أن البند ١٤٩ في الدستور السوري يقول بأنه "عندما يجري تقديم اقتراح تعديل لأحد بنود الدستور يجب تفصيل البنود المطلوب تعديلها، بما في ذلك الأسباب التي تستوجب هذا التعديل"[2]، وحسب ادعاء الموصلي فإن الحكومة السورية لم تَبذُل ما يكفي من الجهد لتقديم أي تفسير لأعضاء مجلس الشعب في الوقت الذي وضعت أمامهم اقتراح التعديل.

رئيس مجلس الشعب عبد القادر قدورة، وهو عضو قديم في حزب البعث، تصدى لذلك بشدة، وذَكّر الموصلي بأن النقاش في المجلس منقول على الهواء مباشرة وطلب منه التوقف عن أقواله. وعندما استمر الموصلي في أقواله هدده قدورة بإخراجه من المجلس. لكنه أصر على رأيه، ووقف ممثلون آخرون لتأييده، حتى أن بعضهم هاجم قدورة لمحاولة الإساءة إلى حرية التعبير لأعضاء المجلس، وقد سُمعت الأقوال في بث مباشر في التلفزيون السوري على هذا النحو:[3]

منذر موصلي: إننا لا نزال في ظل المصيبة التي حلت بنا مع رحيل حافظ الأسد. ونحن نريد أن نُبقي ذكره حيّاً بيننا، وفي الوقت نفسه، المحافظة على قوة

(١) لمعلومات أخرى عن الموصلي أنظر أيضاً **المجلة**، ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(٢) للإطلاع على النص الرسمي للدستور السوري أنظر الفصل الثاني، الملاحظة ٢.

(٣) التلفزيون السوري، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

مؤسساتنا. وهذا أمر ضروري في ظل النضال الذي لا ينقطع لشعبنا من أجل ترسيخ، والمحافظة على مؤسسات دستورية فاعلة. ويُسجَّل لصالح الرئيس الأسد أنه نجح في تقوية تلك المؤسسات، وترسيخها على أسس صلبة، وبخاصة الدستور. إن هذه المقدمة ضرورية، ذلك لأن الموضوع الذي أريد طرحه للنقاش اليوم، هام جداً. فنحن على وشك الوقوع في خطأ يحظر أن نقع فيه، وأنا أريد أن أناقش هذا الخطأ اليوم. إننا موجودون في مؤسسة تشريعية ولذلك يحظر علينا أن نتجاهل أخطاءنا. إن ما يُثقِل على قرارنا بتعديل القانون يتمثل في حقيقة أنه لم تُرفَق به الشروحات التي تُفصِّل الضرورات التي دفعت للتعديل.

رئيس مجلس الشعب عبد القادر قدورة (يقاطع أقواله): لستَ أنت من يقرر جدول أعمال المجلس وسير المناقشات فيه.

موصلي: إن اقتراح تعديل الدستور لم يُرفق بالأسباب التي تفسر ضرورة التغيير، كما هو مطلوب في الدستور.

قدورة (يقاطعه مرة أخرى): لقد قلتَ ما تريد. وأنا أجبتك، والأمر انتهى من وجهة نظري.

موصلي: علينا أن نصحح أخطاءنا. ولا ضرورة للخجل من هذه الأخطاء. نحن مجلس تشريعي ونحن نفاخر بدستورنا، وبزعيمنا وبشعبنا. ولا يمتلك أحد الحق في وقف أقوالي.

قدورة (توجه إلى أعضاء مجلس الشعب الذين رددوا عبارات التأييد لأقوال موصلي): لا تخطئوا أيها الرفاق. أيها الرفاق أنا من أتحدث الآن ولستم أنتم.

عضو آخر: إن من حقي أن أعبر عن رأيي. إننا موجودون على أبواب عصر جديد. ويحظر علينا أن نخدع أحداً ونحن نريد أن نتصرف بصراحة وبانفتاح.

قدورة: **لا** تجبرني على استخدام أنظمة مجلس الشعب (وأخرجك من النقاش).

العضو: افعل ما يحلو لك.

قدورة: أيها الأعضاء، في ما يتعلق بأقوال منذر الموصلي والتي جاء فيها أنه قد

تم تجاوز الدستور، فأنا أقول بشكل قاطع إنه لم يقع مثل هذا التجاوز. إذ وصلت إلينا عدة اقتراحات قوانين من السلطة التنفيذية. وقدمناها للمصادقة عليها. وإذا لم يكن قد تم إرفاق الشروحات بها، فهذا خطأ غير مقصود، وليس تجاوزا للدستور، ولذلك فإنني أطلب إنهاء النقاش في هذا الموضوع.

إن من كان يعتقد أن الموصلي سيجد عند مغادرته مبنى مجلس الشعب رجال الأمن بانتظاره ليعتقلوه على جرأته لتحدي إجراءات انتخاب بشار، وذلك على طريق التشكيك، ولو تلميحاً، بشرعية حكمه، أصيب بالمفاجأة. فقد غادر الموصلي المبنى كبطل، يرافقه أعضاء المجلس الذين انبروا للدفاع عنه. وأكثر من ذلك، قالت التقارير من دمشق إن بشار الأسد نفسه أعرب عن رضاه من النقاش المفتوح والحر الذي دار في مجلس الشعب، وقد نقل عن بشار قوله إن هذا كان من حق، بل من واجب، الموصلي أن يقول ما قاله، وإنّ ما حصل في مجلس الشعب شكل تطبيقا لمبدأ الانفتاح الذي يريد هو تطبيقه في سورية.(٤)

لقد تركز خطاب التنصيب الذي ألقاه بشار في السابع عشر من تموز/يوليو ٢٠٠٠، على مبدأ الانفتاح، والذي حرص فيه على التأكيد على التزامه المطلق بطريق والده الراحل، ولكنه قدم نفسه كحامل لبشرى التغيير، وإن كانت محدودة، والتي من شأنها ألا تُقوّض النظام، الذي أرساه والده على مدى ثلاثين عاماً من حكمه، من أساسه. وأضاف قائلاً لأعضاء المجلس، إن هذا التغيير هو ضرورة يمليها الواقع إذا أرادت سورية التقدم، وخاصة من الناحية الاجتماعية الاقتصادية، والذي سيتحقق من خلال استعداد نظامه، وهو نفسه، بإبداء المزيد من الانفتاح والتسامح والتعددية مقارنة بما هو مُتبَع في الدولة حتى اللحظة عينها.

وقال بشار أيضاً: "[من أجل أن نحقق هدفنا، علينا أن نكون مؤهلين للوصول إلى تقييم حقيقي للواقع. ولذلك مطلوب منا القيام بالأبحاث واستنباط العبر، ولكن ذلك يتطلب أيضاً واقعا يمكن الركون إليه. وعندما أقول الواقع، فإنني أعني الأرقام الدقيقة، حيث أنه ليس بوسع الرقم أن يكذب، ولذلك هو صادق وواضح، وعلى

---

(٤) راديو مونت كارلو، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وكالة رويترز، ٢٧حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

من يتعامل معه أن يتحلى بالصراحة والشفافية... فالشفافية ليست موضوعاً اقتصادياً أو سياسياً أو اجتماعياً. فالحديث يدور، عملياً، حول واقع ناجم عن الثقافة والقيم والتقاليد الاجتماعية. وعلينا أن نواجه أنفسنا بشجاعة – المواجهة عبر الحوار – والكشف عن نقاط الضعف والعادات والأفكار التي تحولت إلى عبء علينا وحاجزا في طريق الانفتاح والتطور.. إن الحديث يدور حول ضرورة تبني ذهنية التعاون وإظهار الانفتاح تجاه الآخرين. وهذه الذهنية لا تنقطع عن نهج التفكير الديمقراطي بل تندمج به... إن نهج التفكير الديمقراطي يقوم على التسليم بوجود الرأي الآخر.. إن الديمقراطية هي واجب ملقى علينا في تعاملنا مع الآخر، قبل أن تكون حقا نطلبه منه. إن التفكير الديمقراطي هو الأساس، والفعل الديمقراطي هو الموضوع الأساسي الذي ينبغي علينا التركيز عليه...".(٥)

لقد كانت رغبة بشار في إدخال التغييرات الاجتماعية والاقتصادية في سورية مفهومة على خلفية الضائقة الاقتصادية الشديدة التي انزلقت إليها سورية في العقد الأخير، والتي كان من المحتمل، وهذا ما كانوا يخشوه في دمشق، أن تؤدي إلى تهديد استقرار نظام البعث، وربما وجوده أيضاً. ولا شك في أن بشار كان يدرك هذا التهديد المحتمل، ولكنه في الوقت ذاته، كان يبدو أن خطواته جاءت كذلك لإدراكه، أكثر من والده، المزايا التي يمكن أن يحققها الاقتصاد السوري إذا أدخل النظام الإصلاحات الاقتصادية وأخرج الاقتصاد السوري من حالة الانغلاق على ثنفسه ودمجه في الاقتصاد العالمي.

ولكن بشار لم يُقيِّد نفسه في مجالي المجتمع والاقتصاد فقط. فخلال الخطابات التي ألقاها، والخطوات التي أقدم عليها، في الشهور الأولى لحكمه، كان يُلاحَظ أنه قلق من أجواء الكبت السياسي الذي كان يعاني منه المواطنون السوريون على مدى جيل كامل، وهذا ما يمكن أن يشكل عائقاً أمام جهوده لتطوير الدولة. وربما أنه قد أدرك، أنه في ظل الواقع الإقليمي والدولي والسوري الداخلي معاً – وفي ظل حقيقة أن اختراق الحدود أصبح في زمن العولمة واقعا لا يمكن تفاديه، فإنه بات من

---

(٥) للإطلاع على النص الكامل لخطاب بشار في مجلس الشعب أنظر **تشرين**، ١٨تموز/يوليو ٢٠٠١.

غير الممكن، بشكل طبيعي، الاستمرار في استخدام نظام القمع الذي كان سائداً في عصر والده في سورية، وبالتأكيد ليس بأسلوبه المعهود.

لقد وصل بشار إلى النتيجة المطلوبة، وهي أنه من الأفضل للنظام نفسه أن يبادر انتهاج الانفتاح قبل أن يفرض عليه الأمر بواسطة قوى من خارج سورية، أو لا سمح الله، من أعماق المجتمع السوري نفسه. كما أنه من المحتمل أن يكون بشار قد اعتقد بأن إصلاحا سياسياً محدوداً وموجها من الأعلى قد يساعده على تحسين صورة النظام، وخاصة شخصيته هو، في سورية وفي العالم، وربما حتى أنه يمكنه من تجنيد تأييد خطوات الإصلاح التي أراد تطبيقها في مقابل المعارضة المرتفعة من مراكز القوى القديمة.

بشار يصعد على طريق الإصلاحات

منذ أواسط تسعينات القرن العشرين، تكاثرت المؤشرات حول وجود جدل نشط في المجتمع السوري، وخاصة في القيادة السياسية والاقتصادية، حول الطريق المستقبلي للدولة في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. وقد ظهر في هذا النقاش معسكران أساسيان كان لهما رؤى متناقضة. فمن جانب وقف مؤيدو الوضع القائم، الذين أرادوا الإبقاء على الواقع نفسه والامتناع عن إدخال أي تغيير قد يؤدي إلى تقويض استقرار النظام، وفي الجهة المقابلة دعا آخرون، وإن كانوا قلة، إلى إدخال تغيير شامل في الفكر والنهج، وذلك من أجل تمكين النظام من تجاوز الصعوبات على الصعيدين الإقليمي والدولي، وبخاصة المصاعب من الداخل.[٦]

وخلال الشهور الأولى لحكمه فضل بشار دفع أفكاره بمساعدة معسكر الإصلاحات مع محاولة الالتفاف على الصدام بين المعسكرين، وامتنع عن الوقوف بشكل واضح إلى جانب أحدهما. كما امتنع بشار أيضاً عن تقديم تصور (نبوءة) شامل للطريق الذي يريد وضع سورية عليه. كما أن التطرق في تصريحات بشار

---

(٦) إيال زيسر، **سورية الأسد**، الملاحظة ٢٢ في التمهيد، ص ١٨٨-١٨٩. وانظر أيضاً **الوطن**، ١٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

العلنية إلى ضرورة إدخال التغييرات لم تُشِر إلى وجود تصور من هذا القبيل لديه أبدا. ومن المحتمل أنه ورغم إدراكه لضرورة تحريك العربة السورية إلى الأمام، فإن جل ما أراده كان تطبيق سلسلة من الإجراءات التقنية في جوهرها، هدفها تطوير ما هو قائم وليس بالضرورة تفكيك النظام القديم وإحلال نظام جديد على خرائبه. ورغم ذلك، فإنه قد كانت لخطوات بشار ديناميكيتها الخاصة.

في البداية، ومع تسلمه السلطة بدأ بشار بعملية واسعة من التغييرات الشخصية في مختلف أجهزة النظام – الأمنية – العسكرية والاقتصادية – السياسية، وذلك بهدف ضخ دماء جديدة في عروقها. وكانت بداية هذه العملية، كما ذُكر سابقاً، خلال الشهور التي سبقت وفاة حافظ الأسد، حيث تم تغيير كبار المسؤولين العسكريين والأمنيين في سورية، وبعد ذلك، في آذار/مارس ٢٠٠٠، تم تغيير رئيس الحكومة نفسه. ونُذكّر مرة أخرى هنا بأن غالبية وزراء الحكومة المنتهية ولايتها، وخاصة الوزراء الاقتصاديين الذين كانوا مسؤولين بدرجة كبيرة عن السياسة الاجتماعية الاقتصادية التي قادت سورية باتجاه شفا الهاوية، حافظوا على مناصبهم في الحكومة الجديدة [٧]، ولكن بعضهم، اُستُبدلوا في عملية لاحقة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، مع تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة ميرو. وخلال انعقاد مؤتمر حزب البعث في السابع عشر من حزيران/ينيو ٢٠٠٠ والانتخابات التي تلته، حدثت، كما سبق وذكرنا، تبديلات في كل مؤسسات الحزب (أنظر الفصل السادس). [٨]

كذلك تمت في تموز/يوليو – آب/أغسطس ٢٠٠٠ تغييرات واسعة في أوساط محرري الصحف ومدراء أجهزة الإعلام في سورية، وذلك بعد أن تم استبدال وزير الإعلام السابق محمد سلمان بعدنان عمران، بهدف مواءمة وسائل الإعلام السورية مع العصر الجديد. ولكن التغييرات جاءت أيضاً لرفع مستوى الإعلام السوري الذي تعرض لانتقادات شديدة خلال السنوات التي سبقت ذلك. فقد اُقتُبِس عن

---

(٨) الحياة، ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. وانظر أيضاً إيال زيسر، "سورية"، الملاحظة ٦٠ في الفصل الثالث.

وزير الإعلام السوري نفسه، كمن يشتكي، قوله: "لا توجد عندنا منظومة إعلامية. إنّ كل ما لدينا هو ثلاث صحف (تشرين والثورة والبعث) التي توزع كل منها ٦٠ ألف نسخة يومياً، يعاد نصفها إما بسبب سوء الطباعة أو انعدام الطلب عليها".(٩)

لقد كان أحد أبرز التغييرات في أوساط رؤساء التحرير هو تعيين محمود سلامة محررا لصحيفة الثورة. وسلامة الذي لا يُعتبر مع أعضاء البعث، تبنى بسرعة خطا منفتحا تجاه مؤيدي الإصلاح. حتى أنه خصص عدة صفحات في صحيفته للملحق الذي حمل اسم "قضايا فكرية"، حيث نُشرت فيه مقالات تطالب بإدخال إصلاحات في الدولة. فقد أصبح بإمكان قارئ ما أن يدعو على صفحات الثورة، على سبيل المثال، "لتنظيم العلاقات بين السلطة والمفكرين والاستعداد لعصر الشفافية والعولمة". فيما اعترف كاتب آخر أنه "لا يوجد في سورية جو من التعددية، ولا يسود فيه حكم القانون"، ودعا إلى "وضع نهاية للأساليب القبلية والطائفية التي يدار وفقها المجتمع السوري وأن يحل مكانها الإحساس بالانتماء للوطن". فيما دعا كاتب آخر إلى فسح المجال أمام المفكرين للإعراب عن رأيهم في المواضيع التي كانت تعتبر في الماضي في نطاق المحرمات (التابو)، مثل الدولة والجيش. وأخيراً، دعا كاتب آخر إلى "تشجيع تدخل العامة في القضايا الاجتماعية والحيلولة بهذه الطريقة دون مظاهر العنف التي من الممكن أن تعرض سلامة الوطن في سورية للخطر".(١٠)

---

(٩) **النهار**، ١٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **السفير**، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **الوطن**، ١٩ آب/أغسطس ٢٠٠٠. تجدر الإشارة إلى أنه قد أُعلن في التقرير الذي نشرته ص حيفة **الحياة** في ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢ أن ص حيفة **الثورة** تطبع في كل يوم ٤٠-٥٠ ألف نسخة، تباع منها ٢٧-٢٨ ألف نسخة يوميا. بينما تطبع **البعث** ٥٥,٠٠٠ نسخة تنجح في بيع ٧-٨ آلاف منها فقط. وأخيراً تطبع ص حيفة **تشرين**، ٥٥,٠٠٠ نسخة تباع منها ٢٢-٢٣ ألفاً فقط.

(١٠) أنظر على سبيل المثال **الثورة**، ١٥أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. وانظر أيضاً مقابلة محمد سلامة مع راديو BBC، ١٠ أيار/مايو ٢٠٠١.

وقد قال سلامة نفسه بعد ذلك إنه كان يتطلع إلى تحويل **الثورة** من صحيفة حكومية إلى "منبر اجتماعي"، وأضاف إنه "عندما بدأنا الحوار مع الأدباء والمفكرين أوضحا لهم أننا منفتحون أمام كل الآراء، شريطة أن تخدم مصالح سورية. وأنا لازلت متفائلاً، لكن من الواضح الآن أن الإصلاح سيتقدم بخطى محسوبة، معتدلة وتدريجية. وعلى أية حال يجب التقديم لها بإصلاح في الميادين الاقتصادية والإدارية والإعلامية".(١١) وقد أقيل سلامة من منصبه في بداية أيار/مايو ٢٠٠١ بضغط من معارضي الإصلاح في القيادة السورية، وبدأ العمل كمستشار في مكتب رئيس الحكومة. وقد توفي جراء نوبة قلبية، وهو في الستين من عمره، في بداية تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. واضطر النظام خلال السنتين التاليتين استبدال عدد من الوجوه الجديدة في وسائل الإعلام السورية ومن بينها مدير الوكالة السورية للأنباء، ومدير الراديو والتلفزيون وعدداً من رؤساء تحرير الصحف، وذلك بعد أن فشلوا، على ما يبدو، في تقديم البضاعة التي توقع الحصول عليها منهم.(١٢)

ثانياً، بدأ النظام بإطلاق سراح السجناء السياسيين- وهو التوجه الذي بدأ حتى في بداية التسعينيات، حيث أُطلق سراح عدة آلاف منهم من قبل حافظ الأسد، معظمهم من 'الإخوان المسلمين'، وعدد قليل منهم من الحركات السياسية المعارضة للنظام.(١٣) وفي تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ قدم بشار القانون رقم ١٧ لمصادقة مجلس الشعب، وينص هذا القانون على إصدار عفو شامل على سلسلة طويلة من الجنح الجزائية والسياسة. وجدير بالذكر أن بشار امتنع عن إصدار مرسوم رئاسي بهذا الشأن، كعادة والده، وطلب من مجلس الشعب إقرار قانون دولة يمنح العفو. وقد ذُكرت في القانون، للمرة الأولى،

---

(١١) **الحياة**، ٩ أيار/مايو ٢٠٠١.

(١٢) راديو دمشق، ٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. في أيار/مايو ٢٠٠٢ حل غازي الذيب محل علي عبد الكريم في منصب المدير العام لوكالة الأنباء السورية، كما حل فهد ديب محل قاسم ياغي في منصب المدير العام لدار النشر التابعة لصحيفة **الثورة**. أنظر **تشرين**، ١٠ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(١٣) إيال زيسر، **سورية الأسد**، ص ١٩٠-١٩٥.

حقيقة وجود سجناء سياسيين في السجون السورية.[١٤]

وفي أعقاب المصادقة على القانون في مجلس الشعب أُطلق سراح ٦٠٠ سجين سياسي، من بينهم أعضاء حزب العمال العربي، وأعضاء من حزب التحرير الإسلامي الذين اُعتقلوا أواخر ١٩٩٩ على خلفية معارضتهم لمسيرة السلام، وكذلك أعضاء حزب البعث الديمقراطي من مؤيدي صلاح جديد، وأعضاء من حزب البعث – الجناح الموالي للعراق – وأعضاء من لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان، [١٥] وفي نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ قرر بشار إغلاق سجن المزة وتحويله إلى معهد للبحث التاريخي. وقد وصف إغلاق السجن في الصحافة السورية بأنه "فتح صفحة جديدة في تاريخ سورية، تساعد على تأسيس حوار مع كافة قطاعات الشعب السوري".[١٦] وبعد ذلك جرت شائعات عن نية النظام إغلاق سجن تدمر أيضاً، إلا أن الأمر لم يخرج إلى حيز التنفيذ. ومهما يكن من أمر فإن تقارير حقوق الإنسان العاملة في سورية، والتي نُشرت في عام ٢٠٠٣، تشير إلى أن السجون في تدمر وصيدنايا ودوما وعدرا لا تزال تضم حتى الآن حوالى ٨٠٠ سجين، غالبيتهم من عناصر 'الإخوان المسلمين'.[١٧]

وثالثاً، بدأ النظام بتشجيع إصدار الصحف المستقلة. وكان من أوائلها **الدومري**، ورئيس تحريرها هو رسام الكاريكاتير علي فرزات. وقد رأت الصحيفة النور للمرة الأولى في ٢٠ شباط/فبراير ٢٠٠١. و"الدومري" لقب الشخص الذي يقوم بإشعال فوانيس الشوارع في دمشق في الأيام القديمة قبل انتشار الكهرباء. وقد وُزِّع من العدد الأول للصحيفة ٥٠,٠٠٠ نسخة، وتم تخاطفه من الأكشاك رغم سعره المرتفع نسبياً،

---

(١٤) وكالة الأنباء السورية، ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. وانظر أيضاً راديو مونت كارلو، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(١٥) **الحياة**، ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **الوطن**، ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(١٦) الوطن، ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(١٧) وكالة رويترز، ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. **الزمان**، ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

البالغ ٢٥ ليرة سورية (أي نصف دولار) وقد تضمن هذا العدد المقالات المثيرة للضحجة مثل تقرير حول النية في إجراء تغيير في الحكومة. ومع ذلك امتنعت الصحيفة عن مهاجمة النظام السوري والنظام الاجتماعي الاقتصادي، ولو بالإيماء.(١٨)

وقد حصل علي فرزات على ترخيص نشر مطبوعته مباشرة من بشار الأسد. وقد فُسّر الأمر بالمعرفة المسبقة بين الاثنين (أنظر الفصل السادس). وقال فرزات في افتتاحية العدد الأول من الدومري أنه "عندما وصل بشار بشكل مفاجئ لزيارة المعرض الذي أقمته في دمشق عام ١٩٩٤، سألته لماذا وصلت إلى هذا الوضع بحيث اضطررت لإقامة معرض خاص لرسومي التي حُظِر عليّ نشرها في الصحف المحلية، ولماذا كان عليّ أن أفعل المستحيل، دون جدوى، حتى يسمح لي بنشر تلك الرسوم، وهل من غير الممكن التعبير عن الرأي الحر إلا بالإشارة؟ وعلي أن أعترف أن رد بشار، الذي قاله فيه إنه لا يرى أي سبب لمنع الرسوم الكاريكاتورية وإخفائها عن عين الجمهور، أثار لدي سعادة كبيرة".(١٩)

ومع ذلك فقد عانت **الدومري** من قيود مختلفة فرضتها عليها السلطات، وهي ذات طبيعة تقنية، النقص في ورق الصحيفة، أخطاء في نظام الطباعة في دار النشر في صحيفة **الثورة**، أو التعميم الذي نشرته وزارة الإعلام في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ والذي ينص على أنه يجب على الصحيفة توزيع الصحيفة عبر المؤسسة الحكومية لنشر وتوزيع المطبوعات، وهي خطوة كانت تهدف إلى تحديد نشر الصحيفة وربح أصحابها. وقد أدت تلك الإجراءات إلى إغلاق الصحيفة بشكل متكرر في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ حيث احتجبت عن الصدور لأكثر من شهر. وفي آب/أغسطس ٢٠٠٣ أصدرت السلطات أمرا بإغلاقها.(٢٠)

---

(١٨) وكالة AP، ٢٦ شباط/فبراير ٢٠٠١، وكالة رويترز، ٣٠ آذار/مارس ٢٠٠١. وانظر أيضاً **الحياة**، ١٤ كانون الثاني/يناير، ٢٥ شباط/فبراير، ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

(١٩) **الحياة**، ٨ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٢٠) وكالة الأنباء الفرنسية، ٢١كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، ٢آب/أغسطس ٢٠٠٣. **الحياة**، ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. وانظر أيضاً رويترز، ٢٣ كانون الثاني/يناير، ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١. **الشرق الأوسط**، ٨ أيار/مايو ٢٠٠١. **السفير**، ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠١.

وفي كانون الثاني/يناير بدأت لجان الدفاع عن حقوق الإنسان برئاسة المحامي أكثم نعيسة، المقرب من الحزب الشيوعي، بنشر مطبوعة (دورية) اسمها **الإمراجي.** وقد اهتمت هذه المطبوعة بقضايا حقوق الإنسان في سورية، ولكن توزيعها كان ضعيفاً، وتُقرأ في أوساط المفكرين، وكان ظهورها متقطعا. ويبدو أن السلطات، قد امتنعت، لهذا السبب، عن اتخاذ إجراءات ضدها، رغم أنها لم تعطها مباركتها. وعلى نفس الشاكلة، امتنع النظام عن الرد على نشر دورية **تيارات** الصادرة عن الرابطة السورية لحقوق الإنسان.(٢١) وفي تموز/يوليو من عام ٢٠٠٢، وبمناسبة مرور عامين على استلام بشار للسلطة، ظهرت في الأكشاك دورية جديدة، حملت اسم "**أسود – أبيض**" لمحمد بلال، ابن رئيس الأركان حسن تركماني. وقد وزعت الصحيفة ١٠,٠٠٠ نسخة، وهي تهتم بشؤون المجتمع والاقتصاد، وخاصة العلوم، وامتنعت عن التطرق إلى المواضيع السياسية".(٢٢)

وبمناسبة مرور ثلاث سنوات على صعود بشار للسلطة، اتضح إذاً أنه يمكن عد الصحف التي سمح النظام بنشرها على أصابع اليد الواحدة. وباستثناء **الدومري، وأسود – أبيض**، دار الحديث عن صحيفة شاملة تحمل اسم **اقتصادية،** التي يقف خلفها رجل الاقتصاد وضاح عبد ربه، وكذلك بالإضافة إلى عدد من الملاحق الدعائية مثل: **التأمين والتنمية** لعبد اللطيف عبود، **الوسيلة** لزينة خير، **رقميات** وهي صحيفة عملية أسبوعية في مواضيع الاتصالات، **الكمبيوتر والمجتمع** وهي مطبوعة متخصصة بشؤون الكمبيوتر لليلى العقاد، **ودليل الأعمال** وهي صحيفة أسبوعية للإعلانات، **دمشقيات** وهي دورية شهرية ثقافية، **ملاعب والأصيل** وهما أسبوعيتان رياضيتان، **الوسيط العقاري** وهو ملحق للتسويق مختص بالعقارات، وأخيراً **المُعلِن والضو** وهما صحيفتان أسبوعيتان للإعلان. وتجدر

---

(٢١) **الزمان**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠١. **الرأي العام**، ٤ آب/أغسطس ٢٠٠١. **الحياة**، ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

(٢٢) **الحياة**، ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٢. وكالة AP، ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٢. وانظر أيضاً **الرأي العام**، ١ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **البعث**، ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. سانا، ١ آب/أغسطس ٢٠٠٢. **الشرق الأوسط**، ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

الإشارة إلى أن السلطات قد أصدرت في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ قانون المطبوعات الجديد والذي ينظم عمل المطبوعات والصحف، ليحل مع القانون القديم الذي سُنّ في عام ١٩٤٩ أيام حكم سامي الحناوي. لكن القانون الجديد وضع في يد رئيس الحكومة الإشراف على إصدار الصحف والمطبوعات، ولم يؤد، عملياً، إلى أي تغيير قانوني، في الواقع الذي تعمل فيه الصحافة السورية.

وفي كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ وافقت الحكومة السورية لمحطة الراديو "دمشق" على البدء بالبث في منطقة دمشق. وبعد ذلك أصدر بشار أمرا يسمح بعمل محطات محلية أخرى. وقد تم تقديم هذه الخطوة، بطبيعة الحال، كإثبات على إصرار النظام للاستمرار في الحفاظ على جو الانفتاح، ولكن في الواقع يدور الحديث عن محطة تجارية تبث الموسيقى والإعلانات فقط ولا تمس القضايا السياسية. ويبدو أن حقيقة اعتياد السوريين على الاستماع إلى محطات الراديو الأجنبية، وخاصة الفضائية، هو السبب الذي وقف وراء استعداد الحكومة للمصادقة على هذه المبادرة الخاصة.[٢٣]

رابعاً، لقد أراد النظام توجيه قسم كبير من الغليان الذي شعر به في أوساط القطاعات المختلفة باتجاه الأطر السياسية المسموح لها العمل في الدولة، وهي أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية. فقد شجع النظام تلك الأحزاب على زيادة نشاطها وفتح لها فروع في كافة أرجاء الدولة، وحتى إصدار الصحف. ففي أعقاب القرار عاد الحزب الشيوعي إلى إصدار الصحيفة الناطقة باسمه **صوت الشعب**، وحتى أن جناح يوسف فيصل بدأ بإصدار صحيفة ناطقة باسمه تحمل اسم **النور**. أما حزب الوحدويين الاشتراكيين فقد أعلن عن إصدار صحيفة تحمل اسم **الوحدوي**، وبعد ذلك بدأت ترى النور صحيفة **العربي** وهي لسان حال حزب الاشتراكيين العرب.[٢٤]

وتجدر في هذا السياق العودة إلى التذكير بأن التشكيلة السياسية في سورية لا

---

(٢٣) **الزمان**، ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **القدس العربي**، ١١ شباط/فبراير ٢٠٠١. سانا، ١٥ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٢٤) **الحياة**، ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

تتناسب على الإطلاق مع الواقع السائد في الدولة في مستهل القرن الحادي والعشرين. وأكثر من ذلك، فقد تقلصت نشاطات الكثير من الأحزاب الدائرة في فلك نظام البعث، وهي تُستخدم اليوم كدمى في واجهة عرض النظام، وهو ما أدى إلى تدهور آخر في مكانتها. وقد دلّت على ذلك، على سبيل المثال، أقوال دانييل نعمة، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي جناح بكداش الذي قال بأسف إن: "أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية مثلها مثل أحصنة حبست في الإسطبل لمدة ثلاثين عاماً، وهي الآن عاجزة عن التنافس في السباق مثلما يطلب منها بشار". وقد حذر نعمة أيضاً من "الإفراط في الديمقراطية"، ذلك أنه "إذا جرت الانتخابات لمجلس الشعب على الطريقة اللبنانية، أي انتخابات حرة تماماً، فإن البرجوازية والأوساط الأصولية ستسيطر على مجلس الشعب".[٢٥](أنظر الفصل الثالث).

معسكر الإصلاح يشق طريقه

إن الظروف التي رافقت صعود بشار إلى السلطة – كونه مرشح الحل الوسط أو مرشح اللاخيار، وشخصيته التي تتعارض تاما مع شخصية والده الراحل، بالإضافة إلى تركيبة القيادة السورية – كل ذلك أثار، كما سبق وذكرنا، شكوكا في مختلف أنحاء سورية حول قدرة بشار على الحلول محل والده. وقد زادت تصريحاته حول رغبته بالتغيير والانفتاح من تلك الشكوك وأثارت في نفر غير قليل من السوريين الإحساس بأنه منذ غاب الأب، فإن النظام السوري لم يعد سوى بناء متداع تكفي ركلة واحدة لتطيح به كله. وبالفعل أعرب الكثيرون داخل سورية وخارجها منذ بداية طريق بشار عن تقديرهم بأن كل محاولة من قِبَله لإدخال تغييرات على الصعيد السياسي، ولو كانت بسيطة، ستكون مثل إزاحة الغطاء من على قدر يغلي.

هذا الإحساس دفع الكثيرين إلى رفع أصواتهم مطالبين بتطبيق إصلاحات

---

(٢٥) **الرأي العام**، ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

بعيدة المدى في سورية، وحتى تأسيس ديمقراطية فيها. ومن بين هؤلاء بشكل خاص مفكرون ورجال أعمال ارتقوا سلم النجاح في العقد السابق وأرادوا استغلال قوتهم الاقتصادية من أجل تحقيق المصالح الاقتصادية والسياسية لهم ولأبناء طبقتهم. وقد حرص هؤلاء وهؤلاء، فعلاً، على تأكيد ولائهم لبشار، وحتى أنهم قدموا أنفسهم كمن يهمهم مساعدته، ولكن لا يوجد ثمة شك في أنهم يريدون استخدامه كمنصة للقفز منها لدفع أجندتهم الخاصة، والتي تهدف في نهاية المطاف إلى تفكيك النظام القديم.

وكان منذر موصلي، كما ذكرنا سابقاً، أول من تجرأ على اختبار حدود العصر الجديد، ولكن الكثيرين اقتفوا أثره. ففي الحادي والثلاثين من آب/أغسطس ٢٠٠٠، وبعد حوالى شهرين من صعود بشار إلى سدة الحكم، بدأ عضو مجلس الشعب ورجل الأعمال الدمشقي رياض سيف بعقد لقاءات أسبوعية في منزله في صيدنايا في ضواحي دمشق، أطلق عليها اسم **منتدى الحوار الوطني**. ولم يخف سيف نيته في تحويل المنتدى إلى إطار فكري - سياسي تحت اسم أصدقاء المجتمع المدني، وحتى أنه أعلن بعد ذلك عن نيته في تأسيس حزب سياسي، **حزب السلم الاجتماعي**، الذي سيضع هدفا لنفسه يتمثل في "إرساء والحفاظ على 'السلم الاجتماعي' بين الجماعات الإثنية والدينية المختلفة في سورية، وبين المواطنين ومؤسسات الدولة، وأخيراً 'السلم الاجتماعي' في الحياة اليومية والحياة السياسية في سورية".(٢٦)

لم بكن عقد اجتماع منتدى سيف أمرا يمكن التغاضي عنه، ذلك أنه وفق قوانين الطوارئ المعمول بها في سورية منذ استلم حزب البعث السلطة في آذار/مارس ١٩٦٣، طُبق حظر صارم على عقد أي لقاء سياسي بدون موافقة مسبقة. بالإضافة إلى ذلك، فإن أي تجمع يزيد على خمسة أشخاص كان يمكن أن يُعتبر في نظر السلطات اجتماعا غير قانوني ويستوجب إجراءات عقابية. وقد خبر هذا الأمر بنفسه سفير الاتحاد الأوروبي في سورية مارك فيوريني، الذي طُلب إليه

---

(٢٦) **الاتحاد**، ٣١ آب/أغسطس ٢٠٠٠، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

في تموز/يوليو ٢٠٠٠ إرسال نسخة مكتوبة من المحاضرة التي كان ينوي إلقاءها في ندوة ثقافية موضوعها "صورة سورية في وسائل الإعلام الأوروبية". وكان الرد غير الدبلوماسي للسفير هو:"أنا لست رياض سيف أو رياض الترك، بل سفير الاتحاد الأوروبي في سورية".(٢٧)

لكن اللقاءات في مترل سيف جرت بدون تدخل السلطات. بل على العكس من ذلك، إذ كان يلاحظ بين العشرات، وأحياناً مئات، الضيوف الذين يحتشدون في مترله عناصر، محسوبة على حزب البعث. وبعد ذلك، ومقتفين أثر سيف، بدأت تنتشر في سورية، كالفطر بعد المطر منتديات مختلفة، وصل عددها في بداية ٢٠٠١ في أنحاء سورية ٢١منتدى. وعملت في دمشق لوحدها خمسة منتديات، ومن بينها **المنتدى الثقافي لحقوق الإنسان**، الذي أسسه وأداره المحامي خليل معتوق، المعروف بقربه من الحزب الشيوعي. كما أُقيمت منتديات أخرى في مدن حلب وطرطوس واللاذقية، وحتى في مدن نائية مثل الحسكة والقامشلي ومصياف والسويداء.(٢٨)

وفي القامشلي، وهي منطقة تمتاز بارتفاع عدد مواطنيها الأكراد، تحول النادي البلدي، وهو النادي الثقافي باسم جلادت بدرخان، إلى منبر للمتحدثين الأكراد الذين طالبوا بأن يعترف النظام بحوالى مليونين من الأكراد الذين يعيشون في سورية كأقلية قومية وأن يوقف الضرر المستمر اللاحق بحقوقهم".(٢٩) وبموازاة ذلك انتشرت الاتحادات واللجان المختصة بالدفاع عن حقوق الإنسان، وكذلك سجناء الضمير المعتقلين في سورية. وطُرح اقتراح بتأسيس "مجلس وطني للحقيقة والعدالة والمصالحة على نمط ذلك الذي أنشئ في جنوب افريقية في أعقاب سقوط نظام التمييز العنصري".(٣٠)

وقد امتنع النظام السوري، كما ذكرنا سابقاً، عن العمل ضد المنتديات

(٢٧) **الحياة**، ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

(٢٨) **الزمان**، ١ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٢٩) **الزمان**، ٦ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(٣٠) **الحياة**، ٣ شباط/فبراير ٢٠٠١. **الأسبوع العربي**، ٢ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **الزمان**، ٦ نيسان/أبريل ٢٠٠١. أنظر أيضاً راديو BBC، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٠.

الجديدة، ويبدو أنه قد شجع مؤيديه ومقربيه المشاركة فيها. ومما لا شك فيه أنه فعل ذلك من خلال الرغبة، أو الأمل في أن يصبح هؤلاء هم من يحددون نغمة المداولات التي تجري فيها. وقد أوضح فيصل كلثوم، رئيس رابطة المحاضرين في جامعة دمشق، الذي أصبح مشاركا دائماً في منتدى رياض سيف، أوضح مشاركته في المنتدى بالقول أنها جاءت: "لتظهر التزام أعضاء حزب البعث بأفكار الانفتاح والحرية"، ولكنه في الوقت نفسه حذر من أنه "على الجميع أن يعرفوا أن الطريق لا زالت طويلة حتى يصبح كل مواطنيها (سورية) ناضجين لاستيعاب وتَمثُّل الأفكار المطروحة في اللقاءات التي تجريها تلك المنتديات".[٣١]

وفي كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ منح النظام السوري موافقته لعضوة مجلس الشعب والناشطة في حزب البعث، سهير الريس، لتشكيل منتدى ثقافي خاص بها في اللاذقية. وكذلك فتح المجال أمام **المنتدى الاجتماعي**، الذي كان نشاطه قد أوقف في بداية السبعينات، لاستئناف نشاطه.[٣٢] وبموازاة ذلك بسط النظام رعايته على "منتدى الثلاثاء الاقتصادي" الذي عقدته الجمعية السورية للعلوم الاقتصادية. وقد شارك في هذا المنتدى كبار الشخصيات في الفعاليات الاقتصادية في الاقتصادي السوري، حيث شكل منبراً لحوار مفتوح في مشاكل سورية الاقتصادية.[٣٣]

وفي الشهر نفسه نظم حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي منتدى سياسياً على حمل اسم زعيمه الراحل جمال الأتاسي، والذي ترأسته ابنته سهير. وقد قال الناطق باسم المجلس حبيب عيسى إن "المنتدى جاء ليفسح المجال أمام إجراء حوار غير محدود وخاصة حول القضايا التي تشكل مساساً بالمبادئ الأساسية الوطنية والعربية التي يرفعها الحزب".[٣٤] وقد امتنعت السلطة عن العمل ضد المنتدى حتى عندما اُستغل هذا المنتدى لتوجيه انتقادات مربكة ولاذعة ضده. كما

---

(٣١) **الحياة**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٣٢) **الحياة**، ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(٣٣) **المستقبل**، ٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(٣٤) **الزمان**، ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **الحياة**، ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

فضل غض الطرف عن منتدى **اليسار**، المرتبط بحزب العمال العربي الثوري، الذي بدأ بالانعقاد في مترل منيف ملحم في جرمانا الواقعة على أطراف دمشق.(٣٥)

وفي تموز/يوليو ٢٠٠١ سمح النظام لمركز الأبحاث الإسلامية بإدارة محمد الحبش بتأسيس منتدى ثقافي يعقد لقاءات ومحاضرات في مواضيع دينية وثقافية. وتجدر الإشارة إلى أن حبش هو صهر مفتي سورية أحمد كفتارو، المقرب من السلطات السورية، وكان خلاف عائلي قد نشب بينهما بعد أن أُنتخب حبش كمرشح مستقل في انتخابات مجلس الشعب التي جرت في آذار/مارس ٢٠٠٣. وقد أوضح حبش أن المجلس ينوي: "العمل من خلال وجهة نظر إسلامية معاصرة". وأضاف إن "هذا المنتدى ليس مخصصاً للعمل في القضايا الراهنة مثل القضايا الداخلية، بما فيها قضايا الفساد أو الأجور في القطاع العام، ذلك أنني أومن بأن على كل شخص الاهتمام بقضاياه هو، وبصراحة، لا أعتقد أن من مهمتي العمل في تلك القضايا. وتتركز رسالتنا في تجددنا الإسلامي حيث سنُخصص لذلك جلّ اهتمامنا ووقتنا".(٣٦)

وفي أواخر عام ٢٠٠٠ نَفَّذ سيف، ولو بشكل جزئي، نيته بتأسيس هيئة سياسية، وذلك عندما قام بالربط بين ٢١ من أعضاء مجلس الشعب. ومن بين هؤلاء مهدي خير بك من اللاذقية ومأمون الحمصي، وهو رجل أعمال يمثل منطقة دمشق. إلاّ أن رئاسة المجلس رفضت الاعتراف بهم ككتلة، حيث أنه تُحظر إقامة أي تجمع سياسي في سورية خارج إطار الجبهة الوطنية التقدمية. ومع ذلك قام هؤلاء الأعضاء بالتنسيق فيما بينهم وحتى أنهم برزوا من خلال الانتقاد العنيف الذي وجهوه للنظام خلال مناقشات المجلس، وهو الانتقاد الذي لم يُسمع مثله في سورية منذ سنوات طويلة.(٣٧)

فعلى سبيل المثال، وجّه رياض سيف انتقاداً لاذعاً لاقتراح الميزانية لعام

---

(٣٥) **الزمان**، ١١ حزيران/يونيو، ٢١آب/أغسطس ٢٠٠١. **الرأي العام**، ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

(٣٦) أنظر أيضاً **الأمان**، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠١. **الحياة**، ٤ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٣٧) **السفير**، ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **الوسط**، ١٩ شباط/فبراير ٢٠٠١.

٢٠٠١، وبعد أن أمر رئيس المجلس بشطب أقواله من محضر الجلسة، قام بتوزيع نسخة مطبوعة منها على الصحفيين الأجانب في دمشق. وقد قال سيف إنه "خلال النقاش حول ميزانية ٢٠٠١ في مجلس الشعب قلت إن من يعتقد أنه يمكن تحقيق الازدهار الاقتصادي بدون إصلاح سياسي، يوهم نفسه، وإن وجود احتكار السلطة هو السبب للأزمة التي وصلنا إليها... وقلت أيضاً إننا بحاجة إلى اقتصاد جديد حيث أن الاقتصاد السوري يعاني من وضع يصعب إصلاحه. وهذا الاقتصاد مشوه ومريض، والأمر المشوّه، كما هو معروف، غير قابل للإصلاح".[٣٨]

إرباك آخر سببه سيف للنظام وذلك عندما هاجم في أواسط ٢٠٠١ اتفاق إقامة شبكة الهواتف المحمولة، وقال إن الحديث يدور عن عمل فاسد. وقد وُقِّع الاتفاق في بداية ٢٠٠١ بين الحكومة السورية وبين شركتين غير معروفتين، وتنقصهما المعرفة، والخبرة والبنية التحتية التكنولوجية والبشرية، وهما شركتا سيريتل المصرية السورية، وشركة انفيستكوم (Investcom)اللبنانية. ويبدو أن هاتين الشركتين كانتا مقربتين من القيادة السورية حيث استغلتا موقعهما لتنفيذ الصفقة والتي ستدر لهما أموالاً طائلة (أنظر الفصل الخامس).[٣٩]

إلاّ أن زميل سيف، مأمون الحمصي، قد بالغ في أفعاله وذلك عندما وجّه في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، وفي نقاش مجلس الشعب، انتقاداً لنشاطات أجهزة الأمن، وهو الموضوع الذي كان على امتداد سنوات بمثابة المقدس (تابو). وقد أشار الحمصي أنه على خلفية الضائقة الاقتصادية التي تعاني منها الدولة، من المناسب التدقيق في نشاطات بعض الأجهزة، وحتى، ربما، تقليصها. وقد اعترف فعلاً أن "أجهزة الأمن قد عملت كثيراً لمصلحة الوطن وساهمت في خلق الإحساس بالأمان في أوساط مواطني الدولة. مثلما هو الحال في فترة التمرد الإسلامي" إلاّ أنه أضاف أنه "يوجد في هذه الأجهزة الأمنية أشخاص يعملون بشكل سلبي وأدخلوا الهلع إلى قلوب المواطنين". وعليه، أجمل الحمصي أن "هناك فرصة لتقييد نشاطات

---

(٣٨) – **شيحان**، ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٣٩) وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٩ آب/أغسطس ٢٠٠١.

أجهزة الأمن وفرض رقابة عليها، وحتى ربما تحويل مكاتب بعض منها لمعاهد بحثية، تتعلم فيها الأجيال القادمة تكنولوجيا المعلوماتية إلى جانب حب الوطن".[٤٠]

ومع ذلك، فإن التحدي الذي واجهه النظام السوري بسبب سياسة الانفتاح التي وضعها لم يتم استنفاذها فقط من خلال نشاطات المنتديات الثقافية، أو من خلال انتقادات بعض من أعضاء مجلس الشعب، مهما كانت شديدة، ضد نشاطات السلطة التنفيذية. ففي أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ وقع/٩٩/من المفكرين السوريين على عريضة طالبوا فيها بـ "تحرير كل السجناء السياسيين وسجناء الضمير، وإعادة المنفيين، وإرساء دولة القانون، وإطلاق الحريات والاعتراف بالتعددية السياسية والفكرية، وبحرية التنظيم، وبحرية الصحافة، وبحرية الكلام والتعبير، وتخليص الحياة العامة من الرقابة". وجاء في العريضة كذلك أن "سورية تدخل في هذه الأيام إلى القرن الحادي والعشرين وهي مضطرة جداً لتوجيه كافة جهودها في البناء والتطوير لمواجهة تحديات السلام والتطوير والانفتاح على العالم الخارجي... إن الإصلاح - سواء الاقتصادي أو الإداري أو القضائي - لن يحقق أهدافه في عالم آمن ومستقر ما لم يتم إرفاقها بإصلاح سياسي. فقط إصلاح من هذا النوع يستطيع أن يقود مجتمعنا إلى شاطئ الأمان".[٤١] وكان من بين الموقعين على العريضة عدداً من المفكرين البارزين في سورية مثل صادق جلال العظم والأديب حيدر حيدر والشاعر أدونيس وكذلك رياض سيف وعارف دليلة.

لكن "عريضة الـ ٩٩" نشرت في بيروت وليس في دمشق، ذلك أن منظميها أرادوا تفادي مخاطر نشرها في العاصمة السورية. وبالفعل، وللمرة الأولى منذ صعود بشار للسلطة بدأ النظام بإظهار بعض علامات القلق تجاه اشتداد قوة موجة الانفتاح التي بادر إليها وشجعها. وكدليل على ذلك، لم يجرِ التطرق إلى نشر "عريضة الـ ٩٩" في وسائل الإعلام السورية. وحتى الصحف

---

(٤٠) **الحياة**، ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(٤١) **الحياة**، ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠، **السفير** ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

اللبنانية التي نشرت مضمونها مُنِع دخولها على المعابر الحدودية بين سورية ولبنان.[٤٢] وعلاوة على ذلك بدأت تظهر في الصحافة السورية حملات شديدة ضد المفكرين الذين تجرأوا على رفع رؤوسهم ضد النظام. فعلى سبيل المثال كتب الدكتور تركي صقر، رئيس تحرير صحيفة البعث، يقول: "إن هناك من يريدون تفسير الكلام عن تنشيط الحياة السياسية في سورية على أنه إلغاء للواقع القائم واستبداله بشعارات براقة من الخارج وسامّة من الداخل. إن الأمن والاستقرار في سورية هما حجر الزاوية في التحديث والتطوير".[٤٣] وحتى أن رئيس تحرير صحيفة تشرين خلف محمد الجراد، هاجم بشدة مؤيدي الإصلاحات وقال إن الحديث يدور عن "أقلية صغيرة من نجوم المناظرات والباحثين عن الشهرة والمجد والسلطة والمنصب، في الوقت الذي تجد فيه الغالبية العظمى من الشعب في الوطن العربي مشقة بالغة في تأمين قطعة الخبز والحصول على المأوى والدخل".[٤٤] وقد جاءت تلك المقالات الافتتاحية لتشكل إشارة تحذير للمفكرين السوريين، إلاّ أن هؤلاء اختاروا تجاهلها. وحتى أنه من المحتمل أن تكون ردود النظام العلنية، والتي جاءت مترددة ومحدودة نسبياً لما هو معمول به في سورية، قد شجّعت المفكرين على الاستمرار في نشاطهم بل وزيادته.

وفي بداية كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ صدرت في سورية الوثيقة التأسيسية للجان إحياء المجتمع المدني، والذي حظي بسرعة على لقب "عريضة الألف"، وذلك لأنه، حسب ما يقال، وقع عليها ١٠٠٠من المفكرين من مختلف أنحاء سورية. وبعد فترة قصيرة من ذلك اجتمع في دمشق ١٦ من الموقعين على العريضة، ومن بينهم رياض سيف وعارف دليلة وصادق جلال العظم، حيث أعلنوا عن أنفسهم كاجتماع تأسيسي للجان إحياء المجتمع المدني والتي تهدف إلى "زيادة التنسيق والعلاقة بين كل اللجان والمنتديات التي بدأت بالعمل في أنحاء

(٤٢) **الحياة**، ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

(٤٣) **البعث**، ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

(٤٤) **تشرين**، ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

سورية وذلك بهدف إقامة مجتمع مدني كرد على مشاكل الدولة".[٤٥]

وقال الموقّعون على العريضة إن "حزب البعث قد تحول إلى دولة داخل دولة، يُمثل جناحاً في المجتمع لا يعترف بوجود الطبقات الاجتماعية الأخرى... إن الحزب يختصر المواطنة إلى مستوى التحزب الضيق والولاء الشخصي، ويتعامل مع بقية المواطنين وكأنهم مقيمين (رعايا). فيما تحولت أموال الدولة ومؤسساتها وثروات الوطن ومؤسسات المجتمع المدني إلى ملك شخصي يجري توزيعه على الموالين والأتباع. وقد حلت الامتيازات محل القانون، وحلت الهدايا والهبات محل الحقوق، والمصالح الشخصية محل المصلحة العامة. وقد تحول المجتمع إلى مشاع، وسرقت موارده، وسيطر الأشخاص الذين هم رمز السرقة والفساد على موارده وتحول كل مواطن إلى مشتبه به، محكوم ومطلوب. ويُتهم الشعب بالخيانة في كل مرة يطلب فيها الإعراب عن رأيه والمطالبة بحقوقه.. إن نتائج الانقلاب على الديمقراطية السياسية باسم الاشتراكية واضحة للعيان، وخاصة، بعد أن انهار النموذج السوفياتي واتضح للجميع أنه لا يمكن تطبيق سياسة اشتراكية في العالم الثالث، أو تأسيس ديمقراطية اجتماعية بدون إقامة ديمقراطية سياسية. إن الدولة التي لا تستمد شرعيتها من المجتمع المدني، هي دولة ضعيفة... ومن أجل أن تعطي الإصلاحات الاقتصادية ثمارها، ومن أجل أن يتم تتويج النضال ضد الفساد والتلوث بالنجاح، يجب التمهيد لها وإرفاقها بإصلاحات سياسية ودستورية شاملة. إننا نرى في الإصلاحات السياسية مدخلاً ضرورياً ووحيداً للخروج من الحضيض الاقتصادي ومن التدهور، ولتخليص الإدارة العامة من الخلل المزمن الذي يميّزها".[٤٦]

وتجدر الإشارة إلى أنه في نيسان/أبريل ٢٠٠١، نشر أعضاء لجنة إحياء المجتمع المدني وثيقة أخرى تحت عنوان "على أبواب ميثاق اجتماعي وطني في سورية - توافقات وطنية شاملة". وقد شكّلت هذه الوثيقة رداً على اتهامات مسؤولين

(٤٥) **السفير**، ١٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(٤٦) **السفير**، ١٢، ٢٣، ٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **الحياة**، ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

سوريين كبار ضد الموقعين على "عريضة الألف"، والتي جاء فيها أنهم يُعرِّضون الوحدة الوطنية في سورية للخطر ويتجاهلون قضية الصراع الإسرائيلي العربي، الذي يشكل حجر الأساس في فكر أي عربي حيثما كان، وبالتأكيد فكر أي مواطن سوري. وقد أدت هذه الحملة إلى نشر وثيقة أخرى، كانت اعتذارية الطابع وأكّدت على التزام الموقعين بالقضية الفلسطينية. ولقد أكّد الموقّعون على الوثيقة على تأييدهم الكامل "لمعركة تحرير أراضينا المحتلة (هضبة الجولان)، وكذلك الأراضي العربية المحتلة في فلسطين ولبنان"، ودعوا إلى تكريس كل الطاقات والجهود من أجل تحقيق هذا الهدف".(٤٧) وأضاف الموقّعون إنه يجب عدم رؤية (اتفاق) السلام على أنه نهاية الصرع بيننا وبين العدو الصهيوني وعلينا إقامة نظام عربي شامل وليس نظام "شرق أوسط جديد" أو "نظام متوسطي".

وفي إطار جهودها لإبراز وجودها وخلق قاعدة للتواصل بينها وبين حركات معارضة أخرى، وربما حتى بينها وبين النظام الجديد، نشرت حركة 'الإخوان المسلمين' في الثالث من أيار/مايو ٢٠٠١ مسودة "**ميثاق شرف وطني للعمل السياسي**". وكان الهدف من إعلانه، حسب ما أوضح ذلك زعماء 'الأخوان' "إثارة نقاش يفتح المجال لبلورة ميثاق وطني متفق عليه، يشكل الأرضية للنشاط السياسي في سورية في هذه الفترة الحساسة والمعقّدة وفي ظل المتغيّرات السياسية على الصعيد الدولي، والإقليمي، والداخلي، ... إذ ولّى الزمن الذي يدّعي فيه حزب واحد (الأحقية على) الوطن. ومن المناسب من الآن فصاعداً أن يَشْغَل كل حزب سياسي مكانه على الخارطة الوطنية وفق قوته النسبية، والتي تظهر عبر انتخابات نزيهة وديمقراطية".(٤٨)

وقد أعرب 'الأخوان المسلمون' في المسودة، التي نشرت في لندن، عن التزامهم بإجراء نشاط سياسي ديمقراطي، وحتى أنهم أدانوا بشكل واضح استخدام العنف. ومع ذلك، قالوا إن "كل حوار يجب أن يقوم على إجماع وطني واسع في

(٤٧) **الحياة**، ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(٤٨) **الحياة**، ٤ أيار/مايو ٢٠٠١.

ما يتعلق بالمبادئ الأساسية المشتركة التي تستند إليها الأمة، وقوتها وتميّزها. ويأتي في مقدمة هذه المبادئ الاعتراف بالإسلام كإطار أساسي للانتماء الاجتماعي وللهوية الشخصية لأبناء الأمة، وهو الإطار الذي يحافظ عليهم ويظهر خصوصيتهم. حيث يشكل الإسلام بالنسبة لجزء من الوطن السوري مصدراً للتشريع، وبالنسبة للقسم الآخر، إطار انتماء سياسي. ولكنه، في الوقت نفسه، يشكل بالنسبة لمجموع أبناء الأمة عاملاً مشتركاً وعنصراً موحداً يحفظهم ويصون وحدتهم".

وقد جاء ردّ النظام السوري على هذا الميثاق، كما هو متوقع، متحفظاً. إذ أعلن وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس بفظاظة أنه "إذا عاد 'الأخوان' إلينا (إلى سورية) كأفراد فإننا نقول لهم 'أهلاً وسهلاً'. أما إذا كانوا يريدون العودة كمنظمات مسلحة، فإننا لن نوافق على ذلك. نحن لسنا على استعداد للسماح لأي كان أن يأخذ السلطة في بلدنا بالقوة. سيستقبلون بالترحيب وبأجواء ديمقراطية، لكن عليهم أن يعرفوا أن السلطة ليست لهم إنما لنا، حيث أننا نحن أصحاب الحق ولن نوافق على أن يأخذ أحد هذا الحق من يدنا. هذه السلطة تؤخذ، كما هو معروف بفوهة البندقية، وعليه نحن أصحابها".[٤٩]

وقد أوضح مسؤولون سوريون آخرون أن الميثاق يشكل محاولة من جانب 'الأخوان المسلمين' "للخروج من المأزق الواقعين فيه من خلال تبني هوية جديدة يريدون من خلالها العودة للعب دور في الحياة السياسية في سورية". وأضاف مسؤول أمني سوري كبير أن "كل من يعرف البنية الإيديولوجية والتنظيمية لهذه الجماعة لن يُخدع بهذا الميثاق. الأخوان مثلهم مثل من يحمل سيفاً مضرجاً بالدماء، وفي الوقت نفسه يتحدثون عن الحوار والتعايش. هذه المنظمة إرهابية. 'الأخوان المسلمون' يؤمنون بأنه يوجد اليوم فراغ سياسي وتنظيمي في سورية، وأن الفرصة قد حانت للعودة لملئه".[٥٠]

---

(٤٩) **المجلة**، ٦ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٥٠) **الحياة**، ٦ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **النهار**، ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

أمل 'الأخوان المسلمين' البدء بصفحة جديدة في علاقاتهم مع نظام البعث في أعقاب صعود بشار إلى السلطة خاب إذاً في ظل موقف النظام الصلب وعدم استعداده للتوصل إلى حل وسط في اتصالاته معهم. ففي الفترة ٢٣ - ٢٥ آب/أغسطس ٢٠٠٢ عقد 'الأخوان' اجتماعاً في لندن خُصّص لبلورة صيغة متفق عليها من "الميثاق الوطني". وقد دعوا إلى الاجتماع شخصيات من كل ألوان الطيف السياسي في سورية وخارجها، ولكن الاستجابة كانت ضعيفة. وفي نهاية الأمر كانت غالبية المشاركين من صفوف 'الأخوان'، وبشكل أدق من هؤلاء الذين لم يستغلوا الفرصة التي أعطتها السلطات للعودة بمجاميعهم إلى سورية.(٥١) ومع ذلك فإن محاولة 'الأخوان' الصعود إلى عربة الإصلاحات عكست الخطر الذي كان قائماً في سياسة الانفتاح التي أعلنها النظام، والذي كان يتركز في الإحساس الذي كان سائداً في سورية وخارجها بأن النظام يشع ضعفاً، وأنه يمكن، وحتى من المناسب، تحديه.

لقد وضعت موجة الانفتاح، التي أصابت سورية، أزمة متعاظمة في وجه قيادة النظام السوري، وأثارت في أوساطه التخوف من فقدان السيطرة. وقد حاول بشار، فعلاً، خلال الشهور الأولى من حكمه، الاستمرار في سياسته من خلال الأمل بأن تكون خطواته كافية لإرضاء معسكر الإصلاحات، ولكن سرعان ما اتضح له أن عليه التراجع عن سياسته.

هذا وقد تمثل التعبير عن علامات الاستفهام، التي أثارتها خطوات بشار في أوساط الكثيرين في سورية، في رده على عريضة المحامين الـ ٥٥، والتي نُشرت في دمشق في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، وطالب فيها الموقّعون عليها بإرساء دولة القانون وحتى أنهم أوصوا بإلغاء محاكم الأمن الاقتصادي وأمن الدولة. وقد ادعى المحامون أن قسماً من المراسيم التي أصدرها بشار بعد صعوده إلى السلطة لم تطبق نهائياً من قبل الهيئات المعنية. فقد قالوا، على سبيل المثال، إنه وعلى الرغم من أن بشار قد أمر بإطلاق سراح المتهمين الذين قدمت ضدهم دعاوى لمحكمة الأمن

---

(٥١) **الحياة**، ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

الاقتصادي بكفالة، فإن وزير العدل أمر القضاة بعدم إطلاق سراح أي سجين قبل أن يُتِّم عدة أشهر في السجن، بل وأنه طلب منهم تحديد كفالة يعجز غالبية السجناء عن تحملها. ولشدة المفاجأة فقد جاء من دمشق أن ردّ بشار على العريضة كان إيجابياً، وأنه أقرّ جزءاً من المطالب التي طرحت فيها ووعد بمعالجتها.(٥٢)

لقد كان انطوان المقدسي واحداً من أشد منتقدي النظام السوري، وهو من مواليد ١٩١٤، درّس الفلسفة، على مدى سنوات طويلة في جامعة دمشق، وعمل خلال السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة مديراً لقسم التأليف والترجمة في وزارة الثقافة السورية. وفي بداية عام ٢٠٠١ أُقيل المقدسي من منصبه على يد وزيرة الثقافة مها قنوت، وذلك بسبب النقد الذي وجهه للنظام. وتجدر الإشارة إلى أن قنوت أقالت أيضاً عدداً من المفكرين الذين وقعوا على عرائض، وبعد أن نُقلت من منصبها، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، اتضح أنها قد أمرت بوضع أجهزة تنصت في مكاتب الموظفين الكبار في وزارة الثقافة - وهو العمل الذي يناسب أجهزة الأمن أكثر من وزيرة الثقافة، والتي هي، على فكرة، شاعرة.(٥٣)

وفي حزيران/يونيو ٢٠٠١ نشر مقدسي في صحيفة النهار البيروتية مقالاً كُتِب على شكل حوار من الأسئلة والأجوبة بينه وبين حفيده. وقد حمل المقال عنوان "إلى حفيدي: مجتمع الرعية هو الموت بينما المجتمع المدني هو الحياة":(٥٤)

حفيدي يبلغ الثانية عشرة ويتعلم في الصف السابع. جاء إليّ في احد الأيام **وسألني**: لقد جمعنا المدير مع بداية العام الدراسي وتوجه إلينا قائلاً: "الطلاب الأعزاء! الأخوة المواطنون!". جدي، ما الذي تعنيه هاتين الكلمتين؟

جواب: لقد أخطأ مدير المدرسة مرتين. الأولى، هي أنك لست طالباً بل

(٥٢) **الزمان**، ٢٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **النهار**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٥٣) **الحياة**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠١. حول المقدسي أنظر أيضاً **تشرين**، ١٥ آذار/مارس ٢٠٠١. للإطلاع على مقال المقدسي راجع **النهار**، ٢٧ حزيران/يونيو، ١١كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. **الرأي العام**، ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢.

(٥٤) **النهار**، ٢٧-حزيران/يونيو ٢٠٠١.

تلميذ، وعندما تدخل الجامعة تصبح طالباً. وثانياً، أنك لست مواطن، ذلك أنه لست أنت ولا أي واحد في سورية مواطن، كلنا رعايا.

سؤال: ما هو الفرق؟

جواب: الفرق كبير جداً. إذ تُلقى على المواطن واجبات ويكتسب حقوقاً حسب مكانته في المجتمع. فحقوق وواجبات رئيس الجمهورية، على سبيل المثال، أكبر بكثير من حقوقك وواجباتك أنت. والمواطنون ينتخبون، في انتخابات حرة، رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس الشعب أيضاً، وكذلك أعضاء المؤسسات الأخرى. وبالمقابل، فإنه يطلب من 'الرعيّة' الموافقة على المرشح للرئاسة أو المرشحين للعمل كأعضاء في المؤسسات المختلفة. فهو يُسأل "هل توافق على أن يكون هذا الرئيس، وأن يعمل كقائد لدولتك؟" وعليه، بالطبع، أن يرد بالموافقة. وإذا ما تجرأ 'الرعية' على وضع البطاقة في الصندوق الانتخابي وعليها كلمة "لا"، فإنه يثير فضيحة قد يستحق عليها العقاب. ومن الممكن أن يزجّ به في السجن، لعدة سنوات. إذاً، أنت لست حراً في اختيار زعيمك وبقية أصحاب المناصب في بلدك. ولكن عليك بأن تتظاهر وكأنك انتخبت زعيمك في انتخابات حرة. وتلقى على 'الرعية' واجبات ولا توجد له حقوق باستثناء المَكرُمات التي يهبها له الحكام. إن حكم الطاغية يحول المواطن إلى 'رعية'، وحتى أنه يجعل الشعب كله خاضعاً لمزاج الطاغية.

سؤال: هل يقتصر، هذا الواقع الشاذ الذي نمر به، علينا؟

جواب: كلا، قطعاً! هذا هو الواقع السائد في كل البلدان المتخلفة التي تشكل ثلث دول العالم.

سؤال: متى بدأت يا جدي بالنضال ضد الحكم لتتحول من 'رعية' إلى مواطن؟

جواب: لأسفي الشديد، بتأخير كبير. كان هذا عندما ألقى الرئيس بشار الأسد خطابه في مجلس الشعب، وبعد أن أدى يمين القسم. فقد قال: "إن معنى الديمقراطية هنا، أن ما هو مسموح لي مسموح لك". لقد ساوت هذه الأقوال بينه

وبيني، رغم كل الفوارق، التي وردت على ذكرها، من حيث الواجبات الملقاة على عاتقه كرئيس. إلاّ أنه، ولأسفي، تراجع عن ذلك. لكننا قمنا باستغلال الفرصة للبدء بالنضال. لأن النظام الديكتاتوري يتصرف على هواه ببلدنا منذ ما يقارب الأربعين عاماً، فحول الخوف إلى "خوف مغروس في أعماقنا". لقد بدأ نضالنا، إذاً، بحملة ضد ذهنية الخوف. لقد نشرنا عريضة وقع عليها ٩٩ من المفكرين تطالب بإلغاء قوانين الطوارئ. وبعد ذلك نشرنا عريضة أخرى وأقمنا المنتديات وطالبنا قبل كل شيء بـ "المجتمع المدني". إن نقيض "المجتمع المدني" هو "المجتمع العسكري". فالمجتمع المدني هو المجتمع الطبيعي الذي يحيا فيها الإنسان حياته.

سؤال: هل نجحتم في نضالكم؟

الجواب: إننا لم نخسره بعد. إننا نقف بقوة، وطالما نستمر في الصمود بقوة لن نخسر النضال. لقد عاد حكم القمع، لكننا لا نزال نرفع صوتنا في كل مناسبة ونقول: "لا!" و"لا!" لمجتمع الرعايا. إننا لم نعطِ كبير اهتمام، وللأسف الشديد، للآفة التي تضرب التربية السياسية. ففي إطار هذه التربية السياسية يُروّضون الإنسان حتى يسلم ويرضى بوجود مجتمع الرعايا. وفي مجتمع كهذا عليك أن تُمجد الزعيم في كل يوم، حتى يتحول ذلك إلى طبيعة مغروسة فيك. ويتحول التمجيد عند الراشدين إلى رياء، والإنسان المرائي يقول أقوالاً تناقض قناعاته الحقيقية. وعندما أردنا، نحن المفكرين، إلغاء قوانين الطوارئ وتأسيس المجتمع المدني، أثار هذا الطلب المخاوف لدى الجهات المسؤولة، وردوا وكأننا نريد إحداث انقلاب. وهذا ما يثبت أن هؤلاء الممسكين بالسلطة يخافون من أية إشارة إلى حقيقة أنهم يمثلون إرث الماضي البعيد.

سؤال: إنك تحاول أن تُعدِّني أنا وأبناء جيلي لنضال لا نعرف عنه شيئاً، فما الذي يستطيع أن يفعله تلميذ في الثانية عشرة؟

جواب: إنهم يبدأون بترويضكم من جيل المدرسة الابتدائية. وعلينا مقابل محاولتهم هذه، نحن الراشدين، أن نناضل من أجل تحريركم. فإذا لم نبدأ النضال من أجل تحريركم منذ الآن، وإذا لم تكن لديكم الثقة بالذات، لن يكون

بإمكانكم الانتصار في النضال، والذي هو في الحقيقة نضال الخير ضد الشر، نضال الحياة ضد الموت، نضال بدأ مع بدء الكون وسيستمر حتى نهايته. إن الطغيان هو تجسيد للشر، والحرية هي تجسيد للخير. ومجتمع الرعايا يجسد الموت بينما يجسد المجتمع المدني الحياة. واعلم إنه في هذا النضال لا توضع حياتك وحياتي في كفتي الميزان، بل حياة مجتمع بأكمله، والذي يشكل كل واحد فينا جزءا لا يتجزأ منه.

سؤال: لقد قلت لي أقوال خطيرة، والتي لم أدركها بشكل كامل. فهل سأضطر للانتظار حتى التحق بالجامعة ليكون بإمكاني استيعابها؟

جواب: إن كل ما قلته لك هو ضرورات ملحة لا يمكن الاستغناء عنها. أنت وأبناء جيلك ستشهدون تلك الحياة في مقبل السنين إذا قررتم دفع ثمن الحرية. الطاغية جبان. هو يزج بالناس في السجون وحتى أنه قد يقتلهم من أجل أن يدافع عن نفسه. وقد تعلمت من تجربتي أن عصر الديكتاتوريات قد أصبح من الماضي البعيد، وأن الديكتاتوريات موجودة اليوم في حالة نكوص ودفاع عن النفس. لقد دخلنا القرن الحادي والعشرين، الذي جعل من القرن العشرين مجرد ذكرى، ويدفعنا بشكل حثيث باتجاه المستقبل. وكلي ثقة أن مستقبلكم سيكون ساطعاً مثل سطوع الحرية، ولن يكون بوسع أحد تقييده.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المقدسي لم يفقد مكانته في سورية في أعقاب هذه الرسالة. كما هو الحال أيضاً بعد الانتقادات الأخرى التي وجهها للنظام. وفي تموز/يوليو ٢٠٠٣، عندما نقل إلى المشفى في دمشق لإجراء عملية جراحية في رجله، فوجئ عندما تلقى باقة من الورود من بهجت سليمات، وهو مسؤول كبير من إدارة المخابرات العامة، ومقرب من الرئيس بشار الأسد. وقد كتب المقدسي في رسالة شكره لسليمان: "أنا أرى في هذا بداية حوار بين جيلين يفصل بينهما نصف قرن".[٥٥] ولكن، على ما يبدو، أن النظام السوري لم يكن يريد حواراً حقيقاً.

---

(٥٥) **هآرتس**، ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، **الحياة**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

النظام يشن هجوماً مضاداً

إذا كان بشار يريد الاستفادة من الانفتاح السياسي الذي بادره بنفسه، فإنه قد ثبت بسرعة أنه فقد السيطرة على مجرياته، حيث تحول إلى قلق، وربما إلى تهديد لنظامه. ويبدو أن المشكلة لم تكن تكمن في نشاط بعض عشرات من المنتديات أو بعض مئات من المفكرين، ويبدو كذلك أنها لم تكن في العرائض التي قدمها هؤلاء المفكرين، بل بدلالات هذه الظاهرة في دولة مثل سورية، والتي اعتادت لسنوات طويلة على نظام اليد الحديدية. لقد كانت مخاوف النظام من أن يكون هناك من يريد أن استغلال يده الممدودة، وجو الانفتاح الذي أدخله، بشكل سيء. وقد تركّزت هذه المخاوف، بشكل خاص، من 'الأخوان المسلمين' الذين كانت مخاوف النظام منهم أكثر بكثير من سواهم.

ومن المحتمل أن يكون القرار بوضع نهاية لـ "ربيع دمشق"، قراراً صادراً عن بشار نفسه، حيث بدأ النقد الذي وُجّه للنظام بالوصول إلى بابه، وتضمن، على سبيل المثال، حملات نقد لاذعة لوالده الذي وصف كديكتاتور طاغية وكـ "سفاح". ولكن من المحتمل أن يكون بشار قد أُجبر للبدء بهذه الحملة على يد المعسكر المحافظ بين صفوف النظام وفي مقدمته عناصر الحرس القديم الذين تخوفوا من فقدان موقعهم ومكانتهم. ومن المناسب التذكير أن عناصر الحرس القديم قد وقفوا فعلاً إلى جانب ترشيح بشار وكانوا على استعداد للقبول بدفعهم إلى الهامش، وهي العملية التي لم يكن بالإمكان تفاديها بسبب تقدمهم في العمر، إلاّ أنهم، في لحظة الحقيقة، عندما يدركون الخطر على مكانتهم، وربما على وجود النظام بأجمعه، ويستشعرون الخوف من أن بشار ليس صلباً بما فيه الكفاية أو غير مدرك لحجم الخطر، كانوا يتحركون للعمل.

وفي مقابلة منحها لصحيفة **الشرق الأوسط** السعودية في شباط/فبراير ٢٠٠١، أعطى بشار إشارة بدء المعركة ضد الأوساط الإصلاحية، ووقف بشكل واضح ضد المفكرين الذين رفعوا أصواتهم مطالبين بالإصلاحات وبالديمقراطية: "إن هؤلاء المفكرين يخلطون بين المجتمع المدني وبين مؤسسات المجتمع المدني. المجتمع المدني هو

مجتمع ثقافي يختزل الكثير من الثقافات الممتدة على مدى آلاف السنين. وتوجد لسورية ثقافة يزيد ماضيها على ٦ آلاف عام. إن قولنا بأننا نريد بناء مجتمعاً مدنياً، فهذا يعني أننا نريد إلغاء كل هذا الماضي والبدء بتاريخ جديد. وهذا ليس واقعياً... أما في ما يتعلق بمؤسسات المجتمع المدني، فهذا موضوع مختلف، وهي موجودة في سورية وإن لم يكن بصورة مثالية... ومن المهم الإدراك أنه يُحظر أن نرى فيها بديلاً عن مؤسسات الدولة، وأنه يُحظر كذلك تقديمها على مؤسسات الدولة في مسيرة البناء، بل على العكس من ذلك، عليها أن تسير في أعقابها وأن تدعمها وأن تستند إليها، وألاّ تُبنى على خرائبها.. ويبدو أن هناك أشخاصا يعتقدون أن فترة الاحتلال (الانتداب الفرنسي) أو (الانقلابات) في الخمسينيات أفضل من فترة الاستقرار التي بدأت في ١٩٦٣، والتي تحولت إلى حقيقة مطلقة في عام ١٩٧٠.[٥٦] وبإجمال أقواله فقد حذّر بشار بأنه "من غير الممكن الانتقال إلى مرحلة الانفتاح السياسي في الساحة السياسية في الدولة إلاّ على قاعدة الواقع القائم، وعلى قاعدة تاريخ سورية. وكنت قد قلت في خطاب القسم إننا لا نتطلع إلى تفجير وتدمير ما هو قائم، بل تطويره والتطوير معناه أنه يجب التأسيس على الواقع القائم، والتحرك منه إلى الأمام وليس محاولة التحرك من فراغ".

وفي أعقاب هذه المقابلة تطوع مسؤولون سياسيون كبار محسوبون على الحرس القديم لشن حملة شاملة على معسكر الإصلاحات. وقاموا في هذا الإطار بجولات في مختلف أنحاء الدولة وعقدوا لقاءات مع أعضاء ورفاق عاديين. وبموازاة ذلك بدأت تظهر في وسائل الإعلام السورية تعليقات هاجمت أنصار الإصلاح بشدة، واتهمتهم بإلحاق الضرر بالمصالح الوطنية السورية، في خدمة حكومات أجنبية، في الوقت الذي تقف فيه تلك الحكومات في جبهة الصراع إلى جانب إسرائيل. وحتى أنه طُلب من خطباء المساجد مهاجمة المفكرين، حيث حذروا، على سبيل المثال، من أن من يدعو إلى المجتمع المدني فإنه يدعو إلى الزواج المدني.[٥٧]

---

(٥٦) **الشرق الأوسط**، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠١، ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣.

(٥٧) **الحياة**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠١.

وقد قاد حملة الحرس القديم نائب الرئيس عبد الحليم خدام. حيث التقى مع أعضاء الحزب، ومحاضري الجامعات والطلاب في فرع حزب البعث في جامعة دمشق، وأداروا معهم حوارا تم خلاله فسح المجال، بين أشياء أخرى، لتوجيه النقد إلى الواقع الاجتماعي الاقتصادي السائد في سورية. وقد أوضح خدام في خطابه أنه يوجد للنظام السوري خطوطاً حمراء قام أعضاء معسكر الإصلاحات بتجاوزها، وأن قيادة النظام مصرة على ألا تسمح لأي كان بتحويل سورية إلى الجزائر أو إلى يوغوسلافية ثانية. وأضاف خدام أن "أشخاصا بارزين، وجماعات مختلفة، استغلوا جو الحوار. ومن بينهم أعضاء أحزاب تركوا أحزابهم أو انشقوا عنها، وكذلك أشخاص بهرهم النموذج الغربي وأصبحوا من أتباعه. من بينهم بلطجيّون يريدون الوصول إلى مواقع قيادة، بالإضافة إلى الحاقدين والموتورين. ولا يمكن كذلك استبعاد أن يكون لبعضهم علاقات مع جهات خارجية. ويبدو هذا الأمر جلياً من خلال الاقتراحات التي يقدمونها والتي تهدف إلى تدمير سورية وإعادة أجواء الفوضى والتصرف المنفلت إلى حياة الدولة...

"إن من بينهم من يطرح فكرة السلم الاجتماعي. إن هؤلاء ينسون بأن هذه المقولة تطرح، بشكل عام في الدولة التي تدور فيها نزاعات طائفية ومدنية إلى غير ما هنالك، وهذا الوضع غير قائم في سورية، التي يتجذّر فيها الاستقرار والوحدة الوطنية... وتتحدث وثيقة أخرى لهم عن التنوع الثقافي، الوطني، الديني والطائفي. وهنا تجب الإشارة إلى أن محاولة إسباغ الطابع السياسي، وزرع الفرقة بين أبناء الوطن، على أساس التوصيفات المذكورة، من شأنه أن يلحق الضرر بالوحدة الوطنية وحتى أنه قد يقضي علينها...

"هل يمكن السماح لأي كان تفتيت الوحدة الوطنية؟ إن قضية الحرية قضية نسبية وليست مطلقة. وهي ليست مطلقة كذلك في أنحاء العالم. فليس مسموحا لأي شخص في أي مكان في العالم تعريض دعائم المجتمع للخطر. إن لكل فرد حق الحرية، إلا أن سياج حريته حرية الآخرين، وأمن المجتمع واستقراره. إذاً، إن هدفهم هو تشكيل عبء على سورية التي تتحمل عبء الصراع العربي – الإسرائيلي. لقد نسي أصحاب تلك الأفكار كيف واجهت سورية الضغوط الأمريكية، في الوقت

الذي تهافت فيه الكثيرون (في العالم العربي) عليها. فهل هذا الموقف الصلب نابع من فراغ؟ إن كل من يستعرض تاريخ سورية، سيجد أنها كانت في الخمسينيات والستينيات هدفا للمؤامرات والمكائد، إلا أنها منذ بداية السبعينيات تحولت إلى دولة يحسب لها الجميع ألف حساب.(٥٨)

ولشديد المفاجأة فإن أقوال خدام وُجهت بالنقد من قبل أعضاء حزب البعث الذين التقاهم. فقد قال أحد المحاضرين في جامعة دمشق، الدكتور سليم بركات، لخدام إن محاولة معسكر الإصلاحات إرساء المجتمع المدني في سورية جاءت لهدم النظام، إلا أنه اعترف أن "الحديث عن ضرورة إرساء المجتمع المدني في سورية أدت إلى إعادة تنظيم الهيئات داخل الحزب، وأنقذها من الوهن". وقد دعا رفاقه لإجراء حساب للنفس قبل "أن يصفي الآخرون حسابهم معنا".

عماد فوزي شعيبي، المحاضر في كلية الفلسفة في جامعة دمشق، قال إنه "في بداية ولاية الرئيس الراحل حافظ الأسد، طرح فكرة (المجتمع المدني) بوصفها الطريق الوسط بين المجتمع والدولة، ذلك أن الأفراد في المجتمع، بحاجة بصورة أو بأخرى للمؤسسات. لذلك فقد أقام الحكم المحلي. وسؤالي هو: لماذا لا يتم تسريع نشاط هذه الوزارة بأقصى سرعة ممكنة من أجل تقديم خدمات حقيقية وسريعة للجمهور، حتى لا نجد أنفسنا في أية لحظة، وأرجو أنني لا أبالغ، في مواجهة محاولات من أجل وضع سورية في حالة لم تعهدها من قبل، وأقصد الثورة المدنية".

كما أن الدكتور عدنان علي تساءل متعجبا أمام خدام لماذا يخشى النظام من فكرة المجتمع المدني، إذا كان قصد هؤلاء، الذين يدعون لتأسيسه، المحافظة على دستور الدولة وعلى القوانين المتبعة فيها، وكل هدفهم هو لعب دور في اتخاذ القرارات التنفيذية. وقد اقترح، بل قدم لخدام مشورة حيث قال: "إنني أعتقد أنه ليس لأحد أن يقف في وجههم، لأنهم أبناء الوطن. ويجب أن يكون لهم دور في خدمة وطنهم، لكن يجب أن يكون هذا الدور متفق عليه، وليس دوراً يُفرض

---

(٥٨) راديو دمشق، ٢١ شباط/فبراير. وللحصول على النص الكامل لأقوال عبد الحليم خدام أنظر **السفير**، ٢٣شباط/فبراير ٢٠٠١.

عليهم أو أن يطلبوا دوراً يفرض علينا".

كما أن خدام عُنِّف بشدة في كل ما يتعلق بالوضع الاقتصادي الصعب السائد في سورية، والذي يشغل الجمهور السوري بما لا يقل، وربما أكثر، مما تشغله الجهود لدفع الديمقراطية في الدولة. وقد قال الدكتور أديب كيالي لخدام "إن كل المتحدثين تحدثوا عن المفكرين، بينما الأمر الأهم والأكثر ملحاحية هو الاقتصاد. إن الأمر الذي يشغلنا فعلاً هو وضع الاقتصاد. لقد قلت إنه يسود في سورية اليوم الركود الاقتصادي والبطالة وتدهور في مستوى المعيشة. وقد عزوت هذا الواقع إلى أسباب ثلاثة: الانخفاض في حجم المساعدات الدولية، ونقل الأموال إلى الخارج، والسياسة الاقتصادية السيئة. وحتى وإن كان الأمر كذلك، فلماذا لا نُغيّر وزير المالية ووزير الاقتصاد؟" وقد أُفيد من اللقاء أنه لدى سماع تلك الأقوال، ضجت القاعة بالتصفيق الشديد.[٥٩]

وفي رده على تلك الأقوال اعترف خدام بالأخطاء التي وقع فيها النظام، لكنه عاد إلى التأكيد على الرسالة الأساسية في أقواله وهي أن النظام السوري مصر على عدم إلقاء الحبل على غاربه، ذلك أن الأمر سيؤدي إلى تقويض الاقتصاد إلى درجة المخاطرة بوجوده. وقال خدام إنه "على الرفاق أن يأخذوا في الحسبان الظروف التي كانت تواجهها سورية على مدى الأعوام الثلاثين. وقد جرت في تلك السنوات أحداث جسام أثّرت على ما يجري في الدولة وتسببت بالكثير من الأخطاء التي نشتكي جميعنا منها. إن هناك نقاطاً مضيئة، كما أن هناك أخطاء. ومهمة الحزب هي تبني كل النقاط المضيئة وتصحيح الأخطاء. وعندما نتحدث عن الظروف التي نواجهها يظهر السؤال: هل يمكن لنا أن نسمح بإلغاء قوانين الطوارئ ونحن في حالة حرب؟ صحيح أنه قد وقعت أخطاء خلال تطبيق قوانين الطوارئ، هذا صحيح. وإذا كان الأمر كذلك، علينا أن نحدد تلك الأخطاء وأن نصوّبها، ولكن يجب عدم التركيز على قوانين الطوارئ لأن الأمر سيتسبب بفوضى في الدولة...

(٥٩) **الحياة**، ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠١.

"لقد منحت القيادة فترة ستة شهور [لمعسكر الإصلاحات لبلورة خطة]، ولكن هناك خطوط حمراء يجب عدم تجاوزها. الخط الأهم هو أمن سورية واستقرارها. فنحن لا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بأي شكل من الأشكال بأن يجري في سورية ما جرى في الجزائر. إن لقيادة حزب البعث اهتماماً جدياً في تطوير الحياة السياسية في سورية، إلا أن هذا الأمر ليس رأس جدول الأولويات ذلك أن الأولوية معطاة لمعالجة الوضع الاقتصادي ولتغطية حاجات الناس ولخلق أماكن عمل. ونحن ندعوا إلى التركيز على إدخال تَقدُّم معتدل وتدريجي في مسيرة الإصلاحات. إن الحياة الحزبية ضرورية، لأنه لا يمكن تأسيس حياة ديمقراطية بدونها. يجب منح حرية العمل لوسائل الإعلام. ويجب دراسة تلك المواضيع في سياقها الأعم. وأنا واثق من أن مصلحة الدولة تقف على رأس اهتماماتنا. وأنا أعتقد أن كل مواطني سورية، في كل مجالات الحياة، يؤمنون بذلك".[٦٠]

مسؤولون سوريون كبار آخرون صعّدوا لهجمتهم بعد خدام و لم يترددوا من تقديم أصحاب الإصلاحات بوصفهم عملاء أجانب يعملون ضد مصالح سورية الوطنية. وقال ووزير الإعلام عدنان عمران إنه "علينا أن ندرك أن الامبريالية الجديدة لا تقود الأساطيل كما هو في الماضي، إنما تعتمد على وسائل عمل جديدة. جهات تعمل على دفع فكرة المجتمع المدني الزاخرة بالأشخاص الذين يخدمون مصالح دول أجنبية. وقد اختارتها السفارات الأجنبية لرفع لواء المجتمع المدني، وذلك مقابل بدل مجزٍ.[٦١]

الأكثر فظاظة من بينهم جميعاً، وكعادته، كان وزير الدفاع مصطفى طلاس، الذي قال في مقالة صحفية: "لقد نشر أعضاء المنتديات بياناً وقع عليه ألف شخص، لكنهم لم يتطرقوا أبداً إلى موضوع النضال ضد إسرائيل. هل هناك شخص راجح العقل يقبل بهذا؟ إن كل الأشخاص الذين وقعوا هذا الإعلان جاؤوا

---

(٦٠) المصدر السابق.

(٦١) قناة تلفزيون الجزيرة، ٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. وانظر أيضاً **الحياة**، ٤ شباط/فبراير ٢٠٠١.

من أمريكا. هم لاجئو الماركسية الذين تم تبنيهم في المخابرات الأمريكية. وإذا كنت ترغب أعطيك الأسماء وأرقام تأشيرات دخولهم وتواريخ المغادرة والعودة. هل نتعلم من هؤلاء معنى النضال الوطني؟ إن ما يهمهم هو أن يشطبوا من صفحات تاريخنا الأعوام الثلاثين لحكم حافظ الأسد، ثلاثون عاماً من البناء والتضامن. أوليس كل من يشكك بمسيرة نضال حافظ الأسد يخدم الأجنبي بطريقة أو بأخرى. إنهم يجعلون بأعمالهم من هذا البلد أضحوكة. وهم يتسببون بانشقاق داخل المعسكر الوطني وبزرع البلبلة، وهم يخدمون بذلك الصهيونية... لقد قلت لهم ذات مرة، تعالوا لندقق من فيكم شارك ذات مرة في مظاهرة، وإذا كان هناك واحد مثل هذا فأنا سأحمله على كتفي في شوارع أبو رمانة (أحد الأحياء الرئيسية في مدينة دمشق).. لقد فعلت ذلك أنا بنفسي مدة ثلاثين عاما".(٦٢)

لقد جاءت الحملة الإعلامية لكبار مسؤولي النظام السوري من أجل تهيئة الأرضية قبيل الضربة التي وجهتها قوى الأمن لنشاط المفكرين المنادين بالإصلاح. وبدأت في المدن الرئيسية والأرياف، بعيداً عن عيون رقابة الإعلام الغربي. لقد بدأت عملية التحرش والتعرض للمفكرين الذين أسسوا وأداروا منتديات وأماكن اللقاءات مؤيدي الإصلاح. وأفيد من اللاذقية أن المسرحي نبيل سليمان، الذي افتتح منتدى في المدينة، هوجم واُعتُدِي عليه بالضرب المبرح من قبل مجهولين إلى درجة أنه نقل لتلقي الإسعاف في المشفى. وقد ادعت مصادر مقربة للنظام أن الهجوم على هذا المسرحي كان بسبب المقاطع الخليعة التي ظهرت في مسرحياته، إلا أنه كان من الواضح للجميع أن جريمته الوحيدة كانت تنظيمه وإدارته للمنتدى الثقافي.(٦٣)

كذلك الأمر أُفيد عن حادث مشابه وقع في القامشلي، حيث تم هناك مهاجمة وضرب نشطاء أكراد في النادي الثقافي الذي يحمل اسم جلدات بدرخان من قبل مدير إدارة الأمن السياسي في المدينة.(٦٤) كما تمت سرقة سيارة سهير الأتاسي،

---

(٦٢) **المجلة**، ٦ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٦٣) **الحياة**، ٤ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٦٤) **الحياة**، ٢٠ شباط/فبراير، ٣٠ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **الزمان**، ١١ أيار/مايو ٢٠٠١.

مؤسسة المنتدى الذي يحمل اسم جمال الأتاسي، من أمام منزلها. كما أنه وقعت حادثة طرق غريبة للمحامي خليل معتوق، وهو عضو في الحزب الشيوعي وناشط في حقوق المواطن، حيث صدمت سيارته سيارة مرسيدس وحاولت حرفها عن الطريق. ويدير معتوق، كما ذكرنا سابقاً، منتدى ثقافياً في موضوع حقوق الإنسان، وكان يمثل نزار نيوف، وهو صحفي سوري بقي في السجن مدة ثماني سنوات وأُطلق سراحه عشية زيارة البابا إلى دمشق في أيار/مايو ٢٠٠١.(٦٥) ومنذ إطلاق سراحه بدأ نيوف بتوجيه انتقادات لاذعة للنظام وكشف عن العديد من الأحداث المثيرة خلال فترة وجوده في السجن، ومما قاله نيوف، على سبيل المثال، إنه قابل في السجن الملاح الإسرائيلي المفقود رون آراد في أحد سجون دمشق. كما وصف محاولة السلطات إخفاء القبور الجماعية لضحايا المجزرة التي نفذها عناصر رفعت الأسد في حزيران/يونيو ١٩٨٠ ضد السجناء الإسلاميين في سجن تدمر.(٦٦) ويبدو أن حقيقة أن نيوف قد أصيب بحالة من نفسية في أعقاب اعتقاله المستمر، سهلت على السلطات دحض ادعاءاته. ورغم ذلك، فإن السلطات الأمنية السورية لم تصمد أمام إغراء اعتقاله، إذ أُعيد اعتقاله مرة أخرى في حزيران/يونيو ٢٠٠١، إلا أنه وتحت ضغوط غربية (قبيل زيارة بشار إلى باريس) عاد النظام وأطلق سراحه.(٦٧)

وكانت هناك خطوة أخرى وهي الطلب من مدراء المنتديات الحصول على تراخيص لنشاطاتهم، بما يتناسب مع قوانين الطوارئ المعمول بها في سورية، مرفقة بالتهديد بأنهم إذا لم يفعلوا ذلك، ستستخدم بحقهم الإجراءات القانونية. ولكن حتى أولئك الذين أرادوا العمل وفق توجيه السلطات وتقدموا بطلبات للحصول على موافقة كهذه، واجهوا عقدة البيروقراطية التي وجدوا صعوبة كبيرة للخلاص منها – فعلى سبيل المثال، لم يُوضَّح لهم من أين يحصلون على هذه المصادقة – هل

---

(٦٥) وكالة الأنباء الفرنسية، ٩تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٦٦) **الحياة**، ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **الدستور** ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١. وانظر أيضاً **النهار**، ١٧ تموز/يوليو، ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

(٦٧) **الحياة**، ٢٢، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠٠١. **النهار**، ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل أم من الجهات الأمنية. فعلى سبيل المثـــال، توجه رياض سيف، في أيار/مايو ٢٠٠١ إلى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمـــل بطلب للحصول على موافقة، فتم الرد عليه من قبل الوزيرة بارعة القدسي علـــى هذا النحو: "بعد أن قمت بمراجعة بنود قانون الاتحادات والمؤسسات الخاصة رقـــم ٩٣لعام١٩٥٨ ومرسوم رئيس الجمهورية رقم ١٣٣٠لعام ١٩٥٨ الـــذي فســـر طريقة التعامل مع هذا القانون، قررت رفض طلبك المتعلق بالحصول على ترخيص للمنتدى الخاص بك، ذلك أن الأمر ليس من اختصاص وزارتي، ولأن طلبـــك لا يستوفي الشروط".[٦٨]

كما تم الرد بالنفي على طلب منتدى جمال الأتاسي. فقد رفض مدير قســـم الشؤون الاجتماعية في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل قبـــول طلـــب النـــادي بالموافقة على نشاطه بدعوى أن الموظف المختص بمعالجة الموضوع في إجازة. وبعد ذلك عاد المدير وأوضح أن الأمر يتعلق بموضوع حساس، ولذلك فهو يمتنع عـــن منح الترخيص المطلوب.[٦٩] وفي أعقاب الضغط الذي مـــورس علـــى منظمـــي المنتديات بدأوا بإغلاق أبوابها الواحد تلو الآخر. وكان القـــرار، في عـــدد مـــن الحالات، برغبتهم، وفي حالات أخرى تمت عملية الإغلاق بضغط مـــن عناصـــر الأمن الذين تواجدوا عند أبواب المنتديات وتأكدوا من إغلاقها.

وفي النهاية بدأ النظام باعتقال المفكرين، والشخصيات العامة، الذين وقفـــوا على رأس المعسكر الإصلاحي، والذين استمروا بتوجيه الانتقادات العنيفة للنظام. وفي بداية آب/أغسطس ٢٠٠١ اُعتقل مأمون الحمصي، الذي عُـــرف باتهاماتـــه المتكررة، حيث اُتهم بالإساءة للدستور وبموقفه المعادي للنظام.[٧٠] وفي مقال نشرته صحيفة **تشرين** اُتهم الحمصي بالتهرب من دفع الضرائب، وبعمليات صدم لفتيات المدارس في حوادث سير والفرار منها، وبسرقة السيارات، والشراكة مع "الســـيد

(٦٨) **الحياة**، ١١ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٦٩) **الزمان**، ٢٣ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٧٠) وكالة الأنباء الفرنسية، ٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

٥%" (لقب وزير الاقتصاد السابق، سليم ياسين، الذي عرف بعادته تقاضي نسبة ٥% عن كل صفقة تكون لمكتبة علاقة بها). كما جرت مقارنة الحمصي بـإنري غورو المندوب السامي الفرنسي في ليفانت، بدعوى أن نشاطه شكل خيانة للمصالح الوطنية السورية، في الوقت الذي تنشغل فيه بالنضال ضد إسرائيل.[٧١] ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن **تشرين** نشرت أواخر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ رد محامي الحمصي على التهم المنسوبة إليه، وهي خطوة لا سابق لها في الصحافة السورية.[٧٢]

وفي الأول من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ أُعتقل أيضاً رياض الترك، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي - المكتب السياسي - في منتجعه في طرطوس. وأصبح الترك، الذي أُطلق سراحه من السجن في أيار/مايو ١٩٩٨، بعد أن قضى فيه ١٧ عاماً، أحد أكبر المنتقدين للنظام. وقد وصلت الأمور إلى ذروتها عندما هاجم الترك في صيف ٢٠٠١ حافظ الأسد فيء محاضرة ألقاها أمام الحضور في منتدى جمال الأتاسي، وقال فيها إنه كان دكتاتورا على نمط ستالين، وإن حكمه امتاز بالتحجر والفساد، وإنه يتحمل المسؤولية عن المذبحة التي جرت في حماة.[٧٣] وبعد ذلك أُعتقل أيضاً سبعة نشطاء بارزين من معسكر الإصلاحات، وفي مقدمتهم عارف دليلة، عميد كلية الاقتصاد في جامعة دمشق، ورجل الأعمال المعروف حبيب صالح، وكمال البواني وهو مقرب من رياض الترك، ووليد البوزي وحبيب عيسى، وهم نشطاء في جمعيات حقوق الإنسان.

وفي السادس من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ أُعتقل أيضاً رياض سيف. وتجدر الإشارة إلى أنه في أواسط شباط/فبراير قدم المدعي العام لائحة اهام ضده اهمه فيها بالإساءة للدستور وذلك بسبب نيته إقامة حركة "السلم الاجتماعي" وقد وُصفت هذه الخطوة كمحاولة للأضرار بالموقع الريادي لحزب البعث المنصوص عليه في

---

(٧١) **تشرين**، ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

(٧٢) **تشرين**، ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

(٧٣) **الراية**، ٧ آب/أغسطس ٢٠٠١.

القانون. وصادق مجلس الشعب بعد ذلك رفع حصانته بسبب هذه التهمة. وقد اُتهم سيف، وهو وكيل شركة أديداس، بالتهرب من دفع ضرائب تصل إلى ٥٠ مليون ليرة سورية. وفي البداية خضع سيف للضغط وأعلن في الحادي والعشرين من آذار/مارس ٢٠٠١ عن إغلاق المنتدى الخاص به. ولكنه في بداية أيلول/سبتمبر أعلن عن استئناف نشاط المنتدى. وقد اُعتقل بعد أيام معدودة من ذلك من قبل السلطات وقُدِّم إلى المحاكمة بسرعة. وحكم عليه في نيسان/أبريل بالسجن لمدة خمس سنوات.(٧٤)

ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن محاكمات سيف والحمصي دارت بجو مفتوح نسبياً، على الأقل وفق التعابير السورية. وقد أدار محاموا المعتقلَيْن حملة إعلامية ضد الاعتقال والمحاكمة وطالبوا بإطلاق سارح موكليهما. كما أُقيم موقع على الإنترنت من أجل دعم سيف، والذي أدير على ما يبدو من قبل سوريين مقيمين خارج سورية. وأكثر من ذلك، فقد سمح لدبلوماسيين أجانب بحضور جلسات المحاكمة، وحتى أن الاتحاد الأوروبي تقدم باحتجاج للسلطات السورية على اعتقال سيف وأصدقائه، وبعد ذلك على الأحكام بسجنهم فترات تتراوح بين ثلاث إلى خمس سنوات، والتي صدرت بتهمة محاولة تغيير الدستور بشكل غير مشروع، والدعوة إلى التمرد، ونشر الشائعات الكاذبة وأشياء أخرى.(٧٥) وقد عُزِيَ الانفتاح الذي أبداه النظام السوري حيال الطريقة التي تعامل بها مع القضية إلى عدم رغبته في وضع علاقته في امتحان قاس مع المفكرين في سورية، وكذلك لإدراكه قيود قدرته في الصراع مع أعدائه. وفي بداية ٢٠٠٢ شاع أن النظام ينوي العفو عن المعتقلين خشية أن تتحول محاكماتهم إلى ساحة لتوجيه حملات النقد من خلالها وأن

---

(٧٤) **الوطن**، ١٤آب/أغسطس ٢٠٠١. وانظر أيضاً وكالة الأنباء الفرنسية، ٦أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. **الزمان**، ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. **الحياة**، ١٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وكالة الأنباء الفرنسية، ٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٧٥) وكالة AP، ٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. وكالة الأنباء الفرنسية، ١٩ آذار/مارس ٢٠٠٢. وانظر أيضاً www.lijan.de. وكذلك وكالة رويترز، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠٢. **الزمان**، ٤كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

تشكل مصدرا للإرباك بالنسبة له. إلا أن تلك الشائعات لم تكن حقيقية، وحكم على الحمصي وسيف وزملائهم، كما سبق وذكرنا، بالسجن لخمس سنوات. وبعد عام من ذلك، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، أُطلق سراح الترك من سجنه، وذلك كبادرة حُسن نية للرئيس جاك شيراك الذي قام، في حينه، بزيارة دمشق.(٧٦)

إلا أن إجراءات النظام لم تؤد إلى وقف نشاطات معارضيه بشكل كامل، حيث استمر هؤلاء بالعمل، وإن كان بتأييد وتعاطف أقل بكثير. وقد أستمر نادي جمال الأتاسي، ونادي عبد الرحمن الكواكبي، بإدارة أحد أحفاده، وهو سالم الكوكبي، بعقد اللقاءات، التي وُجهت فيها، بشكل متكرر، الانتقادات للنظام الذي لا يعمل على دفع الإصلاحات والتغييرات في سورية.(٧٧) وفي أعقاب موجة الاعتقالات في صيف ٢٠٠١، طلب ٢١٦ من المفكرين والصحفيين السوريين إطلاق سراح المعتقلين. وفعلت الأمر نفسه لجان إحياء المجتمع المدني، التي أطلقت في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢ صيحة احتجاج على الاعتقالات وحذرت من أن رفض النظام إجراء حوار مع معارضيه إنما هو بمثابة إعلان حرب على المجتمع.(٧٨)

وفي العاشر من كانون الأول/ديسمبر اهتزت العاصمة السورية عندما قام نشطاء من الحزب الكردي "يكيتي" بمظاهرة صامتة أمام مجلس الشعب وذلك احتجاجا على تعامل السلطات مع الأقلية الكردية، حيث أُعتقل عدد من أعضائه. وقد دُعي عدد من هؤلاء النشطاء إلى اجتماع مع رئيس مجلس الشعب قدموا خلاله عريضة موقعة من قبل آلاف الأكراد. ولكن وبعد عدة أيام من ذلك تم

---

(٧٦) **الحياة**. ٧ آذار/مارس، ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. وكالة الأنباء الفرنسية، ١٩ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(٧٧) **السفير**، ٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وكالة الأنباء الفرنسية، ٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. **أخبار الشرق**، ٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

(٧٨) **الزمان**، ٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. **الحياة**، ١٩ كانون الثاني/يناير، ٧آذار/مارس ٢٠٠٢. **القدس العربي**، ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٢.

اعتقالهم من قبل السلطات وتم تقديمهم للمحاكمة.[٧٩] وفي أيار/مايو وآب/أغسطس وتشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، وفي شباط/فبراير ٢٠٠٤، نُشرت أربع عرائض، الأولى موقعة من قبل ٢٨٧ من المثقفين السوريين. أما الثانية فقد وقع عليها ٥٣٨شخصاً، والثالثة موقعة من قبل ٦٨٠ شخصاً، أما الرابعة فقد وقعت من قبل ٧٠٠ شخص، حيث دعت جميعها النظام إلى إحلال تغيير من الداخل وإلى المزيد من الديمقراطية.[٨٠] ولكن يبدو في نهاية المطاف أن معسكر الإصلاح قد تم كبحه. وبدأ تراجع حاد في حجم نشاطه الأمر الذي مكّن النظام من تجاهل جيوب المعارضة التي بقيت داخل الجمهور السوري والتي لم تشكل سوى عبء ضئيل.

إن السهولة النسبية التي نجحت فيها السلطات بدفع "ربيع دمشق" إلى نهايته، وإن كان بشكل مؤقت، تعود قبل كل شيء إلى حقيقة أن جماعة المنادين بالإصلاح كانت منقسمة ومتشعبة، وواجهت صعوبة في التوصل إلى تطابق حول جدول الأعمال الذي طالبت به. حيث جاء أعضاؤها من خلفيات مختلفة: بعضهم، مثل رياض سيف أو مأمون الحمصي، كانوا رجال أعمال كان همهم إدخال تطبيق الديمقراطية الغربية ونظام الاقتصاد الحر الذي سيخدم الطبقة المحسوبين عليها سواء على الصعيد الاقتصادي أو على الصعيد السياسي. أما البعض الآخر فقد كان من المفكرين الذين ينتمون إلى معسكر اليسار وذوي ماضٍ ماركسي. وكان الكثيرون منهم أشخاصاً ناضجين في السبعينيات من عمرهم، وكانوا منقطعين بدرجة كبيرة عن الواقع السوري. ويبدو كذلك أن درجة تأييد الجمهور السوري، الذي جاؤوا منه كان قليلاً، ولم ينجح نشاطهم في الوصول إلى قلب الجمهور السوري الذي كان منشغلاً في غالبته بالمشاكل الاقتصادية. وأخيراً فقد كانت الخلفية الأولى لنشاط معسكر الإصلاحات هي اندلاع أحداث انتفاضة

---

(٧٩) **الزمان**، ١١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٨٠) **أخبار الشرق**، ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **الرأي العام**، ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. وكالة الأنباء الفرنسية، ٣ شباط/فبراير ٢٠٠٤.

الأقصى. وقد زاد غضب الشارع العربي، بما في ذلك الشارع السوري، من المصاعب أمام معسكر الإصلاح، الذي أراد تطبيق الأفكار الغربية الواضحة، في الخروج ضد النظام السوري، والذي عكست سياسته المعادية لإسرائيل وللغرب بشكل جيد المزاج الشعبي، كما عبر عن ذلك أحد المفكرين السوريين عندما قال: "لقد منح بوش وشارون للمحافظين السوريين هدية ثمينة عندما مكّنوهم من تحويل الجو في دمشق من"الربيع" إلى الشتاء القارس.[٨١]

ويبدو كذلك أن غالبية المفكرين في سورية كانوا، عملياً، من جمهور سياسي مُجنَّد. فقد أظهرت المعطيات التي نُشرت بمناسبة مؤتمر حزب البعث في حزيران/يونيو ٢٠٠٠ أن الغالبية الحاسمة من المحاضرين في الجامعات هم أعضاء في الحزب ويرتبطون به في معيشتهم (أنظر الفصل الثالث). كما أكدت الشيء نفسه الأقوال التي أدلى بها أمين مكتب الشباب والطلبة في القيادة القطرية التابعة لحزب البعث فايز عز الدين، أمام المشاركين في اللقاء الذي انعقد في منزل رياض سيف والذي اتهمهم فيه بأن كل ما يريدوه هو محاكمة عناصر البعث وضربهم: "إنه ليس من المنطق أن تأتوا وتقولوا لي إن هذا العضو في حزب البعث لمدة تزيد على أربعين عاماً، وإنه عديم القيمة، وأن تتوقعوا أن أتقبل أقوالكم بابتسامة".[٨٢] وقد ذكّر حسين الزعبي، وهو محاضر في جامعة دمشق، وعضو في حزب البعث، ذكّر الحاضرين إنه لولا حزب البعث "لم يكن باستطاعتي أن أتعلم وأصبح محاضرا في الجامعة. لقد كان والدي فلاحا مُستَغَلاً من قبل الإقطاع والبرجوازية، ولذلك لا يمكن الادعاء بأن النظام في سورية لم يفعل أي شيء إيجابي".[٨٣]

وفي تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، وفي ما كان يبدو على أنه محاولة لإظهار ثقته بنفسه والتزامه بأجواء الانفتاح في سورية، أطلق النظام عشرات السجناء ومن بينهم زعماء إسلاميين كبار، وعلى رأسهم خالد الشامي، الذي كان من زعماء

---

(٨١) **أخبار الشرق**، ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٨٢) الحيا، ٤، ٧ آذار/مارس ٢٠٠١.

(٨٣) **الحياة**، ١٣ آذار/مارس ٢٠٠١.

التمرد الإسلامي في بداية الثمانينات، وبقي في السجن منذ بداية ١٩٨٢.[٨٤] ومن الجدير بالذكر أيضاً أن عملية الإفراج عن السجناء جاءت بموازاة اعتقال زعماء معسكر الإصلاحات، حيث كان أحد الأسباب للحرب الشعواء ضدهم هو خوف النظام من الأوساط الإسلامية بالذات، والتي رأى فيها التهديد الأساسي على استقراره ووجوده. وقد كان الكثيرون في سورية يشاركون التخوف من الأوساط الأصولية، حتى في أوساط خارج النظام، وهذا ما يفسر التأييد الواسع للنظام والتحفظ على نشاطات المنادين بالإصلاحات. وكما قال محمد عزيز شكري، من جامعة دمشق، فإن "المشكلة الأساسية هي أن زعماء معسكر الإصلاحات يريدون الحصول على كل شيء دفعة واحدة، إن إعلانا مفاجئا عن الانتخابات سيضع حزب البعث في مواجهة مع الأوساط الإسلامية، وهنا يجب أن نسأل: ما الذي ستكون عليه النتيجة، وما الذي سيحصل بعد ذلك؟ إنني لا أريد القفز عن الواقع الذي نعيش فيه اليوم إلى واقع "سيء" مثل الواقع القائم في الجزائر، حيث علق الجميع بين الجيش وبين الأوساط الإسلامية، والذي لا يعرف فيه أحد مَنْ يقتل مَنْ ولماذا".[٨٥]

لقد أحسن إبراهيم حميدي، مراسل **الحياة** المعروف بقربه من النظام السوري، في وصف الوضع السائد في سورية مع استلام بشار للسلطة، حيث كتب يقول في تموز/يوليو ٢٠٠١ بمناسبة انقضاء عام على حكم بشار: "لقد أظهر هذا العام إشارات تَصدُّع في جدر الخوف لدى الرأي العام في سورية".[٨٦] ويمكن هنا بالطبع أن نتساءل حول المغزى الذي يجب أن نعزيه إلى تلك التصدعات، والرد على ذلك ربما يكون موجوداً في حقيقة أن حميدي نفسه قد تم اعتقاله، لشديد السخرية، من قِبَل السلطات السورية في كانون الأول/ديسمبر وأودع السجن. وقد جاء سجن حميدي بعد أن نشر في صحيفته خبراً أربك السلطات حول موضوع

(٨٤) **الحياة**، ١٢، ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢.

(٨٥) **فايننشال تايمز**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٨٦) **الحياة**، ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

استعداد الحكومة لاستيعاب مليون لاجئ من العراق في حال تمت مهاجمته من قبل الولايات المتحدة – وقد أُطلق سراح حميدي بعد عدة أشهر من ذلك، عندما كانت بغداد على وشك السقوط في أيدي الجنود الأمريكيين. وعاد ليكتب في صحيفته ولكن هذه المرة بحذر أكبر من الماضي.(٨٧) وبالفعل، لقد ظهر من كل النواحي، وخاصة لجهة الآمال التي عُلِّقت بالابن الشاب الذي حل محل والده، أن التغييرات التي طرأت في دمشق كانت قليلة جداً، إلى درجة أنها أثارت لدى الكثيرين الإحساس بأنه ليس في قدرة بشار قيادة عملية تغيير حقيقية، هذا إذا كان أصلاً يتطلع إلى ذلك.

وكان يمكن أن نطّلع على الوضع من خلال مشاهدة مسرحية همام الحوت **ضد الحكومة**، ومسرحية لقمان دركي وسهام المصري **سُمِح في سورية**. وتلك المسرحيات التي حظيت بشعبية كبيرة بسبب أسمائها المثيرة، حظيت بإقبال شديد من قِبَل الجمهور الذي رضي بدفع سعر فاحش للبطاقة وصل إلى ١٥٠٠ ليرة سورية (أي ما يعادل ٣٠ دولاراً وهو ما يقل بقليل عن الأجر الشهري المتوسط في سورية). لكن سرعان ما اتضح للمشاهدين أن الحديث يدور، على أبعد تقدير، عن نسخة مطورة ومنقحة من مسرحيات محمد الماغوط الناقدة، والتي اشتهرت بفضل ممثله الكوميدي الممتاز دريد لحام. حيث لعب دريد دور غوار، الإنسان القروي البسيط، الذي يكشف عجز النظام. وقد حظيت تلك المسرحيات في حينه بمباركة حافظ الأسد، وظهر أنها لم تشكل نقداً سياسياً حقيقياً بل جهداً من قبل النظام لتمكين المواطنين من "التنفيس"، بقدر محسوب، وتحت سيطرة الحكومة ورقابتها.(٨٨)

وعندما بدأ التلفزيون السوري ببث مسلسل ناقد يحمل اسم **بقعة ضوء**، بمناسبة شهر رمضان الموافق لتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، تعرض المسلسل لانتقاد

---

(٨٧) سانا، ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، **الحياة**، ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. **الوطن**، ٢٦ أيار/مايو ٢٠٠٣.

(٨٨) وكالة AP، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **الحياة**، ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

لاذع من قبل نشيطي حزب البعث، وتم إيقاف بثه بسرعة. صحيح أن بث المسلسل قد تم بموافقة وبتشجيع جهات مقربة من بشار الأسد، وصحيح أيضاً أنه قد ظهرت في الصحافة السورية عدة مقالات أثنت عليه، إلا أنه أُعلن في نهاية كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢ عن إقالة المدير العام للراديو والتلفزيون فايز الصايغ، الذي عُيِّن في منصبه قبل عام فقط، وذلك، على ما يبدو، بسبب موافقته على بث المسلسل.(٨٩)

وفي مقابلة صحفية أعطاها بعد عام تقريباً من دخوله إلى منصبه، طلب بشار التقليل من الآمال التي تم تعليقها عليه وأوضح أن الإصلاحات في المجال الإداري والاقتصادي هي أقصى ما يمكن توقعه في هذه المرحلة. وقال موضحا إنه "عندما يكون الإنسان موجوداً على رأس هرم السلطة، فإنه من الطبيعي أن يبحث عن تحقيق مستقبل أفضل لوطنه. ومع ذلك، فإنه من الواضح أن تلك الآمال لا يمكن تحقيقها بسرعة، ذلك أن الحديث يدور حول مواضيع مفصليّة، وفي الدول النامية يكون الوضع أصعب بكثير من الدول المتطورة. وعلى القائد إيجاد الطريق لتحقيق تلك الآمال، ويوجد على هذا الطريق محطات كثيرة: فالمطلوب أولا سن قوانين أفضل، والبحث عن عناصر مؤهلين، ورفع مستوى الأشخاص العاملين في الجهاز الحكومي. كذلك فإن الحديث يدور عن قيام الدولة بتأهيل مواطنيها للمساهمة في مسيرة التطوير، وزيادة التعاون بين مختلف مركبات المجتمع...

"وإذا ما سألتني ما الذي حققته حتى الآن خلال العامين الماضيين من استلامي للحكم، أستطيع أن أقول إنني حققت جزءا من تلك الأهداف... فقد شرّعنا الكثير من القوانين في مجالات مختلفة وبدأنا بعملية واسعة للتأهيل وخاصة من خلال التعاون مع الاتحاد الأوروبي. وبدأنا بزيادة تدخل الجمهور في نشاطات الحكومة... وفتحنا المجال أمام افتتاح الجامعات الخاصة، وسمحنا بنشاط الصحافة الحرة، وقبل عدة أسابيع سمحنا ببث محطات الراديو الخاصة... وعليه فإن هدفنا النهائي هو

(٨٩) **أخبار الشرق**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر. أنظر أيضاً التلفزيون السوري، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. **البعث** ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

التطوير والنمو... ويجب الإدراك أيضاً أنه لا يمكن الفصل بأي حال من الأحوال بين قضايا الإصلاحات التغيير وبين الظروف السائدة في الدولة، من العادات والتقاليد، أو من الثقافة والظروف التاريخية والسياسية القائمة في المنطقة... لذا سيكون من الخطأ النظر إلى كلمة التعددية كما يتم التعامل معها في الدول الأخرى، والتي هي ذوات ثقافة مختلفة وظروف مغايرة. كما سيكون من الخطأ القيام بمحاولات اجتماعية وكأنما يدور الحديث عن عمل أمام جهاز الكومبيوتر، الذي يتلقى الأوامر، وتُدخل إليه المعطيات ويقوم بتنفيذها خلال أجزاء من الثانية. يجب أن تكون العملية تدريجية، كما يجب أن يكون الهدف واضحاً. ولكن يجب أن يكون الاستقرار هو المقياس الوحيد في الموضوع، وذلك لأنه من المحظور، ومن غير الممكن تطبيق الانفتاح والنمو في الدولة في حالة من عدم الاستقرار".[٩٠]

ولكن وعلى الرغم من أن "ربيع دمشق" قد تحول دفعة واحدة إلى شتاء قارس، فمما لا شك فيه أن ما كان في سورية لن يعود مرة أخرى. فقد أصبح عهد حافظ الأسد جزءاً من التاريخ. ومن الصعب، بل إنه من غير الممكن إعادة سورية إلى ذلك العهد، وحتى إنه من المشكوك فيه إذا كان بشار مهتم بذلك. صحيح أن مسيرة التغيير التي بدأت في الدولة بطيئة وتدريجية، ولا يمكن في بعض الأحيان الإحساس بها، كما أنه يتم النكوص عنها بسرعة، إلاّ أنه يمكن الافتراض أنها ستسمر. إلاّ أن قيود ومخاطر هذه العملية واضحة. إذ حذّر المفكر السوري صادق جلال العظم، حذر النظام بألاّ يعمل ضد حركة "المجتمع المدني" إذا إن "المفكرين يستطيعون التعبير عن مشاكل الدولة أكثر من المواطن البسيط، إلاّ أن المشاكل التي يطرحونها هي المشاكل نفسها التي يواجهها الإنسان البسيط، وعليه فإن العمل ضد المفكرين لن يجدي نفعاً".[٩١] وحتى أن العظم قد اقترح على النظام التعلّم من الأحداث التي جرت في دول أوروبا الشرقية والتي "أدى تحرك النظام فيها

---

(٩٠) جاءت الأقوال في سياق مقابلة ص حيفة منحها بشار الأسد لمحرر الصحيفة الإيطالية **كوريرا دي لي سيريا**. وقد نشر النص بالعربية في الصحف السورية في ١٨ شباط/فبراير ٢٠٠٢. أنظر **تشرين**، ١٨ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

(٩١) **القدس العربي**، ٢٥، ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٢.

ضد المفكرين إلى تحويلهم إلى رأس سهم في النضال ضده".

العظم أرسل ناظريه إلى أوروبا الشرقية لكن ربما كان من الملائم أكثر أن يتطلع إلى الشرق، إلى العراق. فقد امتنع التلفزيون السوري، على سبيل المثال، عن بث صور إسقاط تمثال صدام في الميدان الرئيسي في بغداد إثر سقوطها في التاسع من نيسان/أبريل ٢٠٠٣. وقد علّق على ذلك أحد متصحفي الإنترنت السوريين على أحد المواقع بقوله إنه يوجد في دمشق أيضاً الكثير من التماثيل (لمؤسس السلالة الأسدية) التي تستحق مصيراً مماثلاً.[٩٢] لقد أعطى سقوط نظام صدام حسين، وكذلك تواجد مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين على الحدود الشرقية لسورية، زخماً متجدداً للإصلاحيين في سورية، وحتى أن بعضهم حاول استئناف نشاطه، بدون نجاح في غالب الأحيان، بسبب يد النظام القوية، ولكن قبل ذلك بسبب تحفظ الأغلبية في الجمهور السوري من أية خطوة فيها مساعدة أو انضماماً إلى الجهود الأمريكية في السيطرة على جدول الأعمال الجديد في المنطقة. وكما أوضح هيثم المناع، أحد أبرز منتقدي النظام في سورية فإنه "يجب عدم توقع عودتي من المنفى إلى سورية على ظهر دبابة أمريكية".[٩٣] وحتى أن رياض الترك، وهو أيضاً أحد أبرز منتقدي النظام قال إنه "على الولايات المتحدة أن تكف عن جهودها لضرب سورية، إذ أن ذلك يساعد الحكم فيها. وعلى واشنطن أن تترك مهمة استبدال النظام لنا هنا في سورية".[٩٤] ورغم ذلك فقد أعرب الكثير من الإصلاحيين عن تقديرهم بأن النظام سيواجه صعوبة، على المدى البعيد، في المحافظة على سلطته بالطرق التي ابتعها في بداية ٢٠٠١، عندما أنهى ربيع دمشق القصير.[٩٥]

وبالفعل فقد أُعلن في نهاية ٢٠٠٣ عن إقامة **حزب الإصلاح السوري**

---

(٩٢) التلفزيون السوري، ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. **أخبار الشرق**، ١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

(٩٣) **النهار**، ٢٤آب/أغسطس ٢٠٠٣.

(٩٤) موقع الأخوان المسلمين على الإنترنت www.shrc.org.

(٩٥) **الحياة**، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٣. **النهار**، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٣.

برئاسة رجل الأعمال الأمريكي السوري الأصل فريد الغادري. وقـد عقـد الحزب، الذي أقيم على ما يبدو بمبادرة الإدارة الأمريكيـة، اجتماعـاً لـه في بروكسل، في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، دعيت إليه كافة الأحزاب المعارضـة العاملة خارج سورية. وحتى أنه حاول إقامة تحالف بـين تلـك الأحـزاب - **التحالف من أجل الديمقراطية**. وتنبع قوة الحزب بالأساس من الغطاء الـذي تمنحه له جهات أمريكية، لكن يبدو أنه لا توجد له سيطرة حقيقية في سورية. وقد ردّ وزير الخارجية السوري فاروق الشرع باستخفاف على إقامة الحـزب وقال إن قادة الحزب يتبجحون بالسيطرة على سورية إلاّ أهم غـير مـؤهلين لإدارة مدرسة ابتدائية.(٩٦)

إلاّ أن كل من يفكر في ما يجري في سورية يتشكل لديه الانطباع بأن نهايـة الطريق لن تكون بالضرورة تجسيداً لرؤية الإصلاحيين، أي تحويل سورية إلى دولة ديمقراطية، على النمط الغربي، ذات مجتمع مدني نشط ومليء بالحيوية، بـل ربمـا تتجسد نبوءة الأوساط الإسلامية التي تنتظر دورها بفارغ الصبر، وهـي تغـذي وتعزز قوتها بفضل الضائقة الاقتصادية الاجتماعية المتفاقمة التي انزلقت إليها سورية خلال السنوات الأخيرة، والتي من المتوقع أن تزداد حدتها في المسـتقبل القريـب. ومهما يكن من أمر، فإنه يبدو أن سنوات طويلة ستمر، بانتظار عودة الربيع مـرة أخرى إلى دمشق.

---

(٩٦) **القدس العربي**، ١١ شباط/فبراير ٢٠٠٤.

الفصل الخامس

مجتمع واقتصاد في ظل العولمة

صديقتي لارا بلومنفلد، والتي لها زاوية ثابتة في صحيفة واشنطن بوست قامت بجولة في الشرق الأوسط لإجراء بحث من أجل كتاب حول الثأر، وقد وصلت إلى سورية عام ١٩٨٨ برفقة أمها. وقد سمعت منها القصة التالية: "لقد استأجرنا أنا وأمي دليلاً في دمشق من أجل أن يدلنا على المدينة. كان اسمه وليد. وبسرعة تعرفنا إلى بعضنا عن قرب وقلنا له بأننا أتينا من إسرائيل. وفي نهاية الأمر أجرينا حواراً صريحاً جداً. وقد اعترف لنا أنه يحب أن يجلس في الليل في مكتبه، حيث يوجد له صحناً للأقمار الصناعية، ليتابع التلفزيون الإسرائيلي.. وقال لنا إنه من كل الأشياء التي شاهدها في التلفزيون الإسرائيلي، فإن الشيء الوحيد الذي ينغص عليه هو إعلان يوغورت[اللبن] - حيث أن اليوغورت يسوّق في إسرائيل في علب بلاستيكية بكل ألوان الفواكه المختلفة - الوردي والأصفر، مثلما هو الحال في أمريكا، بينما في سورية فإن العلب سوداء أو بيضاء. كما أنه قال لنا: "إن فتة خبز الذرة عندنا تتقلص عندما نضيفها إلى الحليب، ولكنني أستطيع أن أرى (في بث الدعايات الإسرائيلية) أن فتة خبز الذرة في إسرائيل تصبح لينة ورخوة" فلتنسوا هضبة الجولان. وفي يوم آخر قال لنا: "ليس من المنطقي أن نكون متخلفين مائة سنة عن الإسرائيليين، وهم وصلوا للتو إلى هنا" .

توماس ل. فريدمان، الرفاهية وشجرة الزيتون.[1]

في بداية شهر نيسان/أبريل ٢٠٠٠ نُشر في صحيفة تشرين السورية تقرير

(١) نشر الكتاب في دار النشر هيد آرتسي، ٢٠٠٠، ص ٦٩.

صادر عن وزارة التخطيط الحكومية، حول الأجر في الاقتصادي السوري. وكانت الصورة التي رسمت هناك مشوهة: فقد اتضح - أن ٤٠ % من العاملين في سورية تقاضوا أقل من الأجر المتوسط في الاقتصاد السوري والذي وقف عند ٢٤٠٠ ليرة سورية (أي حوالى ٤٤ دولاراً). بينما تقاضى حوالى ٥٠ % آخرون من مختلف المهن، بدءاً بالعمال المهنيين، ومروراً بالمعلمين، وانتهاء بالمهندسين والأطباء، تقاضوا بين ٣٠٠٠ ليرة سورية وخمسة آلاف ليرة سورية (٦٠ - ١٠٠ دولار) في الشهر. وأقل من ١٠ % فقط، من بينهم المدراء وكبار ضباط الجيش، تقاضوا ٨٠٠٠ ليرة سورية (حوالى ١٦٠ دولاراً) في الشهر.[٢] ويمكن الافتراض أنه كان للموظفين الكبار وقادة الجيش مصادر دخل أخرى، قانونية وغير قانونية، التي مكنتهم من تأمين حياة كريمة. ولكن اتضح أن جمهور العاملين في سورية - من الحاجب في الوزارة الحكومية، مروراً بالموظف الصغير وحتى المدير العام - مصنفون ضمن طبقة الكادحين الذين يتقاضون راتب الجوع وبالكاد يؤمنون خبزهم.

لقد تطرقت تلك المعطيات للعاملين في القطاع العام. لكن من الجدير بالذكر أن القطاع الخاص في الدولة، بطبيعة الحال، صغير جداً. فعند نشر التقرير كان يعمل في الحكومة السورية ١,٢٥٧,٠٠٠ موظفاً، ويجب أن يضاف إلى أولئك ما يقرب من نصف مليون يعملون في الجيش وقوات الأمن. وهذه نسبة عالية، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أن ٣٠ - ٤٠ % من مجمل القوة العاملة في الدولة، التي وصلت في ذلك الوقت إلى ٤,٥ مليون شخص وفي أواخر ٢٠٠٣ إلى ٥,٥ مليون شخص، يعتاشون من العمل في الزراعة كفلاحين بسطاء أو كعمال زراعيين، وهم يحصلون على أجر أقل من الأجر المتوسط في الاقتصاد. بينما نجد أن ٢٠% عاطلون عن العمل. ويتضح من هنا أن الحكومة السورية تُشغِّل الثلثين، وربما أكثر، من القوة العاملة التي لا تعمل في الزراعة وليست عاطلة عن العمل.[٣]

---

(٢) **تشرين**، ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

(٣) **تشرين**، ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠. **المستقبل**، ١٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

ومنذ نشر التقرير رُفِعت أجور العاملين في الدولة عدة مرات، وذلك في أعقاب ست سنوات جُمّدت خلالها تقريباً. وفي الخامس والعشرين من آب/أغسطس ٢٠٠٠، وبعد زمن قصير من تسلمه الرئاسة، أصدر بشار الأسد مرسوماً لزيادة رواتب العاملين في الدولة بنسبة ٢٥%، ومخصصات المتقاعدين بـ ٢٠%. وفي الرابع عشر من أيار/مايو ٢٠٠٢ عاد بشار ورفع أجور عمال الدولة بـ ٢٠% أخرى وأجر المتقاعدين بنسبة ١٥%. وقد أُعلن من دمشق أن هدف السلطات هو مضاعفة الأجور، بشكل تدريجي حتى عام ٢٠٠٤، وذلك مقارنة بمستواها عام ٢٠٠٠.(٤) ومع ذلك فإنه من المشكوك فيه إذا ما كان ذلك سيشكل عزاء لغالبية مواطني الدولة.

ومن أجل إيضاح خطورة الضائقة في الاقتصاد السوري للمراقب الأجنبي، وخاصة ضائقة المواطنين العاديين، فإنه يجب ترجمة دخل مواطني الدولة بالقيم المقابلة بالدولار. لكن حساب قيمة الأجور في سورية بالدولار هي عملية معقدة وغير ممكنة تقريباً، ذلك أنه، وحتى بداية عام ٢٠٠١، كان يُعمَل بثلاث قيم موازية لليرة السورية: **١** – سعر رسمي ١١,٢٢٥ ليرة سورية للدولار، والذي كان يتم وفقه تبديل العملة في المطارات والفنادق للسياح السُذّج الذين كانوا يرفضون تبديل العملة عن طريق تجار العملة في السوق السوداء، وكذلك الأموال المطلوبة من أجل استيراد الاحتياجات التي صُنفت من قِبَل الجهات المختصة على أنها "ذات أفضلية". **٢** – قيمة ٢٣ ليرة سورية للدولار، والتي لُقِّبت بـ "القيمة الضريبية"، والتي يتم دفعها لتبادل العملة الأجنبية من أجل تمويل غالبية عمليات الاستيراد للدولة. **٣** – قيمة ٤٦,٥٠ ليرة سورية للدولار، وذلك من أجل حساب

---

(٤) راديو دمشق، ٢٥ آب/أغسطس ٢٠٠٠. أنظر أيضاً الوطن، ٢٢ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **تشرين** ١٥أيار/مايو ٢٠٠٢. كما عدلت السلطات السورية أيضاً قانون ضريبة الدخل، والذي بقي بدون تغيير منذ أن سُنّ للمرة الأولى في عام ١٩٤٩. وقد فرض القانون في حينه ضريبة بقيمة ٥% على أول ١,٠٠٠ ليرة سورية، و٨% على الألف الثاني، و١١% على الألف الثالث، ١٤% على الألف الرابع، و١٨% علي الألف الخامس وما فوق. التعديل في القانون أعفى الرواتب حتى ٢٠٠٠ ل.س من دفع الضريبة، وخفض قيمة الضريبة على الرواتب الأعلى. أنظر **تشرين**، ١٩ آذار/مارس ٢٠٠١، ٦ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

الصفقات مع الدول المجاورة مثل الأردن ولبنان والتي أُعتمدت من أجل تشجيع التجارة مع تلك الدول، ومن هنا جاء اسمه "سعر صرف الدول المجاورة". بالإضافة إلى ذلك كان هناك سعر السوق السوداء، الذي وقف، ولا يزال يقف، عند ٥٥ ل.س للدولار.(٥)

في بداية عام ١٩٩٨ تمّ توحيد غالبية قيم صرف العملة لغرض حساب الصفقات التجارة الخارجية، ووقفت عند ٤٦,٥٠ ليرة سورية للدولار. وفقط أواخر عام ٢٠٠١ أعلن البنك التجاري السوري أنه سيبدأ من الآن فصاعداً إجراء الصفقات على أساس سعر صرف مشترك ٤٨ ليرة سورية للدولار، وذلك دون أن تلغي الحكومة بشكل رسمي بقية أسعار صرف العملة.(٦) وقد شكّل ذلك تحسناً مقارنة بالوضع الذي كان سائداً على امتداد غالبية الثمانينيات والتسعينيات، إذ كانت في سورية في ذلك الوقت خمسة أسعار صرف للدولار. وفي بداية التسعينيات، وبعد أن طرأ انخفاض حاد جداً على قيمة الليرة السورية (٣,٩٢٥ إلى ١١,٥ ليرة سورية للدولار) تمّ إلغاء بعض من قيم صرف العملات وأُقرّ سعر صرف جديد من أجل حساب سعر المداخيل من النفط، وبقي الأمر على ما هو عليه حتى أواسط التسعينيات.(٧)

وبالطبع يمكن الادعاء أن القوة الشرائية لـ ١٠,٠٠٠ آلاف ليرة سورية أعلى بكثير من القوة الشرائية لـ ٢٠٠ دولار في الولايات المتحدة أو في أوروبا، وخاصة عندما نقارن بين مستوى الحياة وغلاء المعيشة في سورية مقابل الحياة في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن يمكن الرد على ذلك بالقول إنه في عصر العولمة المتوحشة والتي تتجاوز كل الحدود فإن هناك أهمية لترجمة الرواتب والناتج المحلي الوطني للفرد لقيمها بالدولار، ذلك أن الكثير من المنتجات، وخاصة تلك التي تمثل

---

(٥) CR, Syria-2000, No. 2,3, pp. 2,9.

(٦) **تشرين**، ١٠آب/أغسطس ١٩٩٨. وانظر أيضاً Eyal Zisser, "Syria", in Bruce Maddy-Weitzmann. وكذلك مقابلة نائب رئيس الحكومة السورية للشؤون الاقتصادية مع ص حيفة **الأسبوع المصرية**، ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٧) CR, Syria-1991, No. 1,3, pp. 2,9; 1992,No.1,3pp.2,9.

ذروة التطور التكنولوجي، مثل الفاكس والحاسوب (الكومبيوتر) والهاتف الجوال، تحولت إلى منتجات متساوية لكل الأفراد، إذ لا يوجد، عملياً، فرق بين ثمنها في الصين أو في سورية أو في إسرائيل أو في الولايات المتحدة. ونجد أن قيمة عنصر العمل وكلفة الوساطة والتسويق، في هذه المنتجات، صغيرة مقارنة مع المنتجات الاقتصادية التقليدية.

ولكن أسعار الهواتف النقالة أو الحواسيب، كما يبدو، لا تشغل بال غالبية السكان في سورية، ذلك أنه ليس في وسعها أن تطال هذه المنتجات الكمالية. ومن هنا لا توجد حاجة عملية لحساب قيمة الرواتب بالدولارات حتى نعرف قيمتها الحقيقية، ولكن يمكن الاكتفاء بالتقارير الواردة في الصحافة السورية حتى ندرك أنها غير كافية لتأمين مستوى معيشة معقول.[8] ويتضح من استطلاع نشرته صحيفة الثورة، لسان حال الحكومة السورية، في أيار/مايو ٢٠٠٢، أن ٩٤% من أصل ٢٠٠ عائلة شاركت فيه قالت إنها تعيش حياة متواضعة. بينما اشتكى ٤٨% منها من أن مستوى معيشتها قد تراجع خلال السنوات الأخيرة. ووصفت ٤٢% منها وضعها الاقتصادي بأنه صعب.[9] وكان هناك في سورية من ربط بين الأزمة الاقتصادية القاسية التي انجرفت إليها سورية وبين حقيقة أن سن الزواج للرجال

(٨) تُظهر نظرة إلى جدول الأسعار في سورية في بداية ٢٠٠٣ أن سعر الصحيفة اليومية هو خمس ليرات (١٠ سنتات). ويكلف رغيف الخبز بالمتوسط حوالى ١٠ ليرة سورية (٢٠ سنتاً). وثمن ١كغ من السكر المخصص حوالى ١٦ ليرة سورية (حوالى ٣٥ سنتاً)، ولكن ثمنه في السوق الحر يصل إلى حوالى ٢٠ ل.س (٤٠ سنتاً). وثمن ١ كغ من الرز ١٨ ليرة سورية (حوالى ٤٠ سنتاً). وثمن ١ كغ من لحم الدجاج ١٠٣ ليرة سورية (حوالى دولارين). وثمن ليتر البنزين العادي حوالى ٢٠ ليرة سورية (حوالى ٤٠ سنتاً). وأجرة السفر في الباص من دمشق إلى حلب ٣٩٣ ليرة سورية (حوالى ٨ دولارات). ويكلف الكمبيوتر حوالى ٤٠,٠٠٠ ليرة سورية (٨٠٠ دولار). ويصل ثمن السيارة (سعة محركها ١,٦٠٠ سم٣) إلى ٦٠٠,٠٠٠ ليرة سورية (١٢,٠٠٠ دولار). وثمن شقة في وسط دمشق ٣٠-٤٠ مليون ليرة سورية (٤٠-٤٢ ألف دولار)، وفي ضواحي المدنية ربع هذا المبلغ. أنظر على سبيل المثال **الثورة**، ١شباط/فبراير ٢٠٠١. **البعث**، ١٥ حزيران/يونيو ٢٠٠١. **تشرين**، ١٦ أيار/مايو ٢٠٠٢. **تشرين**، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **الحياة**، ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٩) **الثورة**، ١٦ أيار/مايو ٢٠٠٢.

والنساء آخذ في الارتفاع في السنوات الأخيرة، وكذلك بينها وبين اتساع ظاهرة حفلات الزواج الجماعي التي تُنظم من قبل السلطات، ويقام فيها حفل متواضع، بتمويل من السلطات، لتزويج عشرات الأزواج غير القادرين على تمويل حفلات زفافهم بأنفسهم.(١٠)

وجاء في بحث أجراه معهد الإحصاء المركزي في دمشق، ونُشرت نتائجه في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، أن متوسط مصاريف العائلة التي تعيش في المدينة (التي تضم ٥ - ٦ أشخاص) يصل إلى ١٣,٣٣٤ ليرة سورية (٢٦٦ دولار)، مقابل مصاريف تصل إلى ١١,١٢٠ ليرة سورية (٢٢٢ دولار) لعائلة مشابهة تعيش في القرية. وقد أجرى مكتب الإحصاء المركزي حساباته ووجد كذلك أن متوسط المصروف الشهري للفرد في المدينة هو ٢,٠٩٥ ليرة سورية (٤١دولار): ١,٢٥٣ ليرة سورية للاحتياجات الغذائية و٨٤٢ ليرة سورية لشراء البضائع والخدمات.(١١)

فلا عجب إذاً أن يتعرض نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام إلى انتقاد شديد، خلال اللقاء الذي أجراه في شباط/فبراير ٢٠٠١ مع محاضري وطلاب جامعة دمشق، من قبل أعضاء حزب البعث، وذلك بسبب الوضع الاقتصادي الصعب. وقد اتضح أن الوضع الاقتصادي والمستوى المعيشي يشغلان هؤلاء الأعضاء أكثر بكثير من قضية تقدم الديمقراطية في سورية. حتى إن إحدى المحاضرات صرخت بخدام "راتبي لا يزيد عن ٢٠٠ دولار، وهذا واقع لا يمكن التسليم به. وحتى إذا وصل إلى هنا وزيراً التجارة والاقتصاد ومعهم ممثل صندوق النقد الدولي والبنك العالمي، لن يفلحوا في إقناع الجمهور المتواجد هنا بأن الدولة ليس بمقدورها أن تحسّن مستوى المعيشة للمحاضرين، حيث يكفي ذلك مصاريف الوقود والصيانة لسيارات كبار المسؤولين".(١٢)

إذاً تعيش غالبية السكان في سورية، وحتى هؤلاء الذين تُشغّلهم الدولة أو

---

(١٠) **البيان**، ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. **أخبار الشرق**، ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(١١) **المستقبل**، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

(١٢) **السفير**، ٢٣ شباط/فبراير ٢٠٠١.

القطاع الخاص، في حالة حاجة دائمة. إلاّ أن الوجه الآخر للعملة هو أن الحديث يدور عن عمل ثابت بعيد عن خطر الإقالة، وبشروط عمل مرنة ومريحة أيضاً. وساعات العمل المتبعة في غالبية وزارات الحكومة والجيش، بالنسبة للذين يدأبون على التواجد في أماكن عملهم للقيام به، تمتد من الساعة ٨,٠٠ صباحاً وحتى الثانية ظهراً. وبعد ذلك يتوجه الكثيرون إلى عمل إضافي آخر من أجل زيادة دخولهم. ويعتبر الحصول على العمولة أو الرشوة أمراً عادياً في مختلف مستويات البيروقراطية: ويتقاضى الموظفون وعناصر الخدمة ١٠٠ - ٢٠٠ ليرة سورية مقابل التوقيع على شهادة أو الحصول على موافقة. كما يتم تقاضي دفعة مقابل وصل خط التلفون أو جر خط المياه أو الكهرباء، وغالباً ما يُدفع المبلغ مع إبداء الشكر والامتنان لموظف الدولة الأمين، الذي لا يُمكّنه راتبه من العيش بشرف. ويُظهر موظفوا وكبار نشطاء الحزب تعاملاً أقل تسامحاً وذلك أنهم يطلبون عمولة تصل إلى ٥% على الأقل أجل تمرير الصفقات التي تتطلب موافقتهم، ويختلسون أموال الجمهور.(١٣)

وكان النموذج البارز على ذلك صفقة طائرات الايرباص، التي أحدثت ضجة كبيرة عام ٢٠٠٠. ففي بداية التسعينيات اشترت سورية ست طائرات ركاب من طراز ايرباص ٣٠٠ بكلفة ٢٥٠ مليون دولار. واتضح فيما بعد أن مسؤولين سوريين كبار، ومن بينهم رئيس الحكومة محمود الزعبي، ونائب رئيس الحكومة للشؤون الاقتصادية سليم ياسين، ووزير المواصلات مفيد عبد الكريم، قد ضخّموا سعر الصفقة إلى ٣٧٤ مليون دولار من أجل أن يسرقوا لجيوبهم عمولة جيدة. إلاّ أن عملية الاختلاس لم تكن مفاجئة بحد ذاتها، خاصة إذا ما أخذنا بالحسبان تورط "السيد ٥%" في القضية (أنظر الفصل الرابع)، لكن المفاجئ هو قرار النظام السوري تفجير القضية، على ما يبدو، كجزء من حملة علاقات عامة لبشار الأسد، والتي جاءت لتقديمه كشخص نزيه نظيف اليدين، الذي يتطلع إلى تطهير سورية من الفساد. وقد أُقيل رئيس الحكومة الزعبي من منصبه في آذار/مارس ٢٠٠٠،

(١٣) **تشرين**، ٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

وأُعلن بعد ذلك بوقت قصير أنه بُدئ معه بتحقيق جنائي. وقد اختـار الانتحـار بطلقة في رأسه حتى يوفر على نفسه البهدلة والإهانة الناجمتين عن تقديمه للمحاكمة وإدانته. أما وزير المواصلات مفيد عبد الكريم ونائب رئيس الحكومة سليم ياسين، فقد قُدّما للمحاكمة وحكم عليهما بالسجن مدة عشر سنوات، وغرامـة ماليـة وصلت إلى ٤٧٠ مليون ليرة سورية (٧١٥) ألف دولار على كل منهما.[١٤]

بالإضافة إلى ذلك تدل قضايا الرشوة على أنه توجد في سورية طبقـة مـن أصحاب النفوذ، مع أنها صغيرة جداً. وكانت هذه خلفية القرار الـذي أصـدرته الحكومة في نيسان/أبريل ٢٠٠١ في ما يتعلق بتنظيم عمل المسـاعدين والمـربين، وخاصة من سيريلانكا واليمن والفليبين، في العمل المنزلي في سورية. وقـد حـدّد القرار، بالإضافة إلى أمور أخرى فرض (١٠٠٠) دولار على كل مشغل يُـدخل عاملاً أجنبياً للبلد.[١٥] لكن سرعان ما اتضح أن الغرامة لا تشكل عقوبة رادعـة تحول دون قيام مئات المُشَغِّلين بإحضار العمال الأجانب إلى البلد، حيث يقدر عدد هؤلاء العمال الأجانب بالآلاف، وربما بعشرات الآلاف أيضاً، ومن بينهم عراقيون ومصريون وسودانيون وسواهم. وحتى أنه قد أُفيد في صيف ٢٠٠١ في الصـحافة السورية عن زيادة بنسبة ١٥٠% على عمليات بيع سيارات من طراز مرسـيدس، و٢٠٠% على عمليات بيع سيارات من طراز جاكوار.

ويُفسِّر النقص في المدخرات لدى غالبية السكان عدم وجود جهـاز بنكـي حقيقي في سورية ٢٠٠٤، ذلك أن غالبية المواطنين لا تحتـاج البنـوك مطلقـاً. وهكذا، وباستثناء سبعة بنوك حكومية (مع ٢٦٨ فرعاً في كافة أرجاء سـورية)، تعمل بشكل أساسي في تقديم القروض العادية والقروض العقاريـة، لا توجـد في سورية بنوك تخدم المواطن العادي، كما هو الحال في غالبية دول العالم.[١٦] ويفضِّل

(١٤) أنظر إيال زيسـر، "سـورية"، الملاحظـة ٦٠ في الفصـل الثالـث، ص ٥٣٦. **تشـرين**، ٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. وانظر أيضاً **القدس العربي**، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(١٥) سانا، ١٠ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **الحياة**، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(١٦) CP, Syria-2002-2003, pp. 32,9. وانظر أيضـاً **الحيـاة**، ٢٩ تشـرين الأول/أكتـوبر ٢٠٠٢.

المواطن السوري الذي نجح في توفير مبلغ من المال الاحتفاظ به بالعملة الأجنبية وتهريبه إلى خارج البلاد إذا كان ذلك بمستطاعه، وذلك لأن امتلاك، أو الاتجار، بالعملة الأجنبية يُعتبر جريمة وفق القانون السوري. ويفرض القانون رقم/٢٤/من عام ١٩٨٦ عقوبات شديدة تصل إلى السجن ٢٥ عاماً لمهربي العملة الأجنبية، وسنة إلى خمس سنوات لمن يمتلك عملة أجنبية بدون ترخيص. أما التعديل رقم/٦/والذي صدر عن الحكومة السورية عام ٢٠٠٠، فقد ليَّن قليلاً ذلك القانون، إلاّ أنه لم يُلغِه نهائياً من كتاب القوانين.[١٧]

ومع ذلك، فإن الأمر لم يُثنِ الحكومة السورية عن سن سلسلة من القوانين، منذ عام ١٩٨٦، لتشجيع الاستثمار في الدولة، والتي سمحت للمستثمرين الأجانب والسوريين حيازة العملة الأجنبية. وحتى أن الحكومة نشرت في عام ٢٠٠٢ تعديلاً جديداً يتيح للمواطنين فتح حساب بالعملة الأجنبية في البنك التجاري السوري بدون أن يكون مطلوباً من المودع أن يذكر مصدر ماله. وكانت نتيجة ذلك، بطبيعة الحال، نشوء حالة من عدم الوضوح في قطاع التبادلات، وخاصة وسط جمهور المستثمرين والتجار، لجهة المسموح والممنوع فيما يتعلق بالعملة الأجنبية. وفي تموز/يوليو ٢٠٠٣ أصدر بشار الأسد المرسوم رقم/٣٣/المختص بتنظيم الاتجار بالعملة الأجنبية، والذي يقوم في أساسه على نقل معالجة المخالفات المتعلقة بها للمحاكم العادية بدلاً من محاكم أمن الدولة التي اختصت بها في الماضي.[١٨]

المواطنون السوريون البسطاء الذين يبحثون عن طرق لتأمين أموالهم في سورية، وليس بالذات عن طريق تهريبها الخارج، يتوجهون إلى **جامعي الأموال**، الذين يعملون، بالإضافة إلى تبديل العملة، في قطاع البنوك الخاصة. ويعمل في سورية المئات من هؤلاء الأشخاص، الذين يعطون المتعاملين معهم نسبة عالية تصل

---

(١٧) CR, Syria-1986, No.2, pp. 5,9: 1987, No.2, pp9-11.

(١٨) إيال زيسر، **سورية الأسد**، الملاحظة ٢٢ من التمهيد، ص ١٩٨-١٩٩. وانظر أيضاً **البعث**، ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٢. سانا، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٢، ٨ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

إلى ٢٠% على ودائعهم. ولكن، وكما هو معهود في مثل هذه الحالات، يصعب عليهم الوفاء بالتزاماتهم. وقد أُعتقل الكثير من جامعي الأموال من قبل السلطات، وصودرت أموالهم وممتلكاتهم. ويمكن الإشارة إلى حجم هذه الظاهرة من خلال التقرير الذي نشرته السلطات في أعقاب موجة الاعتقالات الكبيرة التي جرت عام ١٩٩٧ والتي أُعتقل فيها عدد من كبار جامعي الأموال في سورية (الكثير منهم من أصل أرمني). وقالت السلطات أن حوالى ١٣٣ ألف مواطن أودعوا أموالهم لدى جامعي الأموال حيث بلغ مجموع تلك الأموال حوالى ١٥ مليار ليرة سورية (أكثر بقليل من ٣٠٠ مليون دولار).[١٩] كما أن الكثير من السوريين يدخرون أموالهم في "صناديق الادخار" والتي يبلغ عدد أعضائها العشرات وربما المئات، والتي تستثمر أموالها في نشاطات عقارية (شراء مساكن أو مصانع صغيرة) وتُوزع الأرباح بين أعضائها.[٢٠]

هذا ولا يمتلك الكثير من مواطني سورية حسابات بنكية، وهم لا يستخدمون الأوراق البنكية أو بطاقات الائتمان. وقد بدأت السلطات في التسعينيات فقط بالسماح باستخدام بطاقات الائتمان الأجنبية، ولكن ظل عدد الشركات والبنوك التي تقبل بها صغيراً. وفي عام ١٩٩٩ سمح للمرة الأولى لبنك لبناني بإصدار بطاقات ائتمان للزبائن في سورية. وفي السنوات التالية بدأت شركات سورية بإصدار بطاقات ائتمان خاصة بها. وحتى بداية عام ٢٠٠٠ كان في دمشق صراف آلي واحد فقط، في فندق شيراتون الفاخر. وتم في السنوات الأخيرة فقط تشغيل عدد من آلات الصرافة الآلية. وفي منتصف عام ٢٠٠٣ بقي العدد مقتصراً على بضع مئات من الحوانيت والمتاجر التي تتعامل ببطاقات الائتمان. وحسب التقديرات فإن

(١٩) Eyal Zisser, "Syria", in Bruce Maddy-Weitzmann (ed.) MECS, Vol. XXI (1997), p.661. وانظر أيضاً قناة تلفزيون ANN، ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. **الحياة**، كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

(٢٠) **تشرين**، ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢. **الحياة**، ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢. وقد أطلق سراح الكثيرين من تجار العملة في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ في أعقاب العفو العام الذي أعلن عنه بشار الأسد.

هناك ١٢,٠٠٠ من أصل ما يزيد على خمسة ملايين من مواطني المدينة يستخدمون هذه البطاقات.[٢١]

هذا الوضع هو ما دفع بشار الأسد إلى محاولة تطوير النظام البنكي في سورية، وذلك كخطوة ضرورية استعداداً لفتح السوق السورية أمام الاقتصادي العالمي. وفي البداية عملت الحكومة، وبضغط من بشار، على تخفيف إجراءات افتتاح فروع البنوك الأجنبية في سورية. وفي الخامس والعشرين من أيار/مايو ٢٠٠٠أصدر وزير المالية في ذلك الوقت محمد العمادي قراراً يُنظم عمل البنوك الخاصة الأجنبية، حيث حدد تواجدها في مناطق التجارة الحرة في مختلف أنحاء سورية. وفي تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠٠٠ حصل البنك الأوروبي - اللبناني للشرق الأوسط (SGLER) على الموافقة لفتح فرع له في منطقة التجارة الحرة بالقرب من دمشق، حيث افتتح البنك باحتفال كبير. إلاّ أن التقارير الواردة من سورية تفيد بأن البنك خاو.[٢٢]

وفي بداية كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ قررت القيادة القطرية لحزب البعث، وهذه المرة أيضاً بضغط من بشار، السماح بإقامة بنوك خاصة في سورية. وهي الخطوة التي فُسّرت، في الصحافة السورية، على أنها أتت "لدفع سورية باتجاه آفاق جديدة من الحداثة، ولتشجيع المستثمرين في القطاعين الخاص والعام".[٢٣] وفي آذار/مارس ٢٠٠٢ أقيم، وفق القانون رقم ٢٣، مجلس المال والائتمان الذي أوكلت إليه مهمة الإشراف على إقامة وإدارة البنوك. وسُن كذلك قانون الحصانة البنكية، [٢٤] والذي أعلنت السلطات في أعقابه، في نيسان/أبريل ٢٠٠٢، عن السماح بفتح بنوك خاصة في أرجاء سورية. ولكن، وعلى الرغم من أن طلبات

(٢١) **البعث**، ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٢. **الثورة**، ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. **المستقبل**، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **تشرين**، ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. **الشرق الأوسط**، ١ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٢٢) وكالة الأنباء الفرنسية، ٣ آذار/مارس ٢٠٠١. **النهار**، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٢٣) **تشرين**، ٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

(٢٤) **الحياة**، ١٨ آذار/مارس ٢٠٠١. التلفزيون السوري، ٣٠ آذار/مارس ٢٠٠٢.

كثيرة، بلغت حوالى الثلاثين، قد تجمعت على طاولة الحكومة، وغالبيتها من بنوك وشركاء من دول الخليج ولبنان، إلاّ أنه لم تتم الموافقة على افتتاح البنك الخاص الأول في سورية إلا في تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٣ فقط، وهو بنك سورية والمهجر، والذي أُفتتح في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. وبالمناسبة فإن مدير البنك هو راتب الشلاح، مدير غرفة تجارة دمشق.(٢٥)

لقد واجهت البيرواقراطية السورية مصاعب في التأقلم مع وتيرة وطريقة التفكير التي أراد بشار إملاءها، وكانت يدها هي العليا في نهاية المطاف. وكما أوضحت صحيفة **تشرين** فإن: "سورية ليست بحاجة إلى البنوك الخاصة التي ستُمكّن رأس المال الإسرائيلي من التدفق إلى سورية، والذي يُمكِن، عن طريقه، لنماذج مثل جورج سوروس محاولة تقويض الاستقرار الاقتصادي في سورية".(٢٦) ولكن يبدو أن بشار قد فضل، هذه المرة أيضاً، عدم الدخول في مواجهة مع البيروقراطية ومع نشطاء الحزب، ويبدو أنه، هو نفسه، قد انتابته مشاعر الندم في الموضوع (فقد اُقتبس عنه قوله في بداية ٢٠٠٢: "يجب أن نأخذ في الحسبان أن افتتاح البنوك الخاصة قد يؤدي إلى إلحاق الضرر بالاقتصاد الوطني").(٢٧)

كما أنه لا توجد في سورية سوق للأوراق النقدية (بورصة)، على الرغم من أن الحكومة قررت إقامتها في شباط/فبراير ٢٠٠١ بعد القرار الذي اتخذته القيادة القطرية لحزب البعث أيضاً في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. وقد اعترف مسؤول سوري كبير بصراحة أن وضع السوق السوري لا يبرر ولا يُمكّن من إقامة بورصة. ولكن وزير الصناعة عصام الزعيم، الذي عرف حتى اعتقاله في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ بتهمة الفساد كأحد مقربي بشار وكأحد اللذين يحملون لواء الإصلاحات، قال موضحاً: "إن خصوصية سورية، مقارنة بدول عربية أخرى، تكمن في قربها الجغرافي من فلسطين وبالواجب الملقى على عاتقها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي لجزء من

---

(٢٥) **تشرين**، ٢١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **الحياة**، ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٢. **البعث**، ٢١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. **المستقبل**، ٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. سانا، ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٢٦) **تشرين** ٢٨ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٢٧) **القدس العربي**، ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٢.

أراضيها. وطالما بقي هذا الوضع على ما هو عليه فإنه لن يكون هناك إمكانية لقيام اقتصاد محايد في سورية" وإذا ما أقيمت بورصة في سورية فإن أموالاً غير مرغوب فيها ستتدفق إليها، وخاصة أموال إسرائيلية، ولذلك فإن الانفتاح الاقتصادي التي تحاول الحكومة السورية دفعه قدماً يجب أن يكون محدوداً ومحسوباً.(٢٨)

الاقتصاد في عهد حافظ الأسد

لا تتلخص مشاكل الاقتصاد السوري بغياب القطاع البنكي الحديث والمتطور فقط، مع أنه يجب أن نرى في ذلك مؤشراً على المشاكل الأساسية الصعبة التي يعاني منها الاقتصاد السوري والذي لا يزال يخضع لسيطرة مركزية من قبل الحكومة ويدار حسب مبادئ اشتراكية، ويوجد فيه قطاع عام كبير وغير مجدي. هذا الواقع المشوّه يتناقض مع الانطباع الذي تحاول السلطات غرسه لدى مواطني الدولة، بأن الاقتصاد السوري مستقر وقوي. وقد اعتادت الصحف السورية، في المناسبات الوطنية وأيام الذكرى السنوية مثل الذكرى السنوية لصعود حافظ الأسد إلى السلطة أو الذكرى السنوية لثورة البعث، على نشر إحصائيات هامة تدل على التقدم الكبير الذي حققته سورية في ظل قيادة حافظ الأسد، في الميادين الاقتصادية والاجتماعية.(٢٩) وتصدق قلة من المراقبين، الذين يتأثرون بهذا التضليل، أن حجم

(٢٨) أنظر **الشرق الأوسط**، ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠١. **الحياة**، ١٤ آذار/مارس ٢٠٠١. وانظر أيضاً **البعث**، ٢١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٢٩) بمناسبة مرور ٣٢ عاماً على ص عوده إلى السلطة، مثلاً، اختار نائب رئيس الحكومة محمد الحسين أن ينشر المعطيات التالية من أجل أن يعبر عن التحول الذي شهدته سورية خلال تلك السنوات: ازداد عدد المنشآت الصناعية من ٣١,٣٠٠ إلى ٩٠,٠٠٠. وازداد استغلال الأراضي المروية للزراعة بنسبة ٣٧,٧%. أما محصول القمح فقد ازداد من ٣٦٥,٠٠٠ طن إلى ٣,١٠٥ مليون طن. كما زاد محصول القطن من ٣٦٥,٠٠٠ طن إلى ١,٠٣٢ مليون طن. وكشف الحسين النقاب أيضاً عن أن عدد تلاميذ المدارس قد ازداد من ١,١٢٦,٣٨٣ إلى ٣,٣٧٠,٠٠٠ طالب. كما ازداد عدد طلاب الجامعات من ٣٧,٠٠٠ إلى ١٥٥,١٣٧. وأخيراً ازداد عدد الأسرّة في المشافي من ٦,٢١٦ إلى ١٩,٦٦٩ سريراً. كما ازداد عدد المنازل المربوطة بشبكة الكهرباء من ٤٣% إلى ٩٧%. وعدد المنازل المربوطة إلى شبكة المياه من ٤٣% إلى ٨٤,٢%. أنظر أيضاً **الأهرام**، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

الفقر في سورية لا يشبه الفقر الموجود في مصر أو في دول العالم الثالث الأخرى، وأن النظام قد نجح في جهوده بدفع اقتصاد الدولة، وفي المقدمة إقامة قاعدة اقتصادية ومنظومة خدمات تعليمية وصحية وضمان اجتماعي تستجيب لاحتياجات السكان.

ولا شك في إن الدولة السورية، وبالمصطلحات المجردة، قد حققت خطوات كبيرة إلى الأمام، إلاّ أن الأرقام الرسمية تدل على تخلف الدولة مقارنة ببقية دول العالم، إذ تضع أبحاث جرت في السنوات الأخيرة سورية في أسفل قائمة دول الشرق الأوسط، وحتى أنها تأتي، في قائمة دول العالم الثالث، قبل دول مثل اليمن والسودان وحتى بوتسوانا.[٣٠] ويتضح أيضاً أن نسبة الأمية في أوساط السوريين، والتي تُنكر السلطات وجودها، قد ازدادت في السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ، وهي تتراوح بين ١٠%، حسب إحصائيات اليونسكو، و٣٠% حسب إحصائيات سورية غير رسمية. وتُلحظ الأمية بشكل خاص في أوساط القرويين، الذين يشكلون حوالى نصف سكان سورية. حيث أن حوالى ٢٥% من الإناث و٥% من الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٤ لا يعرفون القراءة والكتابة.[٣١] ويبدو أن

(٣٠) يتضح من تلك المعطيات على سبيل المثال، أن ٢٢% من المنازل في الريف السوري لم تصلها المياه الجارية، وأن قسماً كبيراً منها غير موصولة بشبكة الكهرباء. ويوجد في الدولة، بشكل متوسط، طبيب أسنان واحد لكل ٣,٣٣٣مواطن، وطبيب عام واحد لكل ١,٢٢١ مواطن. ويوجد في مشافي دمشق سرير واحد لكل ٣٠٤ مواطنين. أما في محافظة إدلب، الواقعة إلى الشمال، فيوجد سرير واحد لكل ١,٨٢٤ مواطن. وفي محافظة الحسكة سرير واحد لكل ٢,١٣٤ مواطن.

(٣١) يتعلم في المدارس الابتدائية في سورية حوالى ٩٠% من الأطفال، لكن هذه النسبة تنخفض إلى ٤٣% في المدارس الإعدادية، وتصل إلى ١٥% في المدارس الثانوية. ويشكل الحاصلون على الشهادة الثانوية ٥% فقط، وربما أقل من ذلك. أنظر كتب الإحصاء السنوي السورية للسنوات ١٩٩٣، ٢٠٠٠ (دمشق، ١٩٩٤، ٢٠٠١) وانظر أيضاً ;CP, Syria (1993/94, 2000/01) Steven Plaut, "the Collapsing of Syrian economy", MEQ, vol. VI, No.3 (Septemper 1999), pp. 3-14. نيل غندل، **الاقتصاد السوري في بداية الألفية الجديدة**، تل أبيب: جامعة تل أبيب، ص ندوق ارمند هامر للتعاون الاقتصادي في الشرق الأوسط، ٢٠٠٠. World Bank, World Development Indicators,1999. **تشرين**، ٨، ٩ آذار/مارس ٢٠٠٠، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

المعطيات غير المريحة آخذة بالازدياد وذلك في ظل التزايد الطبيعي المرتفع بين السكان والمصاعب التي تواجهها المؤسسات الرسمية في التعامل معها.

وقد أقرّ الزعماء السوريين، بما فيهم الأسد الأب، بأن سورية دولة فقيرة، لكنهم عادوا وأكّدوا أربعة إنجازات أساسية من فترة حافظ الأسد:

1. لقد استطاعت سورية على امتداد سنوات توفير احتياجاتها، وخاصة في مجالات الطاقة والغذاء والماء، دون أن تُظهر تعلقاً خطراً وإشكالياً مع مصادر خارجية. كما أن سورية تُصدِّر النفط وخاصة لدول أوروبا الغربية. وتبيع فائض المواد الغذائية لجيرانها، الأردن والعراق ولبنان، بما يعادل مئات الملايين من الدولارات. كما أن الزراعة السورية قد تطورت بخطوات هائلة: إذ زيدت مساحات المناطق المزروعة بشكل كبير، كما تطورت شبكات الري للمزارعين، وأقيمت سلسلة من الإدارات الحكومية مهمتها تقديم الدعم الاقتصادي والتنظيمي لهم.
2. لقد نجح نظام الأسد، حتى بداية التسعينيات، في مواجهة الزيادة السكانية، وخاصة في المناطق الريفية، وفي منع الانتقال من تلك المناطق إلى المدن الكبيرة. كما أن السياسة الحكيمة في توزيع السكان ومشاريع التطوير واستصلاح الأراضي، وتقديم التسهيلات للمهاجرين إلى مناطق الاستيطان الجديدة (وخاصة منطقة الجزيرة أو الغاب بالقرب من حلب)، حالت دون حدوث خلل في التوازن بين الريف والضواحي وبين المدن الكبيرة، الأمر الذي ساهم بشكل واضح في الحفاظ على الاستقرار السياسي والاجتماعي – الاقتصادي في الدولة.
3. لقد نجح النظام في تأسيس شبكة ضمان اجتماعي تقوم بتقديم الخدمات، وإن اقتصر الأمر على الأساسية منها وبشكل محدود، للغالبية الحاسمة من السكان. ويتضح من الإحصائيات التي تنشرها الحكومة السورية من حين إلى آخر حدوث ثورة، أو على الأقل زيادة ضخمة، منذ عام ١٩٦٣ وحتى اليوم، في منظومة الخدمات التعليمية والصحية والضمان الاجتماعي، وخاصة في

الضواحي. وقد مكّنت قدرة النظام من الاستمرار في الاستثمار في الضواحي، مكّنته من الحفاظ على تأييد سكان تلك المناطق، والتي نمت منها القيادة السياسية الحاكمة في سورية خلال العقود الأربعة الأخيرة.(٣٢)

4. وإلى جانب ذلك، وفي بعض الأحيان على حساب الاحتياجات الوطنية الأخرى، نجح النظام في تخصيص الموارد لاحتياجات الأمن الوطني. وقد شكلت القوة العسكرية لسورية عبئاً ثقيلاً على اقتصاد الدولة المتداعي (حسب ما قاله وزير الإعلام السوري عدنان عمران: "سورية تبني بيد، وتدافع عن نفسها باليد الأخرى")،(٣٣) ولكنها ساهمت في استقرار الدولة السياسي خلال العقود الأخيرة، وفي قدرها على مواجهة التهديدات الخارجية على وجودها وخاصة التهديد الإسرائيلي.

ويمكن أن يسجل لمصلحة حافظ الأسد أنه، ومع صعوده إلى السلطة، ورث اقتصاداً مدمراً، وذلك كثمرة للسياسة الاشتراكية المتصلبة والمتطرفة التي اتبعها نظام "البعث الجديد"، والذي كان هو نفسه شريكاً كبيراً فيه. وبعد صعوده إلى السلطة ليّن الأسد من سياسة سابقيه وحتى أنه بادر إلى سلسلة من الإصلاحات التي هدفت إلى انفتاح أكثر في الاقتصاد السوري لتشجيع نشاط القطاع الخاص. إلاّ أن هذه السياسة لم تكن مثابرة ومنظمة وذلك بسبب الضغوط السياسية من الداخل والخارج.(٣٤) لكن من المشكوك فيه أن أية سياسة أخرى كانت ستنجح في دفع الدولة إلى التقدم بشكل أفضل، مثلما جرى على سبيل المثال في مصر بزعامة السادات. وبذلك فإنه يمكن تلخيص إنجاز الأسد بتراجع الدخل الوطني للفرد بنسبة الثلثين من ١,٤٠٠ - ١,٦٠٠ دولار للفرد في بداية الثمانينيات إلى ١,٠٣٠دولار

---

(٣٢) Raymound A. Hinnebuseh, Authoritarian Power and state Formation in Ba'thist Syria, Army, Party and Peasant, Boulder, Colorado: Westvoew Press, 1990, pp.127-275.

(٣٣) **الحياة**، ١٤ آذار/مارس ٢٠٠١. وانظر أيضاً وكالة الأنباء الفرنسية، ١١نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(٣٤) Volker Perthes, The Political Economy of Syria under Asad, London: I.B. Tauris, 1994.

في عام ١٩٩٥، وحوالى ٧٠٠ دولار للفرد في بداية سنوات الألفين.(٣٥) وتجـــدر الإشارة إلى أن موضوع الاقتصاد بقي، في نظر الأسد، في أسفل جدول الأولويات، وقد أدير بشكل ارتجالي وبالاعتماد على الحظ، أكثر من إدارته وفق رؤية بعيـــدة المدى، وخاصة في التسعينيات.

التسعينيات - قضية حظ

لقد كان هناك من ادعى أن الاقتصاد اللبناني في خمسينيات وستينيات القـــرن العشرين قد قام على حساب الآخرين. حرب استقلال إسرائيل في عـــام ١٩٤٨، وثورة الضباط الأحرار في تموز/يوليو ١٩٥٢، وثورة العـــراق في ١٩٥٨، وثـــورة حزب البعث في سورية في آذار/مارس ١٩٦٣ - كل تلـــك الأحـــداث أدت إلى انهيار المراكز الاقتصادية المنافسة للبنان وأدت إلى فرار رؤوس الأموال مـــن تلـــك الدول، التي وقعت في أيدي أنظمة ثورية - اشتراكية. وقد انساب رأس المال مـــن هناك إلى لبنان، وجُمع في بنوكها وساهم في ازدهار الاقتصاد المحلـــي.(وهكـــذا، عندما استقرت اقتصاديات الدول العربية الأخرى، واجه لبنان الكثير من المصائب، وذلك بسبب توقف ضخ رؤوس الأموال إليه. علاوة على ذلـــك ومـــع انـــدلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥، بدأت عملية هروب رأس المـــال اللبنـــاني إلى خارج الدولة.

ويبدو أن مصيراً مشابها واجه سورية. إذ أنه يصعب إيجاد تحليـــل اقتصـــادي متماسك لتفسير ولشرح أداء الاقتصاد السوري. وتعتمـــد التفســـيرات، بشـــكل خاص، على قضية الحظ: وكما هو الحال في الميادين الأخرى، فإن الحظ قد ابتسم، على ما يبدو، لحافظ الأسد وخاصة في اللحظات التي كان يبدو فيها أن الاقتصـــاد السوري على وشك الانهيار.

وتشكل سنوات التسعين نموذجاً صارخاً على الحظ الجيد للنظام الســـوري.

---

(٣٥) قناة تلفزيون الجزيرة، ١٣ آذار/مارس ٢٠٠١. وانظر أيضـــاً Onn Winckler, "Hafiz al-Asad's Socio-Economic Legacy: The Balance of Achievements and Failures", Orient, 3/2000, pp.449-467.

ففي نهايات الثمانينات انجرف الاقتصاد السوري إلى أزمة شديدة في أعقاب زيادة نفقات الجيش، وذلك بسبب قرار الأسد بتحقيق "التوازن الاستراتيجي" مع إسرائيل. وقد أدى الازدياد الكبير في نفقات الجيش إلى تراجع فائض العملية الأجنبية في سورية إلى بضع عشرات من ملايين الدولارات، وإلى نقص في المواد الأساسية، وإلى تراجع يقارب ١٠% من مجمل الناتج المحلي، وإلى تضخم مالي يبلغ حوالى ٦٠%.[٣٦] ولكن حظ سورية تغيّر دفعة واحدة عندما أُعلن عن اكتشاف حقول النفط شرقي الدولة والتي بدأت بإنتاج النفط بشكل منتظم في بداية التسعينيات. وبذلك تحول النفط إلى مصدر للدخل ضَخّ إلى مالية الدولة أربعة مليارات دولار في العام.

كما أن أزمة الخليج ساهمت أيضاً في الاقتصاد، وذلك على هيئة مساعدات سخية حصلت عليها سورية من تلك الدول مقابل دعمها لها، حيث قدرت تلك المساعدات بحوالى مليارين ونصف المليار إلى ثلاثة مليارات دولار. وجدير بالذكر أن سورية حصلت في السبعينات أيضاً على مساعدات من دول الخليج، الأمر الذي أدى إلى تحسين اقتصادها بشكل جيد. وخلال الثمانينيات كانت إيران هي الجهة التي قدمت لها المساعدة بقيمة مليار دولار وذلك مقابل مساعدتها لها في الحرب الإيرانية العراقية. وفي النهاية، وبعد سنوات من الجفاف، هطلت في سورية، في بداية التسعينيات، أمطار غزيرة أفادت الزراعة، التي تشكل حوالى ثلث مصادر الدخل الوطني، جداً.

حظ سورية ساعدها على الصمود في مواجهة المصاعب السياسية التي انزلقت إليها في ذلك الوقت مع انهيار الأنظمة الاشتراكية في دول أوروبا الشرقية. وقد

---

(٣٦) CR, Syria-1986, No.2, pp.5,9; 1987, No. 2, pp.9-11. وانظر أيضاً الياهو كنوفسكي، "الاقتصاد السوري"، وكذلك في **سورية وأمن إسرائيل** إعداد افنير يانيف وموشيه ماعوز وآفي كوبر، تل أبيب: معراخوت، ١٩٩١، ص ٨٥-١٤٢. Eliyahu Kanovsky, What's Behind Syria's Current Economic Problems?, Tel Aviv University, the Moshe Dayan Center for Middle Eastern Studies, Occasional Papers, May 1985.

مكن المطر الغزير الذي هطل، في غير موعده، في سورية، مكن النظام من اتخاذ خطوات لتشجيع النشاط الاقتصادي ولخلق مصادر دخل جديدة، والتي ذهبت إلى قطاعات مختلفة من السكان، وفي مقدمتها النخبة الاقتصادية السنيّة، التي كان النظام بحاجة إلى دعمها. بالإضافة إلى ذلك استثمرت السلطات مبالغ ضخمة في جهدها لتحسين القاعدة الاقتصادية وشبكة الخدمات التي تقدمها الدولة للمواطنين، مثل مجالات تزويد المياه والكهرباء، والاتصالات والمواصلات، وأخيراً التعليم والصحة والضمان الاجتماعي.

وفي عام ١٩٩٨ تراجعت أسعار النفط بشكل كبير ما أدى إلى تراجع مداخيل سورية من إنتاج النفط ومنتجاته بحوالى ٣٠٪، وفي عام ١٩٩٩ ضربها جفاف هو الأشد منذ عام ١٩٥٨. وقد أدى الجفاف إلى تراجع المحاصيل الزراعية بنسبة ٣٠ - ٤٠٪. فقد تراجع محصول القمح، على سبيل المثال، من ٤,٢ مليون طن إلى ١,١ مليون طن فقط.[٣٧] ويجب ألا نستهين بالجفاف في سورية - فانسحاب سورية من الصندوق العربي الموحد (١٩٥٨ - ١٩٦١) جاء نتيجة، بالإضافة لأسباب أخرى، الجفاف المتواصل الذي أدى إلى أزمة اقتصادية خانقة مما أدى إلى خفوت حماسها للاتحاد. كما أدت سنوات الجفاف في نهاية الستينيات إلى استياء في أوساط الجمهور من نظام "البعث الجديد" برئاسة صلاح جديد، وسهلت على حافظ الأسد الاستيلاء على مكانه. لكن وخلال عام ١٩٩٩ جاءت البشرى للسوريين حول ارتفاع جديد في أسعار النفط، وصلت حتى الضعف. وقد خصص الأسد المداخيل الإضافية، غير المتوقعة، لشراء وسائل قتالية متطورة من الاتحاد السوفياتي، بالضبط مثلما فعل في حينه بأموال المساعدات التي حصل عليها من دول الخليج عقب انتهاء حرب الخليج، حيث سارع في ذلك الوقت إلى شراء صورايخ أرض - أرض من كوريا الشمالية. كما كان عام ٢٠٠٠ عام خير لسورية ليس فقط في قطاع النفط، بل أيضاً في مجال الزراعة، حيث سُجل، في هذا المجال، تحسن كبير. وبموازاة ذلك سُجل ارتفاع حاد في التجارة مع العراق،

---

(٣٧) رويترز، ١ أيار/مايو ٢٠٠٢. CP, Syria, 2002-2003, pp.2.

بالإضافة إلى أن السوريين بدأوا ببيع النفط العراقي المهــرب في أســواق العـــالم وبأسعار مناسبة.

التحدي الاقتصادي أيام بشار

مع وفاة حافظ الأسد، وصعود بشار إلى السلطة، اتضح أن حلول الماضــي وحظ الأب لم تعد كافية لتقديم الردود على التحديات الــتي تواجــه الدولــة في مستهل القرن الحادي والعشرين. فقد وجدت سورية نفسها على أبــواب أزمــة اقتصادية جديدة، أشد مما كان الحال عليه في السابق، والتي كان من الممكن رؤيــة مؤشراتها في أيام الأسد الأب، فهل فضل هذا أيضاً تجاهلها أو أنه ببساطة لم يُــرِد الانشغال بها.

التحدي الديمغرافي

تتركز المشاكل الاجتماعية الاقتصادية التي ستواجهها سورية، علــى المــدى البعيد، في التحدي الديمغرافي. فعلى امتداد السبعينات والثمانينات كانــت نســبة التكاثر الطبيعي في سورية من أعلى النسب في العالم (٣,٣ - ٣,٥% في العــالم). وفي بداية عام ٢٠٠٣ بلغ عدد السكان فيها حوالى ١٨,٦٦٠مليون نسمة، ومــن المتوقع أن تتجاوز خلال العامين القادمين حاجز العشرين مليون، مقابــل الثلاثــة ملايين نسمة الذين كانوا يعيشون في سورية عند الاستقلال (١٩٤٦) و٤,٥مليون نسمة عام ١٩٦٠، و٦ ملايين نسمة عام ١٩٧٠.[٣٨]

وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ نشر مكتب الإحصاء المركزي في دمشــق معطيات تفصيلية عن تكاثر السكان في سورية بين الأعوام ١٩٩٤ - ١٩٩٩.[٣٩] ووفق تلك المعطيات، فقد تراجع معدل النمو السكاني إلى ٢,٧% في العام مقابــل

---

(٣٨) أنظر أون فينكلر، الملاحظة ٢٦ في التمهيد. وانظر أيضاً كتاب الإحصاء السنوي السوري لعام ٢٠٠٠، ص ٥٩-٦٠. ولمعطيات عام ٢٠٠٢ أنظر **الثورة**، ١٠ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

(٣٩) وكالة AP، ٢٨، ٣٠ شباط/فبراير ٢٠٠١. وانظر أيضاً **تشرين**، ١٨ تشــرين الأول/أكتــوبر ٢٠٠٠. ١٨ كانون الثاني/يناير، ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

٣,٣% في الفترة ١٩٨١ - ١٩٩٤. وحتى أنه انخفض، عند منتصف عام ٢٠٠٠، إلى ٢,٥%. ويبدو أن مرد هذا الانخفاض هو زيادة سكان المدن حيث أن نسبة الزيادة لديها أقل بكثير مما هو عليه الحال لدى سكان الأرياف.

ومع ذلك، فإن معدل التكاثر السكاني في المناطق النائية يبقى مرتفعا - مثلما هو الحال في محافظات مثل الرقة والحسكة حيث سُجل تكاثر طبيعي بنسبة٤,٥%. بينما سُجلت في محافظة درعا زيادة بنسبة ٤,٥%(هذا مقابل محافظة دمشق، على سبيل المثال، حيث بلغت نسبة التزايد الطبيعي في نهاية التسعينيات ١,٩% فقط في العام. كما أُعلن من دمشق أن خصوبة المرأة السورية تراجعت بحدة من ٨,٥ مولود بالمتوسط في السبعينات إلى ٦,١ مولود عام ١٩٨٠ و٤,٧ مولود عام ١٩٩٤ وحتى ٢,٩٩ مولود عام ٢٠٠٠. كما أُفيد أيضاً أن سن الزواج المتوسط قد ارتفع لدى النساء من ٢١,٤ إلى ٢٥,١، بينما ارتفع عند الرجال من ٢٥,٧ إلى ٢٨,٩سنة. وقد جاءت هذه الأرقام المشجعة، كما نوهنا، بعد سنوات طويلة سجل فيها التزايد الطبيعي معدلات عالية، ولا تزال نتائجه - السوريون الذين ولدوا في السبعينات والثمانينات ويصلون الآن إلى سن النضج - ملحوظة حتى الآن. وأكثر من ذلك، وعلى الرغم من التدني الملحوظ، فإن التكاثر الطبيعي في الريف السوري، الذي يسكن فيه حوالى نصف سكان الدولة، لازالت عالية.

تنظيم الأسرة - أقل مما يجب ومتأخر أكثر من اللازم

بدأ النظام السوري منذ بداية التسعينيات بتبني، وإن كان بشكل حذر ومتدرج، سياسة تنظيم الأسرة، وذلك لإدراكه المتزايد لتأثيرات التزايد السكاني السريع على مستقبل الدولة. وفي البداية، ركز النظام على النشاط الإعلامي الذي خُصص لزيادة الوعي لدى السكان بضرورة تنظيم الأسرة وتحديد النسل، وأقام في هذا الإطار، على سبيل المثال، مراكز تنظيم الأسرة في الأرياف والمناطق البعيدة، وأدخل دروس توعية جنسية إلى المقررات الدراسية في المدارس، .. الخ.[٤٠] ولكن

(٤٠) Eyal Zisser, "Syria", in Bruce Maddy-Weitzmann (ed.) MECS, Vol. XVII (1993), pp.640-41, Vol, XVIII (1994), PP. 619-653.

اشتراكية، هذه الحقيقة زادت بدون شك من الصعوبات في وجه أي محاولة لمواجهة بوادر الأزمة الآخذة بالتشكل.

نمو سلبي في الاقتصاد

يجد الواقع الاقتصادي القاسي الذي تعاني منه سورية التعبير عنه، قبل كل شيء، في المعطيات التي تدل على تباطؤ الاقتصاد السوري خلال السنوات الأخيرة، وذلك على الرغم من نسب النمو العالية التي سجلت بداية التسعينيات. ويتضح أنه بدأ عام ١٩٩٩ تراجع في الناتج المحلي بنسبة ٢%. كما يتضح أنه رغم النمو الذي بلغ ٠,٦ و١,٧% في الفترة ٢٠٠٠-٢٠٠١، وفي معادل النمو السكاني الذي بلغ٢,٧% في العام وأكثر، يتضح أن النمو كان سلبياً بشكل عملي. وفي عام ٢٠٠٢ زاد مجمل الناتج المحلي بحوالى ١,٥%، وفي بداية ٢٠٠٣ بحوالى ٣%، ولكن يدور الحديث هنا عن نمو سلبي من ناحية عملية، وذلك إذا أخذنا بالحسبان الزيادة الطبيعية المرتفعة في سورية.

وتجدر الإشارة إلى أن القضاء على التضخم الذي بلغ مستويات عالية في نهاية الثمانينات، يعود في جانب منه إلى الركود الشديد الذي يعاني منه الاقتصاد السوري منذ عدة سنوات، حيث يقف هذا التضخم عند حدّ ١ - ٣% في العام. وأخيراً من المناسب التذكير أيضاً أن الديون الخارجية على سورية تقدر بحوالى ٢١ - ٢٢ مليار دولار وتشكل عبئاً على اقتصادها، حيث أن ١٢ مليار دولار منها هي ديون للاتحاد السوفياتي السابق والتي تنكرها سورية بدعوى أن روسية ليست الوريث الحصري للاتحاد السوفياتي، لذلك فهي ليست ملزمة بسدادها لها.[٤٣]

أما حجم التجارة الخارجية السورية فبقيت جامدة على حالها بل أنها تراجعت. ففي عام ١٩٩٠ بلغ حجم التصدير ٣,٠٠٩ مليار دولار، بينما بلغ

(٤٣) CR, Syria-2001, No.2, pp.5,9; 2002, No.2, pp.9-11. أنظر أيضاً مقابلة نائب رئيس الحكومة السورية للشؤون الاقتصادية إلى ص حيفة **الأسبوع** المصرية، ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

الاستيراد ٢,٠٨٠ مليار دولار. وفي عام ١٩٩٨ بلغ حجم التصدير ٣,١٤٢ مليار دولار مقابل استيراد ٤,٢٠١ مليار دولار.[٤٤] إن تلك المعطيات غير تامة ذلك أنها لا تضم النفقات العسكرية السورية في تلك السنوات، والتي خُصصت لشراء السلاح بمليارات الدولارات، وخاصة من كورية الشمالية وإيران وروسية ودول أوروبا الشرقية.

بالإضافة إلى ذلك، فإن النفط ومنتجاته شكلت منذ أكثر من عقد ما يزيد على ثلثي التصدير، [٤٥] لكن احتياط النفط السوري محدود، وهو سينفذ، حسب تقدير الخبراء، خلال عقد. إلى جانب ذلك فقد بدأ تراجع استخراج النفط بنسبة ٥% في كل عام وذلك بسبب العتاد القديم والتقنيات التي أكل عليها الدهر وشرب وبسبب القوة العاملة غير المدربة.[٤٦] وكان يمكن لتراجع تصدير النفط أن يكون أكثر خطورة لولا لم يقم العراق بتزويد سورية بحوالى ١٥٠ - ٢٠٠ برميل يومياً وبشكل رخيص، والتي وجهها السوريون للاستهلاك المحلي، الأمر الذي أتاح تصدير النفط الذي ينتجونه هم.[٤٧] إلا أن هذا الأمر أُوقف في أعقاب احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ (أنظر الفصل السادس).

وقد نفت سورية إمكانية أن يأتي يوم من الأيام وتفقد فيه مصادر النفط. وقد تنبأ مسؤولون كبار في قطاع النفط بأن اكتشاف آبار جديدة شرقي الدولة بالإضافة إلى إدخال الأساليب العلمية الجديدة سيساعد سورية في الحفاظ على حجم إنتاجها من النفط. إلاّ أن الوعي بدأ يترسخ مؤخراً في سورية بأنها لن تكون محصنة من ذلك إلى الأبد. فوزير الصناعة السابق، عصام الزعيم، والذي يعتبر أحد

---

(٤٤) CR,Syria-2001, No.2,p.3.

(٤٥) المصدر السابق. يقدر حجم انتاج النفط في عام ٢٠٠١، على سبيل المثال، بحوالى ٣,١٦٩ مليار دولار من أصل ٤,٩٨٤ مليار هي مجمل إنتاج التصدير السوري في العام نفسه.

(٤٦) لقد تراجع إنتاج النفط السوري من ٦٢٠,٠٠٠ برميل في اليوم في أواسط التسعينيات، إلى حوالى ٥١٠,٠٠٠ برميل يومياً خلال ٢٠٠٢.

(٤٧) وكالة رويترز، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠١. **تشرين**، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠١.

المقربين من بشار، اعترف أن على سورية الاستعداد لوضعٍ تَفْقِد فيه دخلها من النفط، وأن عليها أن تطور الموارد البشرية بدلاً عنه.(٤٨)

انهيار البنى التحتية وشبكة الخدمات الاجتماعية

لقد ظهرت خلال السنوات الأخيرة، كما سبق وأشرنا، بوادر تدهور في وضع البنى التحتية الاقتصادية في سورية. وكذلك في وضع الخدمات الاجتماعية. ومن المناسب أن نعود ونذكر أن النظام قد وجّه في بداية التسعينيات موارد كبيرة لرفع مستوى حياة المواطن، إلا أن التكاثر الكبير للسكان جعلها وكأنها لم تكن. وتدل تقارير السنوات الأخيرة أن دمشق عادت لتعاني من جديد من نقص في الماء والكهرباء، أو حسب أقوال صحيفة البعث، الناطقة بلسان الحزب: "لقد عادت أصوات المولدات التي يستخدمها المواطنون خلال الانقطاع المتواصل للتيار الكهربائي التي يمليها النقص، عادت لتملأ المدينة صخباً".(٤٩)كما أن عملية تزويد الماء غير منتظمة. فخلال فصل الصيف تفرض السلطات تقنينا على تزويد المياه، وهي الخطوة التي تعني بالنسبة للمستهلكين ساعات طويلة من قطع المياه تصل إلى ست عشرة ساعة في اليوم. وقد أوردت الصحافة السورية تقارير عن أحياء كاملة في مدينة دمشق قُطع عنها الماء لمدة أسابيع طويلة. هذا دون الحديث عن الأحياء الفقيرة، والتي بني جزء منها بدون ترخيص، والتي لا يوجد فيها مياه جارية. وحسب المصادر السورية فإن دمشق بحاجة إلى ٦٧٠,٠٠٠ متر مكعب من المياه

(٤٨) **الحياة**، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠٠١. وانظر أيضاً **الرأي العام**، ١٠نيسان/أبريل ٢٠٠٢. وتجدر الإشارة، إلى أن بقية فروع التصدير في سورية مهملة قياساً بالنفط، وهي تشمل، حسب معطيات حديثة لعام ٢٠٠٣: الخضار والفواكه ٢٥٩ مليون دولار، المنتجات النسيجية ٣١٧ مليون دولار، القطن ١٩٦ مليون دولار. وقد خُصص ٦١,٧% من مجمل التصدير السوري لأوروبا، بينما خُصص ١٧,٧% لدول الشرق الأوسط، وخاصة العراق، الذي تحول منذ عام ١٩٩٧ إلى هدف مفضل للمنتجات السورية ومنتجات الترانزيت. و٨% لإيطاليا، و٣,١% فقط للولايات المتحدة. وتصل الواردات في غالبيتها من دول أوروبا(٣٤,٢%)، أما الواردات من دول الشرق الأقصى فتصل إلى ٢٢,٧%. وروسية ٨,٣%، ومن دول الشرق الأوسط ٨%. في هذا الموضوع راجع CR,Syria-2002, No.2, pp.5,9.

(٤٩) **البعث**، ١٦ آذار/مارس ٢٠٠١.

شهرياً، إلا أنها تحصل عملياً على ٤٠٠,٠٠٠ متر مكعب فقط.(٥٠)

لقد ساهم هذا الواقع المشوّه في انهيار سد زيزون، وهو السد الرابع من حيث كِبَرِه في سورية، والذي دُشّن على يد مسؤولين كبار في النظام في حفل مهيب عام ١٩٩٦. وقد انهار السد في الرابع من حزيران/يونيو، بعد فترة متواصلة من إهمال السلطات معالجة التشققات التي ظهرت فيه. وقد أدى انهيار السد إلى غمر مساحات واسعة في منطقة الغاب، إلى الشمال من حماة، وإلى فقدان كميات كبيرة من المياه المخصصة للزراعة، وإلى حوالى ٢٧ ضحية وإخلاء حوالى ٨٠,٠٠٠ شخص من منازلهم.(٥١)

في البداية حاول النظام استغلال انهيار السد في النضال من أجل زيادة نجاعة الخدمات العامة (كان هذا، على ما يبدو، لاعتقال وزير الري السابق عبد الرحمن المدني وعدد من كبار المسؤولين في مكتبه)، لكن وبسبب الخشية من ألاّ يكتفي الجمهور بقطع رؤوس البعض اضطر إلى تغيير الاتجاه وبرر للمواطنين انهيار السد بالقول "إنه لا يمكن اتهام النظام كله بسبب تقصير موظف واحد". وقد استمرت محاكمة المسؤولين عن انهيار السد حوالى عام، وفقط في تموز/يوليو ٢٠٠٣ بُـرِّئ وزير الري ومساعدوه المقربون من التهمة بسبب عدم توفر الأدلة، بينما أدين المتعهد الذي بنى السد باستخدام مواد بناء غير صالحة، كما حكم على المهندسين والموظفين الصغار بعقوبات سجن تتراوح بين ٨ – ١٥ عاماً وبغرامات مالية ضخمة.(٥٢)

الهجرة المتسارعة من الريف إلى المدينة

لقد مر المجتمع السوري خلال السنوات الأخيرة بعملية سريعة من الانتقال من الريف إلى المدينة. هذا ومن المحتمل أن تصبح زيادة الهجرة إلى المدن الكبيرة والازدياد الدراماتيكي في عدد السكان أحد أكبر المشاكل التي تواجهها سورية في

---

(٥٠) – **تشرين**، ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٥١) **تشرين**، ١٢،٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. **الحياة**، ٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

(٥٢) **البيان**، ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. **الوطن**، ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

المستقبل المنظور. ومن المحتمل أن تكون سياسة توزيع السكان التي وُجّه إليها المواطنون ذات جاذبية. وتدل نظرة إلى الإحصائيات أن نسبة سكان المدن ارتفعت بنسبة ٣٧% في عام ١٩٦٠إلى ٤٣% عام ١٩٧٠ وإلى ٥٥%عام ٢٠٠٠. وفي ظل حقيقة أن المدن ابتلعت مناطق ريفية لا تزال بشكل رسمي (لضرورات إحصائية) مناطق ريفية، يبدو وزن سكان المدن أكبر بكثير. ويمكن الإشارة هنا إلى أن النظام يواجه المصاعب في مواجهة عملية التمدن [اتساع المدن] هذه، وخاصة اتساع الأحياء الفقيرة حول مراكز المدن.

وقد أفاد بحث نشر في أيار/مايو ٢٠٠٢ أنه يقطن العاصمة السورية ٥,٥ مليون مواطن مقابل ٥٢٨,٨٦٢ مواطن عام ١٩٦٠. وتشير التقديرات إلى أن حوالى ٣,٩ مليون من مواطنيها هم من المهاجرين الذين وصلوا من المناطق الريفية خلال العقود الأخيرة. كما يدخل إلى المدينة في كل يوم ١,١ مليون نسمة لضرورات العمل وقضاء حاجاتهم. وحسب البحث المذكور فقد وصلت الكثافة السكانية في الأحياء الفقيرة في المدينة، حيث البناء فيها في أغلب الأحيان غير مرخص، إلى حوالى ٧٠,٠٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد، أي ٣ – ٤ شخص في كل غرفة.(٥٣)

ولا غرابة إذاً ألا يجد مواطنو الأحياء الفقيرة أماكن لهم في دائرة العمل، وفي منظومة الخدمات التعليمية، والصحة والضمان الاجتماعي.. الخ. ونتيجة لذلك يجد النظام صعوبة في فرض رعايته، وسلطته، عليهم. هذا دون أن نتحدث عن فرض تأييده عليهم. ومما لاشك فيه أن هذه القضية ستشغل حيزا كبيرا في الأجندة الاجتماعية الاقتصادية في سورية، وسيكون لها تأثيرات على الاستقرار السياسي القائم في الدولة خلال العقود الأخيرة.

وقد وردت تقارير من سورية حول مواجهات متكررة بين السلطات وبين المواطنين في الأحياء الفقيرة. ففي نيسان/أبريل ٢٠٠١، على سبيل المثال، تظاهر آلاف السكان في صيدنايا احتجاجا على نية السلطات هدم منازلهم، كما أنه في

(٥٣) **الثورة**، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٢.

أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ جرت مواجهة في حي الكبّاس في دمشق بين المواطنين والسلطات على خلفية النية لهدم مئات المباني غير المرخصة من أجل فسح المجال أمام شق طريق جديد(وفي هذه الحالة تراجعت السلطات عن نيتها). وفي بداية تشرين الثاني/أكتوبر ٢٠٠٢ ثارت ضجة في سورية في أعقاب وفاة حوالى أربعين شخصاً جراء انهيار ستة مباني في حي الكلاسة في حلب، في أعقاب عاصفة من المطر الشديد. وقد اتضح أن المباني أقيمت بدون ترخيص فوق مغاور تحت الأرض، وأن السلطات تجاهلت ذلك، بل حتى أنها أعطتها الشرعية من خلال ربطها بشبكات الماء والكهرباء والهاتف.[٥٤]

البطالة المستشرية

مؤشر آخر على الأزمة الاقتصادية التي تواجهها سورية يتمثل في البطالة المتزايدة. فقد أشارت الإحصائيات الرسمية التي نشرت في دمشق بداية عام ٢٠٠٠ أن نسبة البطالة هي ٩,٥% مقابل ٩% عام ١٩٩٩، أي ٤٤٠,٠٠٠ عاطل عن العمل. وفي صيف عام ٢٠٠٣ اعترف متحدثون رسميون أن عدد العاطلين عن العمل يبلغ ٨٠٠,٠٠٠ شخص، أي حوالى ٢٠% من القوة العاملة في سورية، والتي بلغت في ذلك الوقت ٥,٥ مليون شخص. هذا بالإضافة إلى حوالى نصف مليون شخص يستطيعون بالكاد تأمين رزقهم. ويتضح من المعطيات الرسمية أن نسبة البطالة مرتفعة بشكل خاص في منطقة العلويين ومنطقة الجزيرة شرقي الدولة وجنوبيّها (٢٠,٥% في طرطوس و١٥,٧% في السويداء)، بينما نسبة البطالة حول مراكز المدن الكبيرة متدنية نسبياً (حوالى ٧,٥% فقط).

ويتضح من المعطيات كذلك أن ٧٠% من العاطلين عن العمل هم من سن ١٥ - ٢٤ عاماً، وأن غالبيتهم (٥١%) يسكنون في المناطق القروية. وتشير المعطيات إلى الضائقة التي يعاني منها خريجي الجامعات الذين يجدون صعوبة في تأمين العمل. ولكن يظهر أن المشكلة هي بشكل أساسي في أوساط الشباب غير

(٥٤) **الوطن**، ٤ نيسان/أبريل ٢٠٠١. راديو دمشق، ٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢. **تشرين**، ٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢. **أخبار الشرق**، ٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

المثقفين (٤٣% من المتسربين من المدارس الابتدائية و٢٣% من المتسربين من الدراسة الإعدادية هم من العاطلين عن العمل، مقابل ١٠ - ١٥ من خريجي الجامعات).[٥٥]

وتجدر الإشارة إلى أن أعداداً كبيرة من السوريين يتقدمون إلى لبنان للعمل هناك، ذلك أن أجور المهن المجهدة هناك أعلى بكثير مما هو عليه في سورية. فالعامل السوري في المهن الحرة يحصل في لبنان على أجر شهري يتراوح بين ٣٠٠ - ٥٠٠ دولار في أعمال البناء أو التنظيفات أو الخدمة، بينما يتقاضى الموظف المحترم في مكتب حكومي في دمشق ٤٠ - ٥٠ دولار في الشهر. ورغم أن هناك اختلافاً حول عدد العمال السوريين في لبنان إلا أن الحديث يدور عن مئات الآلاف منهم.[٥٦] ومعنى هذا الأمر أن أي تغيير في الوضع السياسي في لبنان سيترك آثار كارثية على الاقتصاد السوري (أنظر الفصل الثامن). بالإضافة إلى ذلك يتدفق مئات آلاف العمال السوريين إلى الخليج، كما يمكن أن نجد عشرات آلاف من العمال السوريين في الأردن.

وفي ظل الارتفاع المفرط في عدد العاطلين عن العمل أقرت الحكومة السورية، مع استلام بشار السلطة، خطة خمسية لمكافحة البطالة بكلفة تصل إلى ٥٠ مليار ليرة سورية (حوالى مليار دولار)، والتي تهدف إلى خلق ٤٣٢,٠٠٠ فرصة عمل حتى عام ٢٠٠٥، إلا أن ميزانية الخطة، كما هو مخطط، ستأتي من مستثمرين خاصين من الداخل والخارج، وهؤلاء، كما هو معروف، لا يصطفون بالدور.[٥٧] (وحسب كتابها السنوي توفر الحكومة السورية في كل عام ٥٠ - ٦٠ ألف مكان عمل إلا أن الحديث يدور عن مهن وظيفية حكومية وليس بالضرورة أماكن عمل منتجة حقيقية).

وفي تموز/يوليو جرت للمرة الأولى في تاريخ دمشق مظاهرات للعاطلين عن

---

(٥٥) **تشرين**، ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

(٥٦) **الحياة**، ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

(٥٧) **الحياة**، ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **الرأي العام**، ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

العمل، الذين انتظروا بدون فائدة الحصول على بطاقات بطالة تمكنهم من الحصول على مخصصات حكومية. وقد احتشد حوالى ألف مواطن في الحر أمام مكتب التأمين الاجتماعي الواقع في حي "أبو رمانة" في مظاهر عفوية، وهم يوجهون نداءاتهم إلى بشار للقدوم ومساعدتهم في حل مشاكلهم. كما جرت مظاهرة مشابهة بالقرب من مكتب البريد المركزي في دمشق، حيث تم تعيين موظف واحد لإعطاء موافقات للعاطلين عن العمل، الذين احتشدوا في المركز، بعضهم منذ ساعات الليل. وقد تفرقت المظاهرات تلقائياً، ولكنا كانت كافية للدلالة على الخطر الكامن في البطالة المتزايدة على الاستقرار الداخلي في الدولة.[٥٨]

خطوات أولية

على خلفية الواقع الصعب قرر بشار الأسد التركيز على جود دفع التغييرات والإصلاحات قدماً، حتى وإن كانت محدودة، لتحسين الوضع الاقتصادي في الدولة، كما أوضح ذلك بنفسه: إن الأشخاص طالبي الوظائف لا يستطيعون المساعدة قيد أنملة في تطبيق الإصلاحات والتغييرات الضرورية في مجالات أخرى.[٥٩] وقد بدأ التوجيه للتقيد علمياً مع تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة مصطفى ميرو في آذار/مارس ٢٠٠٠، وتم تسريعه مع صعود بشار إلى السلطة، وذلك عندما أعلنت الحكومة عن مجموعة من المراسيم وذلك بهدف تعديل القوانين التي أكل عليها الدهر وشرب في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. إذ تم تعديل قانون الاستثمار، كما سمح الاستيراد الخاص للسيارات، وكذلك استيراد أفلام السينما بشكل تجاري، وذلك بعد ٣٥ عاماً، منذ١٩٦٣، كان تنفذ فيها تلك الأعمال من قبل شركات حكومية، (المناسبة، بقي في دمشق ٩ صالات سينما، وتعمل ٢٣ صالة سينما فقط في كل أنحاء الدولة). وأخيراً تم تعديل قانون الإيجارات الذي ظل بدون تغيير منذ عام ١٩٤٩. بالإضافة إلى ذلك، كما سبق

(٥٨) **تشرين**، ٢٤ تموز/يوليو ٢٠٠٢. **أخبار الشرق**، ٢٤ تموز/يوليو ٢٠٠٢. **الحياة**، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

(٥٩) **الحياة**، ٦ آب/أغسطس ٢٠٠١.

وأشرنا، تم رفع رواتب المتقاعدين، وسنت قوانين لتطوير القطاع البنكي.[٦٠]

وفي الثلاثين من تموز/يوليو ٢٠٠٠، وبعد أسبوعين تقريباً من أدائه للقسم، أصدر بشار الأسد المرسوم رقم ١١ والذي منح عفوا من الخدمة الإلزامية للمواطنين السوريين المقيمين في الخارج. وحسب هذا القانون أصبح بإمكان المواطنين السوريين ممن بلغوا الأربعين فما فوق، والذين يعيشون في الخارج منذ ١٥عاماً، أو أولئك الذين يقيمون خارج البلد منذ ما يزيد على عشر سنوات ويريدون استثمار أموالهم في الدولة، الحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية مقابل دفع بدل يتراوح بين ١٠,٠٠٠ - ١٥,٠٠٠ دولار. وقد استقبل هذا المرسوم بالارتياح في أوساط المهاجرين السوريين في مختلف أنحاء العالم، ذلك أنهم فتح أمامهم إمكانية العودة لزيارة سورية دون أن يواجهوا المحاكمة. وحسب تقديرات الحكومة السورية فإن رأس مال المواطنين السوريين المقيمين في الخارج يصل إلى حوالى ٨٠ - ١٢٠ مليار دولار.[٦١]

كما أن هبة النسيم العليل التي شعر بها السوريون، مع صعود بشار إلى السلطة، لم تتجاوز طريقة معالجة الحكومة لميزانية الدولة أيضاً. فقد اعتادت الحكومات السورية في السابق المماطلة بشكل مقصود في معالجة أمور الميزانية، وجرت العادة على تقديمها للمصادقة عليها في نهاية العام المالي، وفي بعض الأحيان بعد ذلك (ميزانية عام ١٩٩٩، على سبيل المثال، تمت المصادقة عليها في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠، حيث بلغت ٢٥٥,٣ مليار ليرة سورية: منها ١٢١,٨ مليار للاستثمار، و١٣٣,٥ مليار ليرة للمصاريف الجارية). وقد عُلِّل التأخير بتذبذب أسعار النفط، الذي جعل من الصعب على الاقتصاديين تقديم تقديرات دقيقة لحجم المداخيل المتوقعة في هذا البند المركزي من كتاب الموازنة.

لقد بشرت إقامة حكومة ميرو الجديدة في آذار/مارس ٢٠٠٠، كما سبق

---

(٦٠) **السفير**، ٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **الوسط**، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، **المستقبل**، ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢.

(٦١) **تشرين**، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠، **الأسبوع**، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

وأشرنا، بحدوث تغيير في الأسلوب. إذ قدمت خلال شهر من تشكلها ميزانية العام ٢٠٠٠ إلى مجلس الشعب للمصادقة عليها، وبإجمالي وصل إلى ٢٧٥,٤ مليار ليرة سورية.[٦٢] بينما قُدم مشروع ميزانية عام ٢٠٠١، وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة، أواخر عام ٢٠٠٠[٦٣] وبلغت ٣٢٢,٢ مليار ليرة سورية. وتمت في أواخر ٢٠٠١ المصادقة على الميزانية لعام ٢٠٠٢ حيث بلغت ٣٥٦,٣٨٩ مليار ليرة سورية.[٦٤] بينما بلغت ميزانية ٢٠٠٣ ما يقارب ٤٢٠مليار ليرة سورية، [٦٥] وميزانية ٢٠٠٤ ما يقارب ٤٤٩,٥ مليار ليرة سورية.[٦٦]

وكانت قضية تشجيع الاستثمار من بين أول القضايا التي أرادت حكومة ميرو معالجتها، وذلك على خلفية النقد الشديد الذي تردد خلال السنوات الأخيرة في سورية، والذي يقول إن القانون رقم١٠، والذي كان في السابق سفينة القيادة في الاقتصاد السوري، لا يلبي الاحتياجات وأنه قد فَقَد سياقه التاريخي حيال الواقع

(٦٢) تضمنت هذه الميزانية ١٣٢ مليار للاستثمار، ١٠٨,٤ مليار للمصاريف الجارية و٣٥ مليار لعائدات الديون ولاستقرار الأسعار ولتشجيع التصدير. وكان من المقرر أن تفتح هذه الميزانية الباب أمام ٢٩,٣٢٢ فرصة عمل. وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠ اتخذ مجلس الشعب قراراً لزيادة الميزانية بـ ٦٦ مليار ليرة سورية، لتمويل ديون شركات القطاع العام.

(٦٣) من ضمنها ٦١ مليار للاستثمارات و١٦١ مليار للمصاريف الجارية. وقد وضعت الميزانية لخلق ٦٥,٠٠٠ فرصة عمل.

(٦٤) شملت الميزانية ١٧٢,٤ مليار للمصاريف الجارية و١٨٤ مليار للاستثمارات، كما خصصت ٤٠,٥ مليار ليرة سورية لتغطية الدين العام. وحسب تصريحات الحكومة فقط وضعت هذه الميزانية لخلق ٦٩,٧٧٣ فرصة عمل. وأضيف لها ٤٨مليار ليرة سورية لعائدات الديون.

(٦٥) ضمت الميزانية ٢٠٩ مليار ليرة سورية للمصاريف الجارية، و٢١١ مليار ليرة سورية للاستثمارات، وكان من المقرر أن تخلق ٦٠,٠٠٠ فرصة عمل.

(٦٦) كان نصيب ميزانية الأمن من مجمل الميزانية على مدى تلك السنوات على النحو التالي: عام ٢٠٠٠-٤٨,٣٧٠ مليار ليرة سورية والتي تشكل ١٧,٦% من مجمل الميزانية. في عام ٢٠٠١-٤٩,٣٣٠ مليار ليرة سورية والتي تشكل ١٥,٣%. وفي عام ٢٠٠٢-٥٥,٣٣٠ مليار ليرة سورية والتي تشكل ١٥,٦%. وفي عام ٢٠٠٣-٦٧,١١٧ مليار ليرة سورية تشكل ١٦% من مجمل الميزانية. أنظر **تشرين**، ١٣ كانون الثاني/يناير، ١٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٠، ٢١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. راديو دمشق. ٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **الثورة**، ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. **أخبار الشرق**، ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

الاقتصادي السائد في سورية وفي العالم. وفي الثالث عشر من أيـار/مـايو ٢٠٠٠ أصدر حافظ الأسد المرسوم رقم٧ والذي جاء لإدخال تعديلات على المرسوم رقم ١٠ الصادر في أيار/مايو ١٩٩١، والذي قدم، بشكل أساسي، تسهيلات للمستثمرين في كل ما يتعلق بحيازة العملة الأجنبية والاتجار بها، والضرائب، وتأجير الأراضي، وحمايتها من التأميم.(٦٧) ووفق الإحصائيات الرسمية التي أصدرها البنك المركزي للإحصاء في دمشق، فقد تمت المصادقة حتى بداية ٢٠٠٣ على ٣,٠٨٥ مشروعا اقتصادياً بإجمالي رأس مال بلغ ٤٠٦,٢ مليار ليرة سورية (حوالى ٨ مليارات دولار)، والتي ساهمت في خلق مائة ألف فرصة عمل. وقد اعترفت مصادر سورية أن حوالى ثلاثة أرباع تلك المشاريع لم تخرج إلى حيز التنفيذ.(٦٨)

ومع ذلك، فإنه من المشكوك فيه أن تشكل هذه الخطوة التي يتخذها النظام رداً حقيقياً ووافياً للمشاكل الخطيرة التي تواجهها سورية، وفي مقدمتها المشكلة الديمغرافية. ومن الممكن أن تكون النتيجة كارثية على الاستقرار الاقتصادي والسياسي في سورية، وهذا الأمر الذي يوضح حقيقة وجود القضايا الاقتصادية وقضايا الضمان الاجتماعي في لب الجدل العام في سورية، وهو ما دفع بشار أيضاً إلى إقالة حكومة ميرو في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، بسبب "إخفاقها الكبير في المجالين الاقتصادي والاجتماعي".(٦٩)

إن أحد المواضيع الرئيسية المطروحة الآن، بالإضافة إلى تطوير الخدمات البنكية، هو موضوع انفتاح الاقتصاد السوري على الاقتصاد العالمي. وحول الصعوبة التي تواجهها سورية في مواجهة هذه القضية تشهد حقيقة أنه منذ عام ١٩٩٨ أجرت سورية اتصالات مع الاتحاد الأوروبي بهدف التوصل إلى اتفاق شراكة بينهما (association)، ولكن تلك الاتصالات تقدمت ببطء بسبب الشروط القاسية التي وضعها الأوروبيون، حسب ما أوضحه عصام الزعيم: "إن

(٦٧) **تشرين**، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(٦٨) **الحياة**، ١٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

(٦٩) **الحياة**، ١٧، ١٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

سورية لا تستطيع الإيفاء بالشروط التي وضعها الأوروبيون في وجهها والتي تتركز حول فتح سورية أسواقها للتجارة الحرة. وستكون سورية، من أجل، ذلك بحاجة إلى فترة انتقالية طويلة جداً".[٧٠] ومؤخراً فقط، وفي أعقاب احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة والضغط الذي تمارسه على سورية، ليّن السوريين من مواقفهم وأخذوا يبدون حماسا لإتمام الصفقة مع أوروبا وتحسين علاقاتهم مع دول الاتحاد (أنظر الفصل السادس).[٧١]

وما زال السوريون يمنّون النفس بفكرة إقامة السوق العربية المشتركة، يحدوهم الأمل في ذلك لتخفيف عزلتهم ولتسهيل اندماجهم في الاقتصاد العالمي. وهذا هو ما قصده ميرو بأقواله، وذلك عندما صرح في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، إنه من المهم بذل الجهد العربي من أجل تعزيز التكافل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين الدول العربية. إن إقامة سوق حرة عربية سيمكّن الدول العربية من مواجهة المخاطر الكامنة في الكتل الاقتصادية الدولية، وكذلك التحدي الذي تفرضه العولمة الاقتصادية، [٧٢] لكن آمال إقامة سوق كهذه ضعيف جداً لأسباب سياسية واقتصادية معا. وكدليل على ذلك نجد أن التجارة **البينيّة** بين الدول العربية تشكل نسبة هامشية من مجمل التجارة الخارجية لتلك الدول، والتي تجري غالبيتها مع الدول الأوروبية، والولايات المتحدة وشرق آسيا. والفكرة الأكثر سهولة للتطبيق بالنسبة للسوريين هي تحويل لبنان إلى منطقة عازلة اقتصادياً، مثلما هو حال هونكونغ بالنسبة للصين، مما يسهل عملية اندماجهم في الاقتصاد العالمي.

تحدي العولمة

من المتوقع أن تزداد حدة الأزمة الداخلية التي يواجهها النظام السوري بشكل أكبر بسبب العولمة، والتي تضع أمامه، منذ اليوم، معضلات معقدة في المجالين الاقتصادي والسياسي على حدّ سواء. ولا غرابة في أن ينظر السوريون اليوم إلى

(٧٠) **البعث**، ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٧١) **الحياة**، ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٧٢) سانا، ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

العولمة على أنها أصل كل الشرور وعلى أنها الخطر الأساسي الذي يهدد الدولة.

ويمكن أن نجد تعبيراً بارزا عن هذه الرؤية في الخطاب الأخير الذي ألقــاه، أو بشكل أدق الذي خرج من تحت يدي حافظ الأسد في شــباط/فبرايــر ١٩٩٩، بمناسبة مراسم أدائه يمين القسم لولايته الخامسة. صحيح أن الأسد قــد أثــنى في خطابه على الوضع الممتاز لسورية بعد ٢٨ عاماً من حكمه حيث قال إن "سورية وضعت بنية تحتية صلبة مكّنتها من الوقوف بقوة ومواصلة التقدم باتجاه مســتقبل أكثر إشراقا"،[٧٣] ولكنه في تتمة خطابه لم يتجاهل المصاعب التي تواجهها سورية، وركّز من بينها على العولمة: "علينا أن نعترف بحقيقة أن الواقع في العالم يضع أمامنا أخطارا غير قليلة. وهذا الواقع يعني غياب التوازن الدولي وقيام ســيطرة القطــب الواحد، والمعايير المزدوجة، وسيطرة الاحتكارات الكبيرة، وتطور قــوة وســائل الاتصالات والمعلومات، واتساع الفجوة بين الدول الغنية والدول النامية، ونشوب حروب إقليمية ومحلية والنزاعات القبلية والدينية والإثنية في مناطق كثيرة من العالم. وبالإضافة إلى العولمة الثقافية والاقتصادية، علينا أن نذكر انهيار الحــدود القوميــة ومحاولة تصفية هوية الشعوب، وفرض مقاييسهم للحياة وتصرفاتهم، وقيمهم وسلم أفضلياتهم... إن عامل اليوم موجود على شفا تحوّله إلى غابة تسيطر عليها قــوانين القوة وتغيب عنها المبادئ والقيم التي ناضلنا من أجلها سنوات طويلــة". أقــوالاً مشابهة وأكثر شدة أُقتبست عن الأسد خلال اللقاء الذي أجراه، بعد وقت قصــير من ذلك، في آذار/مارس ١٩٩٩، مع ممثلي النقابات المهنية، والذي قال خلاله: "إن العولمة تُغرق أسواقنا بمنتجاتها وتمنع منتجاتنا من الوصول إلى أسواقها. وهي تفرض على العالم نموذجا من التهديد الثقافي والفكري. إننا فلاحــون، والأرض كانــت وستبقى للفلاحين".[٧٤]

أما بشار بالذات فقد أظهر أسلوباً أكثر ليناً وأكثر وعياً وذلك خلال سلسلة من المقابلات التي أجراها أواخر التسعينيات. ففي مقابلة مــع صــحيفة **الــوطن**

---

(٧٣) راديو دمشق، ١١ آذار/مارس ١٩٩٩.

(٧٤) **هآرتس**، ٣١ آذار/ماس ١٩٩٩.

الكويتية أكد بشار، بشكل غير مفاجئ، على قضية العولمة كقضية مركزية على جدول أعمال سورية، والتي يرتبط بها - وليس، على سبيل المثال، بقضية المواجهة مع إسرائيل - مستقبل سورية وقدرتها على دخول القرن الحادي والعشرين. ولم يُخفِ بشار رأيه بأن على سورية الاستجابة للتحدي والصمود على طريق التقدم والتحديث".(٧٥)

ولكن، ومع استلامه السلطة سارع بشار إلى تبني خط والده الفكري حول مخاطر العولمة. وفي الخطاب الذي ألقاه ترحيبا بالرئيس الصيني الذي زار دمشق في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١أوضح بشار أن "شعوب العالم العاملة معاً من أجل تحقيق السلام، والاستقرار والتطور، تواجه اليوم سلسلة من التحديات، وفي مقدمتها تحدي العولمة. وبالفعل تشكل هذه الرؤية راية، إلا أنها مضللة، بالنسبة لهؤلاء العاملين من أجل عالم يسيطر عليه فكر ينادي بالسيطرة الثقافية والاقتصادية لشعب واحد على الشعوب الأخرى، من خلال إلغاء هويتها القومية. ونحن مقابل ذلك، نعمل من أجل خلق نظام عالمي جديد، تسيطر عليه عولمة العدل والمساواة بين الدول كبيرها وصغيرها، عالم تسود فيه الديمقراطية في العلاقات الدولية، وذلك حتى لا يصبح العالم مُتحكَما به من قبل قطب واحد أو هيئة معينة أو فئة صغيرة تفرض رغبتها على غالبية الفئات، وذلك على حساب أمن الآخرين".(٧٦)

إن نظرة سورية إلى قضية العولمة، وأكثر من ذلك إلى قضية الانفتاح الاقتصادي، تعكس جيداً صعوبات التأقلم التي يواجهها النظام في دمشق مع الواقع الدولي الجديد. وأحد تعبيرات هذه المصاعب التي يظهرها النظام تجاه تحدي العولمة يبدو من خلال الطريقة التي استقبل بها، أو أفشل، دخول تقنيات الاتصالات الحديثة إلى الدولة. وقد دخلت تلك التقنيات في نهاية الأمر إلى سورية إلا أن الوتيرة البطيئة التي حدث بها ذلك يدل بطريقة ما على الصعوبات التي تقف في وجه سورية لاندماجها في الاقتصاد العالمي.

---

(٧٥) **الوطن**، ٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

(٧٦) سانا، ١١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

الإنترنت والكمبيوتر

في عام ١٩٩٥ التقى دبلوماسي غربي الرئيس حافظ الأسد وأراد إقناعه بأهمية إدخال الإنترنت إلى سورية. وقد استمع الأسد إليه وبدا أنه كان قد اقتنع، ولكنه في النهاية قال إن ابنه بشار يحاول إقناعه أيضاً بالسماح باستخدام الإنترنت، لكن رؤساء أجهزته الأمنية لا يزالون يعارضون ذلك، ولهم معطاة الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع،(٧٧) حيث، وكما أوضحت في حينه صحيفة **البعث**:"إن الإنترنت سيف ذو حدين ونحن مستعدين للتخلي عنه من أجل الاستمرار في التمسك بمبادئنا وبمواقفنا كعرب".(٧٨) وبالفعل، في أواسط التسعينيات، كان يبدو أن دمج سورية في الثورة العالمية مهمة غير قابلة للتحقيق.

لم تكن المخاوف التي أثارها الاختراعات التكنولوجية في أوساط القيادة السياسية والأمنية السورية بالمفاجئة. فعلى امتداد الثمانينات، على سبيل المثال، منع النظام السوري الشركات من استخدام أجهزة الفاكس، وحتى للأهداف التجارية والعامة. ولكن النظام السوري اُضطر أخيراً إلى رفع يديه بسبب الصعوبة في منع آلاف الأجهزة التي جرى تهريبها من لبنان، لكنه أخّر إعطاء الضوء الأخضر في موضوع الفاكس إلى أن اشترى أجهزة رصد تتيح للأجهزة الأمنية تعقب مضمون الرسائل. بالإضافة إلى ذلك فرض على مستخدمي الفاكس رسم مالي كبير. وكانت تظهر في الصحافة السورية، بين الفينة والأخرى، قوائم طويلة من أسماء المخالفين الذين ضُبطوا من قبل السلطات و لم يدفعوا مخالفاتهم.(٧٩)

أمر كهذا حصل في ما يتعلق بالإنترنت. حيث يبدو أن الرئيس بشار الأسد ورؤساء أجهزة أمنه اقتنعوا أخيراً أنه لا يمكن كبح انتشار استخدام الإنترنت في الدولة ودمجها بشبكة الإنترنت. وكانت النتيجة التي توصلوا إليها إذاً أنه من

(٧٧) مقابلة للمؤلف مع دبلوماسي أمريكي عمل في دمشق خلال التسعينيات، واشنطن، ٢٣ حزيران/تموز ١٩٩٨.

(٧٨) **البعث**، ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩.

(٧٩) إيال زيسر، **أسد سورية**، سبق ذكره، الملاحظة ٦ في التمهيد، ص ١٩٩-٢٠١.

الأفضل للنظام تشجيع العملية، وعن طريق ذلك، التحكم بها. وبالفعل بدأت سورية بالاندماج رويداً رويداً بثورة الكمبيوتر والإنترنت، وذلك بقيادة باسل الأسد، وبعد وفاته، بقيادة أخيه بشار. ومن المحتمل أن يكون أبناء الأسد قد أدركوا أهمية الموضوع. ولكنهم، على ما يبدو، أدركوا مساهمته المحتملة في التأسيس لمكانتهم كرواد للتغيير في الدولة.

وفي عام ١٩٩١ أقام باسل الأسد الجمعية المعلوماتية السورية، التي حددت هدفها بزيادة الانفتاح على الكمبيوتر والإنترنت في سورية. وقد كانت البداية متواضعة - حملة إعلانية في الصحف وإقامة مراكز لتعليم الكمبيوتر في أنحاء الدولة، والتي عُقدت فيها دورات للإلمام بالكمبيوتر والاستخدامات المتقدمة له. وحسب إحصائيات الجمعية المعلوماتية فقد شارك في نشاطاتها لغاية بداية ٢٠٠٣ أكثر من ٢٤٠,٠٠٠ شخص، وهذا العدد لا يزال في ازدياد واضح.[٨٠]

وقد بدأت الجمعية المعلوماتية أيضاً بالعمل على إدخال الكمبيوتر إلى الجهاز التعليمي في سورية. ومع بداية عام ٢٠٠٢ كانت توجد قاعات إنترنت في أجهزة التعليم العالي والتعليم المتوسط في كافة أنحاء الدولة. وخلال العام نفسه بُدئ بإدخال الكمبيوتر إلى المدارس الابتدائية. وقد ضمت كل قاعة كمبيوتر ٣ - ٤ أجهزة، كذلك زُوِّدت مؤسسات التعليم العالي بأجهزة الكمبيوتر. وحسب المصادر السورية يوجد اليوم، بالمتوسط، ٧٠ جهاز كمبيوتر في كل كلية في الدولة.[٨١] وعشية وفاته عام ٢٠٠٠ وقّع الرئيس الأسد على مرسوم تُؤسَّس بموجبه كلية لهندسة الكمبيوتر والمعلوماتية في الجامعات الخمس في الدولة، حيث أُوفِد منها إلى خارج القطر، بمرور السنين، ١٦٢ محاضرا لإتمام دراستهم في مواضيع الحاسوب.[٨٢] كما أُعلن عن تأسيس الجامعة الافتراضية (SVU)، والتي تعمل بواسطة الإنترنت وتتطلع للوصول إلى ٢٠٠ ألف طالب. وقد تم تدشين هذه

---

(٨٠) إيال زيسر، "سورية"، مصدر سبق ذكره، الملاحظة ٦ في الفصل الخامس، ص ٥٣٥-٥٣٦. وانظر أيضاً **تشرين**، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

(٨١) **تشرين**، ٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

(٨٢) **النهار**، ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

الجامعة في احتفال كبير، بحضور بشار الأسـد، في أيلـول/سـبتمبر ٢٠٠٢.(٨٣) وأخيراً، وفي بداية ٢٠٠٢ أعلنت السلطات عن نيتها إقامة قريتين للاتصالات، على غرار وادي السيليكون، الأولى بالقرب من دمشق والثانية بالقرب من حمص.(٨٤)

وفي التغيير الدراماتيكي، بالمصطلحات السورية على الأقل، الذي طرأ علـى موقف السلطات تجاه الكمبيوتر والإنترنت وتكنولوجيـا المعلومـات، لُمسـت بصمات بشار بشكل واضح. ويبدو أنه أظهر اهتماماً شخصياً بهذا المجال، ولـيس بخيول السباق أو سيارات المرسيدس، وحتى إنه منح له أهمية كبيرة أكثر من تلـك التي أولاها أخوه البكر للموضوع.

لقد جرى إبراز حب بشار للإنترنت، بطبيعة الحال، من قبل وسائل الإعـلام السورية والأجنبية. فقد نشرت صحيفة **الحياة** في تشـرين الأول/أكتـوبر ١٩٩٧ تقريرا موسعا حول حرفية بشار في الدخول إلى الإنترنت. صحيح أن بشار أبـدى تذمره من التقرير وذلك لتخوفه من مخاطر التسكع غير الواعي بين مواقع الإنترنت، إلا أنه صرح بأنه يدرك الضرورة الملحة لسورية للاندماج بالشبكة العالمية من أجل التقدم كتفا إلى كتف مع التطورات في مجال الحواسيب في العـالم.(٨٥) وحـتى أن بشار صرح في مقابلة مع صحيفة **واشنطن بوست** بأنـه "في المسـتقبل سـيكون بإمكان كل فرد الوصول إلى المعلومات التي يريدها".(٨٦)

وفي عام ١٩٩٢ كان في كل سورية حوالى ٢,٥٠٠ جهاز كمبيوتر، وارتفع العـدد في عـام ١٩٩٨ إلى ١٥,٠٠٠، وفي أواخـر عـام ٢٠٠٢ وصـل إلى ٣٣٠,٠٠٠ ألف جهاز.(٨٧) ولكن أحدى المصاعب التي تواجه انتشـار أجهـزة

---

(٨٣) **الثورة**، ٤ أيار/مايو ٢٠٠٢. **الحياة**، ٨ تموز/يوليو ٢٠٠٢. حول تشدين الجامعـة الافتراضـية أنظر **البعث**، ٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٨٤) **تشرين**، ٢٨نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٨٥) **الحياة**، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧.

(٨٦) **واشنطن بوست**، ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

(٨٧) **الحياة**، ٨ تموز/يوليو، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **المستقبل**، ١تشـرين الأول/أكتـوبر ٢٠٠٢. **تشرين**، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

الكمبيوتر في البلاد هي ثمنه المرتفع بالنسبة للمواطن (حوالى ٨٠٠ دولار للجهاز)، والذي يعتبر خارج متناول غالبية سكان الدولة. ولذلك أعلنت الحكومة عن خطة توزيع "الكمبيوتر الشعبي" من إنتاج شركة "سيرونيكس" السورية، بسعر مدعوم يبلغ ١٨,٠٠٠ ليرة سورية (ما يقارب ٣٦٠ دولار)، وعلى ١٨ دفعة شهرية (ويوجد مع كل كمبيوتر كرت الاتصال بالإنترنت).[٨٨]

وفي أواخر التسعينيات بدأ النظام بتشجيع إقامة مواقع الإنترنت الرسمية، وخاصة التابعة للوزارات الحكومية ووسائل الاتصالات السورية. وكانت الجهة الأولى التي دشّنت موقعا كهذا، في ٢٥ نيسان/أبريل ١٩٩٨، هي الجمعية المعلوماتية السورية. وبعدها دشّنت الوزارات مواقع خاصة بها، كما فعلت أجهزة الإعلام الشيء نفسه. وبموازاة ذلك بدأت تظهر مواقع الشركات الخاصة، وبشكل خاص شركات السياحة، وحتى مواقع أشخاص عاديين، الذين يقيمون في غالبيتهم خارج سورية. وفي نهاية عام ٢٠٠٢ أصبح بالإمكان أن نجد على الشبكة مئات من تلك المواقع، والتي على الرغم من مستواها التقني المتدني ووتيرة تحديثها البطيئة، إلا أنها تشكل خطوة هامة على طريق سورية في التطور والتحديث.[٨٩]

إذاً، لقد جرى دمج سورية بشبكة الإنترنت بشكل بطيء وتدريجي، وازداد بموازاة ذلك عدد أجهزة الكمبيوتر في البلد. وقد أعلنت الحكومة في عام ١٩٩٩ عن المرحلة الأولى في مشروع ربط سورية بالإنترنت، والتي تم في إطارها ربط ٢٥٠٠ مشترك من مختلف الوزارات. وفقط في عام ٢٠٠٠ أصبح بإمكان الناس العاديين الاشتراك في الإنترنت عبر مُخَدِّمَيْن: الجمعية المعلوماتية السورية ومؤسسة الاتصالات. وفي نهاية ٢٠٠٢ أعلنت الحكومة عن إقامة الدومين SY، والذي أُعدّ لتقديم مختلف الخدمات لمستخدمي الإنترنت، مثل إقامة المواقع لكل راغب مقابل قسط لمرة واحدة بقيمة ٢٠٠٠ ليرة سورية (حوالى ٤٠ دولار)، بالإضافة إلى إقامة بدل استخدام يتراوح بين ١,٠٠٠ - ٣,٠٠٠ ليرة سورية (٢٠ - ٦٠ دولار) في

---

(٨٨) **تشرين**، ٢٥ نيسان/أبريل، ١ أيار/مايو ٢٠٠٢، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

(٨٩) **الحياة**، ٨ تموز/يوليو، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **تشرين**، ٩ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

كل شهرين. وظهرت هنا أيضاً مشكلة الكلفة، ذلك أن تعرفة الاتصال بالشبكة حُدّدت بدفعة لمرة واحدة هي ٥٠٠ ليرة سورية. بالإضافة إلى ذلك يدفع المشاركون في الإنترنت بدلات اشتراك شهرية مجموعها ١,٠٠٠ ل.س، وليرة سورية واحدة لكل دقيقة دخول. كما فرضت تعرفة مشابهة من أجل استخدام البريد الإلكتروني. إلاّ انه وبضغط من المشاركين خفضت السلطات أجور الاستخدام وبدأت باقتراح برامج مغرية بهدف تشجيع الدخول إلى الإنترنت بواسطة المخدمات السورية، الأمر الذي خفض الكلفة بشكل كبير.[٩٠]

وقد ارتفع عدد المشتركين بالإنترنت بالتدريج. ففي نهاية عام ٢٠٠٠ كان عدد المشتركين ٨,٠٠٠ مشترك. ووصل العدد في بداية عام ٢٠٠٢ إلى حوالى ٢٨,٠٠٠، من بينهم حوالى ٨,٠٠٠ مشترك مرتبطين بشبكة الإنترنت عن طريق هيئة الاتصالات، و٢٠,٠٠٠ بواسطة الجمعية المعلوماتية. وقد تضاعف هذا العدد مع نهاية عام ٢٠٠٢ حيث وصل إلى حوالى ٥٠,٠٠٠ مشترك. وقبيل نهاية عام ٢٠٠٣ قُدر العدد بحوالى ١٥٥,٠٠٠، مع أنهم ليسوا جميعاً مربوطين بالشبكة بواسطة مخدمات سورية. وقد أكد وزير الاتصالات السوري، محمد بشير المنجد الشمالي، الذي عمل في الماضي في الجمعية المعلوماتية السورية، أنه مع حلول عام ٢٠٠٥ سيكون عدد المشتركين في الإنترنت في سورية ربع مليون مستخدم، وربما يصل خلال خمس سنوات إلى مليون.[٩١]

وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من السوريين اعتادوا، ولا زالوا، الدخول إلى شبكة الإنترنت عبر مخدمات لبنانية أو أردنية، وذلك على الرغم من الكلفة العالية وذلك بفضل ميزة القدرة الأكبر على الوصول إلى المواقع، وبشكل خاص غياب الرقابة (إن المشارك السوري العادي لا يستطيع الدخول إلى المواقع الإسرائيلية، أو إلى مواقع البريد الإلكتروني والمواقع المشكوك فيها من ناحية أخلاقية. كما أنه لا

---

(٩٠) التلفزيون السوري، ٢٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **تشرين**، ٢٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **الحياة**، ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، ١٢ آب/أغسطس ٢٠٠٣.

(٩١) **البعث**، ١٧ أيار/مايو ٢٠٠٢. **تشرين**، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٣، **الحياة**، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

يستطيع استخدام التعليمات المطلوبة من أجل الانضمام إلى الندوات أو إقامة حوار – تشات). ومهما يكن من أمر، فإن نسبة المشـــاركين في خدمـــة الإنترنـــت في سورية بقيت متدنية وبلغت ٠,٠٣% من مجموع السكان، مقابل ٢٤% في لبنـــان، ٨% في إمارات الخليج، هذا دون أن نتحدث عن ٤٠% في إسرائيل.(٩٢)

لقد أدى التعطش إلى الإنترنت إلى ازدهار مئات مقاهي الإنترنت في كل أنحـــاء سورية. ففي دمشق وحدها قدر عدد المقـــاهي في نهايـــة في نهايـــة ٢٠٠٢ بحـــوالى ٣٠٠مقهى، كما أُعلن أن العدد في حلب وصل إلى حوالى ٤٥٠مقهى، ويتردد علـــى تلك المقاهي، بشكل ثابت، حسب تقدير أجهزة الأمن، حوالى١٠٠ألف شـــخص في العام. وفي آب/أغسطس ٢٠٠٢ أصدرت الحكومة السورية قراراً لتنظيم عمل تلـــك المقاهي بشكل يزيد من قدرة الجمهور على الاستفادة منها. ونص القرار، على ســـبيل المثال، على السماح بالدخول إلى مقاهي الإنترنت لمن تزيد أعمارهم على ١٤ عامـــاً فقط، وأن يتم تسجيل أسماء المستخدمين بشكل منظم. كما تم تحديد عمل ســـاعات هذه المقاهي. وفُرضت رسوم تصل إلى ٢٥,٠٠٠ ليرة ســـورية (٥٠٠ دولار) علـــى المقاهي العاملة في المدن الكبيرة، بينما فُرضت رسوم بقيمة ١٠,٠٠٠ لـــيرة ســـورية (٢٠٠دولار) على تلك العاملة في الأرياف.(٩٣)

الهواتف النقالة

إلى جانب اتساع استخدام الإنترنت انتشر كذلك استخدام الهاتف النقـــال، وهو أحد مظاهر ثورة الاتصالات التي لم تمر فوق سورية مرور الكرام. إذ دخلت الهواتف النقالة إلى السوق السورية في نهاية التسعينيات. وقد نظرت الســـلطات في البداية إلى الموضوع بتحفظ، أو بشكل أدق بعدم تفهم، و لم تظهـــر أي اســـتعداد للاستثمار في إقامة بنية تحتية لتقديم الخدمات المتطورة. وقد هاجمت صحيفة **البعث** في حينه استخدام الهواتف النقالة وقالت إنه من الأفضل زيادة عدد المشـــتركين في شبكة الهواتف العادية بدلاً من تبديد ملايين الدولارات على تطوير شبكة هواتف

---

(٩٢) **الشرق الأوسط**، ٧ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

(٩٣) **الحياة**، ٩ كانون الأول/ديسمبر، ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

نقالة في سورية، والتي ستستفيد القلة منها فقط[٩٤] (تجدر الإشارة إلى أنـه وفـق تقدير الاتحاد الدولي للاتصالات لا يزال في سورية حـوالى ٣ ملايـين شـخص ينتظرون تركيب هاتف عادي في منازلهم).[٩٥]

وبالفعل، وبسبب عدم وجود بنية تحتية كان يمكن أن تجد في بداية سـنوات الألفين الكثير من السوريين يستخدمون هواتف نقالة من إنتاج لبنان، وفي شمـال الدولة أشخاص يحملون هواتف نقالة تركية. ولكن يبدو أن إدراك القدرة الكامنة الاقتصادية في الهاتف النقال دخل أخيراً في وعي أصحاب القرار في سورية، وأدى الأمر إلى اتساع تدريجي في استخدامه.[٩٦]

وقد نُشرت المناقصات لإقامة شبكات الاتصالات للهواتف النقالة، وفـازت في العطاءات شركتا سيريتل (Syraitel) وسبيستل (Spacetel)، اللتان أسستا خصيصـاً لذلك. وشركة سيريتل هي عبارة عن شراكة بين شركة (Drex Technologies) التي يملكها رامي مخلوف، وشركة (Orascom Telecom) المصرية. وقد فُسخت الشراكة فيما بعد وحلت محل الشركة المصـرية شـركة (Cylotel) السـورية. وسـارعت السلطات، مستندة إلى أمر المحكمة، بتجميد كل ممتلكات الشركة المصرية وفرضـت عليها غرامة مالية دون أن يكون لها الحق في النقض. وقد كانت هذه العملية نذير شؤم للمستثمرين الأجانب في سورية، حيث أدى الأمر إلى تعكير العلاقات بشكل مؤقـت بين دمشق والقاهرة. والشريك الأكبر في شركة (Spacetel) هي عائلة ميقاتي اللبنانيـة التي تملك شركة (أونيستكوم)، وهي شركة الهواتف النقالة التي تعمل في لبنان - ووالد العائلة نجيب ميقاتي يعمل منذ عام ٢٠٠٠ وزيراً للاتصالات في حكومـة بـيروت، ويبدو أن نجاح أعمال العائلة في سورية، يعود، في جانب غير قليل منه، إلى العلاقـات الوثيقة بين طه ميقاتي، الوريث التجاري للعائلة، وبين بشار الأسد.[٩٧]

---

(٩٤) **البعث**، ٢ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(٩٥) **تشرين**، ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

(٩٦) **تشرين**، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠٢. أنظر أيضاً **السفير**، ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. وكالة رويترز، ٢٩ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٩٧) **أخبار الشرق**، ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢. وكالة رويترز، ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

أيضا كان من شأن ارتفاع تعرفة الاستخدام أن تردع المواطن السوري عن شراء هاتف نقال. وقد حدد القرار الذي نشرته وزارة الاتصالات في شباط/فبراير ٢٠٠١ أنه من أجل الاشتراك في أحد شبكات التلفون النقال يجب دفع ٦٠,٠٠٠ ليرة سورية (حوالى ١,٢٠٠ دولار) لمرة واحدة، وكذلك رسم للاستخدام الدائم بقيمة ٢,٤٠٠ ليرة سورية (حوالى ٥٠ دولار). وحُددت كلفة دقيقة المكالمة بـ ٤ ليرات سورية، كما حُددت تكلفة الدقيقة من هاتف نقال إلى هاتف ثابت بـ ٦ ليرات سورية. ولكن وبسبب الانتقادات الشديدة التي وجهت إلى وزارة الاتصالات قُلصت الرسوم بشكل ملحوظ بعد شهر من ذلك.[٩٨] وقد وصل عدد المشتركين في شركات الهواتف النقالة في سورية حتى نهاية ٢٠٠٢ إلى عشرات الآلاف. وقدرت وزارة الاتصالات السورية أن يزداد العدد ليصل خلال عامين إلى حوالى ٢٥٠,٠٠٠ مشترك، وسيصل في عام ٢٠٠٥ إلى ١,٨ مليون، أي ما يساوي نصف المشتركين في شبكة الهاتف العادي في سورية.[٩٩]

بالطبع، فإن الإنترنت والفاكس والهاتف النقال، ليسوا القضية الوحيدة التي تُبعِد النوم عن عيون أصحاب الشأن في أجهزة الإعلام والأمن في سورية. فإلى جانب هذه الأمور، هناك قضية صحون الستالايت، التي تُمكّن المواطنين السوريين من التقاط البث التلفزيوني من كافة أنحاء العالم. وفي شباط/فبراير ١٩٩٤ كشف وزير الإعلام السوري في مقابلة مع صحيفة **المجلة** السعودية عن سر معروف حيث قال إن عشرات آلاف صحون الستالايت غير النظامية تنتشر في كافة أرجاء سورية. وقد حذّر الوزير من مخاطر المشاهدة المنفلتة على المعتقدات وعلى التمسك بالقيم. وكشف النقاب عن أن الحكومة السورية تنوي مواجهة هذه الظاهرة عن طريق إقامة شركة تلفزيون بالكوابل تنقل، وإن

(٩٨) **السفير**، ٣ آذار/مارس ٢٠٠١. **الثورة**، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠١. **تشرين**، ٨ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(٩٩) وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٩ آب/أغسطس ٢٠٠١. **تشرين**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر.

كان بشكل مراقب، بث القنوات الفضائية الأجنبية إلى مترل كل مواطن سوري يرغب بذلك.[١٠٠]

إلا أن تحذير الوزير لم يكن كافياً، والأمر ذاته كان بالنسبة للقناة الفضائية السورية، القناة الثانية، التي تريد أسر قلوب المشاهدين من خلال البرامج الترفيهية البسيطة. وقد وصل عدد الصحون اللاقطة عام ٢٠٠٢ إلى مئات الآلاف، وربما إلى مليون. وحسب مصدر حكومي، فإن حوالى ٩٠% من المنازل في دمشق تمتلك لواقط كهذه.[١٠١]

وفي ظل انتشار الظاهرة، قررت الحكومة السورية "تبيض" استخدام الصحون اللاقطة، حيث أصدر وزير المالية، في شهر تموز/يوليو ٢٠٠٢ أمرا لتنظيم إعطاء موافقة تركيب لها. وقد حدد القرار بأنه على كل من يريد تركيب لاقط أن يقدم للسلطات موصفاته الفنية ودفع رسوم بقيمة ١,٠٠٠ ليرة سورية. ولم تغب عن عيون الصحافة السورية حقيقة أن سعر الستالايت المهرب هو ثلاثة آلاف ليرة سورية، فسارعت إلى انتقاد المنطق الكامن خلف القرار.[١٠٢]

وعلى الرغم من ذلك، فإن عملية انكشاف المجتمع السوري عل أعاجيب التكنولوجيا لا يزال بطيئاً، سواء لأسباب سياسية أو لأسباب اقتصادية. وقد كتبت الصحفيّة بشرى المصري حول ذلك تقول في صحيفة **تشرين**: "اعتقد أن على كل واحد منا أن يستغل الإمكانيات التي يفتحها أمامه التقدم التكنولوجي وثورة الاتصالات، ولكن السؤال المطروح هو كيف نستطيع، وراتبنا أكثر تواضعاً من أن يتحمل تلك الأعباء؟ لقد اشتريت كومبيوتر بفضل القرض الذي حصلت عليه من اتحاد الصحفيين، ولكن لا يوجد لدي المال لشراء هاتف نقال".[١٠٣]

---

(١٠٠)أنظر على سبيل المثال، Eyal Zisser, "Syria", in Bruce Maddy-Weitzmann (ed.) MECS, Vol. XIX (1995) p.596.

(١٠١)قناة تلفزيون الجزيرة، ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **السفير**، ٩ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(١٠٢)**الثورة**، ٧ أيار/مايو. **تشرين**، ٩ أيار/مايو ٢٠٠٢. **السفير**، ٩ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(١٠٣)**تشرين**، ٤ آذار/مارس ٢٠٠١.

ومن هنا، لن يكون بوسع التكنولوجيا الغربية، وحتى في حال دخولها بشكل مكثف، أن تجعل الإنترنت في متناول كل أسرة سورية، ذلك أن الفقر وضيق ذات اليد تجعل من الإنترنت والهاتف النقال بعيداً عن متناول قطاعات واسعة من المجتمع السوري، وربما القسم الأكبر منه. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، يمكن الافتـــراض بأن "العولمة ستمضي قدما"، حتى في دولة مثل سورية.



الفصل السادس

بشار على الصعيدين العربي والدولي

يوم ميلاده السادس والثلاثين، الذي صادف الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، خبّأ لبشار الأسد مفاجأة غير متوقعة، إذ بدأت تصل، عند ساعات المساء المبكر من الولايات المتحدة التقارير حول الهجوم الإرهابي الذي استهدف نيويورك وواشنطن. ولا يمكن معرفة كيف كانت ردود بشار لدى سماعه هذه الأخبار. ولكن الحقيقة هي أن التلفزيون السوري، الذي امتنع عن الانتقال إلى البث المباشر لتغطية الحدث (مثلما فعلت محطات تلفزة عربية أخرى)، خصص وقتاً طويلاً في نشراته الإخبارية للتقارير حول ما يحدث في الولايات المتحدة، وهو ما يشكل إقراراً سورية، وإن كان اضطرارياً ومتحفظاً، بأن ثمة شيء قد وقع في العالم.[١]

وفي التاسع من نيسان/أبريل ٢٠٠٣، بالمقابل، امتنع التلفزيون السوري من بث صور سقوط بغداد. ففي الوقت الذي كان فيه العديد من محطات التلفزة العربية والعالمية، على حدّ سواء، تنقل صور الحشود العراقية وهي تهدم بمساعدة الجنود الأمريكيين تمثال صدام حسين في ميدان الفردوس، فضل التلفزيون السوري بث أفلام وثائقية حول المواقع الأثرية الإسلامية في المنطقة. وقد عكس الأمر الصعوبة التي تواجهها دمشق في قراءة الخارطة الجديدة في المنطقة وامتثال التغييرات التي جرت فيها، وخاصة احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة، ورأي دمشق الحقيقي في هذه التغييرات.

(١) التلفزيون السوري، ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ولاشك في أن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أدت إلى تغييرات حادة في صورة الواقع العالمي وشرق الأوسطي، وإلى بلورة نظام عالمي جديد. وحتى انه كان هناك حتى من قارن بين العمليات الإرهابية وبين انهيار الإتحاد السوفياتي، وبعد ذلك الاجتياح العراقي للكويت، وهي الأحداث التي وقعت قبل حوالى عقد من ذلك والتي تركت آثاراً كبيرة على العالم والشرق الأوسط وسورية بشكل خاص. ولبيان ذلك، فإن الولايات المتحدة التي خرجت من الهجوم الإرهابي أكثر صلابة وإصرارا على ضرب أعدائها، سارعت إلى وضع سورية أمام نفس المعضلة التي وضع جورج بوش الأب دمشق أمامها قبيل عقد من ذلك - هل أنت معنا أم ضدنا؟

وحتى احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية كان الرد السوري مشابها لردها حتى بداية التسعينيات - نحن معكم، أو بشكل أدق، هكذا وهكذا. لقد بنت سورية إذاً سياسة مراوغة تقوم على "أكل الكعكة والإبقاء عليها سالمة"،إذ عملت من ناحية على عدم الاصطدام وجها لوجه مع واشنطن، ولذلك وافقت على التعاون مع الولايات المتحدة في صراعها ضد تنظيم القاعدة، لكنها من ناحية أخرى استمرت بالتمسك برؤيتها، وبخط عملها، التي تتناقض بشكل مباشر مع رؤى وسياسات واشنطن، والتي من شأنها أن تلحق الضرر بالمصالح الأمريكية في المنطقة، وفي مقدمتها دفع مسيرة السلام الإسرائيلية العربية، والإسرائيلية الفلسطينية وإسقاط نظام صدام حسين وإقامة نظام موالٍ للغرب بدلاً عنه، وعزل إيران وربما إسقاط النظام الديني فيها، والقضاء على البعد العسكري - الإرهابي في نشاطات منظمة حزب الله في لبنان.. الخ.

ويبدو أن الفرق بين سورية التي أُضطر بوش الأب على مواجهتها وبين سورية التي يواجهها بوش الابن، لم يكن بالضرورة مرتبطا بمدى الحزم أو انعدامه، أو حتى التسامح، الذي مال الأمريكيون لإظهاره في البداية تجاه دمشق، بل، وبشكل أساسي، مرتبط بحقيقة أنه لم يجلس على كرسي قصر الرئاسة السوري حاكم مجرب وذي أهمية مثل حافظ الأسد، بل ابنه الشاب، الذي عمل، في بداية

طريقه، كغر في إدارة السياسة الخارجية السورية.

لقد دنت ساعة الحقيقة، بالنسبة لبشار، مع اندلاع حرب العراق واحتلالها من قبل جيش الولايات المتحدة خلال أقل من ثلاثة أسابيع. ومع أنه لا يزال من المبكر تقدير تأثيرات هذه الحرب بشكل عام، وتأثيرها على سلوك سورية بشكل خاص، إلاّ انه تمكن الإشارة إلى عدة نقاط:

أولاً، لقد اختارت سورية وضع نفسها في المعسكر العربي المعارض للحرب وبرزت بنقدها الشديد الذي وجهته ضد سياسة واشنطن. بالإضافة إلى ذلك، إن تحفظ سورية من أجل العراق، ولمفاجأة الكثيرين، لم يتخذ طابعا دعائياً فقط، بل انه، وحسب الادعاءات الأمريكية، شَمَل إرسال متطوعيّن إلى الجيش العراقي، وإغماض عيّنها عن تهريب الأسلحة، إلى هناك، عبر أراضيها.

ثانياً، لقد دفعت السياسة السورية واشنطن إلى اتخاذ لغة تتسم بالتهديد شديد اللهجة والذي لم يسبق له مثيل تجاه دمشق. وكان يكفي للتهم الموجهة إليها أن تشكل شاهداً على مدى الإمكانية الكامنة لانفجار مسار العلاقات بين الدولتين على امتداد السنوات الأخيرة. ومع ذلك كان من الواضح أن واشنطن لم تغلق الباب بعد أمام دمشق، إذا ما أرادت الأخيرة تغيير سياستها وإرضاء الولايات المتحدة.

ثالثاً، لقد وضع وجود القوات الأمريكية في العراق سورية أمام واقع استراتيجي معقد ألزم دمشق بالتصرف بحذر شديد، أكثر مما كان عليه الحال في الماضي، تجاه الولايات المتحدة. ومع أن بشار أبدى، مثل والده، إلماما أساسياً لمجموعة الضغوط التي تواجهها سورية، إلا أنه أظهر حذرا أقل منه ولم يتردد في تجاوز الخطوط الحمراء التي وضعته، كما سبق وذكرنا، في مواجهة مع واشنطن. لقد كان بشار يرتدع في لحظة الحقيقة، إلا أنه وكلما تعاظمت مشاكل الولايات المتحدة في تأسيس نظام مستقر في العراق، كان يبدو أن ثقته بنفسه تعود إليه، وكان يعود إلى عادته القديمة.

السياسة الخارجية في عهد حافظ الأسد

كانت سورية حافظ الأسد ومن نواح كثيرة دولة خِيْطَت على مقاس زعيمها. وقد لوحظت بصمات الأسد على كل خطوة وعلى كل شبر، وأكثر من كل شيء آخر، على السياسة الخارجية السورية، التي كانت بؤبؤ عيّنه، وكانت تشغل مركز الاهتمام لديه. وكان تفضيله الواضح للانشغال بالقضايا الخارجية، على معالجة القضايا الداخلية السورية – سواء بسبب عدم اهتمامه بمواضيع المجتمع والاقتصاد، أو بسبب سيادة الاستقرار السياسي على امتداد غالبية سنوات حكمه – قد دفع الكثيرين للادعاء بأن سورية هي دولة ذات سياسة خارجية بدون سياسة داخلية (وهذا على نفس وزن قول وزير الخارجية الأمريكية في أواسط السبعينيات، هنري كيسنجر، الذي قال إنه لا توجد للحكومة الإسرائيلية سياسة خارجية، أي إن سياسات الحكومة الإسرائيلية في الموضوع الخارجي تمليها، بشكل أساسي، اعتبارات السياسية الداخلية).[٢]

وعلى هذه الخلفية يمكن أن ندرك لماذا عكست السياسة الخارجية السورية في عهد حافظ الأسد، وإلى درجة كبيرة، رؤية هذا الرئيس، الذي أراد أن يحقق لسورية مكانة رائدة في محيطها القريب(هذه نظرة مطورة ومعدلة لفكرة "سورية الكبرى" التي انتشرت في أوساط واسعة في سورية في ثلاثينيات وأربعيّنيات القرن العشرين)، والدفع باتجاه تحقيق الوحدة العربية بقيادة دمشق، وعكست أيضاً شخصية الرئيس، ولذلك كانت حذرة، ومتشككة، وفي الأساس، متحفظة من كل مبادرة أو تغيير.[٣]

ومع ذلك، فإنه من الواضح أن السياسة الخارجية التي اتبعتها دمشق، عكست الميزات الخاصة للدولة السورية من الناحية السياسية، والجيوسياسية، والاقتصادية

---

(٢) أنظر محاضرة إيتامار رابينوفيتش، "إسرائيل وسورية – ماضٍ وحاضر"، في أمسية عمل، في ذكرى موشيه دايان، والتي أقيمت في مركز موشيه دايان، ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٢، نسخة من المحاضرة محفوظة في أرشيف المركز.

(٣) Eyal Zisser, Decision Making in Asad's Syria Washington: The Washington Institute for Near East Policy, 1998.

والاجتماعية. وكذلك إرث سورية، وإرث الحيّز الإقليمي الذي نبتت فيه سورية، وأبرز مثال على ذلك يتمثّل في سياسة سورية تجاه لبنان. ويمكن القول، في حق الأسد، إنه قد عرف كيف يستغل هذه الفرصة حتى نهايتها. ولكن، وفي نهاية الأمر، لم يكن الأسد سوى مُنَفِّذا للسياسة التي تضرب جذورها في الماضي البعيد، والتي رفع كل الزعماء السوريون، منذ إقامتها (سورية)،وحتى قبل الاستقلال، لواءها. فالزعماء السوريون، وعلى امتداد الأجيال، وجدوا صعوبة في التسليم، بل وحتى عارضوا، وجود دولة لبنانية مستقلة، وتطلعوا، على الأقل، إلى ضمان تأثيرهم عليها، إذا لم يكن ضمها بشكل عملي (أنظر الفصل الثامن).

ومع ذلك، من المهم الإشارة إلى إنه وعلى الرغم من الاستمرارية الواضحة في السياسة الخارجية السورية، فإنه ومنذ صعود الأسد إلى الحكم، والذي منح سورية استقرارا سياسياً، نجح النظام السوري في التحلل من أعباء المشاكل وبلورة سياسة خارجية فعالة هدفت إلى تحقيق القومية. وعلاوة على ذلك، فإنه وإذا كان الأسد قد مال إلى السير على خطى سابقيه، على الأقل في شؤون السياسة الخارجية، فإنه يجب الاعتراف أنه لم يكن هناك دائماً ما يمكن الاستمرار فيه، ذلك أن الدولة السورية ظهرت في أواخر عشرينات القرن العشرين، وحصلت على استقلالها عام ١٩٤٦. أضف إلى ذلك، وقبل أن يتم تأسيسها على يد الفرنسيين، وعلى امتداد ١,٥٠٠ عام من الحكم العربي - الإسلامي، لم يقم في الإقليم السوري كيان سياسي مستقل. ومن هنا، وعلى خلاف دول أخرى في المنطقة، مثل مصر، وإيران والعراق التي تشكل من نواحي كثيرة امتداداً لكيانات سياسية قامت على مدى سنوات طويلة في الإقليم الجغرافي الذي نشأت فيه، لم يكن للدولة السورية تقليد يمكن أن تعود لترتكز إليه. وبالإضافة إلى ذلك يُخيِّل أن السياسة الخارجية السورية، وشبكة العلاقات التي أقامتها مع أصدقائها وأعدائها في بيئتها المحيطة أو في كل العالم، قد بلورها "المزاج" أو"الطبيعة" السورية، الشكاكة، والمكابدة، وسهلة الاستثارة، والتي وجدت تعبيراً عنها سواء في العلاقات العدائية بين الطوائف المختلفة فيها أو بين الجمهور وبين النظام، أو بين سورية وبين العالم المحيط بها.

ويمكن أن تدل على ذلك الحادثة التالية، والمأخوذة من خلال الاتصـالات الـتي أجرتها إسرائيل وسورية على مدى النصف الأول من التسعينيات. فقد طلب المندوبون الإسرائيليون من محاوريهم السوريين أن يشرحوا على مسامعهم رؤية دمشـق حـول شبكة العلاقات بين الدولتين، بعد أن يتم التوقيع على اتفاق سلام بينهما. وقد تهـرب السوريون، في البداية، من تقديم الإجابة وطالبوا أن تلتزم إسـرائيل أولا بالانسـحاب انسحاباكاملاً حتى خطوط الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧. ولكن كلمـا كانـت المفاوضات تتقدم كان السوريون يليّنون موقفهم، حتى أنهـم، في النهايـة، فاجـأوا الإسرائيليين عندما أبلغوهم أنه عندما يحل السلام بين إسرائيل وسورية، فـإن دمشـق تنوي أن تقيم علاقات مع إسرائيل تشبه علاقتها مع أوكرانيا (والتي لم يكن فيهـا في ذلك الوقت قنصلية دبلوماسية سورية). وعندما احتج الإسرائيليون علـى المقارنـة، سارع السوريون إلى التأكيد بأن إسرائيل وسورية ستقيمان علاقات مثـل العلاقـات القائمة بين دمشق وبقية جيرانها. و لم يعرف أعضاء الوفد الإسرائيلي إذا ما كان عليهم الضحك أم البكاء، ذلك أن شبكة العلاقات سورية مع جيرانها كانت، ولا تـزال إلى درجة كبيرة، معادية ومتعكرة (فمع تركية وصلت العلاقات في ذلك الوقت إلى حافـة المواجهة العسكرية، ومع العراق كانت موجودة في حالة نزاع دائم على مدى جيـل كامل، وحتى أن علاقاتها مع الأردن كانت في وضع سيء جدا).[٤] وعندما طلبـت، مع مرور الأيام، من دبلوماسي سوري إصلاح هذا الحوار، وحتى إنني طلبت منـه أن يشرح لي جذور العداء المُدرَك الذي تظهره سورية تجاه جيرانها، بذل كل ما في وسعه لتقديم شروح منمقة، وفي النهاية قال: "هكذا نحن".[٥]

سنوات التسعينيات – بين الشرق والغرب

تميزت السياسة السورية في العقد الأخير من حياة حافظ الأسد بالجهد المبذول لمواجهة آثار انهيار الاتحاد السوفياتي، والتي أدت بداية إلى انهيار نظرية الأمن القومي السوري بمكونيّها: الأول، بذل الجهد للحصول على قدرة عسـكرية مسـتقلة في

(٤) مقابلة للمؤلف مع إيتامار رابينوفيتش، تل أبيب، ١٢ حزيران/يونيو ١٩٩٧.

(٥) مقابلة للمؤلف مع دبلوماسي سوري، واشنطن، ٢٣أيار/مايو ١٩٩٨.

مواجهة إسرائيل. والثاني، الاعتماد على "المظلة السوفياتية" في حالة تعرض سورية للتهديد من قبل إسرائيل أو الولايات المتحدة. كما أدى انهيار الاتحاد السوفياتي إلى ظهور نظام عالمي جديد، وكذلك، وإلى درجة معيّنة، نظام إقليمي جديد، والذي تقرر إيقاعه الولايات المتحدة. وقد ظهر التعبير الأول عن ذلك في عام ١٩٩١، عندما وجه التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة ضربة قوية للعراق، أرغمه على سحب قواته من الكويت، وكبده خسائر فادحة على الصعيدين العسكري والاقتصادي. وفي نهاية العام ذاته نجحت الولايات المتحدة في عقد مؤتمر مدريد (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١)، وفي أعقاب ذلك إلى بدايات محادثات سلام بين إسرائيل وبين الدول العربية.(٦)

لقد أضعفت تلك التطورات سورية ودفعتها إلى الزاوية، وأثارت المخاوف، في دمشق، من أنها (التطورات) تشكل تهديداً حقيقياً على استقرار النظام. كما سادت المخاوف، في دمشق، من أن تبعد تلك التطورات سورية عن تحقيق أهدافها الاستراتيجية، التي وضعتها نصب عيّنيها، وأولها ضمان السيطرة على لبنان وإعادة هضبة الجولان.

وفي خطاب ألقاه عام ١٩٩٢ اعترف الرئيس الأسد بخطورة التحدي الذي تواجهه سورية، حيث أنه وجد العزاء في الحديث عن الأمل في تحقيق مستقبل أفضل. وقد قال للحضور إنه: "قد حدث شيء في العالم ومن المحظور أن نتغاضى عنه. فقد ساد على مدى سنوات طويلة الاستقرار في العالم وسادت في شبكة من التوازنات الواضحة. ولكن طرأت على شبكة التوازنات هذه تغييرات جدية... إن عالم اليوم عاصف وليس من الواضح إلى أين يسير وما هي محطته القادمة. ولكن، وحتى إن لم يكن في وسعنا معرفة الفترة التي سيستمر فيها عالمنا بالاضطراب، وكيف ستنتهي هذه العاصفة، إلا أنه من الواضح أنه سيأتي وقت تهدأ فيه هذه العاصفة، وسيعود العالم للاستقرار في مكانه، على الأقل لفترة معيّنة..."(٧)

---

(٦) إيال زيسر، **سورية الأسد**، سبق ذكره، الملاحظة ٢٢ من التمهيد، ص ٨٩-١١٩.

(٧) **تشرين**، ١٣ آذار/مارس ١٩٩٢.

لقد دلت أقوال الأسد على افتراضين شكّلا أساس السياسة الخارجية السورية على امتداد التسعينيات: الأول، هو أن الواقع الإقليمي والدولي الجديد الذي تواجهه سورية يضم بين طياته مخاطر فورية على مصالحها، وحتى على أمنها وعلى وحدتها الإقليمية، مع أن هذا ليس أمراً مُسلّماً به. والثاني، هو أن على سورية الاستعداد لهذا الواقع ولإدارة صراع بقاء يكون بإمكانه أن يضمن، على الأقل، المحافظة على الواقع القائم السائد في الشرق الأوسط. وهذا ما يقتضي بعض التغييرات في سياستها، تعيد لها القدرة على المناورة، والتي فقدتها جراء انهيار الاتحاد السوفياتي. إلاّ أن الحديث لا يدور عن تحول دراماتيكي، ولا تراجع كبير في المنطلقات الأساسية أيضاً.

وانطلاقاً من هذا، انطلق حافظ الأسد في الطريق الجديد، الذي قاد سورية عليه على امتداد التسعينيات. وقد امتاز هذا الطريق بالسير على مسارين متوازيين: الأول عبر عن استعداد سورية لضمان مكانتها في النظام الإقليمي الجديد الآخذ بالتبلور. وفي هذا الإطار عملت سورية على تحسين علاقاتها مع الولايات المتحدة وحاولت أن تسبغ عليها بعضا من العمق والحميمية، في الوقت نفسه الذي دأب فبه السوريون على المحافظة على قدرتهم على المناورة مع واشنطن، وذلك عن طريق تأسيس جبهة لكل العرب تقف في مركزها كل من مصر وسورية والسعودية. وكذلك عن طريق تطوير العلاقات مع أوروبا الغربية. أما المسار الثاني، فقد كان على تناقض كامل مع المسار الأول، ويقوم في أساسه على محاولة فرملة الجهد الأمريكي – الإسرائيلي لإقامة نظام إقليمي جديد في الشرق الأوسط، وضمن هذا، المحافظة على الوضع القائم السائد في المنطقة حتى ذلك الوقت. ومن أجل ذلك عملت سورية على المحافظة، بل على تطوير، علاقاتها مع إيران. كما كانت قد بدأت، منذ بداية ١٩٩٧، بتعزيز علاقاتها مع العراق.

وفي مثل هذه الظروف، ليس من الغريب ألا تعطي الجهود السورية لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ثمارها. كما أن المراوحة في المكان وعدم تحقيق اختراقات ميزت شبكة العلاقات بين سورية وبين دول أوروبا الغربية، وكذلك مع حلفائها العرب، وفي مقدمتهم مصر والعربية السعودية. كما أنه لم تحدث انطلاقة،

كما هو معروف، في مسيرة السلام. وقد أثار البطء، إن لم نقل الحذر والتردد، اللذان ميّزا الحوار السوري الأمريكي والسوري - الأوروبي، وخاصة الإزدواجية التي أبداها السوريون في مسيرتهم، أثار بشكل متكرر السؤال حول وجهة السياسة الخارجية السورية، وإلى أين تتطلع - إلى الشرق أم إلى الغرب؟

وقد ظهرت عزلة وضعف الاستراتيجية السورية، الناجمة عن الصعوبة الواضحة في قدرتها على اتخاذ القرار حول وجهتها في نهاية عام ١٩٩٨، وذلك عندما تدهورت علاقاتها مع تركية إلى درجة المواجهة العسكرية. وقد اختارت أنقرة هذه المرة أن تجبر سورية على الاختيار، مرة واحدة وإلى الأبد، بين الاستمرار في تقديم دعمها إلى حزب العمال الكردي، وبين قيام علاقات جوار طيبة، أو معقولة على الأقل، مع تركية، خاصة وان سورية لم تكن ترى، حتى ذلك الوقت، أي تعارض بين الأمرين. وقد وصل التحذير الجدي من جانب أنقرة، والذي كان مترافقا بتهديدات بالحرب، وصل إلى دمشق التي وافقت على العمل من أجل تسوية النزاع مع تركية من خلال الخنوع الكامل - بعيداً عن أعيّن الجمهور، لكل مطالبها.(٨)

بشار - خطوات أولية

على خلفية شبكة العلاقات المتعكرة لسورية مع غالبية دول العالم والأجواء الداخلية الخانقة التي وصلت إلى أروقة وزارة الخارجية في دمشق، أُستقبل استلام بشار للسلطة كنسمة منعشة. وقد أمل الكثيرون، في سورية وفي خارجها، أن يقود بشار إلى بدء عهد جديد في علاقات سورية مع العالم. وقد تركز هذا الأمل، سواء على الأسلوب المتحرر، الذي حل محل الانغلاق والشك، اللذين ميّزا فترة الأسد الأب، وسواء على السياسة الخارجية، التي تعترف بالواقع الإقليمي والدولي الجديد، وتكون منفتحة لقبول تغييرات حقيقية إلى درجة تبني توجه واضح موالٍ للغرب.

---

(٨) Robert Olson, Turkey's Relations with Iran, Syria, Israel, and Russia, 1991-2000, Costa Mesa, California: Mazda Publishers, 2001, pp. 105-124.

ولا يمكن، في هذا السياق، عدم التطرق إلى الانطباع الإيجابي الـذي تركـه بشار لدى الكثيرين من الزعماء والصحفيين الغربيين، الذين التقوه قبل أن يصبح رئيساً (راجع الفصل السادس). ولم يتطلع إليه الكثيرون، عن عبث، ليكون الممثل الصارخ للجيل الجديد من الزعماء، الذين بدأوا يعتلون قيادة العالم العـربي. وقـد ذكر إلى جانب بشار أيضاً عبد الله الثاني ملك الأردن، ومحمد السـادس، ملـك المغرب، بالإضافة إلى حاكم قطر وأولياء العهد في عدد من إمارات الخليج. وقـد أكثرت هذه المجموعة من الالتقاء حتى قبل صعود بشار إلى سدة الحكـم، حيـث منحته هذه اللقاءات بعض التجربة في مجال العلاقـات الخارجيـة، بالإضـافة إلى الشرعية لجهة مكانته، ذلك أن نظراءه الملكيين أظهروا استعداداً وحماسـة لقبولـه بينهم.

ومع ذلك فقد بقي الشك على حاله لجهة إذا ما كان بشار ينتمي إلى هـذه المجموعة فعلاً، التي قضت غالبيته سنواتها، وخاصة السنوات الحاسمة مـن بلـورة شخصيتها، في بيئة غربية. وقد عاد الملك عبد الله وادعى بإصرار، أنه مثلـه مثـل بشار ينتميان إلى جيل الإنترنت.[٩] إلا أن الزمن الذي مر، وخاصة منـذ صـعود بشار إلى السلطة، أظهر أن ما يفرق بينهم وبين بشار أكثر مما يجمعهم، وأن بشار يشعر نفسه أقرب إلى حسن نصر الله، زعيم حزب الله (والذي هـو أيضـاً مـن الوجوه الشابة في العالم العربي) من قربه إلى الملك عبد الله أو إلى الملـك محمـد. وبالفعل، فإن التعاون بين بشار وبين الملوك الصغار، والذي نبع، على ما يبدو مـن دوافع مصلحيّة، قد توقف في اللحظة التي صعد فيها هؤلاء إلى السلطة وواجهـوا الواقع العاصف من الداخل ومن الخارج.

وعلى الرغم من ذلك، فإن بشار في بداية طريقه وفّى بالتوقعات المنتظرة منه، والنشاط والحيوية اللتين أبداهما، وكذلك مجالات اهتماماته، وخاصة في القضـايا الاجتماعية الاقتصادية، أسرت قلوب الكثيرين في سورية وفي خارجها. وكانـت من أولى خطواته، الأكثر رمزية، أنه قد عيّن سفيرا سورية في بيروت، بعد أن بقيت

---

(٩) **يديعوت أحرونوت**، ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٩.

السفارة السورية فيها يتيمة طيلة فترة حكم والده.

ومع صعود بشار إلى السلطة اتضح أنه من بين السفارات السورية الاثنتين والستين في كافة أرجاء العالم، بقي سفراء عاملون في ستة منها فقط، [١٠] بينما شغرت مناصب السفراء في بقية الدول مع مرور السنين: إذ خرج بعضهم إلى التقاعد، كما عُزل آخرون، وتوفي الآخرون دون تعيين خلف لهم. ويبدو أن قضية تعيين السفراء قد دُفعت، في عهد حافظ الأسد، إلى أسفل القائمة، كما يبدو أنه قد اختار تخصيص ساعات نشاطه القصيرة لقضايا ذات أهمية كبيرة مثل دفع مسيرة السلام مع إسرائيل أو نقل السلطة إلى ابنه بشار.

إذاً، لقد سارع بشار إلى رفد السفارات السورية بأشخاص أخلاهم من مواقع مركزية شغلوها على امتداد جيل، من وزارة الإعلام، ووسائل الإعلام ووزارة الخارجية، وذلك كجزء من"الشدشدة الداخلية" التي أجراها في سورية في الشهور الأولى لحكمه. فقد عيّن رئيس تحرير صحيفة البعث تركي صقر سفيرا في طهران، ورئيس تحرير جريدة تشرين محمد خير الوادي سفيرا في بكين. وحتى أن نائبة وزير الخارجية صبا ناصر عيّنت سفيرة في باريس.[١١]

وقد أكثر بشار من زياراته إلى الدول العربية والأجنبية، حيث فعل ذلك بوتيرة لم تعهدها سورية لسنوات طويلة: ويُخيّل أن عدد الزيارات التي قام بها بشار في السنوات الأولى لحكمه زادت على عدد الزيارات التي قام بها والده في كل سنوات حكمه. وخلال تلك الزيارات زار بشار كل الدول العربية، باستثناء العراق، أكثر من مرة، وفي بعض الأحيان مرتين، وربما أكثر من ذلك.

و لم يتوان عن تفقد لبنان أيضاً – وهي الزيارة الأولى التي يقوم بها رئيس سوري للدولة منذ اندلاع الحرب الأهلية فيها منذ عام ١٩٧٥. وقد أكثر بشار أيضاً من زيارة عواصم دول أوروبا الغربية ومن بينها مدريد (أيار/مايو ٢٠٠١)،

---

(١٠) **الحياة**، ٧ آب/أغسطس، ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

(١١) **الحياة**، ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. **الوطن**، ٦ آب/أغسطس ٢٠٠٢. **السفير**، ٣١ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

باريس (حزيران/يونيو ٢٠٠١)، برلين (تموز/يوليو ٢٠٠١)، روما (شباط/فبراير ٢٠٠٢)، لندن (كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢) وأثينا (كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣). وقد عزيت إلى تلك الزيارات أهمية بالغة، إذ أنه أجرى بواسطتها تعارف مباشر مع الزعماء العرب والأجانب، كما أنه ظهر من زوايا مختلفة عن تلك التي يمكن رؤيته بها من قصر الرئاسة في دمشق. وقد حرص بشار على أن يضم إلى زياراته وفوداً من رجال الأعمال السوريين، وذلك بهدف تنمية العلاقات الاقتصادية بين سورية وبين الدول التي زارها. كما أن بشار قد حرص قبل القيام بأية زيارة على إجراء مقابلات مع وسائل الإعلام الرائدة في البلد المعني، حيث ظهر فيها كإنسان محب للإطلاع ومنفتح، والمستعد للاستماع وليس للإسماع، وكمن يريد أن يستغل زياراته لدفع "حوار الثقافات".[١٢]

هذا وقد عكست سياسة بشار، على الأقل في بدايات طريقه، امتداد واضحاً لسياسة والده، أي سير حذر بين الغرب والشرق، ومحاولة للقفز على الغصنين (اللعب على الحبلين). إلى جانب ذلك لوحظت بوضوح الجهود التي بذلها بشار لاستغلال تبادل الحكم في دمشق من أجل البدء بصفحة جديدة من العلاقات بين بلاده وبين العالم الواسع، من خلال محاولته التخلص من تراكمات الماضي، وخاصة التراكمات الشخصية التي أثقلت أكثر من مرة على علاقات سورية مع جاراتها. ومن الأبرز في هذا السياق جهود بشار لتطوير علاقات سورية مع كل من تركية والأردن، وبدرجة معيّنة أيضاً العراق، والتي كانت سورية في مواجهة شديدة معها خلال العقود الأخيرة.

ولكن سرعان ما اتضح أن الواقع أقوى من بشار، وأن الابتسامات والنوايا الطيبة لا تستطيع أن تخلصها دفعة واحدة من خلافاتها الحقيقية وتراكمات الماضي.

---

(١٢) أنظر على سبيل المثال المقابلات التي منحها لصحيفة البايس الإسبانية، لوفيغارو الفرنسية، دير شبيغل الألمانية، كوريرا دي لي سيريا الإيطالية وتايمز الإنكليزية، المقابلات نشرت كاملة في الصحافة السورية: على سبيل المثال **تشرين**، ١ أيار/مايو ٢٠٠١. **تشرين**، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١. **البعث**، ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠١. **البعث** ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٢. **تشرين**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

وأكثر من ذلك، ومع اندلاع الأزمة الأولى التي كان ينبغي عليه مواجهتها، اتضح أن تصريحاته الموزونة والتصالحية التي أطلقها أكثر من مرة إنما تخفي خلفها آراء غر سياسي. إن نقص التجربة العملية في إدارة السياسة الخارجية وعدم وجود رؤيـة شاملة لجهة موقع سورية ودورها على الصعيدين الإقليمي والدولي تفسر لماذا انجر أكثر من مرة إلى تبني سياسة متطرفة ومتناقضة، سواء في السياق الإسرائيلي العربي أو في السياقات الأخرى، حيث أضرت بشبكة علاقات سورية الخارجية و لم تفـد المصلحة السورية في شيء.

فخلال العام الأول لولايته انفجرت أزمتان كان من المتوقع أن تـؤثرا علـى استمرار حكمه: ١ - انتفاضة الأقصى في تشـرين الأول/أكتـوبر ٢٠٠٠، وفي أعقابها تجدد عمليات حزب الله ضد إسرائيل على حدودها الشمالية - وقد أخفت كل منها بين طياتها إمكانية التدهور لمواجهة إقليمية، أو علـى الأقـل، مواجهـة إسرائيلية - سورية. ٢ - الحرب ضد الإرهاب التي أعلنت عنها الولايات المتحدة في أعقاب الهجوم الإرهابي في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. والتي قوض الأمريكيون في بدايتها حكم الطالبان في أفغانستان، وسيطروا بعـد ذلـك علـى العراق. وقد أدت حرب واشنطن ضد الإرهاب إلى زيادة النقد الأمريكي لسورية وذلك لأن هذه لا تنأى بنفسها عن "محور الشر" بل أنها تقـوي علاقاتها مـع أعضائه: إيران والعراق وحزب الله وكوريا الشمالية. وكما سبق وأشرنا، فإنه وفي أعقاب احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة، تحول النقد إلى ضغط شديد.

بشار والعالم العربي:
من انتفاضة الأقصى إلى الحرب على العراق

مع اندلاع انتفاضة الأقصى في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ أراد بشـار أن يحاول استغلال الواقع الجديد في المنطقة لتقوية موقعه وموقع سورية الإقليمي. وبعد كل شيء، فقد مثلت الانتفاضة بالنسبة له فرصة ذهبية لتحقيق ما يريد دفعة واحدة ولترسيخ موقعه كرئيس لمعسكر الرفض العربي، أو على الأقل بوصفه من يقف على رأس المعسكر الذي يتخذ موقفاً متصلباً وغير تصالحي تجاه إسرائيل. واتضح بعـد

فوات الأوان أنه لم يكن لهذا التفاخر أي غطاء، وأنه كان أكبر بكثير من قدراته. وعلاوة على ذلك، فإنه كان من شأن، الخط المتطرف والعدائي تجاه إسرائيل الذي أراد بشار قيادته، أن يربك الدولة العربية المعتدلة وحتى أن يؤدي إلى مواجهة بينها وبين الأسد.

سورية ومصر

هذا وقد برز بشكل خاص الصدع الذي نشأ في العلاقات بين مصر وسورية. ويمكن أن يكون هذا الصدع ناشئ عن الفرق في العمر بين بشار (من مواليد ١٩٦٥) وبين حسني مبارك (مواليد ١٩٢٨). وبالفعل، كان من الواضح أن مبارك يريد أن يبسط رعايته على الرئيس الشاب، وكان يتصرف نحوه بشكل من الوصاية، الأمر الذي أثار رداً رافضاً، مفهوما، من قبل بشار. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن العلاقات المصرية - السورية تميزت دائماً بالتوتر والريبة وعدم الثقة، وذلك بعد عدة قضايا مؤلمة من الماضي: انسحاب سورية من الجمهورية العربية المتحدة، سلوك سورية عشية حرب الأيام الستة وخلالها، وأخيراً "خيانة مصر" في حرب يوم الغفران، وبطبيعة الحال كذلك التوقيع على معاهدة السلام مع إسرائيل عام ١٩٧٩.

وقد تطرق بشار نفسه إلى رواسب الماضي في المقابلة التي أعطاها قبل صعوده إلى السلطة لصحيفة **الحياة**، وقد اتهم فيها مصر بالمسؤولية عن الفشل الذي مني به العرب في حرب يوم الغفران. وقد أوضح بشار أنه خلال المراحل الأولى للحرب وقفت إسرائيل على شفا الهزيمة، ولكن المساعدة الأمريكية وقرار المصريين وقف قواتهم بعد أن عبروا القناة، مكّن إسرائيل من تركيز قواتها على الجبهة الشمالية، والبدء بهجوم ضد الجيش السوري واستعادة الأراضي، التي خسرتها في بداية الحرب، في هضبة الجولان.[١٣] وقد أثارت المقابلة، بطبيعة الحال ردوداً غاضبة في القاهرة، حيث اُستخدمت كدليل على عدم نضج الوريث المرتقب. ويمكن، من هنا أيضاً،

---

(١٣) **الحياة**، ٧، ١١ آذار/مارس ٢٠٠٠.

فهم السبب الذي استقبلت فيه الصحافة المصرية بشيء من السخرية والانتقاد غير المعهودين استلام بشار للسلطة. وبالمناسبة، فقد كانت الصحف المصرية هي الوحيدة في العالم العربي تقريباً التي سخرت من "تحول الجمهورية السورية إلى ملكية"، وحتى أنها لم تتردد في الإعراب عن تساؤلها عن مدى ملاءمة بشار للمهمة العتيدة.(١٤)

لقد أدى اندلاع الانتفاضة، كما سبق وذكرنا، إلى قطيعة في العلاقات المصرية السورية. وقد حدثت المواجهة الأولى خلال مداولات مؤتمر القمة العربية التي عقدت في القاهرة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ وذلك للبحث في أحداث الانتفاضة. حيث عملت مصر لتهدئة الخواطر بينما نَصَّب بشار نفسه على رأس المعسكر الذي يريد تصعيد حدة المواجهة مع إسرائيل، وهو قد تحدى بذلك سياسة ومكانة القاهرة. وفي الأشهر التالية استمرت مصر في محاولتها ممارسة تأثيرها الضاغط على سورية. ومن أجل ذلك استمر زعيما الدولتين باللقاء مرة كل عدة أشهر، كما كان متبعاً في عهد حافظ الأسد، من أجل البحث في التطورات في المنطقة ومن أجل محاولة تنسيق سياستيهما. ولكن الحوار لم يثمر إذ كانت تنقصه، على مايبدو، مسحة الاحترام التي أكنها كل من مبارك وحافظ الأسد للآخر. وقد شكل لقاء بشار ومبارك في شرم الشيخ في أيار/مايو ٢٠٠١ شهادة على ذلك، حيث انتهى بشكل مفاجئ، قبل وقت طويل من الوقت المحدد له، ذلك أن بشار سارع بالعودة إلى دمشق بعد أن تلقى معلومات مفادها أن إسرائيل على وشك مهاجمة سورية. وقد وجدت مصر صعوبة في ابتلاع الإهانة، ولمحت مصادر مصرية إلى أن الارتباك الذي ألم ببشار لم يكن سببه نقص تجربة وحسب، في إدارة شؤون الدولة في حالات الأزمات – وهو موضوع إشكالي بحد ذاته – بل أيضاً من رغبته بجر مصر إلى مواجهة مع إسرائيل، كما فعلت دمشق في حينه عام ١٩٦٧.(١٥)

الأمور وصلت إلى ذروتها خلال مؤتمر القمة للزعماء العرب الذي عقد في

---

(١٤) أنظر على سبيل المثال **الوفد**، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. وانظر أيضاً تعليقات المحللين المصريين على استلام بشار للسلطة في تلفزيون قناة الجزيرة، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(١٥) أنظر قناة تلفزيون الجزيرة، ١٧، ١٨ أيار/مايو ٢٠٠١. **هآرتس**، ١٨ أيار/مايو ٢٠٠١.

بيروت في آذار/مارس ٢٠٠٢. وقد امتنع مبارك، ومثله عبد الله ملك الأردن، من حضور المؤتمر وذلك بسبب مخاوفهم من المس بحياتهم من قبل عناصر حزب الله، الذين لم يخفوا معارضتهم للنمط المعتدل الذي أراد الزعماء العرب تبنيه، وخاصة في ما يتعلق بمبادرة السلام السعودية التي دعت إلى إحلال السلام بين إسرائيل والعرب. وقد استغل بشار غياب مبارك وعبد الله وهاجم في خطابه الزعماء العرب الذين يمتنعون عن العمل ضد إسرائيل ويعارضون قطع العلاقات الدبلوماسية معها. وقد أوضح أن "سورية لا تطلب الإحسان أو الرحمة [من شقيقاتها العربية]. إلا أن الحدّ الأدنى المطلوب اليوم من كل دولة عربية هو قطع العلاقات مع إسرائيل... وإذا كان اندلاع الانتفاضة وسقوط مئات الشهداء من الفلسطينيين لا يعتبر سبباً كافياً لذلك، فهل سنضطر لانتظار مقتل نصف مليون من الشعب الفلسطيني، وربما إلقاء قنابل نووية على الدول العربية أو احتلال عدد من العواصم العربية من قبل إسرائيل، حتى تفكر تلك الدول في قطع علاقاتها معها".(١٦)

وحتى أن بشار سمح بعد ذلك بنشر افتتاحيات في الصحف تهاجم زعيمي مصر والأردن اللذين لا يقطعان علاقاتهما مع إسرائيل ولا يدعمان النضال المسلح ضدها. فعلى سبيل المثال، كتبت صحيفة **تشرين** تقول إن "عدداً من أخوة يوسف [أصدقاء إسرائيل في العالم العربي] قد تغيبوا عن القمة [العربية في بيروت] وبذلك مكنوا الذئب من افتراس الغنم وذلك بدعم من "الأم أمريكا" التي تمنح أفضلية لـ "أبناء إسرائيل" على كل البقية [الشعوب في العالم].(١٧)

كما أن صحيفة **الثورة**، لسان حال الحكومة السورية، هاجمت هؤلاء في العالم العربي الذين يختبؤون خلف شعار "الواقعية السياسية" وذلك "من أجل التغطية على الوهن الذي يظهروه وعلى إخفاقاتهم".(١٨) هؤلاء، اتهمت الصحيفة "كانوا قد عملوا في السابق من أجل زرع اليأس في العالم العربي وتنازلوا عن كل

(١٦) **تشرين**، ٢٨ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(١٧) **تشرين**، ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(١٨) **الثورة**، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

أوراق المساومة الموجودة بين أيديهم ضد إسرائيل [لأنهم وقعوا معها على اتفاق سلام]".

وحتى أن بشار سمح في نيسان/أبريل ٢٠٠٢ بإقامة مظاهرات قرب سفارتي كل من مصر والأردن في دمشق، والتي رجم المتظاهرون خلالها السفارتين بالحجارة ورددوا هتافات ضد ملك الأردن والرئيس المصري. وبعد ذلك أوضح بشار أنه أمر بمنع المتظاهرين من اقتحام السفارتين، ولكنه اعترف أنه لم تكن لديه أية مصلحة لمنعهم عن "إطلاق هتافات التنديد باتفاقيات السلام التي وقعها عدد من الدول العربية مع العدو الإسرائيلي"، ذلك أنه لا يخطر بباله "أن يقمع المظاهرات التي تخرج في شوارع دمشق تأييداً للقضية الفلسطينية".(١٩)

وبما يناسب ذلك، إنبرت الصحف المصرية بسرعة إلى شن هجوم مضاد لاذع ضد "الرئيس الشاب لدولة مجاورة، عديم الخبرة، والذي يحاول، مثل سابقيه، جر مصر إلى حرب تدفع فيها هي كامل الثمن، في الوقت الذي تبقى فيه دولته تراقب من بعيد".(٢٠) وقد ذهبت صحيفة **أخبار اليوم**، الأكثر انتشارا بين الصحف المصرية، بعيداً عندما قالت إنه "يحظر على مصر الانجراف خلف شاب، سطحي وعديم الخبرة، وفوق ذلك، انتهازي، والذي أصبح بشكل مفاجئ رئيس بلده ولهث وراء فرصة ليتحول إلى زعيم كبير".(٢١) وأضافت الصحيفة إنه "كان من المناسب أن يهتم هذا الرئيس الشاب ببذل الجهود لتحرير أرضه من نير الاحتلال الإسرائيلي. إلا أنه يتضح بأن هذا الأمر موجود في أسفل قائمة أفضلياته، وبدلاً من ذلك تتميز سياسته بالأقوال بدل الأفعال وبإطلاق الشعارات التي تجاوزها الزمن".

وفي الاجتماع الذي عقده زعماء كل من العربية السعودية ومصر وسورية في

---

(١٩) أنظر أقوال بشار لـ **المجد**، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠٢. للإطلاع على تقارير حول المظاهرات في العاصمة السورية أنظر **الحياة**، ٥، ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٢٠) **الجمهورية**، ٦ ، ١٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. وانظر أيضاً أخبار **الشرق**، ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٢١) **أخبار اليوم**، ٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

أيار/مايو ٢٠٠٢، والذي عقد هذه المرة أيضاً في شرم الشيخ، فرض السعوديون والمصريون على بشار الانضمام إليهم في التصريح الذي يدين العنف في المنطقة، وذلك كجزء من محاولة كل عربي لإحلال الهدوء في التراع الإسرائيلي الفلسطيني، وكذلك إلزام الفلسطينيين بوقف العلمليات الانتحارية داخل إسرائيل.(٢٢)

وهذه المرة أيضاً، سارع بشار إلى مغادرة الاجتماع قبل الأوان و لم يقف إلى جانب نظيريه، ولي العهد السعودي والرئيس المصري، لإصدار الإعلان المشترك للصحافة. وحتى أن السوريين قد أوضحوا أن إدانة العنف التي وردت في اللقاء وُجهت بالأساس إلى إسرائيل.(٢٣)

وبعد أسابيع من ذلك عاد بشار وشن حملة عنيفة على نظرائه العرب، وحتى أنه كشف في مقابلة مع صحيفة **القدس العربي** أن الولايات المتحدة هي التي فرضت على العرب اجتماع قمة شرم الشيخ، في أيار/مايو ٢٠٠٢، وإن مجرد الاستعداد العربي للاستجابة لتلك الضغوط يشكل علامة ضعف. وأضاف إنه يرى إنجازا في كونه استطاع منع نشر بيان للصحافة. وقد أضاف بشار ساخرا إن "المشكلة التي يواجهها العالم العربي هي ليست أن الحكومات العربية تنفذ بدقة متناهية التعليمات التي تتلقاها من الولايات المتحدة وحسب، بل حتى أنها عندما لا تصل إليها مثل هذه التعليمات تتقدم بمبادرات لواشنطن من أجل الحصول عليها".(٢٤) وقد أقر أنه والسعوديين مختلفون في الرأي حول مبادرة السلام التي طرحتها الرياض، وأنه بعد ضغوطه فقط أضيفت إلى المبادرة عناصر ضرورية للسوريين، مثل طلب الانسحاب الإسرائيلي إلى حدود ١٩٦٧ في هضبة الجولان أيضاً، ورفض توطين اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. ومع ذلك وصف بشار موقفه من المبادرة السعودية بـ "الصمت النشط"، أي الاستعداد للقبول بها ولكن الامتناع عن دعمها دعماً حقيقياً.

---

(٢٢) **الوطن**، ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٢. **النهار**، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٢٣) **تشرين**، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٢. **النهار**، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٢. **هآرتس**، ١٣، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٢٤) **القدس العربي**، ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٢.

وبعد ذلك ظهر خلاف جديد بين سورية ومصر والعربية السعودية والأردن، وذلك بسبب استعداد وزراء خارجية تلك الدول، بالتعاون مع "اللجنة الرباعية" (الولايات المتحدة، روسية، الأمم المتحدة ودول الاتحاد الأوروبي)، تبني مبادرة بوش لحل الصراع في الشرق الأوسط. وهذه المرة أيضاً لم يتردد السوريون من إظهار النزاع بينهم وبين المعسكر المعتدل في العالم العربي، من خلال سحب حق الدول الثلاث، مدار الحديث، بالتفاوض مع الولايات المتحدة باسم العرب، ذلك أنه وحسب أقوال فاروق الشرع فإن "العالم العربي لم يعطهم أي تفويض لفعل ذلك".(٢٥) وقد عادت سورية ووجهت نقداً لمصر بسبب استعداد حسني مبارك للقاء اريئيل شارون بعد أن أُنتخب الأخير لولاية ثانية كرئيس للحكومة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. وقد قالت بثينة شعبان، المترجم الخاص لبشار، والتي عيّنت لإدارة قسم الإعلام في وزارة الخارجية السورية، إنه "لمن دواعي الأسف أن نرى زعيماً عربياً [الملك عبد الله] يسارع إلى إرسال مباركته للمجرم القاتل، بينما يعرب زعيم عربي آخر [حسني مبارك] عن استعداده للقائه".(٢٦)

وعندما كانت الولايات المتحدة، تستعد لمهاجمة العراق. لم تُخفِ سورية عدم ارتياحها من وقوف الدول العربية، ومن بينها مصر، إلى جانب الحلفاء. وفي مؤتمر القمة الذي عقد في بداية آذار/مارس ٢٠٠٣ في شرم الشيخ، برز بشار في خطاب شديد اللهجة، وجّه فيه أصبع الاتهام تجاه الدول العربية لأنها لا تهب لنجدة العراق وبقائها متفرجة. كما أفشل السوريون مبادرة حسني مبارك لدفع عقد القمة العربية، وذلك بدعوى أنه ليس في نية الدول العربية فعل شيء ما تجاه الهجوم الأمريكي المترقب على العراق. وبعد ذلك بوقت متأخر أفشل السوريون أيضاً مبادرة مصرية لإرسال وفد من وزراء الخارجية العرب إلى العراق، وذلك بهدف ممارسة الضغط على صدام حسين للاستجابة لمطالب الأمم المتحدة والتنحي عن كرسيه. وقد سارعت الصحف المصرية إلى اتهام سورية، بأنها من خلال تبنيها

(٢٥) وكالة الأنباء الفرنسية، ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٢، وانظر أيضاً **السبيل**، ٢٣ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

(٢٦) **تشرين**، ١ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

لتلك المواقف، إنما أفشلت الجهد العربي بقيادة القاهرة، لتفادي الحرب.[٢٧]

بشار من ناحيته أوضح الموقف السوري في الخطاب الذي ألقاه أمام مجلس الشعب في العاشر من آذار/مارس ٢٠٠٣ حيث قال: "لقد اقترحنا الحدّ الأدنى المتمثل بعدم تقديم المساعدة [للولايات المتحدة في هجومها على العراق]. حيث أنه إذا كان العرب يريدون تقديم المساعدة، فلماذا تعقد القمة؟ فلا منطق في عقد مؤتمر القمة إلا إذا أرادت جهة ما "تغطية نفسها" بالمساعدة التي يقدمها. فمن يريد مساعدة الأمريكيين فليعلن عن ذلك، لكن عليهم ألا يتوقعوا منا أن نوافق على هذا أو أن نسلم به [من خلال وجودنا في القمة]. إننا لم نقترح أن تقوم الدول العربية بطرد القواعد العسكرية [الأمريكية] المقاومة على أراضيها، ولم نطالبها بتطبيق ميثاق الدفاع العربي المشترك [وأن تأتي لنجدة العراق]. ولم نطالب باتخاذ إجراءات ضد الدولة العربية التي تقدم المساعدة [للأمريكيين]، ولم نطالب بمعارضة الاحتلال [احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة]. ومع ذلك تم اتهامنا بالتطرف، والحقيقة هي أننا لم نبرئ ذمتنا، ذلك أنه بإمكانكم أن تقارنوا بين مواقفنا كعرب، وبين مواقف شعوب ودول العالم الأخرى، وحتى المواقف التي أعربت عنها الصحف في العالم، مثل الصحافة البريطانية [ضد الحرب]".[٢٨]

وفي أعقاب احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة، الذي ترافق مع تأجيج في العلاقات بين واشنطن ودمشق، لوحظ جهد سوري لتحسين العلاقات مع مصر. كما أدى ذلك أيضاً إلى تحريك "خارطة الطريق" من قبل واشنطن، والذي جاء رغم عدم الارتياح الواضح من قبل سورية. ولكن مصر أعطت بشكل مفاجئ أفضلية لدفع المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، ولم تأبه للسوريين الذين أرادوا أيضاً دفع المسار التفاوضي بينهم وبين إسرائيل. وقد برز تعبير واضح عن ذلك خلال انعقاد قمة شرم الشيخ في حزيران/يونيو ٢٠٠٣، بمشاركة الرئيس جورج بوش وحلفاء واشنطن. ولم تُدعَ كل من سورية ولبنان

---

(٢٧) **الأخبار**، ١٢، ١٦ آذار/مارس ٢٠٠٣. أنظر أيضاً **تشرين**، ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٢٨) راديو دمشق، ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٣.

للمشاركة في القمة الأمر الذي أثار غضبا في دمشق. حتى أن الصحافة السورية اتهمت الزعماء العرب، ويفهم من ذلك حسني مبارك أيضاً، بـ "الاستكانة أمام بوش بدلاً من الحرص على المصالح العربية".(٢٩) وبعد أن هاجم سلاح الجو الإسرائيلي، في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، معسكر التدريب الفلسطيني إلى القرب من دمشق، سارع بشار لاستدرار عطف الرئيس مبارك وذلك أملاً بالمساعدة والدعم المصريين، أمام ما رأى فيه عملية إسرائيلية بغطاء وتشجيع أمريكيين".(٣٠) ومهما يكن من أمر، يبدو أن العلاقات المصرية السورية ستستمر بالسير على نفس النهج السابق وفي جو من عدم الثقة والريبة المتبادلة، وعملياً بدون أي مضمون حقيقي.

سورية والعربية السعودية ودول الخليج

لوحظت أيضاً مصاعب سورية في العلاقات التي أقامتها دمشق مع العربية السعودية والكويت ودول الخليج، حتى قبل الهجوم الأمريكي على العراق. فقد كانت تلك الدول قلقة من الخط المتشدد لبشار في كل ما يتعلق بالصراع الإسرائيلي – الفلسطيني، بالإضافة إلى الخفة التي لا يمكن تحمّلها والتي أعاد بها، حسب رأيها، علاقات سورية مع عراق صدام حسين.(٣١) والأبرز في هذا السياق هو الانتقاد، وإن بشكل خفي، الذي وجهته الكويت، المتضررة الأساسية من تحسين موقع صدام الإقليمي منذ نهاية التسعينيات. إلا أن السوريين، كعادتهم، ردوا النقد بل علموا الكويتيين الأخلاق، كما أوضح ذلك وزير الخارجية فاروق الشرع في إحدى الجلسات التي عقدها وزراء الخارجية العرب في إطار اجتماعات الجامعة العربية فقال: "إنه لا يوجد أي تعارض بين دعم دمشق للكويت وبين محاولتها التخفيف من العقوبات المفروضة على العراق، والتي تضر بالشعب العراقي الذي

---

(٢٩) **تشرين**، ١، ٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٣. سانا، ٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٣. راديو بيروت، ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٣.

(٣٠) سانا، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **الأهرام**، ٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٣١) **الحياة**، ٣٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

يدفع الثمن".[٣٢] ورغم ذلك، فقد اعترف بشار في نهاية المطاف بأن علاقات سورية مع دول الخليج تشكل دعامة أساسية في علاقات سورية الخارجية، وعليه، تجب المحافظة عليها. وقد بذلت سورية جهوداً لم تثمر للمصالحة بين العراق والكويت، كما عملت بعد ذلك على توثيق التعاون وتنسيق المواقف مع العربية السعودية، وخاصة على خلفية جهود العربية السعودية ومصر دفع مسيرة السلام في المنطقة، وكلما زادت المؤشرات حول نية الولايات المتحدة توجيه ضربة للعراق.

لقد أدى الهجوم الأمريكي على العراق إلى بعض التدهور في العلاقات بين سورية وبين دول الخليج، وذلك على خلفية اتهامات من دمشق - حتى وإن كانت خافتة اللهجة وحذرة جداً، بأن تلك الدول تتعاون مع الولايات المتحدة. وقد كانت قطر الهدف الرئيسي لهذه الاتهامات، مثلما هو الحال في الماضي، حيث توجد فيها قيادة القوات الأمريكية في الخليج. وقد اُتهمت قطر في صحيفة **أبيض - أسود** بتحولها إلى "المشروع الصهيوني رقم ٢ في الشرق الأوسط"، وإلى "مستعمرة أمريكية وقاعدة لإخضاع الخليج والسيطرة على ثرواته".[٣٣] وكما سبق وذكرنا، فقد سادت خلال السنوات الماضية خلافات شديدة في الرأي بين الدولتين على خلفية نوايا قطر فتح قنصلية إسرائيلية في الدوحة، وإبقاءها مفتوحة حتى بعد اندلاع انتفاضة الأقصى.

لكن ومع اندلاع المعارك في العراق سارع بشار إلى تطوير علاقاته مع العربية السعودية والكويت ودول الخليج، وذلك بسبب التهديدات الأمريكية. وقد قام بشار بزيارة لقطر في نهاية تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، حيث أثنى خلالها على "موقف قطر الصلب إلى جانب سورية".[٣٤] ويجب الافتراض أن الدعوات التي سمعت في الكويت والتي دعت إلى وقف الاستثمارات في سورية ولبنان بسبب مواقفها المعادية للكويت، بالإضافة إلى الافتتاحيات الناقدة واللاذعة في الصحف

---

(٣٢) أنظر على سبيل المثال **الوطن**، ٣٠ آب/أغسطس ٢٠٠١، ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٣٣) **أخبار الشرق**، ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

(٣٤) **الثورة**، ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر. **تشرين**، ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

الكويتية ضد سورية، أسهمت في المحاولة السورية لإرضاء دول الخليج وطلب التقرب منها.(٣٥)

سورية والفلسطينيون

لقد منح اندلاع انتفاضة الأقصى، للوهلة الأولى، للسوريين فرصة لتطوير علاقاتهم مع السلطة الفلسطينية، بعد أن وصلت تلك العلاقات إلى حضيض لم يسبق له مثيل خلال صيف عام ٢٠٠٠، عندما بدا في ذلك الوقت أن عرفات يريد الدفع باتجاه اتفاق فلسطيني - إسرائيلي، يبقى سورية، حسب مخاوف السوريين، لوحدها في مواجهة إسرائيل، أبعد ما تكون عن تحقيق هدفها الاستراتيجي - استعادة هضبة الجولان.

ونذكر أنه لم تمتز العلاقات السورية مع م.ت.ف، في يوم من الأيام، بالدفء. ومنذ أن وقع ياسر عرفات في أيلول/سبتمبر ١٩٩٣ على اتفاق اوسلو من خلف ظهر السوريين، ازدادت الهوة بين الطرفين بحيث أضحت غير قابلة للجسر. ومع ذلك، وعلى امتداد التسعينيات، امتنع السوريون الذين كانوا حينها غارقين بمفاوضات مضنية مع إسرائيل، من قطع شعرة معاوية في علاقاتهم مع رئيس السلطة الفلسطينية. ولكن في صيف ٢٠٠٠ كان يبدو أن عرفات على وشك توقيع اتفاق الحل الدائم مع إسرائيل، في الوقت الذي كانت فيه الاتصالات السورية مع القدس عالقة. إذاً، لقد سارع السوريون إلى وضع العوائق في طريق عرفات للتوصل إلى اتفاق مع إسرائيل.

وخلال القمم العربية والإسلامية التي عقدت في ذلك الوقت وقف السوريون وراء تبني اقتراحات تقيّد أيدي الفلسطينيين في القضايا المطروحة في صلب الخلاف مع إسرائيل، ومن بينها قضية السيادة على الحرم القدسي والقدس وقضية حق العودة.(٣٦) وقد ضربت جهود السوريين على عصب حساس لدى الفلسطينيين،

(٣٥) **السياسة**، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٣، ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣. **الحياة**، ١٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

(٣٦) وكالة رويترز، ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠٠. وانظر أيضاً إيال زيسر، "سورية"، ذكر سابقاً، الملاحظة ٦٠ من الفصل الثالث، ص ٥٥٠.

وهو استقلالية القرار الفلسطيني. وكما ذكرنا سابقاً فإن أحد نقاط الخلاف الرئيسية بين سورية والفلسطينيين كانت دائماً تفاخر سورية بإخضاع إرادة الفلسطينيين لمشيئتها، وكنتيجة لذلك إملاء سياسة عليهم تخدم في نهاية المطاف المصلحة القومية السورية. ولذلك وجد الفلسطينيون، ولازالوا يجدون، صعوبة في الموافقة على ذلك.

وهكذا، وفي لحظة صفاء حلت عليهم في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، لم يستطع السوريون والفلسطينيون التخلص من العداء والريبة المتبادلة التي ميّزت علاقاتهم في الماضي. إذ اشتبه الفلسطينيون أن سورية معنيّة فقط بأن تبسط جناحيها عليهم وأن تجردهم من استقلالية القرار، الأمر الذي يمكن أن يحولهم إلى أداة في يدها لتحقيق أهدافها، سواء في ما يتعلق بإعادة هضبة الجولان أو في ما يتعلق بتحقيق مكانة ريادية لها في العالم العربي. أما السوريون من جهتهم فقد خشوا في أن يكون عرفات يريد تحسين أوراقه التفاوضية مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وأن يُقدم في لحظة على ترك السفينة السورية مقابل استئناف المفاوضات مع إسرائيل.

وكتعبير واضح عن التدهور الشديد في العلاقات السورية - الفلسطينية تمكن الإشارة إلى أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وهو الوقت الذي جرى فيه، وبكثير من الجهد، وبعد تأخيرات عديدة، الإعداد لزيارة ياسر عرفات إلى دمشق. وكان من المقرر أن تكون هذه الزيارة الأولى من نوعها منذ وفاة حافظ الأسد في حزيران/يونيو ٢٠٠٠، عندما فرض عرفات نفسه على السوريين، وعلى ما يبدو على خلاف رغبتهم، للمشاركة في تشييع الزعيم الراحل. (خلال مراسم الحداد التقطت صور لعرفات وهو يعانق ويقبل وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس الذي وصفه قبل عام من ذلك بـ "ابن ستين ألف عاهرة".[٣٧]

وقد استغرق الأمر أكثر من عام منذ اندلاع انتفاضة الأقصى حتى أصبح

(٣٧) سانا، ١٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. للإطلاع على أقوال طلاس عن عرفات أنظر وكالة الأنباء الفرنسية، ٢ آب/أغسطس ١٩٩٩.

السوريون جاهزين لاستقبال عرفات في دمشق، أو كما أوضح فاروق الشرع: "إذا كان هدف عرفات الحصول على صورة مشتركة مع قادة سورية، فلا يوجد داع ليتعب نفسه بزيارة دمشق، ذلك أن بإمكانه أن يجد الكثير من تلك الصور في الأرشيف".(٣٨) وتم في نهاية المطاف ترتيب الزيارة، إلا أنه وبالقرب من موعدها وقع الهجوم على الولايات المتحدة في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والذي ارتأى عرفات في إثره أنه سيحسن صنعا إذا استأنف المفاوضات مع إسرائيل، ويبتعد عن سورية، التي يوجد في الولايات المتحدة من يرى فيها الرافد الأعرق لمحور الشر في المنطقة.

وقد اتضح لسورية عندها أنه وفور إنهاء زيارته المزمعة إلى دمشق في ٢٥ أيلول/سبتمبر فإنه من المحتمل أن يلتقي عرفات وزير الخارجية شمعون بيريس، وأن يوقع معه على اتفاق لوقف إطلاق النار واستئناف المفاوضات، وحتى أنه طلب من أجل هذا اختصار زيارته إلى العاصمة السورية. وكرد على ذلك سارع السوريون إلى إلغاء زيارة عرفات بدون سابق إنذار وذلك بعد أن تركوه ينتظر عدة ساعات في مطار عمان من أجل الحصول على إذن تحليق من السلطات السورية".(٣٩) وكان الرد الفلسطيني عنيفا جداً. إذ كتبت صحيفة **الحياة الجديدة**، لسان حال السلطة الفلسطينية، إن "الشعب الفلسطيني لن يوافق على أن يعامله حاكم شاب وعديم التجربة، بنظرة الوصي، تعامله مع شيء عديم القيمة".(٤٠) وحتى أن أمين عام مجلس الوزراء الفلسطيني طيب عبد الرحمن قال إن الشعب الفلسطيني ليس مستعداً لسماع المواعظ الأخلاقية من دولة تقيم منذ ٣٥ عاماً وقف إطلاق نار مع إسرائيل في الوقت الذي تحتل فيه قسماً من أراضيها".(٤١)

وقد وجد موقف سورية العدائي تجاه عرفات وجماعته تعبيراً عنه أيضاً عندما

---

(٣٨) التلفزيون المصري، ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠١.

(٣٩) أنظر قناة تلفزيون أبو ظبي، ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠. راديو مونت كارلو، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. **هآرتس**، ٢٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

(٤٠) **الحياة الجديدة**، ٢٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

(٤١) راديو ص وت فلسطين، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

أدارت دمشق ظهرها للسلطة الفلسطينية خلال عملية "السور الواقي" في نيسان/أبريل ٢٠٠٢، وبعد ذلك، خاصة منذ أن تزايد الضغط الأمريكي الأوروبي على السلطة الفلسطينية لتنفيذ إصلاحات بنيوية واقتصادية لإبعاد عرفات عن موقع التأثير. وقبل ذلك امتنع السوريون أيضاً، ولخيبة أمل الفلسطينيين الواضحة ومفاجأة المراقبين الأجانب، العرب والأوروبيين على حدّ سواء، عن تأييد قرار مجلس الأمن ١٣٧٩ (آذار/مارس ٢٠٠٢)، والذي ذكر، وللمرة الأولى، وفي إعلان رسمي وملزم، ضرورة إقامة دولة فلسطينية. ورغم أن السوريين ادعوا أنهم رفضوا القرار لأنه لم يكن حازما بما فيه الكفاية، إلا أن الحقيقة بأن السوريين قد امتنعوا عن تأييد إقامة دولة فلسطينية بشكل علني بقيت على حالها، وبذلك أعطت تعبيراً عن التحفظ، الممتد على مدى سنوات على فكرة الاستقلالية الفلسطينية، وخاصة عندما تكون هذه الاستقلالية بعيدة عن الرعاية السورية.[٤٢] وفي أعقاب ذلك أعلنت سورية عن معارضتها لنبوءة الرئيس بوش للسلام في الشرق الأوسط والتي أعلنها في حزيران/يونيو ٢٠٠٢، وبعد ذلك بعام معارضتها لـ "خارطة الطريق" التي أعلنتها "اللجنة الرباعية" بشأن دفع السلام الإسرائيلي الفلسطيني. وفي أعقاب الحرب على العراق طرأ بعض اللين على الموقف السوري، وأعلنت دمشق مرة أخرى أنها لا تعارض"خارطة الطريق" مع أنها لا تؤيدها.

إن كل متابع لحالات المد والجذر في العلاقات الفلسطينية السورية لن يفاجأ بكل تأكيد من الأقوال التي قالها بشار لرئيس الحكومة الإيطالية، سيلفيو برلسكوني، خلال الزيارة التي قام بها الرئيس السوري إلى روما في شباط/فبراير ٢٠٠٢، وأجمل بها علاقته بعرفات بجملة واحدة: "إن عرفات كذاب لا يمكن الوثوق بكلمة واحدة تخرج من فمه، وعلى الأوروبيين أن لا يخلطوا بين تأييد عرفات وتأييد القضية الفلسطينية. وبالنسبة لنا فإن عرفات هو جثة تمشي، وحقيقة هي أن الفلسطينيين والإسرائيليين، على حدّ سواء، يريدون موته".[٤٣]

---

(٤٢) **هآرتس**، ١٤ آذار/مارس ٢٠٠٢. **الحياة**، ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٢. **تشرين**، ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(٤٣) وكالة رويترز، ٢١ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

فلا عجب إذاً أن سورية قد استمرت في تقديم الدعم لمنظمات الرفض الفلسطينية، والتي وجد بعضها الملجأ في دمشق. فإلى جانب المكاتب الإعلامية لحركة حماس توجد في العاصمة السورية قيادات عدد من تنظيمات الرفض البارزة، ومن بينها الجهاد الإسلامي بقيادة رمضان شلح، وكذلك الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة بقيادة أحمد جبريل، وكذلك يوجد في دمشق بشكل دائم نايف حواتمة الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. وجورج حبش الأمين العام السابق للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

لقد أدى وجود تلك المنظمات في العاصمة السورية أكثر من مرة إلى إرباك لها بسبب تورطها [المنظمات] في علميات إرهابية ضد إسرائيل. وفي أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لمح السوريون إلى أنهم جاهزون في للبحث في وقف نشاطها، وحتى أنه أُقتبس عن وزير الخارجية فاروق الشرع قوله: "يمكن للمقاومة أن تأخذ، بين الفينة والأخرى، وقفة في نضالها [ضد إسرائيل]"(٤٤) (أنظر الفصل السابع). ولكن السوريين عادوا وأوضحوا أن تأييدهم للمنظمات الإرهابية هي بالنسبة لهم خط لا يمكن تجاوزه، ويبدو أنهم أرادوا عن طريق استمرار نشاطها على الأراضي السورية – وخاصة السياسي إلى الجانب العسكري – ضمان بقاء نوع من التأثير السوري على الساحة الفلسطينية، وخاصة في عهد ما بعد الغياب المرتقب لعرفات، وربما انهيار السلطة الفلسطينية.(٤٥)

يبدو أن تغييراً قد طرأ على السياسة السورية، كما سبق وذكرنا، في أعقاب احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة وفي ظل الطلب الأمريكي الواضح بإغلاق مكاتب المنظمات العاملة في دمشق. صحيح أن بشار قد وعد خلال لقائه مع وزير الخارجية الأمريكي كولن باول في بداية شهر أيار/مايو ٢٠٠٣ بأن تغلق سورية المكاتب، وأنه قد أُفيد من دمشق أن السوريين قد توجهوا بطلب إلى المنظمات الفلسطينية بتخفيض حجم نشاطها، إلا أنه اتضح عملياً أنها عادت لمزاولة نشاطها

---

(٤٤) **هآرتس**، ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

(٤٥) أنظر أقوال بشار الأسد في مقابلة مع صحيفة **التايمز**، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

خلال أسابيع معدودة. وقد ادعت مصادر سورية، بعد فوات الأوان، أن بشار لم يَعد أبداً باول بإغلاق مكاتب المنظمات الفلسطينية، وحتى أنه وصف المطالب الأمريكية بأنها "لا يمكن لعقل قبولها".(٤٦)

لقد وضع استئناف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، بعد الحرب على العراق، السوريين أمام معضلة ليست سهلة. فهم من جهة وجدوا صعوبة في إخفاء معارضتهم لهذا التقدم في الوقت الذي بقي فيه مسار السلام السوري الإسرائيلي جامداً، ومن ناحية أخرى تَمَلَّكَتهم الخشية من رد واشنطن في حالة أرادوا التخريب على جهودها للدفع باتجاه الاتفاق. بالإضافة إلى ذلك، هم حاولوا إبقاء الباب مفتوحاً لاحتمال استئناف المفاوضات السورية الإسرائيلية. لقد امتنع السوريون إذاً عن مهاجمة السلطة الفلسطينية ورئيس الحكومة محمود عباس (أبو مازن) على إدارة المفاوضات مع إسرائيل، وحتى أن وزير الخارجية السوري بارك التوصل إلى وقف إطلاق النار بين الفصائل الفلسطينية المختلفة: "إن سورية تبارك كل اتفاق يتوصل إليه الفلسطينيون، ويكون من شأنه تقوية وحدهم. إن مثل الاتفاق يمكن أن يشكل دعامة في بناء الوحدة الوطنية الفلسطينية، والتي سيكون من الصعب، بدونها، وحتى من المستحيل، التوصل إلى سلام".(٤٧)

ولكن لم تخفِ سورية بعد ذلك امتعاضها من المصاعب التي انجرفت إليها المفاوضات الإسرائيلية – الفلسطينية. وقد أوضح بشار بنفسه، في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، أنه يجب عدم التعجب من فشل "خارطة الطريق" إذ إن هذه المبادرة "ولدت ميتة".(٤٨) ومنذ أن أعلنت إسرائيل عن نيتها طرد ياسر عرفات من مناطق السلطة الفلسطينية أُعلن في دمشق عن إجراء محادثة هاتفية بين الزعيم الفلسطيني وبين وزير الخارجية السوري. ومع ذلك، أكدت مصادر سورية

---

(٤٦) أنظر قناة تلفزيون الجزيرة، ٤ تموز/يوليو ٢٠٠٣. وانظر كذلك المقابلة التي أجراها فاروق الشرع مع الصحفيين، وكالة رويترز، ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٤٧) سانا، ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(٤٨) أنظر مقابلة بشار الأسد لصحيفة **الحياة**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

أن عرفات هو من بادر إلى إجراء المكالمة، وإن فاروق الشرع أعرب خلالها عن "التضامن والوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني"، ومعنى هذا أنه امتنع عن الإعراب عن تأييد ياسر عرفات شخصياً.(٤٩) ويبدو إذاً أن العلاقات السورية الفلسطينية ستستمر بالانتقال من أزمة إلى أخرى، بسبب المصاعب، وربما بسبب انعدام الرغبة الحقيقية لدى الطرفين لجَسْر الخلافات والوصول إلى حوار حقيقي.

بشار، الولايات المتحدة والحرب ضد الإرهاب والعراق

لقد فتحت العمليات الإرهابية التي قام بها تنظيم القاعدة في واشنطن ونيويورك في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فتحت باب عصر جديد في العلاقات السورية الأمريكية، ووضعت، للوهلة الأولى الدولتين على مسار تصادمي. ورغم أنه كان يلاحظ أن واشنطن ودمشق غير راغبتين بهذا الصدام، إلا أنه لم يكن واضحاً من البداية إذا ما كانتا على استعداد لفعل كل ما في مستطاعهما لتجاوزه.

وجدير بالذكر أن العلاقات بين سورية بشار وبين الولايات المتحدة بدأت منذ البداية بالقدم اليسرى، وإن بذور الأزمة كانت قد برزت قبل الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بكثير. ويذكر أيضاً، أن رئيس الولايات المتحدة السابق، بيل كلينتون، ولخيبة أمل السوريين الواضحة، امتنع عن الاشتراك في مراسم تشييع حافظ الأسد ومثلت الإدارة الأمريكية في نهاية المطاف وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت. وقد اتهم وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس مساعدي ومستشاري كلينتون بأنهم منعوه من المشاركة في التشييع وذلك خلافا لرغبته، ذلك أن الرئيس الأمريكي كان يكن التقدير، وحتى المودة، لرئيس سورية الراحل، (٥٠) إلا أن ذلك كان بمثابة إشارة تحذير لبشار لجهة التدهور الشديد الذي وصلت إليه العلاقات السورية الأمريكية. ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه خلال الشهور الأولى لصعود بشار

(٤٩) سانا، ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(٥٠) وكالة الأنباء الفرنسية، ١٧ حزيران/يونيو. راديو الشرق، ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

إلى السلطة كان الأمريكيون غارقون في محاولة دفع المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، ولذلك، وربما يكون للأمر أسباب أخرى، لم يخرج الأمريكيون عن طورهم بضم الحاكم الشاب في دمشق إلى صدرهم. وهذا على تناقض فاقع مع سياسيين أوروبيين الذين سارعوا بالمبادرة إلى إغداق الثناء على بشار وذلك على أمل أن يحثوه باتجاه تطبيق الإصلاحات في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي ستغير الواقع السوري من الأساس.

وفي أعقاب اندلاع انتفاضة الأقصى واستئناف نشاطات حزب الله على حدود إسرائيل الشمالية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، تم الرد على الطلب الأمريكي من بشار للعمل على تهدئة الأجواء بعدم الإكتراث. وحتى أن بشار، مع مرور الوقت، تفاخر بأنه أجرى مكالمة هاتفية صعبة مع كلينتون، والتي رفض خلالها طلب الرئيس الأمريكي للعمل على كبح حزب الله. وأضاف بشار إنه منذ أن وصل إلى القاهرة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، من أجل المشاركة في مداولات القمة العربية، نقل إليه كلينتون طلبا حازما لتليين الخطاب الذي ينوي إلقاءه، ولكنه اختار أن يزيد من حدة أقواله وشدة لهجتها.(٥١) وعلى هذه الخلفية بات من الواضح كيف جرى اللقاء بين بشار ووزيرة الخارجية الأمريكية أولبرايت في الرياض في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، والذي جرى فور انتهاء أعمال القمة العربية في القاهرة، وكان بمثابة الاتصال الشخصي الأول بين الرئيس السوري وبين مسؤول أمريكي رفيع، حيث وُصف اللقاء بأنه حوار طرشان، ووفق مصادر أمريكية فقد عامل بشار الوزيرة أولبرايت باستخفاف، وعاد ورفض بشكل حازم طلب واشنطن بأن تلعب سورية دوراً مسؤولا وضابطا على الحدود الإسرائيلية - اللبنانية.(٥٢)

فوز جورج بوش الابن في الانتخابات التي جرت في الولايات المتحدة في

---

(٥١) أنظر مقابلة بشار الأسد مع ص حيفة **القدس العربي**، ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٥٢) وكالة رويترز، ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. وكالة الأنباء الفرنسية، ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. وانظر أيضاً **لوس انجلس تايمز**، ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، أُستقبل بداية الأمر في دمشق بالحماس وذلك في ضوء الذكريات الطيبة التي كانت للسوريين من عهد إدارة بوش الأب. وسارعوا في دمشق إلى الإعراب عن أملهم في أن يتبنى الرئيس الجديد إدارة مختلفة تجاه الشرق الأوسط. ولكن لُمس في الوقت نفسه شك لجهة قدرته على تغيير السياسة التقليدية للولايات المتحدة تجاه المنطقة من أساسها. وهكذا كتبت صحيفة **البعث**: إن السؤال المطروح هو "هل سيكون الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة الأمريكية مختلفا عن الذي سبقه أو عن الذي سيأتي بعده؟ وهل سيستمر اليهود الذين يشكلون ١% فقط من مجموع سكان الولايات المتحدة في أن يكونوا أصحاب القرار السياسي داخل هذه الدولة العظمى التي تسيطر على العالم اليوم؟ وهل ننجرف مرة أخرى إلى حالة من عدم الاستقرار وفقدان التوازن نتيجة لكون الرئيس الأمريكي غير مؤهل لتطبيق السياسة التي يؤمن بها، ذلك لأنه سيخوض بعد أربعة أعوام المنافسة مرة أخرى من أجل الفوز بولاية ثانية في البيت الأبيض، وهو لذلك يعرف أنه سيكون بحاجة إلى أصوات اليهود مرة أخرى؟[٥٣] وأضافت الصحيفة "إن الفرق بين أسلوب المرشحين تجاه الشرق الأوسط يُختصر بقضية الدرجة التي هم على استعداد للذهاب إليها لخدمة إسرائيل من أجل الفوز برضا اللوبي الصهيوني، الذي يمتلك تأثيرا كبيرا في كل حملة الانتخابات في الولايات المتحدة ".

وبالفعل، فقد أدرك السوريون خطأهم بسرعة واكتشفوا أنه في كل ما يتعلق بإظهار الصداقة تجاه إسرائيل، والحزم، وحتى العداء، تجاه سورية، فإن إدارة بوش الجمهورية قد فاقت سابقتها الديمقراطية. وقد سارع وزير الخارجية السوري فاروق الشرع إلى التحذير من أن "التحالف بين اليمين المتطرف في الولايات المتحدة واليمين المتطرف في إسرائيل هو تحالف شيطاني".[٥٤]وقال في سياق الكلام أيضاً إن "الإدارة الأمريكية الحالية هي الأكثر رعونة وسوءاً بين كل الإدارات

(٥٣) **البعث**، ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(٥٤) مقابلة فاروق الشرع مع ص حيفة **الأسبوع** المصرية، ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً **هآرتس**، ٢، ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٣.

الأمريكية". وحتى أن بشار نفسه قال لصحيفة **تايمز** البريطانية إن "الولايات المتحدة واقعة تحت تأثير إسرائيل" وإنه "عندما تنجح الإدارات الأمريكية في التخلص من هذا التأثير يمكن دفع علاقات دمشق مع واشنطن".(٥٥) وبعد ذلك قال بشار خلال حديث مغلق أجراه مع أعضاء من البرلمان البريطاني خلال زيارته إلى لندن في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، إن "البيت الأبيض وطاقم بوش يغصان بالأصوليين المسيحيين المتطرفين، وإن المسيحية [الأصولية] هي عنصر متطرف وتشكل خطراً على السلام العالمي".(٥٦)

العامل الأول في المواجهة الآخذة في التشكل بين الولايات المتحدة وبين سورية بدأ قبل العمليات الإرهابية أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وتمثل في العلاقات التي بدأت بالتطور بين دمشق وبغداد. ففي خريف ٢٠٠٠ بدأ العراقيون بتصدير النفط إلى سورية عبر خط النفط كركوك بانياس. وكان هذا الخط قد أغلق في عام ١٩٨٢ من قبل السوريين بسبب الخلاف الذي نشب آنذاك بينهم وبين العراق في أعقاب تأييد دمشق لطهران في الحرب العراقية الإيرانية. وبدءا من عام ١٩٩٧، عندما أعاد السوريون الدفء إلى علاقاهم مع بغداد، بدأ العراقيون يضغطون من أجل فتح أنبوب النفط من جديد وحتى أنهم اقترحوا مد خط نفط جديد يُمكّن من زيادة كمية النفط التي يستطيع العراق تصديرها في المستقبل عبر سورية.

وفي خريف عام ٢٠٠٠ سمح السوريون، كما سبق وذكرنا، للعراق، وبحكم المؤكد لأسباب اقتصادية، بضخ النفط بحجم تراوح بين ١٥٠,٠٠٠ - ٢٠٠,٠٠٠ برميل يومياً. وقد وُجِّه النفط الذي بيع للسوريين بسعر مخفض للاستهلاك المحلي، الأمر الذي مكّن دمشق من زيادة كمية النفط، من إنتاجهم، والمخصصة للتصدير.(٥٧) وتجدر الإشارة إلى أن المعطيات في شأن الزيادة التي

---

(٥٥) **تايمز** ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٥٦) **هآرتس**، ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٥٧) **الزمان**، ٥ أيار/مايو ٢٠٠١. **ميدل إيست ميرور**، ٢٠ آب/أغسطس ٢٠٠١. وكالة رويترز، ٢٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. وانظر أيضاً CR. Syria-2001, Vol. 2. pp. 2-4: 2002. Vol. 1, pp. 2-5.

طرأت على حجم تصدير النفط السوري في خريف ٢٠٠٠، مقابل الانخفاض في الإنتاج العام للنفط في سورية، والذي كان واضحاً للجميع، لم يكن بالإمكان تفسيره سوى بضخ النفط من العراق إلى سورية. وقد سارعت واشنطن للاحتجاج لدى دمشق على هذا الخرق الفظ للعقوبات المفروضة على العراق، ولكن بشار أوضح في الرد إلى وزير الخارجية الأمريكي كولن باول، وبعد ذلك للرئيس بوش نفسه، إن ضخ النفط العراقي يأتي في إطار الفحص التقني لخط النفط الذي أغلق حوالى عقدين، وأنه عندما ستنتهي عملية فحص الخط سيصار إلى وقف تدفق النفط".(٥٨)

العامل الثاني في المواجهة الأمريكية السورية كان تأييد سورية للإرهاب الفلسطيني، بالإضافة إلى التشجيع والدعم الذي منحه لحزب الله. ونُذكّر أن الولايات المتحدة قد امتنعت عن إدانة إسرائيل بسبب مهاجمتها لمواقع الرادار السورية في لبنان في نيسان/أبريل وتموز/يوليو ٢٠٠١، رداً على مهاجمة حزب الله لمواقع جيش الدفاع الإسرائيلي في منطقة مزارع شبعا (جبل دوف). وفي ظل هذا الوضع اختارت الولايات المتحدة أن تلقي بمسؤولية تدهور الوضع على الحدود الإسرائيلية – اللبنانية على سورية، وذلك بسبب رفض سورية لجم نشاط حزب الله (أنظر الفصل السابع).(٥٩) كما أدانت وزارة الخارجية في واشنطن أقوال بشار خلال استقباله للبابا في دمشق في أيار/مايو ٢٠٠١، في إدانة الذهنية الخيانية لليهود. وقد وصف الناطق باسم وزارة الخارجية الأمريكية الأقوال بأنها "خاطئة ولا يمكن القبول بها"، وأعرب أيضاً عن أمله أن "تتمكن الولايات المتحدة في المستقبل من إقامة علاقات عمل مع الرئيس السوري الشاب". وفي رد على ذلك اُستدعيَ سفير الولايات المتحدة في دمشق وسلمت إليه رسالة احتجاج سورية على "التفسير المشوه الذي أعطاه الأمريكيون لأقوال الرئيس بشار، وهو التفسير النابع عن الجهل وعدم الإلمام بالحقائق، ذلك أن

---

(٥٨) **القدس العربي**، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً أقوال بشار في مقابلة مع صحيفة **التايمز**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. وكذلك **السفير**، ١٥ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

(٥٩) وكالة رويترز، ١٧ نيسان/أبريل ٢٠٠١، ٢ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

بشار الأسد لم يذكر أبداً اليهود في خطابه بل هاجم إسرائيل".[60]

لكن، وكما قلنا سابقاً، كانت الأعمال الإرهابية التي نفذها تنظيم القاعدة هي التي دفعت العلاقات السورية الأمريكية إلى طريق مسدود، رغم أن السوريين سارعوا لإدانتها، وحتى أن الرئيس بشار دعا في رسالة التعزية، التي بعث بها للرئيس بوش، إلى "تعاون دولي لاجتثاث آفة الإرهاب من جذورها وبذل النشاط الدؤوب للدفاع عن حقوق الإنسان في الحياة بسلام وأمن".[61]

وكما كنا قد أشرنا سابقاً، فإن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أعادت، بالنسبة للكثيرين في سورية وخارجها، التذكير بانهيار الاتحاد السوفييتي في بداية التسعينيات، وهو الحدث الذي شكل في ذلك الوقت تهديداً حقيقياً على النظام السوري. ومع ذلك، يبدو أن الدمج بين وزير الخارجية السوري - صاحب التجربة الواسعة من مناورات التهرب الناجحة للأسد الأب مقابل الولايات المتحدة في التسعينيات - وبين الرئيس السوري الشاب - الذي تعوزه التجربة في مجال السياسة الخارجية ويميل للكشف عن جرأة تجاه الولايات المتحدة - دفع دمشق في البداية إلى تبني التقليل من أهمية أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ورفض أي طلب من جانب واشنطن لتغيير سياستها الخارجية تجاه العراق، وكبح الإرهاب الفلسطيني وإرهاب حزب الله ضد إسرائيل.

ونجد التعبير عن هذا في أقوال فاروق الشرع للتلفزيون المصري في بداية عام ٢٠٠٢: "إن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أخافت العرب دون أي مبرر. وقد وصل ذلك إلى درجة أن العرب بدأوا يخافون إبداء رأيهم... وكان هناك من بيننا من خاف أن تقوم الولايات المتحدة في المستقبل بإغراق العالم أو باستخدام سلاح الإبادة الجماعية انتقاما على ما حدث في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وقد اعترفوا أن الولايات المتحدة قد فقدت صوابها وأنها من الممكن أن تتصرف بشكل غير منضبط وحتى ضد دول حليفة لها.

---

(٦٠) وكالة رويترز، ٧ أيار/مايو ٢٠٠١. راديو دمشق، ٨ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٦١) **تشرين**، ١٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ولكن ومع مرور الزمن تقلص الخوف وبدأ العالم العربي يميّز اليوم بين الخيـــال الجامح وبين الواقع"، وأضاف الشرع إنه "إذا كان هناك عـــرب يعتقـــدون أن العالم العربي قد أقر بالهزيمة، فإن أساس هذا الإحساس يعود إلى مـــا يجـــري في العالم العربي وليس بالتحديد إلى التحديات التي تواجهه من الخارج. وعلى أية حال علينا أن نكون متحدين مقابل الولايات المتحدة. هذا هو موقف ســـورية وأنا آمل أن يصبح موقف كل العرب".(٦٢)

بشار نفسه تطرق إلى هذه القضية بشكل موسع خلال خطابه الذي ألقاه أمام المشاركين في مؤتمر القمة العربية في آذار/مارس ٢٠٠٢ في بيروت، عندما قـــال إن "[أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر] حولت العالم، الذي لم يكن متوازنا من البداية، إلى عالم فقد حكمته ومنطقه... وانتشر الخوف في كل مكان وسيطر علينا نحن العرب أيضاً بدون مبرر، أو بشكل أدق سيطر على بعضنا. وكان من بيننا من ذهب إلى أبعد من ذلك إلى درجة أنه لو كان الأمر بيدهم لغيروا هويتهم وتحولـــوا عن دينهم. بينما أبدى آخرون استعداداً للتنازل عن حقوقنا بدعوى أن هذا هـــو الطريق لوقف العاصفة. لقد اعتقدوا إنه إذا انحنوا أمام العاصفة فهي ســـتتجاوزهم. ولكن على هؤلاء أن يدركوا أن هناك فرق بين الانحناء أمام العاصفة وبين اقـــتلاع الغرسة من جذورها حتى قبل وصول العاصفة. حيث أنه إذا قطعنا جذورنا سيكون بوسع الرياح الخفيفة جداً أن تحملنا إلى المجهول. فعندما تهـــب العواصـــف علـــى التمسك بمبادئنا، التي هي جذورنا، إذ أننا سنحتاجها بعد أن تتوقـــف العاصـــفة. حيث أننا شعوب أيديولوجية نعيش على مبادئنا ولا نستطيع تغيير رأينا مع كل هبة ريح كما يفعل الآخرون...

"لقد كان هناك من طلب منا التزاما لمحاربة الإرهاب. وكأنه لا يكفي كـــل النضال الذي بذلناه ضد الإرهاب على مدى تاريخنا لنثبت أن العـــرب يرفضـــون الإرهاب، وعملياً هم أول من ناضل ضده. بالإضافة إلى ذلك، فإن الغرب هو من هيّأ تربة خصبة للإرهاب. فهو من أتاح نقل الأمـــوال إلى الإرهـــابيين، وســـهل

---

(٦٢) التلفزيون المصري، القناة القضائية، ٢٧ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

نشاطاتهم الإعلامية ومكنهم من نشر سموم الإرهاب بين بني البشر... [الأمريكيون] يعرفون جيداً أن الإرهاب لم ينبت في منطقتنا، بل في مناطق أخرى. ولكن في بعض الأحيان تقود الصدمة إلى نتائج خاطئة وتؤدي إلى فقدان الصواب. ومن المحتمل أن يكون من الصعب عليهم أن يُقِرّوا بأن العرب، في هذا الموضوع، قد سبقوهم. ولكنهم [الأمريكيين] بدأوا الآن يحددون لنا من هو الإرهابي من بيننا ومن هي الدولة الإرهابية".(٦٣)

ومع ذلك، أقر بشار بضرورة تقليص الأضرار التي لحقت بسورية جراء العمليات الإرهابية التي قام بها أسامة بن لادن إلى أدنى حدّ ممكن. وقد اختار، كما سبق وذكرنا، أن يتنصل من العمليات وأن يدينها، وحتى أنه أظهر استعداداً لتقديم العون للولايات المتحدة في جهودها للكشف عن الذين يقفون خلفها. وبالفعل، فقد وصل عملاء أمريكيون إلى سورية في بداية عام ٢٠٠٢ للتحقيق في موضوع عناصر ابن لادن الذين أقاموا في سورية، أو الذين كانوا على علاقة مع مواطنين سوريين. وذُكر من بين هؤلاء محمد عطا، الذي ترأس منفذي العمليات في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. ومن بين الكادر المالي في تنظيم القاعدة مأمون الدركزلي، وهو من مواليد سورية وكان قد اعتقل في ألمانيا. وبعد ذلك اعتقل السوريون محمد حيدر زمار، وهو مواطن ألماني من مواليد سورية، والذي قام، على ما يبدو، بتجنيد محمد عطا في تنظيم القاعدة.(٦٤)

لقد أقر الأمريكيون بجميل المساعدة السورية وحتى أن الرئيس بوش اتصل هاتفياً مع الرئيس الأسد من أجل شكره على ذلك. كما اُقتبس عن مسؤولين أمريكيين كبار قولهم إن المعلومات التي قدمتها سورية مكّنت من إحباط هجمات على أهداف أمريكية، وبذلك أنقذت حياة الكثير من الأمريكيين.(٦٥) ولكن يبدو

(٦٣) **تشرين**، ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(٦٤) راديو مونت كارلو، ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. **الحياة**، ٢١ نيسان/أبريل، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **واشنطن بوست**، ٢٥ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

(٦٥) أنظر رسالة جورج بوش إلى بشار الأسد بمناسبة عيد الأضحى لدى المسلمين. **الوطن**، ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٢. وكذلك **واشنطن بوست**، ٢٥ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

أن المساعدة السورية كانت من نمط الكشف عن القليل وإخفاء الكثير. صحيح أنه لم يكن للسوريين مصلحة في تحقيق مصالح ابن لادن، وامتنعوا عن بث أشرطة الفيديو التي نشرت من قبله في قناة **الجزيرة**، لكنهم فعلوا ذلك خشية ألاّ يحرضوا أوساط إسلامية مختبئة داخل سورية، وخشية أن ينتفض هؤلاء ضد النظام السوري نفسه.(٦٦) وفي الوقت نفسه اختار السوريون ولفترة طويلة تجاهل وجود عناصر ابن لادن في سورية، وربما أيضاً عناصر إسلامية أخرى متورطة بالإرهاب. والحقيقة أن نجوى، زوجة ابن لادن من أصل سوري، وابنه عمر، والعديد من أبناء العائلة، ونشطاء آخرون في التنظيم الإرهابي، أقاموا في اللاذقية حتى أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وربما أيضاً إلى ما بعد ذلك. وعلى هذه الخلفية من المناسب أيضاً الإشارة إلى التقرير الذي نُشر في وسائل الإعلام الإسرائيلية والذي أفاد بأن السوريين قد سمحوا لحوالى ١٥٠ من نشطاء التنظيم الإقامة في مخيمات اللاجئين في لبنان وذلك بعد سقوط أفغانستان في أيدي الولايات المتحدة. إلا أن السوريين سارعوا كالعادة إلى تكذيب ذلك.(٦٧)

وبالإضافة إلى ذلك حرصت سورية على تطوير علاقاتها مع أعضاء آخرين في "محور الشر" حسب وصف الرئيس بوش، والذي يضم كوريا الشمالية وإيران وحزب الله والعراق. وقد احتل مكان الشرف في قائمة الأشخاص الاثنين والعشرين المطلوبين من قبل الـ "إف بي آي" عماد مغنية، الذي كان متورطاً في علميات إرهابية ضد أهداف أمريكية في لبنان، وإلى جانبه اثنين من نشطاء المنظمة. هؤلاء يعملون، كما هو معروف، بشكل علني في لبنان وتحت العيون السورية المفتوحة. وبالمناسبة، فإنه ومنذ أن سلم مساعد وزير الخارجية الأمريكية وليام بيرنز هذه القائمة لبشار سارع السوريون إلى تكذيب أن يكون في حوزتهم أية معلومات عن مكان تواجد مغنية وأصدقائه".(٦٨)

---

(٦٦) وكالة رويترز، ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١.

(٦٧) **هآرتس**، ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. **يديعوت احرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٦٨) **الحياة**، ٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **السفير**، ٣ آذار/مارس ٢٠٠٢.

ولا غرابة إذاً أن يصرح رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأمريكي في واشنطن بيل غراهام، الذي زار سورية في شتاء ٢٠٠٢ حيث التقى بشار، لدى عودته إلى واشنطن، بأن سورية قد تعاونت في مكافحة الإرهاب مع الولايات المتحدة، إلا أنه لا يمكن الإنكار بأنها تشكل مصدرا لعدد من المشاكل في مجال الإرهاب التي نواجهها. ولمفاجأة، ولخيبة أمل السوريين، اُقتبس عن غراهام قوله وكأنه يوصي، في حالة الضرورة، بضرب قواعد لحزب الله ولمنظمات إرهابية أخرى في سورية ولبنان.(٦٩) كما سُمعت تهديدات ضد سورية من قبل مساعد وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج والتي قال فيها إنه لا يستبعد إمكانية استخدام القوة ضد سورية بسبب دعمها للمنظمات الإرهابية.(٧٠) وحتى أن أرميتاج وصف بعد ذلك حزب الله بأنه زعيم التنظيمات الإرهابية"، وبأن للولايات المتحدة حسابا معه والذي ستقوم بتصفيته عاجلاً أم آجلاً.(٧١)

ودأبت سورية على متابعة التقارير السنوية التي تصدرها وزارة الخارجية في واشنطن حول الإرهاب العالمي. وقد عاد الأمريكيون وادعوا في تلك التقارير أن سورية تقدم المساعدة والملاذ للمنظمات الإرهابية، ورد السوريون على ذلك بالقول إن ذنبهم الوحيد هو أنهم يقدمون الدعم للمقاومة المشروعة للفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلي وإن سورية غير متورطة البتة في أعمال إرهابية.(٧٢) وقد أوضح بشار نفسه إن "هذا التقرير هو تقرير سياسي لا يوجد بينه وبين الإرهاب أي رابط. وقد سألت قبل عدة أعوام واحداً من الزعماء الأمريكيين الذين زارونا هل يعتقد بأن سورية دولة إرهابية وكان جوابه لا. وعندما أضفت وسألت لماذا إذا ذُكرت سورية في التقرير حول الإرهاب الذي

(٦٩) سانا، ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. **الخليج**، ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. وانظر أيضاً قناة تلفزيون الجزيرة، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٧٠) وكالة رويترز، ١١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. قناة الجزيرة الفضائية، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. **الحياة**، ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١.

(٧١) وكالة رويترز، ١٠، ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٧٢) **الحياة**، ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠١. وكالة رويترز، ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٢.

تنشره وزارة الخارجية، فربط ذلك بتوازنات سياسية أمريكية داخلية".(٧٣)

وإلى جانب التركيز الأمريكي على المساعدة التي تقدمها سورية للمنظمات الإرهابية، بدأ مسؤولون أمريكيون كبار بمهاجمة سورية على تسلحها بأسلحة متطورة وغير تقليدية، وبخاصة السلاح الكيميائي والبيولوجي. وقد حذر وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد سورية بألا تواصل تطوير أسلحة كتلك.(٧٤) وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ نُشرت في واشنطن تقارير حول التعاون السوري - الروسي في المجال النووي. وقد تم تكذيب تلك التقارير بشكل قاطع في كل من موسكو ودمشق، وحتى أن السوريين ادعوا أن الحديث يدور عن محاولة أمريكية، وبتشجيع من إسرائيل، لتهيئة الأرضية لتوجيه ضربة محتملة إلى سورية.(٧٥) وفعلاً، وخلال شهادته أمام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكونغرس الأمريكي عشية الحرب على العراق قال وزير الخارجية الأمريكي: "إننا نفتح أعيّننا على الاهتمام السوري بسلاح الإبادة الجماعية ونتعقب الدعم الذي يقدمونه إلى حزب الله. إن تعاونها في الحرب ضد الإرهاب لا يعني أننا سنتراجع عن الانتقادات ضدها بسبب تأييدها للمنظمات الإرهابية. لقد ساعدونا ونحن نقدر ذلك، ولكن هذا لا يمنع عن التجادل وتوجيه النقد لهم".(٧٦)

ويبدو أن انقساما في الرأي ساد في أوساط الإدارة الأمريكية حول الطريقة التي يجب أتباعها تجاه السوريين، وذلك، من بين عدة أسباب، لأن بشار سارع إلى إدانة أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بل حتى أنه، كما سبق وذكرنا، أمر بتقديم المساعدة للولايات المتحدة في نضالها ضد تنظيم أسامة بن لادن. وكان من الواضح أن وزارة الدفاع تقود خطاً متشدداً ضد سورية، فقد كثُرت الأقوال

---

(٧٣) **تايمز**، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٧٤) **الزمان**، ٢٨ تموز/يوليو ٢٠٠١. **الحياة**، ٣١ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٧٥) **البعث**، ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢. **الشرق الأوسط**، ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

(٧٦) وكالة الأنباء الفرنسية، ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **السفير**، ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

الصادرة عنها عن احتمال الإقدام على خطوة عسكرية ضد سورية. بينما فضلت وزارة الخارجية، مقابل ذلك، خطاً معتدلاً يريد إرضاء السوريين وكسب ودهم، بدلاً من ممارسة ضغوط شديدة عليهم.[٧٧]

الكونغرس من جهته استمر في انتهاج خط متشدد ضد سورية، بل وطرح للنقاش في صيف ٢٠٠٢، وبضغط من اللوبي الإسرائيلي في واشنطن (إيباك) واللوبي اللبناني المعادي لسورية في الولايات المتحدة، قانون "محاسبة سورية". وقد شمل هذا القانون توسيع العقوبات المفروضة على سورية بسبب تأييدها للمنظمات الإرهابية وبسبب استمرار تواجد القوات السورية في لبنان. ومن بين أشياء أخرى، حظر اقتراح القانون إقامة علاقة أكاديمية مع مؤسسات تعليمية وثقافية سورية، وحدّ من دخول المواطنين السوريين إلى الولايات المتحدة حتى لغرض الدراسة أو البحث العلمي.[٧٨] وقد سارعت الإدارة في واشنطن إلى ابداء معارضتها لاقتراح القانون، وحتى أن الرئيس بوش أوضح في رسالة بعث بها إلى عدد من أعضاء الكونغرس في صيف ٢٠٠٢ أنه "رغم الخلافات الجدية بيننا وبين سورية، فإن علينا أن نتصرف بحكمة، وأن نستقصي الخيار الأفضل من بين الخيارات المتاحة أمامنا، لخدمة المصالح الأمريكية".[٧٩]أضاف الرئيس إنه يخشى من أن يَحدّ القانون المقترح من قدرة الولايات المتحدة على معالجة الوضع المعقد الذي انجرف إليه الشرق الأوسط. وفقط، في صيف ٢٠٠٣، وفي أعقاب الحرب على العراق والأزمة التي دخلت إليها العلاقات الأمريكية السورية، بدأ تحول في موقف الإدارة حيث أعطت الضوء الأخضر لمبادري القانون. وهكذا، وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣ تمت الموافقة على القانون

---

(٧٧) أنظر على سبيل المثال وكالة رويترز، ٨تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. **نيويورك تايمز**، ١، ٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **الحياة**، ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. **القدس العربي**، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

(٧٨) **ديلي ستار**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٢. مقابلة للمؤلف مع دبلوماسي أمريكي، تل أبيب، ١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٧٩) هآرت، ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٢.

بأغلبية ساحقة. وفي كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه وقع عليه الرئيس بوش.[٨٠]

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن النقاش في الكونغرس دار بعد أن بدأ ادوارد جريجيان، سفير الولايات المتحدة السابق في سورية ورئيس معهد جيمس بيكر في بوسطن، حوارا سورية أمريكياً. وقد جرى اللقاء الأول من هذا الحوار، والذي حظي بمباركة بشار الأسد، في أيار/مايو ٢٠٠٢ في بوسطن. وبعد نصف عام من ذلك أُجرى لقاء آخر في دمشق. ومن بين الذين شاركوا في اللقاء عن الجانب السوري نائب وزير الخارجية والسفير السوري السابق في الولايات المتحدة وليد المعلم، والسفير السوري في واشنطن في ذلك الوقت رستم زعبي، ومترجمة بشار بثينة شعبان. ومن بين الذين شاركوا عن الجانب الأمريكي مساعد وزير الخارجية وليام بيرنز. وقد تميز اللقاء، حسب ما أُفيد، بالصراحة والحميمية، ولكنه لم يثمر عن أية نتائج".[٨١]

وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ اختيرت سورية عضواً غير دائم لمدة عامين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عن دول غرب آسيا. وقد حظيت سورية على تأييد ١٦٠ من أصل الدول ١٧٧ الأعضاء في الأمم المتحدة، وحتى على تأييد صامت من قبل واشنطن، وذلك على أمل، وفق ما أوضحه متحدثون أمريكيون، أن يدفع هذا الأمر دمشق إلى إظهار خط أكثر اعتدالاً ومسؤولية مقارنة بالماضي.[٨٢] أما سورية فقد رأت باختيارها كعضو دائم في المجلس إنجازاً، يمثل حسب صحيفة **تشرين** الناطقة باسم النظام "إثباتا على استعداد المجتمع الدولي للقبول بمواقف سورية، وهو تعبير عن الاحترام الذي يكنه لها، واعترافا بدورها الذي تلعبه في المنطقة".[٨٣]

---

(٨٠) **الحياة**، ١٦، ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٨١) أنظر أيضاً **الحياة**، ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. سانا، ٦، ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. **السفير**، ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

(٨٢) وكالة رويترز، ٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. **الحياة** ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١.

(٨٣) **تشرين**، ٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١.

وقد بدا في البداية أن الاعتبارات الأمريكية كانت صحيحة. ومنذ أن طُرح مشروع القرار ١٤٤١ للتصويت أمام مجلس الأمن في الثامن من تشرين الأول/نوفمبر ٢٠٠٢، وهو القرار الذي يتضمن طلبا صارما من العراق للموافقة على استئناف نشاط المراقبين الدوليين في أراضيه، أعطت سورية مباركتها له. ولكن السوريين حاولوا تقديم تصويتهم على أنه "انتصار للدبلوماسية السورية"، وفي بعض الأحيان كاستجابة للإجماع العربي والذي يلقى على سورية مهمة تمثيله في مجلس الأمن. وحتى أنهم تفاخروا بأن تصويتهم أحبط، أو على الأقل، أجل الهجوم الأمريكي على العراق.(٨٤) ويبدوا أن التصويت السوري كان بادرة حسن نية تجاه فرنسة وألمانيا وروسية، وأنه اعتمد على الإدراك بأنه قد يكون بالإمكان منع قرار مستقبلي يتيح لواشنطن مهاجمة العراق.

ولكن سرعان ما اتضح أن سورية تبنت موقفا يرفض جملة وتفصيلاً الخطوات الأمريكية، وحتى أنها نسبت لواشنطن "أجندة خفية" تهدف إلى إقامة نظام أمريكي جديد في الشرق الأوسط يمثلها، ويخدم إسرائيل.

وذكر نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام أن "الهجوم الأمريكي على العراق جاء من أجل تقسيم هذه الدولة، الأمر الذي يشكل هدفا استراتيجياً لإسرائيل. وعملياً فإن جزءا من المخطط الصهيوني القديم يتمثل بتفتيت النسيج الوطني لدول المنطقة". وأضاف خدام إنه"منذ الحرب العالمية الأولى لم يشهد الشرق الأوسط حملة تفتيت مثل هذه التي تهدف إلى إثارة المشاعر الطائفية والعنصرية الموجهة (ضد العرب والمسلمين). إننا ندافع عن العراق لكونه بلداً عربياً ويرتبط مصير كل العرب بمصيره. إننا لسنا فنلندا، ولذلك لا يمكننا التعامل مع الموضوع العراقي بعدم اكتراث. فالعراق يشكل عمقاً استراتيجياً لسورية في مواجهتها مع إسرائيل. لقد أيدنا الكويت عندما غزا العراق أراضيها، ولكن العراق اليوم هو من يتعرض للهجوم ولذلك نقف إلى جانبه".(٨٥) وزير الإعلام السوري عدنان عمران

---

(٨٤) وكالة رويترز، ٨، ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١. وانظر أيضاً **تشرين**، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **الحياة** ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

(٨٥) سانا، ٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

شد على يد خدام وقال إن "الحجة التي يقدمها الأمريكيون للهجوم على المرتقب على العراق، إنما تثير الضحك. فكل العالم العربي يشكل عملياً هدفا للتهديدات الموجهة من جانب الولايات المتحدة. ويُذكّر تدخل الأمريكيين في الشؤون الداخلية للدول العربية بالفترة الاستعمارية، ولا شك في أنه لو كانت واشنطن تستطيع فعل ذلك لاعادتنا جميعاً إلى تلك الفترة".(٨٦)

وقد وجد الجو المعادي للولايات المتحدة الأمريكية الذي ساد في الشارع السوري بتشجيع من النظام، والذي بدأ تقريباً منذ اندلاع انتفاضة الأقصى، وجد تعبيراً عنه في المظاهرات التي جرت بالقرب من السفارة الأمريكية في دمشق، والتي كانت بالمناسبة، أكثر انضباطا من السابق. وبعد ذلك أُعلن عن إقامة إطار تنظيمي شعبي لمقاطعة البضائع والأشخاص، وحتى الرموز الثقافية الأمريكية. وحتى أنه أقيمت في دمشق لجنة شعبية من أجل مقاطعة المنتوجات الأمريكية، حيث قامت بتوزيع منشورات، من بين ما كتب فيها: "من كل مئة ليرة سورية تدفعها لشراء المنتوجات الأمريكية تجد ستة منها طريقها في نهاية المطاف إلى أيدي إسرائيل" أو "لا تشتري سعادتك بدماء أبناء شعبك في فلسطين". وقد عرض منشور آخر صورة طفل فلسطيني داخل سندويشة ماكدونالز.(٨٧) ومع ذلك استمر الكثير من السوريين في التدفق إلى فرع الشركة الأمريكية في شتورة القريبة من الحدود مع لبنان (داخل لبنان) لإشباع جوعهم هناك.

وقد عُلِّقت على أبواب المطاعم في دمشق لافتات من نمط "ممنوع الدخول للأمريكيين"، وحتى أن القنصل الأمريكي في المدينة طرد باحتقار من مطعم أوكسيجين في باب توما، وهو الحي المسيحي في دمشق. وبالمناسبة فقد تحول أصحاب المطعم إلى أبطال لأكثر من يوم بسبب فعلهم هذا.(٨٨) كما أن مظاهرات غاضبة جرت في حلب، أمام المطعم المحلي الذي أقام فيه السفير الأمريكي في

---

(٨٦) **الحياة**، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

(٨٧) **أخبار الشرق**، ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **الحياة**، ٢١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٨٨) **الحياة**، ٢١ نيسان/أبريل ٢٠٠٠. **السفير**، ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

دمشق، تيودور كوطوف، مأدبة عشاء مع وجهاء المدينة. وأخيراً فإن فرقة كونسرت روك والتي أحيت حفلا لها في السفارة الأمريكية في دمشق بمناسبة مرور عام على أحداث الحادي عشر م أيلول/سبتمبر، قوبلت بصيحات الاستهجان والإدانة لسياسة جورج بوش.(٨٩)

وفي كانون الأول/ديمسمبر ١٩٩٨ اقتحم متظاهرون، احتجوا على الهجوم الأمريكي الذي حمل اسم "عاصفة الصحراء" والذي جرى في الفترة نفسها، مقر السفير الأمريكي وألحقوا به بعض الأضرار. وحتى أن أحد المتظاهرين أنزل العلم الأمريكي من فوق سطح المبنى. وقد أدى الأمر في حينه إلى حادث دبلوماسي بين الولايات المتحدة وسورية، وخاصة بعد أن لقب وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس ما فعله المتظاهر بـ "عمل بطولي". وقد اضطر السوريون للاعتذار، وإنكار أقوال مصطفى طلاس، وحتى إلى دفع تعويضات للولايات المتحدة على الأضرار التي لحقت بمقر السفير وللمركز الثقافي الأمريكي الذي أصيب هو أيضاً بأضرار خلال المظاهرات.(٩٠) وقد امتنع السوريون عن الإقدام على مخاطرات غير محسوبة، ومنعوا المتظاهرين من الوصول إلى المنطقة القريبة من السفارة الأمريكية.

وعشية الحرب على العراق صعّدت سورية من عبارات احتجاجها ضد الولايات المتحدة. فقد اتهم بشار نفسه الولايات المتحدة الأمريكية بأن "كل هدفها هو السيطرة على منابع النفط في العراق وإعادة رسم خارطة المنطقة وفقا لرؤيتها". وأضاف إنه "في الماضي لم نشعر بالخطر الذي يقترب منا بسبب التطورات المصيرية، ومن بينها اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفور، وإقامة دولة إسرائيل. ولكن الخطر المتربص بالعرب جراء حرب الخليج أفدح منها جميعاً... وإذا لم نمنع الحرب، فإنني أخشى من أن تعرف الأجيال القادمة أن بغداد قد دمرت في المرة الأولى عام ١٢٥٨، عندما دخلت إليها قوات هولاكو مستغلة ضعف الخلافة

---

(٨٩) **الحياة،** ١٣ آب/أغسطس ٢٠٠٢. وكالة رويترز، ١٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٩٠) أنظر أيضاً إيال زيسر: "سورية" سبق ذكره، الملاحظة ٦ في الفصل الخامس، ص ٥٧٥-٥٧٧، "سورية" سبق ذكره الملاحظة ٦٩ الفصل الأول، ص ٥٦١.

العباسية، ودمرت مرة أخرى في بداية القرن الحادي والعشرين [عندما غزتها قوات الولايات المتحدة]، مستغلة ضعف العالم العربي".[٩١] وقد حذر العرب من صداقة الولايات المتحدة لأنها "قاتلة بشكل لا يقل عن عداوتها".[٩٢] وفي مكان آخر شبه الولايات المتحدة بـ "سيارة مسرعة [تندفع] باتجاه جدار اسمنتي، ولكن حتى إذا كانت قوة السيارة الأمريكية تُمكّنها من عبور هذا الجدار الاسمنتي، إلا أنها ستكتشف أن الطريق من الجهة الأخرى للجدار لن تكون مفروشة بالورود بل أنها ستقود إلى هوة سحيقة.. فبوش لا يدرك أن الشرف، بالنسبة للعرب، يفوق في أهميته أي شيء آخر، حتى القوت..".[٩٣]

ومنذ اللحظة التي اندلعت فيها الحرب العراقية بدأ تصعيد آخر في اللهجة السورية، وذلك عندما سمحت السلطات لآلاف المتظاهرين في شوراع دمشق ومدن سورية أخرى للخروج بشكل جلي ضد الحرب. وقد بدأت وسائل الإعلام السورية من جهتها حربا ضد الولايات المتحدة. فقد قال راديو دمشق مثلاً إن "الهجوم الأمريكي - البريطاني يتنافى مع أبسط القيم الإنسانية، وحقوق الإنسان، ويشكل خرقا فظا للقانون الدولي... وقد دلت تجربتنا أن المصالح الإسرائيلية هي التي تسيطر على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وليست المصالح الأمريكية، ذلك أن مؤيدي الليكود من أوساط الصهاينة الموجودين في دهاليز الإدارة الأمريكية هم من دفعوا باتجاه هذه الهجمة على العراق".[٩٤] وفي مرة أخرى حذر الراديو من "إن قوات الشر في العالم حاكت مؤامرة للسيطرة على ثروات الأمة العربية وعلى مواردها. وتعمل القوة العظمى في العالم اليوم وبشكل أحادي الجانب لتحقيق أهدافها، وأذرعها الشيطانية تلحق الضرر بالشعوب الهادئة والمحبة للسلام".[٩٥] وحتى أن صحيفة **الثورة** أعلنت أن "سورية تدين العدوان البربري

---

(٩١) راديو دمشق، ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٩٢) راديو دمشق، ٩ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٩٣) **واشنطن بوست**، ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٩٤) راديو دمشق، ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٩٥) راديو دمشق، ٢٣ آذار/مارس ٢٠٠٣.

ضد الشعب العراقي... وتحييه على صموده البطولي في وجه العدوان الإجرامي وتحيي كل من يدين هذا العدوان".[٩٦]

اتضح للأمريكيين، لشدة المفاجأة، أن زعماء سورية ليسو أكثر اعتدالاً من وسائل إعلامهم. وكان التصريح الأبرز هو التصريح الصادر عن وزير الخارجية فاروق الشرع أمام مجلس الشعب في دمشق الذي قال إن سورية معنية بهزيمة الولايات المتحدة في الحرب العراقية. وقال بعد ذلك أيضاً إن طريقة تصرف الولايات المتحدة تذكره بتصرف الرايخ الثالث بقيادة أدولف هتلر.[٩٧] بشار من جانبه أجرى لقاء مع صحيفة **السفير** اللبنانية حيث عبر فيه عن مخاوفه من أن تكون سورية الهدف التالي لواشنطن، وأن تكون الخطوات الأخيرة قد جاءت لإعادة رسم خارطة الشرق الأوسط من جديد. وأكد أن سورية لن تقف مكتوفة الأيدي حيال الخطوات الأمريكية.[٩٨]

لقد أصبحت الولايات المتحدة في حل من أمرها. فحقيقة أن دمشق استمرت في التصرف على هواها في الوقت الذي يحارب فيها الجنود الأمريكيون في العراق، دفعت الولايات المتحدة للخروج عن طورها. وبالفعل فقد سارع مسؤولون أمريكيون وفي مقدمتهم وزير الدفاع دونالد رامسفيلد إلى اتهام سورية بأنها تساعد الجهد الحربي العراقي وذلك عن طريق العتاد العسكري، بما في ذلك مناظير الرؤية الليلية.[٩٩] والأمريكيون، بما فيهم وزير الخارجية كولن باول، وبعد ذلك الرئيس نفسه، اتهموا سورية أيضاً بالسماح للمتطوعيّن العرب بالوصول إلى العراق، وتقديم المساعدة للمسؤولين العراقيين الفارين منه، وحتى أن الرئيس بوش عاد وطرح الاتهام بأن سورية تعمل على تطوير سلاح إبادة جماعية، وأدانها على مساعدتها

---

(٩٦) **الثورة**، ٢٤ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٩٧) حصلت المقارنة خلال المؤتمر الصحفي الذي عقده وزير الخارجية السوري مع نظيره الفرنسي. أنظر وكالة رويترز، ١٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. **الرأي العام**، ١٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

(٩٨) **السفير**، ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٩٩) وكالة AP، ٢٨ آذار/مارس، ١٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. شبكة فوكس، ١٤ آذار/مارس ٢٠٠٣.

للمنظمات الإرهابية الفلسطينية ولمنظمة حزب الله.[١٠٠] وأُفيد من واشنطن عن إمكانية أن تصبح دمشق الهدف التالي للولايات المتحدة، فور انتهاء المهمة في العراق.[١٠١]

ويبدو أن سياسة الإدارة في واشنطن عكست تغييراً في الأسلوب الأمريكي تجاه دمشق: فلم يعد الاهتمام يقتصر على قضايا دعم الإرهاب أو تطوير سلاح كيميائي، بارتباطها مع طيف عملية السلام الإسرائيلية – السورية، بل بدأ ينظر إلى تلك القضايا على أنها على اتصال مباشر بالأمن القومي الأمريكي، وكجزء من جهود واشنطن لمواجهة تهديد الإرهاب الدولي وخطر انتشار السلاح غير التقليدي في العالم.

وقد وجد بشار في البداية صعوبة في قراءة خطوات واشنطن، ومن المحتمل جداً أنه قد "أزفت ساعة الحقيقة" عندما أصبحت الولايات المتحدة جارته في الشرق. وفي ظل الواقع الإقليمي الجديد توقفت الهجمات على الولايات المتحدة، وتنافس كبار المسؤولين في النظام السوري، والمتحدثون باسمه، في إطلاق التصريحات الودية تجاه الشعب الأمريكي ورئيسه. وحتى أن سورية سارعت إلى إغلاق حدودها مع العراق وتسليم مسؤولين كبار في النظام العراقي هربوا إلى أراضيها للولايات المتحدة، وكذلك خففت معارضتها لجهود واشنطن لدفع مسيرة السلام الإسرائيلية – الفلسطينية. وخلال زيارته لدمشق في بداية أيار/مايو ٢٠٠٣ حصل كولن باول على وعد من بشار بأن تغلق سورية مكاتب المنظمات الفلسطينية العاملة في أراضيها، وهو الوعد الذي لم يُنفذ كما سبق وأشرنا.[١٠٢] وخلال زيارته هذه ترك باول خلفه قائمة طويلة من المطالب الأمريكية، ومن بينها تجريد منظمة حزب الله من السلاح وإنهاء التواجد العسكري السوري في لبنان، والامتناع عن أي عمل من شأنه تخريب مسيرة السلام الإسرائيلية الفلسطينية.. الخ.

---

(١٠٠) شبكة CNN، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

(١٠١) أنظر مثلاً **ديلي تيليغراف**، ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. وكذلك مقابلة مع دبلوماسي أمريكي كبير، تل أبيب، ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٣.

(١٠٢) **السفير**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٣. **الحياة**، ٢٧ أيار/مايو ٢٠٠٣.

إلا أنه كان واضحاً منذ البداية أن النظام السوري يدير حربا دفاعية وأنه لا ينوي فعلاً فتح قلبه للولايات المتحدة الأمريكية. ويبدو أن بشار قد اتخذ قراره بالمراهنة على الزمن، وذلك على أمل أن يؤدي التورط الأمريكي في العراق إلى إضعاف قوة رغبة واشنطن في العمل ضد سورية. ورغم ذلك، فقد أظهر اهتماماً بدمج سورية في مسيرة سياسية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، تحسبا لحالة حدوث انطلاقة في المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية. ولكنهم في واشنطن فضلوا التركيز على المسار الإسرائيلي - الفلسطيني على الانشغال مع النظام المثير للمشاكل، والذي لا تُكِن له واشنطن المحبة بل حتى أنها ترى فيه الأخ التوأم لنظام صدام حسين.

لقد أعاد تورط الولايات المتحدة في العراق، والذي اخذ بالازدياد في نهايات عام ٢٠٠٣، أعاد للسوريين ثقتهم بالنفس. فقد امتنعوا عن تنفيذ المطالب الأمريكية، وعادوا بعد ذلك وزادوا في شدة تصريحاتهم ضدها. فعلى سبيل المثال، أعلن وزير الخارجية السورية أن دمشق ستكون مستعدة لتنفيذ مطالب واشنطن فقط إذا كانت "منطقية ومتوازنة".[١٠٣] أما رئيس الحكومة ميرو فقد أوضح أن الولايات المتحدة الأمريكية التي تسيطر على العراق هي جار أسوأ بكثير بالنسبة للمحيطين به أكثر مما كان عليه الحال في ظل صدام حسين.[١٠٤]

وقد عادت واشنطن، وإن كان بلغة أكثر ليناً، وطرحت مطالبها على سورية، وزادت عليها طلباً آخر وهو أن تقوم الأخيرة بإغلاق حدودها مع العراق، ذلك أن مصدر غالبية العمليات الإرهابية ضد قوات الولايات المتحدة في العراق هو من متسللين غير عراقيين يصلون إليه عن طريق سورية. وبعد ذلك اتهمت مصادر أمريكية صدام حسين بأنه أودع قبل سقوط نظامه مليارات الدولارات في البنوك السورية.[١٠٥] وقد جاء التعبير عن خيبة أمل واشنطن من تصرف السوريين من

---

(١٠٣) قناة تلفزيون LBC، ١٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(١٠٤) **الاتحاد**، ٢٩ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

(١٠٥) **الاتحاد**، ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **نيويورك تايمز**، ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

خلال الغطاء الذي منحه الأمريكيون لإسرائيل بعد أن قامت الأخيرة في تشـــرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣ بمهاجمة معسكر تدريب للفلسطينيين بالقرب من دمشق رداً على عملية قامت بها "الجهاد الإسلامي" في مطعم "مكسيم" في حيفـــا. وقـــد رد المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة على الشكوى السورية إلى مجلس الأمن بالقول إن "سورية تقف في الجانب غير الصحيح في الحرب ضد الإرهاب".[١٠٦]

وفي أعقاب هذه الأقوال ثارت المخاوف في دمشق من أن تكـــون العمليـــة الإسرائيلية قد تمت بعلم، إن لم نقل بتشجيع واشنطن، وإنها تشكل خطوة أولى في عملية أمريكية شاملة لإسقاط النظام السوري. وحقيقة هي أنه بموازاة ذلك عملت الإدارة على دفع قانون "محاسبة سورية"، ونشرت نبأ تأسيس حـــزب الإصـــلاح السوري في واشنطن (أنظر الفصل الرابع)، هذه الحقيقة عززت تلـــك المخـــاوف. ومهما يكن من أمر فإن سورية استمرت من جهـــة ببـــذل المحـــاولات لإرضـــاء الولايات المتحدة - سمحت على سبيل المثال لمحققين أمريكيين بالقدوم إلى دمشـــق للتحقيق إذا ما كانت أموال لصدام حسين أو لأتباعه قـــد وضـــعت في البنـــوك السورية، وكذلك أيدت القرار الذي اتخذه مجلس الأمن بناء على طلب الولايـــات المتحدة أواسط تشرين الأول/أكتوبر في موضوع إعادة إعمار العراق.[١٠٧] ومـــن جهة ثانية استمرت بإدانة تواجد واشنطن في العراق بشدة، والإعراب عن تأييـــد العمليات الإرهابية ضد القوات الأمريكية الموجودة هناك، وإن كان بشكل حذر. كما أوضح رئيس الأركان السوري حسن تركماني: "علينا أن نقف ضد جـــرائم الاحتلال في فلسطين وفي العراق، والتي تشكل جزءا من الجهد لخلق نظام أمريكي جديد في المنطقة".[١٠٨]

إلا أن اعتقال صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣، والتحـــول في

---

(١٠٦) شبكة CNN، ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(١٠٧) وكالة AP، ١٤ تشرين الأول/أكتـــوبر ٢٠٠٣. قنـــاة تلفزيـــون الجزيـــرة، ١٦ تشـــرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **الحياة**، ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(١٠٨) سانا، ١٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

موقف الحاكم الليبي معمر القذافي، الذي تنصل فيه من العداء طويل الأمد ضد الولايات المتحدة والغرب من جهة، واستمرار موجات الإرهاب ضد الأمريكيين في العراق من جهة ثانية، زادت بشكل أكبر الضغط على النظام السوري من قبل واشنطن. وفي الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣ وقع الرئيس جورج بوش على قانون "محاسبة سورية"، بعد أن تمت المصادقة عليه في الكونغرس. كما أوضح مسؤولون أمريكيون كبار، وفي مقدمتهم كولن باول، أن الولايات المتحدة مصممة على تطبيق هذا القانون، وحتى أنها تدرس فرض عقوبات على سورية، وفق ما يقتضيه هذا القانون.[١٠٩] كما أن التجاهل الأمريكي الفظ للإشارات التي بثها بشار في بداية عام ٢٠٠٤، والتي جاء فيها أنه يريد استئناف المفاوضات مع إسرائيل، يمكن تفسيره بالملل السائد في أوساط متخذي القرارات في واشنطن (أنظر الفصل السابع).

بشار من ناحية استمر في إظهار ثقته بأن الأمريكيين سيمتنعون، في نهاية المطاف، عن العمل ضده. وقد ساهمت في ذلك، بدون شك، الإشارات المتناقضة التي وصلت إليه من واشنطن، حيث أنه في يوم التوقيع على قانون "محاسبة سورية"، زارت وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن الوزيرة، المقربة منه، بثينة شعبان. وفي موازاة ذلك نُشر في العاصمة الأمريكية أمر تعيين السفيرة الأمريكية في دمشق مارغريت سكوبي.[١١٠] وقد شكل الأمر إثباتا واضحاً إن الأمريكيين يتطلعون إلى الحوار، وإن كان ناقداً، وليس للمواجهة مع دمشق. ولا عجب إذاً أن يعبر بشار خلال زيارته لأثينا في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣ عن ثقته بأن سورية لن تُهاجم من قبل الولايات المتحدة حيث أنه، حسب أقواله "سورية ليست العراق".[١١١] وفي مقابلة مع صحيفة **الشرق الأوسط** أضاف بشار إن "جدلنا مع الولايات المتحدة قد يقود إلى عاصفة على سورية فعلاً، لكن أملنا ألا يحدث هذا الأمر، ذلك

(١٠٩)وكالة رويترز، ١٦ شباط/فبراير ٢٠٠٤.

(١١٠)سانا، ١٣، ١٩ كانون الأول/ديسمبر.

(١١١)وكالة رويترز، ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

أنه يسود في أوساط الإدارة الأمريكية خلافات في الرأي في ما يتعلق بسورية. ومن الواضح تماماً أنه لا توجد للولايات المتحدة رؤية متكاملة وواضحة لما يجري في الشرق الأوسط. وسياستها تتأثر بتأييدها لإسرائيل".[112] وأضاف وزير الخارجية السورية إلى ذلك إن "الكونغرس الأمريكي ملتزم بإسرائيل أكثر من الكنيست".[113]

وعلى هذه الخلفية يُطرح السؤال التالي: إلى أين ستقود الحرب في العراق، وأكثر من ذلك الواقع الذي تشكل في هذه الدولة بعد احتلالها من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، علاقات دمشق مع واشنطن؟ ظاهرياً، لقد تكدرت تلك العلاقات، ولكن من المناسب أن نبدي ملاحظة على ذلك وهي أنه ليس بشار وحده هو من يشكل لغزا لجهة خطواته المستقبلية، بل، وبما لا يقل عن بشار، الرئيس الأمريكي، جورج بوش الابن. لقد تبنى الرئيس بوش، حتى الآن، أسلوبا لينا تجاه دمشق، ولكن من المحتمل أن يشذ عن عادته هذه في أعقاب الحرب على العراق، وعندها قد يدفع بشار ثمناً غالياً على طريقة تصرفه.

سورية ودول الاتحاد الأوروبي

لقد عملت سورية منذ بداية التسعينيات على إقامة علاقات وثيقة مع دول أوروبا، وذلك كوزن معادل لعلاقاتها مع الولايات المتحدة. إلا أن هذه العلاقات لم تتقدم إلى أي مكان. ولا شك في أن السوريين ارتاحوا كثيراً من المواقف الأوروبية تجاه الصراع الإسرائيلي – العربي، والتي يُنظر إليها على أنها أكثر تعاطفا مع العرب مقارنة مع مواقف واشنطن. وبشار نفسه أُستقبل بحرارة خلال زياراته للعواصم الأوروبية. ولكن المواقف الأوروبية، في نهاية المطاف، غير ذات قيمة عملية. ومقابل ذلك، فقد رفض السوريون محاولات الأوروبيين للدفع باتجاه مصالحة إسرائيلية – عربية، وقاطعوا ملتقيات الحوار الأوروبية – المتوسطية التي عقدت في فالينسيا وبرشلونة في عامي ٢٠٠٠و ٢٠٠١. وقد قال فاروق الشرع

(١١٢)**الشرق الأوسط**، ١٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

(١١٣)**الرأي العام**، ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

إنه لا يمكن تصور تناول وجبة مع وزير خارجية إسرائيل في الوقت الذي يُذبح فيه فلسطينيون أبرياء على يد إسرائيل بالآلاف".(١١٤) وقد أعرب وزير الإعلام عدنان عمران عن اشتياقه للحوار العربي - الأوروبي، والذي هو في نظره أفضل بكثير من "شراكة شرق أوسطية لا تعطي للعرب شيئا".(١١٥)

ويبدو أن الحماسة الأوروبية لبشار، والتي لُمست في الشهور الأولى لحكمه، قد بدأت تخفت كلما اتضح التزامه بالحفاظ على الوضع القائم في سورية وإحجامه عن تطبيق إصلاحات حقيقية في بلاده. وقد سارع الأوروبيون إلى الاحتجاج على الإجراءات التي اُتخذت في حق عدد من عناصر المعارضة السورية، وحتى أن ممثلي الاتحاد الأوروبي حضروا محاكمات عدد منهم، والذين اعتقلوا من قبل السلطات (راجع الفصل الرابع).(١١٦) كما أن المفاوضات الاقتصادية للتوصل إلى اتفاق شراكة بين سورية وبين الاتحاد الأوروبي قد تقدمت، وكما ذكرنا سابقاً، ببطء شديد. وقد أقامت سورية والاتحاد الأوروبي إحدى عشر جولة مفاوضات حتى أواخر ٢٠٠٣، لكنها لم تثمر عن شيء، وذلك بسبب رفض سورية الاستجابة لطلب الأوروبيين إدخال تغييرات حقيقية على سياستها الاقتصادية.(١١٧)

ومع ذلك، فإن التوتر في العلاقات بين دمشق وواشنطن، والذي بدأ منذ منتصف عام ٢٠٠٣، دفع سورية للعمل على تقوية علاقاتها مع أوروبا. وقد أُفيد من دمشق في أواخر العام المذكور حصول تليين في المواقف السورية في المفاوضات مع أوروبا، والتي من المنتظر أن تؤدي إلى توقيع قريب على اتفاق الشراكة.(١١٨) وعملياً فقد وافقت الأطراف على غالبية بنود الاتفاق، ولكن الخلاف حول البند

---

(١١٤)التلفزيون السوري، ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(١١٥)**الثورة**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(١١٦)وكالة الأنباء الفرنسية، ٦ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(١١٧)أنظر على سبيل المثال، **الحياة**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. CR. Syria-2002, Vol. 3. pp. 5 -9.

(١١٨)**الحياة**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

المتعلق بمنع انتشار الأسلحة غير التقليدية حال، حتى الآن، دون توقيع الاتفاق النهائي.[119] وقد عملت الدول الأوروبية فعلاً على التخفيف من حدة التوتر في العلاقات السورية - الأمريكية وحتى أنها وقفت إلى جانب سورية وأدانت إسرائيل في أعقاب غارة سلاح الجو شمالي دمشق في بداية تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.[120] ولكن كان وزير الخارجية الفرنسي دي فيلبان، هو بالذات من فاجأ السوريين في بداية تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣، عندما دعا إلى انسحاب القوات السورية من الأراضي اللبنانية (أنظر الفصل الثامن).[121]

كما أن العلاقات السورية - الروسية لم تتقدم في العقد الأخير. وكدليل على ذلك، فقد غاب اسم العاصمة الروسية موسكو بشكل، واضح ومهين، من قائمة العواصم الأوروبية التي زارها بشار منذ استلامه السلطة. وصحيح أن روسية ظلت تشكل بالنسبة للسوريين مصدرا يسهل الوصول إليه لجهة الأسلحة والعتاد الحربي، لكن تلك الأسلحة بيعت بكميات قليلة حتى لا تغضب إسرائيل والولايات المتحدة، وفقط شريطة الدفع نقدا. وعندما طلب السوريون من الروس الحصول على صواريخ أرض - جو متطورة من نوع اس.آي ١٨٠ أبدت الأوساط الإسرائيلية مخاوفها من أن تصل الصواريخ في نهاية المطاف إلى أيدي حزب الله، فخاطب اريئيل شارون الرئيس الروسي فلاديمير بوتين حصل منه على وعد بألا تبيع روسية الصواريخ إلى السوريين.[122] وفي الوقت نفسه استمر مئات من الخبراء العسكريين والمدنيين الروس بتقديم المساعدة العسكرية والتقنية للسوريين. وأخيراً استمرت قضية الديون الروسية على سورية بالإثقال على علاقات البلدين وقد فشلت الجهود المبذولة لحلها (أنظر الفصل الخامس).

(١١٩) **ديلي تيليغراف**، ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(١٢٠) وكالة رويترز، ٦، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(١٢١) **السفير**، ١٧ أيار/مايو ٢٠٠٣.

(١٢٢) **هآرتس**، ١١ آذار/مارس، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. وكالة الأنباء الفرنسية، ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. وكالة تاس، ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

سورية ومحور الشر

وإلى جانب استمرار الحوار الحذر مع الولايات المتحدة، والـدول الغربيـة والعربية المعتدلة، استمرت سورية بتطوير ودفع علاقاتها مع إيران وكورية الشمالية والعراق، التي شكلت، بالنسبة لها، حلفاء (في حالة إيران) أو عمقا استراتيجيا ضد إسرائيل (في حالة العراق).

سورية وإيران

استمر بشار في تطوير العلاقات الوثيقة بين سورية وإيران، واستمر التعاون الاستراتيجي بين البلدين على الصعيد السياسي أو على الصعيد العسكري، حيث واصلت إيران بمساعدة سورية على تطوير الأسلحة المتطورة وبينها صواريخ أرض – أرض بعيدة المدى، والسلاح الكيميائي والبيولوجي. ومع ذلك، من المهم التذكير أنه في بداية عام ٢٠٠٠ لم تتردد إيران عن توجيه النقد إلى سورية، التي كانت لا تزال في حينه بقيادة حافظ الأسد، عندما كان يبدو أن سورية على وشك التوصل غلى اتفاق سلام مع إسرائيل. حتى إن الزعيم الروحي لإيران على خامينئي هاجم "الدول التي كانت ثورية في الماضي ولكنها تجري الآن مفاوضات مع إسرائيل الأمر الذي هو بمثابة خيانة".[١٢٣]

وقد مكّن فشل المفاوضات الإسرائيلية السورية من إعادة العلاقات بين البلدين إلى مسارها. ولكن كان من شان ذلك، أن يشكل دلالة على تعقيد التحالف الإيراني – السوري، وهو ليس تحالفا طبيعياً، بل تحالف مصالح، ساعد التعاون الوثيق الممتد على سنوات في تقويته وتعميقه.

لقد أنزلت وفاة الأسد صدمة قوية بإيران وأثارت مخاوف في طهران من إمكانية حدوث تحوّل في السياسة السورية. وقد أعلن راديو إيران أنه مع وفاة الأسد ضاع آخر السياسيين المناضلين في العالم العربي. كما أن إيران فقدت أحد

(١٢٣)**الحياة**، ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠. **جمهوري إسلامي**، ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠.

أبرز أصدقائها في المنطقة".[١٢٤] وقد سارع الرئيس الإيراني محمد خاتمي إلى المشاركة بتشييع الأسد، وقال لدى قدومه إلى دمشق إننا نتطلع إلى توثيق العلاقات بين البلدين في العهد الجديد.[١٢٥] وقد وجد في بشار شريكا مريحاً، والذي عمل هو أيضاً على تقوية التحالف بين دمشق وطهران. ويبدو أن الحاجة السورية لإيران تزايدت على خلفية المخاوف في سورية من حرب مع إسرائيل، وذلك بسبب التوتر الذي ساد على امتداد الحدود اللبنانية - الإسرائيلية إثر استئناف حزب الله نشاطه في المنطقة. وبالفعل فقد سارع متحدثون إيرانيون مثل وزير الدفاع علي شامخاني إلى التأكيد بأن إيران ستقف إلى جانب سورية إذا ما هوجمت من قبل إسرائيل.[١٢٦] وقد عادت إيران وأكدت التزامها بدعم سورية في أعقاب تدهور الوضع على الجبهة الإسرائيلية - السورية أواخر عام ٢٠٠٣.[١٢٧]

ومع اقتراب لحظة الحسم في الصراع الأمريكي ضد العراق، كان يبدو أن هناك خلاف بين سورية وإيران حول الطريقة التي يجب على الدولتين أن تتعامل وفقها مع هذا الهجوم، وكيف عليها أن تستعد لليوم التالي لسقوط نظام صدام حسين. وقد امتنع الإيرانيون على الخروج بشكل قاطع ضد الهجوم الأمريكي على العراق، وحتى أنهم لمحوا بأنهم سيكونون مستعدين للتعاون مع واشنطن كما فعلوا خلال الهجوم الأمريكي على نظام طالبان في أفغانستان. وقد أثار الأمر توترا بين طهران ودمشق التي تحفظت من الحماس الذي سيطر على إيران جراء السقوط الوشيك لنظام صدام. ومن الممكن أن يكون الخلاف بين الطرفين قد طال قضايا أخرى مثل احتمال تقسيم العراق إلى ثلاث دول: كردية وسنية وشيعية. ويمكن أن نجد دليلاً على هذا التوتر في الزيارة المؤجلة لبشار الأسد إلى طهران في منصف كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. صحيح أن الزيارة جرت، في نهاية المطاف، في السادس

---

(١٢٤) راديو طهران، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(١٢٥) التلفزيون الإيراني، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(١٢٦) راديو طهران، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. قناة أبو ظبي الفضائية، ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. أنظر أيضاً، **الوطن**، ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١.

(١٢٧) راديو طهران، ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

عشر من آذار/مارس ٢٠٠٣، عشية الهجوم الأمريكي على العراق، لكن محللين في العاصمة السورية ربطوا تأخير الزيارة بغضب السوريين من إيران بسبب استعدادها منح مباركتها، حتى وإن كانت غير معلنة، للهجوم الأمريكي.(١٢٨)

إذن لقد استمرت سورية وإيران في الحفاظ على العلاقات الوثيقة بينهما، ولكن مع ذلك، كان من غير الممكن التخلص من الإحساس بأن هذه العلاقات لم تعد علاقات بين متساويين، كما كان عليه الحال في عهد حافظ الأسد، ذلك أن ضعف بشار حوله إلى دمية في يد الإيرانيين، سواء على الساحة العراقية أو، بشكل خاص، على الساحة اللبنانية، التي عزز فيها الإيرانيون، من خلال رعايتهم لحزب الله، مكانتهم على حساب المكانة التي تمتع بها السوريون في الماضي في هذه الدولة.

وقد دلت على ذلك، على سبيل المثال، الزيارة التاريخية للرئيس الإيراني إلى لبنان في أيار/مايو ٢٠٠٣، والتي أُستقبل فيها بحماس كبير من قبل مضيفيه، وفي مقدمتهم قيادات منظمة حزب الله(أنظر الفصل الثامن).(١٢٩) وأخيراً، يبدو أيضاً أن استعداد بشار (أكثر من والده) للاستفادة من مساعدة علماء دين إيرانيين، لتقوية الهوية الإسلامية – الشيعية في أوساط الطائفة العلوية، يبدو أن ذلك أضعفه مقابل الإيرانيين.(١٣٠) ومن المحتمل جداً أن تتجه كل دولة منهما، رغم علاقات الماضي، كل في طريقها. مع الأخذ بعيّن الاعتبار أنه عندما هددت واشنطن دمشق في بداية نيسان/أبريل ٢٠٠٣، برزت تصريحات الرئيس الإيراني والتي جاء فيها أن بلاده تدين فعلاً التهديدات إلا أنه يجب ألا يخطر على البال أن إيران ستخوض الحرب ضد الولايات المتحدة من أجل سورية.(١٣١)

سورية والعراق

لقد كانت التعرجات التي شهدتها العلاقات بين دمشق وبغداد، حتى احتلال

---

(١٢٨) سانا، ١٦ آذار/مارس ٢٠٠٣. **الحياة**، ١٦، ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(١٢٩) راديو بيروت، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠٣. **النهار**، ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٣.

(١٣٠) **هآرتس**، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

(١٣١) أنظر على سبيل المثال **الحياة**، ٩، ١٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

الأخيرة من قبل الولايات المتحدة في ربيع ٢٠٠٣، كانت على جانب كبير من الأهمية. وكنا قد أشرنا قبلاً إلى أن محاولات بشار فتح صفحة جديدة في السياسة الخارجية السورية قد ظهرت بوضوح على المحور السوري العراقي، حيث قال بشار إن "علاقاتنا اليوم جيدة أكثر مما كان عليه الحال في الماضي. ويدور بيننا حوار صريح حول تلك الفترة المظلمة وعلى ضرورة السير معاً باتجاه المستقبل. وهناك نية صادقة من قبل الطرفين لدفع العلاقات، ونقطة الانطلاق هي أن الخلافات بين الدول لا تحل عن طريق تحميلها مشاكل أخرى، بل على العكس من ذلك، عن طريق حل المشاكل".(١٣٢)

ومع ذلك يجدر التذكير أن التوجه لتحسين العلاقات السورية العراقية قد بدأ منذ ١٩٩٧، في عهد حافظ الأسد، بعد شهدت تلك العلاقات تدهوراً عميقاً ومتواصلاً منذ بداية الثمانينيات، على خلفية دعم سورية لإيران في حربها على العراق، وعلى خلفية نزاعات شخصية أيضاً، سياسية وأيديولوجية حصلت بين نظامي البعث. إلا أنه في عام ١٩٩٧شعر الأسد أن صدام حسين قد ضعف وأنه لم يعد يشكل تهديداً حقيقياً على سورية، كما يبدو أنه حاول استخدام العلاقات الآخذة بالتشكل كورقة مساومة ضد الولايات المتحدة وإسرائيل. كما أن السوريين ساورهم القلق من صعود بنيامين نتنياهو إلى السلطة في إسرائيل ومن إمكانية زيادة حدة المواجهة السورية التركية إلى درجة الحرب. ومهما يكن من أمر، فإن حافظ الأسد جدد العلاقات بين العراق وسورية، إلا أنه عمل بحذر وامتنع عن إسباغ صبغة حقيقية على تلك العلاقات الآخذة بالتشكل بين الدولتين، ناهيك عن أنه تحاشى تحويلها إلى تحالف استراتيجي حميم.

وكان يبدو في بداية الأمر أنه في كل ما يتعلق بعلاقاته مع العراق كان بشار يظهر كحاكم شاب عديم الخبرة، ويظهر شجاعة بعيدة المدى، خاصة، مقارنة بسياسة والده الحذرة. ولم يتردد السوريون، كما سبق وذكرنا، عن إظهار تأييدهم الصريح والواضح للعراق وحتى أنهم حاولوا بلورة جبهة عربية شاملة ضد الولايات

---

(١٣٢)**تايمز**، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

المتحدة. وقد تحولت دمشق إلى مكان يحج إليه المسؤولون العراقيون، وفي مقدمتهم نائب الرئيس طارق عزيز، ونواب الرئيس عزت ابراهيم الدوري وطه ياسين رمضان، الذين أُستقبلوا في دمشق بحرارة.(١٣٣) وفي مقابل ذلك قلصت سورية علاقاتها مع المعارضة العراقية لنظام صدام، وحدّت من خطواتها. فعلى سبيل المثال أُغلقت محطة الراديو الخاصة بالمعارضة العراقية والتي كانت تعمل من سورية، كما مُنع إصدار صحف عراقية معارضة في دمشق.(١٣٤) ومع ذلك استمر السوريون بإجراء اتصالات مع التنظيمات الكردية، وذلك من أجل ضمان نوع من التأثير السوري على ما يجري في العراق، وذلك تحسبا لحالة حدوث هجوم أمريكي، وأكثر من ذلك تحسبا لحالة انقسام الدولة العراقية، وإقامة دولة كردية، الأمر الذي من المحتمل أن يؤثر على السكان الأكراد شمال شرق سورية.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى التقارير التي نُشرت أواخر عام ٢٠٠٠ في إسرائيل، والتي جاء فيها أن صدام حسين نقل، بعد زمن قصير من اندلاع الانتفاضة، قوات عسكرية إلى الحدود السورية العراقية، وذلك كخطوة تهديدية ضد إسرائيل.(١٣٥) وفي صيف ٢٠٠٠ نُشرت تقارير في إسرائيل حول التعاون العسكري بين دمشق وبغداد، بما في ذلك المساعدة السورية، أو على الأقل غض الطرف، عن تهريب الأسلحة من أوروبا الشرقية إلى العراق. وقد ذكرت التقارير الإسرائيلية اسم فراس طلاس، ابن وزير الدفاع السوري ورجل الأعمال المعروف في دمشق، كأحد المتورطين في علميات التهريب. وفي هذه المرة أيضاً سارع السوريون إلى تكذيب ذلك.(١٣٦) وأخيراً، وفي عام ٢٠٠٢، اتهمت إسرائيل سورية بأنها تتيح للعراق إخفاء أسلحة إبادة جماعية في أراضيها، وتساعد هي

---

(١٣٣) **الحياة**، ١٣ تشرين الأول/أكتوبر، ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً راديو دمشق، ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **هآرتس**، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

(١٣٤) أنظر على سبيل المثال **الحياة**، ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر. ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. وكالة الأنباء العراقية، ٢٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **الوطن** ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(١٣٥) **هآرتس**، ٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١.

(١٣٦) **هآرتس**، ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

نفسها بنقل السلاح إلى حزب الله، وهي المعلومات التي تم تكذيبها من قبل السوريين.[١٣٧] ولكن دمشق أيدت في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢، قرار مجلس الأمن ١٤٤١ والذي أعطى الضوء الأخضر للهجوم الأمريكي على العراق. صحيح أن الصحف العراقية قد وصفت التأييد السوري للقرار بـ "خيانة للقضية العربية"، ولكن بغداد الرسمية امتنعت عن انتقاد السوريين بشكل جلي وذلك من خلال إدراكها للقيود والاعتبارات التي يواجهونها.[١٣٨]

إذاً، وبالإجمال، فقد امتنعت سورية في أيام بشار أيضاً من تحويل علاقاتها مع العراق إلى علاقات استراتيجية، وحتى أنها امتنعت عن استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين وعن إعطائها طابعاً ملزماً. ويبدو أن الجماعة القديمة التي أحاطت ببشار هي التي حالت دون زيادة الدفء في العلاقات مع العراق. وبالفعل، وبعد أن اقترح طارق عزيز على السوريين، خلال زيارة قام بها إلى دمشق، العودة للمصادقة على "ميثاق العمل القومي" - الذي وقع بين الدولتين خلال شهر العسل بينهما في أواخر السبعينيات، لكنه ألغي من قبل صدام حسين بعد استلامه السلطة في تموز/يوليو ١٩٧٩ - سارع وزير الدفاع السوري بالرد على الإلغاء بالقول إن "حافظ الأسد قد توفي بدون أن يعرف لماذا ألغى صدام الميثاق القومي وسارع أيضاً إلى اتهام سورية بالتخطيط لانقلاب ضده".[١٣٩] كما أنه ساد تخوف من رد محتمل من جانب إيران أو من دول الخليج وهو ما منع السوريين من التقرب أكثر مما هو مسموح تجاه العراق، حيث إن بشار هو من لقب صدام حسين خلال الزيارة التي قام بها للكويت عشية استلامه للسلطة، بـ "الوحش الآدمي".[١٤٠]

---

(١٣٧) **هآرتس**، ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. للإطلاع على الرد السوري أنظر راديو دمشق، ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(١٣٨) رويترز، ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **بابل**، ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **الحياة**، ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢.

(١٣٩) **الرأي العام**، ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

(١٤٠) **الحياة**، ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٠.

لقد طغى إذن الوجه الاقتصادي على العلاقات السورية العراقية، سواء في عهد حافظ الأسد أو في عهد بشار. وبالفعل تحول العراق إلى بقرة حلوب بالنسبة للسوريين، وذلك بفضل الازدياد الكبير جداً الذي طرأ على حجم التجارة بين الدولتين، والذي وصل في نهاية عام ٢٠٠٢ إلى أربعة مليارات دولار في العام وأكثر.(١٤١) الارتفاع في حجم التجارة، الذي يعود في جانب منه إلى التجارة المباشرة، وفي جانبه الآخر إلى المنتجات التي تصل إلى العراق عبر سورية، ترافق بسلسلة من الاتفاقيات الاقتصادية، ومن بينها اتفاق لإقامة منطقة تجارة حرة سورية – عراقية وعلى الاستثمار المشترك في كلا البلدين. وبموازاة ذلك دشن خط طيران بين بغداد ودمشق، من خلال خرق واضح للعقوبات المفروضة على العراق، كما تم في تموز/يوليو ٢٠٠١ افتتاح خط للقطار بين الموصل وحلب. ويبدو أن استئناف ضخ النفط عبر خط الأنابيب، كركوك – بانياس جرى قبل كل شيء لأسباب اقتصادية، ذلك أن الحديث كان يدور عن ثلث الإنتاج السوري (راجع في هذا الفصل). ولسنا بحاجة إلى الإشارة أيضاً أنه وفي أعقاب احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة أُغلق العراق في وجه سورية الأمر الذي أدى إلى خسائر بالغة للاقتصاد السوري.

وصحيح أن السوريين قد سارعوا مع احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة إلى الإعلان بأنهم سيمتنعون عن التعاون مع النظام الموالي للغرب الذي سيقام في بغداد، إلا أنهم في نهاية المطاف استضافوا في دمشق أعضاء مجلس الحكم الذي أقامته الولايات المتحدة في بغداد. كما أنهم زادوا من اتصالاتهم مع الكتل والأجنحة العراقية المختلفة، مثلما هو الحال مع زعماء الكتل الكردية في شمال الدولة والزعماء الشيعة في جنوبها، وذلك على سبيل الاستعداد لليوم الذي يلي تأسيس الدولة العراقية.(١٤٢) ويبدو في هذه الحالة أيضاً، أن المصالح السورية، وما يجري في العراق نفسه أيضاً، هي التي ستملي في نهاية المطاف موقف دمشق.

---

(١٤١) **الحياة**، ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

(١٤٢) **السفير**، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. وكالة رويترز، ٤ كانون الثاني/يناير، ٣١ آذار/مارس ٢٠٠١. **الشرق الأوسط**، ٣٠ آب/أغسطس ٢٠٠١. وانظر أيضاً إيال زيسر "سورية"، ذكر سابقاً، الملاحظة ٦٠ من الفصل الثالث، ص ٥٥٠-٥٥٢.

صفحة جديدة، قصة قديمة

من المناسب أن نخصص اهتماماً خاصاً لعلاقات سورية مع جاراتيها القريبتين، الأردن وتركية، والتي امتازت في الماضي بالريبة والعداء. ومنذ أن صعد بشار إلى السلطة لوحظت جهوده التي بذلها للبدء بصفحة جديدة، بالذات، مع هاتين الدولتين، في محاولة للتخلص من رواسب الماضي، والتي تنبع من فقدان التعاطف الشخصي أو العداء التاريخي - السياسي والأيديولوجي - بين النظام السوري وجيرانه.

سورية والأردن

لقد بدأت العلاقات بين بشار والملك عبد الله بداية خيّرة، وكان يبدو أنه يوجد للاثنين لغة مشتركة على خلفية عمرهم الصغير ورؤاهم، التي هي ثمرة تواجد مستمر في الغرب. وللدلالة على ذلك، فقد أكثر بشار والملك عبد الله من لقاءاتهما حتى قبل أن يصعد بشار إلى السلطة، وبعد ذلك أيضاً. وحتى أن الملك عبد الله، وكبادرة حسن نية، قيّد خطوات الجناح السوري لمنظمة الإخوان المسلمين الذين اختاروا عمان بالذات ملاذاً لهم. فقد أغلقت مكاتب المنظمة في نهاية عام ٢٠٠٠، وحتى أن السلطات الأردنية أمرت في آب/أغسطس ٢٠٠١ المشرف العام للإخوان صدر الدين البيانوني بمغادرة عمان إلى لندن. سورية من جانبها، وافقت للمرة الأولى منذ سنوات طويلة على السماح بدخول الصحف الأردنية إليها، مثل صحيفتي الرأي والدستور، وحتى أنها أطلقت خلال عام ٢٠٠١ سراح سجناء أردنيين كانوا مسجونين لديها. كما أن السوريين دأبوا في كل صيف على تزويد الأردن بعدة ملايين من الأمتار المكعبة من مياه الشرب وذلك من أجل التخفيف من حدة النقص في المياه في المملكة.[١٤٣]

ولكن سرعان ما اتضح أن الخلافات الأساسية في الرأي بين الأردن وسورية

---

(١٤٣)أنظر أقوال نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، **الشرق الأوسط** ١١آذار/مارس ٢٠٠٣. وكذلك سانا، ٢٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

في قضية العلاقة مع إسرائيل والولايات المتحدة، ومع الغرب بشكل عام، استمرت في التفريق بين بشار وبين شريكه في "جيل الإنترنت". و لم يرتح الأردنيـــون، إذاً، عندما اكتشفوا أن سورية قد ساعدت عناصر حزب الله في محاولتـــهم لتـــهريب السلاح عبر سورية إلى الأردن، من أجل استخدامه ضد أهداف إسرائيلية، أو أنهـــا على الأقل غضت الطرف عن ذلك.(١٤٤) وقد زاد استعداد الأردن للوقـــوف إلى جانب الولايات المتحدة في المواجهة الآخذة في التشكل مع العـــراق التـــوتر بـــين الدولتين، وكذلك أيضاً الجهود الأردنية لتحقيق الهـــدوء في الـــتراع الإســـرائيلي الفلسطيني التي عارضتها سورية بشدة. ويذكر أن سلسلة مظـــاهرات جـــرت في دمشق وُجّهت، بالإضافة إلى جهات أخرى، ضد الأردن.

التوتر بين الأردن وسورية وصل إلى ذروته وذلك عندما اتهم الملك عبد الله في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣ دمشق بأنها تقوم بمساعدة العناصر الإرهابية العاملـــة في العراق، ودعاها إلى إغلاق حدودها مع هذه الدولة.(١٤٥) وقد ردت صـــحيفة **البعث**، لسان حال الحزب، على ذلك بقولها إن "الأردن يساعد الولايات المتحدة في جهودها للسيطرة على الشرق الأوسط وإخراجها من يد العرب".(١٤٦) لكـــن الدولتين عملتا على الدفع من أجل أن تدشنا معاً سد **الوحدة** على نهر اليرمـــوك، وهو مشروع مشترك للدولتين والذي استغرقت عملية إقامته أكثر من عقـــد.(١٤٧) ومهما يكن من أمر فإنه يجب الاعتراف أن العلاقات بين سورية والأردن كانـــت مشحونة أقل من العلاقات بينهما في فترة حكم الملك حسين وحافظ الأسد.

سورية وتركية

لقد أفلح بشار في جهوده لتحسين العلاقات مع تركية. وقد بدأ هذه التحسن عملياً منذ عهد حافظ الأسد، مع التوقيع على اتفاق أضنة أواخر عام ١٩٩٨. وقد

(١٤٤) **المجد**، ٢٣ تموز/يوليو ٢٠٠١. **الحياة**، ١٣ آب/أغسطس ٢٠٠١.

(١٤٥) شبكة CNN، ٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

(١٤٦) **البعث**، ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

(١٤٧) سانا، ٤ شباط/فبراير ٢٠٠٤.

انتهى الاتفاق إلى وضع حدّ للمواجهة الدائمة بين البلدين، والتي تدهورت في الفترة ذاتها إلى أن وصلت إلى شفا الحرب. وفي أعقاب التوقيع على الاتفاق توقف السوريون عن دعم المنظمة السرية الكردية PKK، وحتى أنهم طردوا زعيمها عبد الله أوجلان من دمشق، والذي سقط في نهاية المطاف بين أيدي الأتراك.

وفي أعقاب الهزة الأرضية التي ضربت تركية صيف ١٩٩٩ وحصدت آلاف الضحايا سارع السوريون إلى تقديم المساعدة الإنسانية لمتضرري الهزة. وقد قوبلت تلك المساعدة بالشكر من القلب وبالثناء من جانب الأتراك. ورد الأتراك أنفسهم ببادرة مماثلة مع وفاة رئيس سورية، وذلك عندما وصل الرئيس التركي الجديد، أحمد نجدت سيزار، بشكل مفاجئ، إلى دمشق من أجل المشاركة في مراسم التشييع. وحتى أن سيزار صرح بأن تركية مستعدة لمساعدة القيادة السورية الشابة على فتح صفحة جديدة من العلاقات بين البلدين.[١٤٨]

وفي تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ وصل إلى أنقرة نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، والذي كان قد تبنى في الماضي خطا متشدداً ومعادياً تجاه تركية. وقد أعلن خدام فور عودته أن "تركية وسورية يجمعهما تاريخ مشترك مميز لمئات السنين".[١٤٩] وأعلن خدام أيضاً أنه يدرك بأنه يجب على السوريين تفحص الكتب المدرسية في بلادهم، وتعديلها بما يسمح بإلقاء الضوء بشكل أكثر إيجابية على الماضي المشترك للدولتين. وكما هو معروف، يُنظر إلى فترة التواجد العثماني في سورية على أنها فترة مظلمة من الاحتلال والدكتاتورية. ولكن الحقيقة هي أن التلفزيون السوري منع في أواخر عام ٢٠٠٢، وللمرة الأولى منذ سنوات، عرض حلقات المسلسل **ليل المسافرين**، الذي يعرض الامبراطورية (العثمانية) بشكل سلبي (وقد أُعلن من دمشق أنه تم عرض ست حلقات فقط من حلقات المسلسل الثلاثين حيث أوقف بعد ذلك استجابة لطلب السفارة التركية في دمشق).[١٥٠]

(١٤٨) وكالة AP، ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠١. **الثورة**، ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠٢، ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

(١٤٩) راديو دمشق، ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(١٥٠) **أخبار الشرق**، ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

وأخيراً، في حزيران/يونيو ٢٠٠٢، وصل إلى أنقرة في زيارة تاريخية رئيس الأركان السوري حسن تركماني الذي التقى قيادة الجيش التركي وحتى أنه وقع على سلسلة من اتفاقيات التعاون العسكري في مجال التدريب في كل من الجيشين. وقد فتح بذلك كوة للتعاون الآخذ بالاتساع، وإن كان محدوداً، بين الجيشين السوري والتركي.(١٥١)

ولكن كان واضحاً منذ البداية أن سورية وتركية ستواجهان صعوبة في التوصل إلى توافقات بينهما تمكنهما من التوصل إلى تسوية شاملة للمشاكل العالقة بينهما. وهكذا استمرت قضية اقتسام مياه الفرات تشكل نقطة خلاف كأداء في العلاقات بين الدولتين: السوريون استمروا بالعمل على إفشال خطة أنقرة بإقامة السدود التي من شأنها إلحاق الضرر بتدفق مياه النهر إلى سورية، وحتى أنهم هددوا بفرض مقاطعة على الشركات الغربية التي تساهم بإنشائها.(١٥٢) أما الأتراك من جانبهم فقد واصلوا التمسك بمعارضتهم لإجراء مفاوضات مع سورية في قضية التقاسم. وحتى أن رئيس الحكومة التركي مسعود يلماظ أعلن في بداية آذار/مارس ٢٠٠١ أن "نهر الفرات هو نهر تركي، ولذلك على تركية استغلاله قبل كل شيء لاحتياجاتها هي".(١٥٣) ومع ذلك، وفي أعقاب دفء العلاقات بين البلدين، كان يبدو أنهما تعملان على تخفيض حدة الخلافات بينهما في هذا الموضوع، وأنهما مستعدتان لاستئناف المداولات بين المختصين المهنيين، من سورية وتركية والعراق، وذلك بهدف التوصل إلى تفاهم مشترك لاقتسام المياه بين الدول الثلاثة.(١٥٤)

وقد حصل تقدم مفاجئ أيضاً في قضية لواء الاسكندرون. فقد طالب السوريون بداية بإبقاء القضية مفتوحة وتأجيل النقاش فيها إلى المستقبل البعيد.

---

(١٥١) **الحياة**، ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. وانظر أيضاً تقارير حول زيارة ضباط سوريين رفيعي المستوى إلى تركية في شباط/فبراير ٢٠٠٢. **ميليت** ٢٥ شباط/فبراير ٢٠٠٢. **البيان**، ٦ شباط/فبراير ٢٠٠٢. **السفير**، ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(١٥٢) **الاندبيندنت**، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠. وكالة الأنباء الفرنسية، ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

(١٥٣) **جمهوريت**، ٥ آذار/مارس ٢٠٠١.

(١٥٤) إيال زيسر "سورية"، ذكر سابقاً، الملاحظ ٦٠ في الفصل الثالث، ص ٥٥٢-٥٥٣.

تركية من جانبها اشترطت تحقيق أية انطلاقة في العلاقات بين البلدين باعتراف سوري واضح بالحدود الحالية بين البلدين، أي بحقيقة ضم اللواء إلى تركية. ولكن وجد السوريون صعوبة الموافقة على ذلك، وحال هذا الخلاف على مدى السنوات الأخيرة من قيام بشار بالزيارة المخطط لها إلى أنقرة، والتي كان من المقرر أن تبشر ببداية عصر جديد من العلاقات بين البلدين.(١٥٥)

وفي شباط/فبراير ٢٠٠٢ اشتكى وزير الخارجية السوري من "إن هذا التصلب لن يفيدها، ذلك أنه في نهاية المطاف ستضطر أنقرة إلى الاعتراف بالواقع وأن تعيد اللواء إلى سورية".(١٥٦) وأضاف الشرع في مقابلة للتلفزيون التركي أن "نظرة إلى الخرائط التي رسمت في تركيا في عهد كمال أتاتورك تظهر أنها لا تضم لواء الاسكندرون في حدود تركية". وأكثر من ذلك، يدل التاريخ على أن الخلافات في قضايا تحديد الحدود هي أمر طبيعي، وهي موجودة بين الكثير من الدول العربية، مثلما هو الحال أيضاً بين الكثير من الدول الأفريقية. ولكن من المناسب ألا نصعد الخلاف إذ أنه يمكن أن يؤثر بشكل سلبي على علاقات الدولتين". ولذلك فقد أوصى الشرع بتطوير العلاقات بين الدولتين بدون وضع شروط مسبقة، إذ أن التقدم في هذه العلاقات "سيؤثر بشكل إيجابي على الخلاف في قضية الحدود، الأمر الذي سيُمكّن من تسويتها خلال عدة سنوات.(١٥٧) ولكن أُفيد من دمشق، في بداية عام ٢٠٠٣، أنه بدئ، بتوزيع خرائط يظهر فيها لواء اسكندرون كجزء من تركية، كتعبير عن اعتراف سوري، وإن كان متحفظا ومرغما، بالواقع الإقليمي القائم بين الدولتين على مدى الأعوام الستين الأخيرة.(١٥٨) وكان من شأن هذا أن يرضي تركية ويتيح شطب القضية من على جدول الأعمال، حتى الآن على أية حال.

---

(١٥٥) **توركيش ديلي نيوز**، ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **جمهوريت**، ٢١ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

(١٥٦) وكالة الأنباء الفرنسية، ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(١٥٧) التلفزيون التركي، ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

(١٥٨) وكالة الأنباء الإيطالية، ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. راديكال، ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

ومن المحتمل أن يكون التغيير في الموقف السوري مرتبط بتشكيل حكومة إسلامية في تركية، في أعقاب الانتخابات التي جرت في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢، وقد اُستقبل إقامة الحكومة في دمشق بالترحيب، ولم يمر وقت طويل حتى اُستقبل رئيس الحكومة التركية الجديد عبد الله غول كضيف شرف في دمشق. وقد رد رئيس الحكومة السورية الزيارة في العام نفسه، وحتى أن الدولتين عملتا على تنسيق المواقف بشكل مؤقت تجاه الهجوم الأمريكي المرتقب على العراق وبعده، وخاصة في القضية الكردية. ومع ذلك، وقفت الحكومة التركية، هذه المرة برئاسة زعيم الحزب الإسلامي، رجب طيب أوردغان، وإن كان بشكل جزئي ومتحفظ، إلى جانب واشنطن، وامتنعت، على سبيل المثال، عن تقديم غطاء لسورية تجاه التهديدات الأمريكية لها. وحتى أنها بعد ذلك أعربت عن استعدادها لإرسال قوات تركية إلى العراق، الأمر الذي استقبل بانتقاد واضح في دمشق.[١٥٩] ومع ذلك فإن الخوف المشترك لكل من تركية وسورية من احتمال تشكيل دولة كردية شمال العراق، أدى إلى إصلاح العلاقات بينهما بشكل دراماتيكي. وبالفعل، وصل بشار في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤ إلى أنقرة في زيارة تاريخية، وهي الزيارة الأولى من نوعها لرئيس سوري لتركيا منذ حصول سورية على استقلالها. وقد تحدث الطرفان عن التفاهم بعيد المدى الذي تم إحرازه بين الدولتين، والذي يفسح المجال أمام تطبيع العلاقات بينهما، بعد سنوات طويلة من الريبة والعداء. وقد أُعلن في أنقرة عن استعداد تركية للتوسط بين إسرائيل وسورية، وحتى للعمل على كسر الجليد بين واشنطن ودمشق.[١٦٠] وعلى الرغم من ذلك، فإنه من الواضح أن الأمر بعيد عن تأسيس حلف ودي بين تركية وسورية، ذلك أن دمشق كانت قد اكتوت قبل مرة، مع إقامة حكومة أربيكان في صيف ١٩٩٦، والتي لم تفشل في حل المشاكل الأساسية بين الدولتين وحسب، بل أنها دفعت باتجاه تدهور ملحوظ في العلاقات بينهما (رغم أن الأمر حصل بعد سقوطها).

---

(١٥٩)**الحياة**، ٩ كانون الثاني/يناير، ٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(١٦٠)**الحياة**، ٥، ٩، ١١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. وكالة رويترز، ٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

وملخص الأمر هو أن السياسة الخارجية لبشار الأسد، ومثلما هو حال سياسته في مجالات أخرى، دلت على التمسك بالوضع الراهن ومسلمات الماضي. وقد مرت النسمة المنعشة التي شُعر بها في دمشق في أعقاب تبادل السلطة في دمشق بسرعة، واتضح للجميع أنه ما لم يبلور بشار لنفسه نبوءة وأهدافاً، ورؤى وجدول أعمال خاصة به، وما لم تصقله التجربة وتراكم لديه الخبرة في الحياة، فإنه يجب عدم انتظار تغيير حقيقي في طريقة إدارة، وفي الخطوط العامة، للسياسة السورية. وهي ستستمر في التقلقل بين الخوف من الولايات المتحدة الأمريكية وبين الاندماج في النظام العالمي الجديد، وبين الحنين إلى النظام القديم الذي كان سائداً في السبعينيات والثمانينيات الذي دفع سورية إلى تعزيز علاقاتها مع إيران، وفي حينه مع عراق صدام حسين وإلى بسط رعايتها على حزب الله أيضاً. ولقد أدى تصرف بشار خلال الحرب على العراق، وهي أول امتحان هام له، إلى وضعه، كما قلنا سابقاً، على مسار تصادمي مع الإدارة الأمريكية. ومع ذلك، يبدو أن بشار قد أدرك في نهاية المطاف ما هو الخط الدقيق الذي يجب عدم تجاوزه، والذي يفصل بين أمنيات النفس ولواعجها، وبين بلورة وإدارة سياسة واقعية وبراغماتية، والتي يقتضيها الواقع والمقتضيات التي تواجهها سورية، وخاصة في ظل احتلال العراق ووجود مئات آلاف الجنود الأمريكيين على أرضه.

الفصل السابع

سورية وإسرائيل في عهد بشار الأسد

في الثامن من كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩ أعلن الرئيس كلينتون عن استئناف محادثات السلام بين إسرائيل وسورية، وهذه المرة بمشاركة رئيس الحكومة الإسرائيلية، (ايهود باراك)، ووزير الخارجية السوري فاروق الشرع، وقد أثار استئناف المحادثات على هذا المستوى العالي، وللمرة الأولى على المستوى السياسي - ذلك أن المفاوضات جرت في السابق على مستوى دبلوماسيين عاديين وخبراء تقنيين وعسكريين - أثار موجة من التفاؤل لإمكانية تحقيق خرق في المفاوضات، وربما كذلك التوصل إلى اتفاق سلام إسرائيلي سوري خلال شهور معدودة.(١)

إلا أن اختراقاً كهذا لم يحصل. فاستئناف المفاوضات في واشنطن، وبعد ذلك في بلدة شيبردزتاون في جورجيا الغربية، لم تعط ثمارها، وسرعان ما وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود.(٢) وكان يبدو أن الحواجز النفسية بين الدولتين قد

(١) **هآرتس**، ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩. وانظر أيضاً أقوال إيتامار رابينوفيتش، سفير إسرائيل السابق في الولايات المتحدة ورئيس الوفد المفاوض للمحادثات مع سورية بين الأعوام ١٩٩٢-١٩٩٦، التلفزيون الإسرائيلي، القناة الأولى، ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩.

(٢) Eyal Zisser, "What Went Wrong", Orient, Vol. 42 (2/2001), pp.25-49. للإطلاع على الخلفية التاريخية لمفاوضات السلام السورية الإسرائيلية، أنظر إيتامار رابينوفيتش، **عتبة السلام**، تل أبيب: **يديعوت احرنوت**، ١٩٩٨. موشيه ماعوز، **إسرائيل وسورية – نهاية النزاع**، أورو يهودا: إصدار معاريف، ١٩٩٦. إيال زيسر، **"سورية الأسد"**، سبق ذكره،

ازدادت ارتفاعا. وقد أُعلن عن نعي مسيرة السلام على المسار السوري – اللبناني في إسرائيل وفي الولايات المتحدة في أعقاب فشل اجتماع جنيف بين الرئيسين الأسد وكلينتون في أواخر آذار/مارس ٢٠٠٠. وبالفعل، اتضح منذ الدقائق الخمس الأولى للاجتماع أنه وصل إلى طريق مسدود. فقد رفض الأسد الاستماع إلى اقتراح الحل الوسط من قبل ايهود باراك، والذي يقول إن إسرائيل ستقبل خط الرابع من حزيران/يونيو كخط للحدود المستقبلية بينها وبين سورية، ولكن مقابل ذلك تحتفظ لنفسها بشريط عن الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبرية. وقد حرص الأسد على إبلاغ كلينتون أن الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبرية كان في يد السوريين عشية حرب الأيام الستة، وإنه هو نفسه سبح في مياه البحيرة واصطاد سمكها وأكل منه. وحرص أيضاً على أن يذكر بأنه في عهد صلاح الدين كانت بحيرة طبرية عربية وإسلامية. ولا شك في أن فشل الجهود للتوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل وسورية شكل نهاية للمفاوضات بين الدولتين، على الأقل في الصيغة التي دارت وفقها حتى الآن على امتداد سنوات التسعينيات. وقد وقف الطرفان فعلاً على شفا الاتفاق، ولكنهم في نهاية المطاف فشلا في تحقيق الهدف المرجو، ولم يكن الأمر عبارة عن حفرة إضافية في الطريق الوعرة التي ينبغي على الدولتين قطعها، إلا أنه كان فشلا في لحظة الحقيقة. فقد اتضح أن الجهد (المطلوب) إنما هو خارج نطاق قدرتهما، وحتى أنه ليس في متناول أيديهما.

وقد أعاد الكثيرون الفشل الذي حصل إلى الخلافات في الرأي بين الدولتين حول خط الحدود المستقبلي بينهما، وبكلمات أخرى، إلى عدم قدرتهما على حسم الخلاف الذي يدور حول بضع عشرات أو مئات من الأمتار على الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبرية. وإذا كانت الأمور على هذا النحو، وإذا بقي التوصل إلى

الملاحظة ٢٢ في التمهيد، ص ١٢٠-١٦٦. وانظر أيضاً Helena Cobban, The Israeli-Syrian Peace Talks, 1991-1996 and Beyond, Washington D.C.: United States Institute of Peace Press, 1999; Interview with former Syrian Ambassador to Washington, Walid al-Mu'allim, Journal of Palestinian Studies, vol. XXVI, No. 2 (Winter 1997), pp. 401-412.

السلام هدفاً تتطلع إليه كل من سورية وإسرائيل معاً، فإنه يمكننا الافتراض أنه سيكون بإمكان الدولتين عاجلاً أم آجلاً، التغلب على هذه الهوة، والتي هي صغيرة نسبياً بالنسبة للفجوات التي نجحت الدولتان في ردمها منذ بداية المفاوضات في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١.

لكن يبدو أن هذا الأسلوب التبسيطي يتجاهل حقيقة أن المفاوضات أظهرت عدم وجود النضج المطلوب من أجل دفع السلام لدى كل من الجانبين. فقد رفض السوريون تبني سياسة سلاميّة وإرسال رسالة تصالحية إلى الجمهور الإسرائيلي، وهو الشرط الضروري لحشد التأييد الواسع للتنازلات المؤلمة المطلوبة منها. كما أن حكومة إسرائيل امتنعت، على ما يبدو، بسبب معارضة الرأي العام في إسرائيل، عن الاستجابة للمطالب السورية للانسحاب إلى خطوط الرابع من حزيران/يونيو، والذي يعني علمياً عودة السوريين إلى الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبرية. لذا فقد تقوى الاعتقاد لدى الكثيرين أنه في أعقاب فشل المفاوضات، مع الأخذ بالحسبان الفجوات التي بقيت بين مواقف الطرفين، فإن المطلوب هو أكثر من مجرد الوساطة الأمريكية التي تتركز على إيجاد صيغ كلامية تكون مقبولة على كلا الطرفين. وأن تحولاً دراماتيكياً في سورية أو في إسرائيل، هو فقط ما يستطيع خلق الظروف التي تمكّن من إنقاذ المفاوضات من الطريق المسدود الذي وصلت إليه.

وفاة حافظ الأسد في أيار/مايو ٢٠٠٠، أعطت الانطباع بأن مثل هذا التحول قد بات وشيكاً إذ أن الكثيرين في إسرائيل وفي الغرب كانوا ينظرون إلى الأسد الأب كعائق في طريق السلام، وذلك بسبب شخصيته وفكره، وفوق كل شيء، انتمائه إلى جيل الماضي، الذي كان ملتزماً بكل ما فيه بالنضال ضد إسرائيل حتى إبادتها. وفي مقابل ذلك، نُظر إلى بشار كشاب عصري، الذي يعرف بشكل جيد نمط الحياة والتفكير الغربيين. وحقيقة أن بشار حرص على تقديم نفسه في كل مناسبة كمن يريد إدخال سورية إلى القرن الحادي والعشرين ودمجها في العالم الواسع، قد شجعت هذا التصور. وكان هناك في إسرائيل أيضاً من أشار إلى حقيقة أن بشار كان يبلغ العامين من العمر عندما اندلعت حرب الأيام الستة، ومن الممكن ألاّ تكون لديه رواسب الماضي التي بلورت نظرة والده لإسرائيل. وكان

يبدو أنه في الوقت الذي كان والده يمثل مزاج الشارع العربي في الخمسينيات والستينيات، والذي تميّز بالحماسة القومية، المعادية للغرب ولإسرائيل، فإن بشار يمثل التحول الذي بدأ مع مرور السنين، والذي تجسد بشكل أساسي بفتور هذه الحماسة.(٤)

وكان هناك في إسرائيل من أمل بأن يُظهر حاكم سورية الجديد ليونة أكثر من والده في ما يتعلق بالطلب السوري بالانسحاب الإسرائيلي وإعادة القوات السورية إلى شاطئ طبرية. كما أملوا بأن يظهر بشار كشريك مريح أكثر من والده لإدارة المفاوضات. وأن يُقْدِم بصفته أميناً على الثقافة السياسية الغربية، على اتخاذ خطوات في إطار "السياسة العلنية"، والتي كانت مفقودة جداً في فترة والده الراحل - كأن يجري مقابلات مع وسائل الإعلام الإسرائيلية، وحتى أن يلتقي زعماء وشخصيات عامة إسرائيلية. وفي صيف ٢٠٠٠ كان يبدو أن بشار سينجح، عن طريق الابتسامات والمصافحات، في ما فشل والده في تحقيقه بعلاقته المتشددة والباردة، وعن طريق الضغط العسكري.(٥)

وقد ترحّم نفر غير قليل في إسرائيل على تفويت الفرصة التاريخية للتوصل إلى اتفاق سلام مع سورية في الأشهر الأخيرة من حياة حافظ الأسد. وقد لمح إلى ذلك سفير الولايات المتحدة السابق في إسرائيل مارتن انديك، الذي أشار في محاضرة ألقاها في آذار/مارس ٢٠٠٢ في جامعة تل أبيب، أنه وحسب انطباعه، فإنه في أعقاب فشل قمة الأسد كلينتون في جنيف، كان ايهود باراك على استعداد لإبداء مرونة أكبر، إلى درجة الاستعداد للاستجابة لطلب سورية بالانسحاب إلى خطوط ١٩٦٧ - وهو الطلب الذي كان قد رفضه من قبل رفضاً قاطعاً. إلاّ أن الأسد في ذلك الوقت كان في أواخر أيامه، ووجه القوة القليلة التي تبقت له في إطار جهوده لضمان انتقال السلطة إلى ابنه بشار. ولقد كان الأسد في أواخر ١٩٩٩ أشد حماساً من باراك للتوصل إلى اتفاق سلام. ولكن في آذار/مارس ٢٠٠٠ انقلبت

(٤) أنظر على سبيل المثال **هآرتس**، ١١، ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠، **يديعوت احرونوت**، ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

(٥) أنظر التلفزيون الإسرائيلي، القناة الثانية، ١٠، ١٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

الأمور وكان باراك هو من أظهر حماسة لذلك، بينما كانت نافذة الفرص في دمشق قد أُوصدت.(٦)

والجدير بالذكر أنه قد سمعت أيضاً في أوساط قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي أصوات غير قليلة، بعد فوات الأوان، من بينها قائد قيادة المنطقة الشمالية اللواء غابي اشكينازي في ذلك الوقت، الذي قال إنه ربما كان من الأفضل أن يتوصل ايهود باراك إلى اتفاق سلام مع السوريين، ويوفر بذلك على جيش الدفاع الإسرائيلي، ولو بثمن الانسحاب إلى حدود ١٩٦٧، الإهانة المرتبطة بالانسحاب أحادي الجانب من جنوب لبنان، والذي تحولت مراحله الأخيرة إلى فرار متسرّع ضد عقارب الساعة، مع ما رافق ذلك من تنكر لحلفاء إسرائيل، من عناصر جيش جنوب لبنان، وبدون إبعاد تهديدات حزب الله بشكل مطلق عن حدود إسرائيل الشمالية. ولا توجد حاجة أيضاً للحديث عن التأثيرات التي كانت ستكون لاتفاق السلام الإسرائيلي - السوري على مسار المفاوضات الإسرائيلي الفلسطيني، والذي وصل هو الآخر في صيف ٢٠٠٠ إلى طريق مسدود، في الطريق إلى انتفاضة الأقصى.(٧)

لقد تمّ التعبير عن استعداد إسرائيل لتليين المواقف واستغلال الفرصة السانحة مع صعود بشار إلى السلطة من خلال الأقوال التي أدلى بها وزير العدل في ذلك الوقت يوسي بيلن في مقابلة مع القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي، بعد أسبوع واحد بالضبط من وفاة حافظ الأسد. فقد صرّح بيلن بأنه يعتقد أن اقتراح الحل الوسط الذي اقترحه باتريك سيل قبل عدة أشهر من ذلك والذي يقضي بأن تسلم إسرائيل الجزء الشمالي - الشرقي من بحيرة طبرية للسوريين على أن تبقى مفتوحة للإسرائيليين، وذلك على غرار ما هو قائم بين مصر وإسرائيل عند معبر الحدود في طابا، مقبول ليكون قاعدة لاستئناف المفاوضات مع السوريين.(٨)

---

(٦) للإطلاع على مضمون أقوال مارتن انديك أنظر **يديعوت احرونوت**، ١٦ آذار/مارس ٢٠٠١.

(٧) **هآرتس**، ١٥ آذار/مارس ٢٠٠٢.

(٨) التلفزيون الإسرائيلي، القناة الثانية، ١٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

وبنظرة إلى الخلف يصعب تقدير السبب للتفاؤل الإسرائيلي على صعيد أفكار بشار في قضية النزاع واتفاق السلام. حيث أن بشار، في نهاية المطاف، قد قضى غالبية سني عمره في بيت أبيه في دمشق، وكان التزامه بإرث والده هو البطاقة التي أدخلته إلى قصر الرئاسة، والتي بسببها حاز على دعم الحرس القديم وبقية مراكز القوى في النخبة السياسية والأمنية - العسكرية في سورية.

لقد كان بالإمكان إلقاء نظرة خاطفة على آراء بشار قبل صعوده إلى السلطة، وذلك من خلال سلسلة مقابلات أجرتها معه وسائل الإعلام العربية والعالمية، والتي خصصت، كما سبق وذكرنا، من أجل بناء شخصيته كوريث مناسب لوالده. وقد لُمس في تلك المقابلات التزامه الواضح بسياسة الأسد الأب لجهة نظرته إلى إسرائيل، والقائمة على استعداد متردد للتوقيع على اتفاق سلام، إذا كان يستجيب للشروط السورية بالانسحاب إلى خطوط عام ١٩٦٧. ومع ذلك يجب الاعتراف أن اللهجة التي أستخدمها بشار تدل على أن لديه موانع أقل في ما يتعلق بإمكانية سلام إسرائيلي - سوري، مقارنة بوالده.

فعلى سبيل المثال، عندما سُئل بشار، في مقابلة له مع صحيفة **الوسط** في صيف ١٩٩٩، عما إذا كانت سورية على استعداد لإقامة علاقات سلام كاملة مع إسرائيل إذا قبلت الأخيرة بشروط سورية، رد قائلاً: "يجب أن يكون السلام كاملاً. إن السلام الناقص يعني التنازل على الحقوق وهو غير مقبول علينا. وقد تحدّث الرئيس الأسد في عام ١٩٩٤ أيضاً عن احتمال إقامة سلام عادي من النمط الذي تقيمه فيما بينهما أية دولتين عاديتين. ومع ذلك فإن السلام لا يعني إقامة علاقات حارة بين سورية وإسرائيل. فكل دولة تقيم مع الدول الأخرى علاقات عادية، أما العلاقات الحميمية فهو أمر له علاقة بالمجتمع نفسه. ومن غير الممكن إقامتها بقرار السلطات.[٩] وفي ما يبدو أنه تسليم مع إمكانية إقامة علاقات سلام إسرائيلية سورية، أضاف الأسد إن "سورية تواجه اليوم قضية كيفية ضمان تحقيق السلام المشرف، أي كيف تُظهر قوة تمكنها من تحقيق من هذا السلام.. وربما

(٩) **الوسط**، ٢٣ آب/أغسطس، ١٩٩٩.

سيكون عليها مواجهة تحديات أخرى في المستقبل، مثل قضية هل يتم البحث عن بدائل للنزاع العسكري [لجهة الصراع مع إسرائيل]، وكيفية الاستمرار في الحفاظ على القوة والمنعة التي تمكن من مواجهة تحديات المستقبل".

وفي نيسان/أبريل ٢٠٠٠، بعد وقت قصير من فشل قمة الأسد - كلينتون، عاد بشار وأجرى مقابلة مع **الوسط**، وقد امتنع هذه المرة أيضاً عن إغلاق الباب في وجه الأمل لتحقيق سلام إسرائيلي - سوري. وبشكل مفاجئ، قلّل بشار من أهمية فشل قمة جنيف، ذلك أنها، حسب قوله، إحدى المحطات في الطريق إلى السلام. "إن التشاؤم الذي ساد في أعقاب [فشل] قمة جنيف أكثر من اللازم. فقد كان هناك من اعتقد لقاء القمة سيحول دون انهيار مسيرة السلام، وكان هناك أيضاً من وصفوه بأنه "الفرصة الأخيرة"، ولكن هذا الوصف غير صحيح. صحيح أن الحديث يدور عن محطة هامة، ولكن مع ذلك، هي محطة من الكثير من المحطات على طريق السلام.(١٠) وأضاف بشار "إننا الآن موجودون في بداية المفاوضات. المواقف واضحة، كما أن ما هو مطلوب من الطرفين واضح. إن هناك ضرورة لاتخاذ القرار وقد وصل الوقت لفعل ذلك. وإذا ما قررت إسرائيل الاستجابة لمطالب السلام العادل والشامل وقبلت مبدأ إعادة كامل الأراضي، فإن هذا الأمر سيُمكّن من استئناف مفاوضات السلام. إلاّ أن السلام يجب أن يكون كاملاً، ذلك أن السلام الناقص ليس سلاماً. وعلى أية حال ليس هناك ما يدعو للاستعجال، إذ أن السلام بدون سورية هو سلام ناقص".

وعشية وفاة والده قال بشار في مقابلة مع صحيفة **الشرق الأوسط**، والتي نشرت بعد وفاة الأسد الأب، : "إن الفرق بين إسرائيل وسورية يَكْمُن في أنه تقف على رأس جدول الأولويات الإسرائيلي قضايا مثل الأمن والأرض والمياه. وفي ما يتعلق بالاحتياجات الأمنية [لكلا الطرفين] فإنه من المعروف أن إسرائيل كانت دائماً المعتدية وهي التي هاجمت [العرب] في الماضي. كما أنه من المعروف أن ميزان القوى يميل لصالحها، وأنه يوجد في حوزتها وسائل تكنولوجية متطورة، مثل الأقمار الصناعية،

---

(١٠) **الوسط**، ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠.

والتي تعطيها القدرة على الإنذار المسبق. ومن هنا فإن ذريعة الأمن التي يرفعها الإسرائيليون بغطرسة، لا أساس لها من الصحة وغير فعالة. أما في ما يتعلق بالأرض فإن الجانب السوري أعلن بوضوح أنه لن يفاوض على أي سنتيمتر من أراضيه، وحتى أن إسرائيلي أعلنت في ردها أنها تقبل هذا الشرط. وعلى هذا الأساس دارت المفاوضات منذ ذلك الوقت وحتى هذا اليوم. أما في ما يتعلق بمسألة المياه فقد طرحت إسرائيلي عدد من الحجج التي لا أساس لها من الصحة، فقد ادعت على سبيل المثال أن السوريين قد يلوثوا مياه بحيرة طبرية. إلاّ أن التسوية التي تقترحها إسرائيل لحل المشكلة، أي إبعاد السوريين من ١٠ - ٣٠٠ متر عن شواطئ البحيرة، لا معنى له، ولا يوجد له علاقة مع الادعاءات الكاذبة التي توردها إسرائيل".

وقد سئل بشار أيضاً إذا ما كان يتوقع التوصل إلى سلام خلال عام أو عامين، وكان رده، الذي لم يأتِ عنه بشكل مباشر بل نقل على لسان مصدر سوري رفيع المستوى، إن "السلام يقاس بالنتيجة وليس بالزمن. والنتيجة مرهونة بالرغبة في السلام، وموقف سورية واضح: إننا نريد سلاماً عادلاً ومشرفاً. إن للشعب السوري ثقة كبيرة بقائده، وهو سيفوضه بالتوقيع على اتفاق للسلام عندما يكون ذلك ممكناً. ولكن الشارع السوري توصل إلى نتيجة وهي أن باراك غير جدي بالنسبة لمسيرة السلام، أو إنه غير قادر على اتخاذ القرار بسبب ضعفه السياسي".[(١١)]

إذاً، لقد تميزت تصريحات بشار في موضوع السلام مع إسرائيل بالاعتدال والحذر، ويُلمس فيها تسليم، بل وتأييد لمسيرة السلام كخيار استراتيجي، والذي تمّ اختياره من قبل سورية بزعامة والده. ويمكن أن نجد نموذجاً لذلك في خطاب القسم الذي ألقاه في السابع عشر من تموز/يوليو ٢٠٠٠ حيث أشار خلال أقواله إلى أن "إسرائيل لا تزال تحتل أرضنا في هضبة الجولان ويشكل هذا الموضوع بالنسبة لنا المصدر الأول للقلق، وقضية تشغلنا أكثر من أي أمر آخر. إن تحرير أراضينا المحتلة هو الهدف الأساسي الذي نضعه نصب أعيننا وعلى رأس سلم أولوياتنا الوطنية. وأهميته بالنسبة لنا تماثل الأهمية التي نعطيها للتوصل إلى سلام

---

(١١) **الشرق الأوسط**، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

عادل وشامل [في المنطقة]، وهو الخيار الذي نتبناه كخيار استراتيجي، ويهمنا تحقيقه شريطة ألاّ يكون على حساب أرضنا أو على حساب سيادتنا. ذلك لأن الأرض والسيادة أمر يرتبط بشرفنا الوطني وبشرفنا كعرب..

"وحتى هذه اللحظة، لم يفعل الإسرائيليون شيئاً لإقناعنا أن في نيتهم تحقيق السلام. بل على العكس من ذلك، هم يقدمون اقتراحات مختلفة هدفها إخفاء ما يفكرون به في أعماقهم... إنهم يطلبون منا إظهار المرونة، وهم يقصدون بالطبع مرونة في الموضوع الإقليمي، أي أن في رغبتهم تغيير الحدود بما ينسجم مع مصالحهم. ويرسلون إلينا بين الفينة والأخرى شخصيات طالبين منا الموافقة على حدود تختلف عن حدود الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧، ويقترحون تسمية الخط المعدّل خط الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧، وكأنّ الاختلاف بيننا هو على اسم خط الحدود. بالإضافة إلى ذلك هم يتوقعون أن نحصل على ٩٥% من الأرض، ولكن عندما نسأل عن الخمسة بالمائة الأخرى، يقولون إنها يجب ألاّ تشكل عائقاً في طريق السلام. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت بضع أمتار لا تشكل أية مشكلة ويحظر أن تشكل عائقاً في وجه السلام، فلماذا لا ينسحبون هم إلى خط الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧ ويعطونا أيضاً خمسة بالمائة من الشاطئ الغربي للبحيرة الذي كان معنا عشية الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧؟

"... إننا نريد فعلاً التوصل إلى السلام بسرعة، إلاّ أننا لسنا مستعدين للتفريط بأرضنا ولن نوافق على المس بسيادتنا. إننا نتعجّل السلام لأن هذا خيارنا ولأن الشعب السوري، الشعب العربي السوري، هو شعب محب للسلام، والذي أثبت رغبته بالسلام على مدى التاريخ. إننا نتوق لطريق السلام لأننا مشتاقون لكي يعود الجولان إليناكاملاً إلى أحضاننا وأن يعودوا مواطنوه إلى حضن الوطن... إن الشيء الواضح هو أن الجولان سيبقى سورية وسيعود إلى حضن الوطن عاجلاً أم آجلاً. ومهما كان الآخر فإننا لن نكون على استعداد لدفع أي ثمن لعجز الحكومات الإسرائيلية وعدم قدرتها على اتخاذ قرارات تدفع مسيرة السلام إلى الأمام.[١٢]

---

(١٢) راديو دمشق، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

السلام الذي أفلت

لقد خصص بشار شهور حكمه الأولى لتركيز جهوده على ترسيخ استقرار النظام في الداخل، بالإضافة إلى محاولة دفع الإصلاحات في المجالات الاجتماعية والاقتصادية. لقد خلق هذا التوجه للوهلة الأولى، الانطباع بأنه قد حُسم الجدل الدائر منذ سنوات طويلة في أوساط القيادة السورية حول قضية تقديم مواجهة المشاكل الداخلية والاقتصادية على الجهود المبذولة للتوصل إلى سلام مع إسرائيل، أو الانتظار إلى أن يتم التوصل إلى اتفاق، وبعد ذلك يتم الالتفات لمعالجة المشاكل الداخلية. وكما نذكر، فقد كان الصحفي باتريك سيل، المقرب من، حافظ الأسد، ورجل سره، الذي قال منذ بداية التسعينيات أنه طالما أن النزاع مع إسرائيل لم يحل، فإن النظام السوري يفضل إبقاء الوضع الراهن السياسي والاجتماعي والاقتصادي القائم في الدولة على حاله، وذلك بسبب التخوف من أن إدخال أي تغيير على الوضع الراهن يمكن أن يقوض استقرار النظام وإضعاف قدرة المساومة السورية أمام إسرائيل، في الوقت الذي ينبغي فيه على دمشق أن تُلقي بكامل ثقلها من أجل تحقيق اتفاق يستجيب لكل مصالحها الحيوية.[١٣]

ويبدو الآن أن بشار قد قرر في قرارة نفسه عدم تأخير معالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية السورية إلى حين التوصل إلى اتفاق سلام مع إسرائيل، حيث بدا في أعقاب فشل قمة الأسد - كلينتون في آذار/مارس ٢٠٠٠ أن آمال دفع مسيرة السلام أو حتى استئناف المفاوضات باتت ضئيلة جداً. ومع ذلك، فإنه يبدو، أنه لا يوجد أي تناقض على المدى البعيد بين إصرار بشار على دفع الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، وبين رغبته لدفع المسيرة السياسية مع إسرائيل. ذلك أن قراره بالتركيز على المشاكل الداخلية نبع، قبل كل شيء، من زيادة حدة الضائقة الاقتصادية التي انجرفت إليها سورية أواخر التسعينيات، ومن الإحساس بأنه يجب عدم تأجيل معالجتها أكثر من ذلك، حيث أن من شأن أي تأجيل أن يضع النظام في مواجهة مشاكل أكثر

---

(١٣) أنظر المقابلة المصورة مع باتريك سيل والتي تمّ بثها في إطار المؤتمر الدولي في موضوع "سورية الحديثة" الذي عُقد في جامعة حيفا، بين ١٧-١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧.

حدة. وقد دفعت زيادة حدة الضائقة الاقتصادية الكثيرين إلى التقدير بأن بشار سيصل، عاجلاً أم آجلاً، إلى النتيجة التي وصل إليها أنور السادات في حينه، وهي أن الطريق لمعالجة جذور المشاكل الداخلية تمر عبر القدس. أي أنه إذا كانت سورية تتطلع إلى الحصول على مساعدات اقتصادية وتكنولوجية من الولايات المتحدة والدول الغربية، والتي ليس بمقدورها مواجهة المشاكل بدونها، فإن عليها قبل كل شيء التوقيع على اتفاق سلام مع إسرائيل.

ومع ذلك، من المناسب الإشارة هنا إلى أن مجموعة الإصلاحات التي أراد بشار الدفع باتجاه تحقيقها ليس بالضرورة أن تكون شاهداً على وجود نبوءة أو رؤية شاملة فيما يتعلق بطريق أو شكل سورية في المستقبل، أو على الرغبة بإدخال تحول جدي في الواقع السوري وهو الأمر الذي يلزم تسوية النزاع الإسرائيلي - السوري. وعلاوة على ذلك فإن خطوات بشار لتحقيق الإصلاحات في المجالين الاجتماعي والاقتصادي - مهما كانت محدودة ومتدرجة، اصطدمت بصعوبات غير قليلة الأمر الذي أجبره في نهاية المطاف على الانحراف عن طريقه (أنظر الفصل الرابع).

وسواء كان بشار قد توصل إلى النتيجة بأن عليه أن يدفع مسيرة السلام الإسرائيلية - السورية قدماً كشرط لمعالجة مشاكل سورية الداخلية، وسواء لم تكن قد نضجت لديه قناعة من هذا القبيل، فإن الحقيقة هي أنه، وعلى امتداد شهور حكمه الأولى، دأب على إرسال الرسائل إلى كل من الولايات المتحدة وإسرائيل، ومفادها أن سورية معنية باستئناف المفاوضات والتوصل إلى تفاق سلام، وإن كان ذلك وفق شروطها. ولكن محللين في إسرائيل أعربوا عن تقديرهم أن الاستعداد الذي أبداه بشار، ولو بشكل نظري، يعود إلى رغبته في خلق الانطباع بأن الأمور تجري كالمعتاد، وذلك كجزء من جهوده لتأسيس حكمه، وإن لم يكن هو نفسه - شخصياً وجماهيرياً - قد نضج لاتخاذ قرار حقيقي لاستئناف المفاوضات مع إسرائيل، ناهيك عن التوصل إلى اتفاق سلام معها. إن هذا الافتراض يفسر الموقف المتريّث الذي تبنته إسرائيل حيال سورية على أبواب العهد الجديد.(١٤)

---

(١٤) أنظر في هذا السياق دعوة ايهود باراك، رئيس حكومة إسرائيل في ذلك الوقت، لبشار الأسد لاستئناف مفاوضات السلام معه. **معاريف**، ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

نذكر أيضاً أن إسرائيل قد ركّزت جهودها في صيف عام ٢٠٠٠ على التوصل إلى اتفاق سلام مع الفلسطينيين، وقد دفع ذلك مسار المفاوضات مع سورية إلى الزاوية. كما أن تسارع المفاوضات مع الفلسطينيين أدى إلى تآكل موقع ايهود باراك السياسي في إسرائيل وهو ما أثّر بشكل سيء على الأمل في استغلال وفاة حافظ الأسد من أجل من استئناف المفاوضات مع سورية. وقد عمل السوريون بدأب من أجل إفشال المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، والتي كانت تبدو بأنها تقترب من نهاياتها الناجحة. وقد خصصت وسائل الإعلام السورية حيزاً واسعاً لتوجيه انتقادات لاذعة لعرفات وللسلطة الفلسطينية، بسبب استعداده، حسب قول السوريين، التفريط بالحقوق التاريخية للفلسطينيين في المسجد الأقصى والقدس وعن حق العودة. كما أراد السوريين تطويق الفلسطينيين عن طريق تبني قرارات الأطر العربية والإسلامية - مثل مؤتمر الدول الإسلامية أو مؤتمر القدس- والتي تقيّد أيدي الفلسطينيين في المفاوضات مع إسرائيل. وقد رُفضت مقترحات تلك القرارات، التي أكّدت على ضرورة الانسحاب الإسرائيلي إلى خطوط عام ١٩٦٧ وضمان حق العودة للاجئين الفلسطينيين، رُفضت بشدة من قبل الفلسطينيين، لأنه نُظر إليها على أنها انتقاص من استقلالية القرار الفلسطيني.(١٥)

ومع ذلك، فإن خطوات السوريين لم تكن تهدف إلى هدم مسيرة السلام من أساسها، والتي بقيت، كما عادوا إلى تأكيد ذلك مراراً وتكراراً، خياراً استراتيجياً. وعليه، تبدو الجهود السورية لوضع العصي في عجلات المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، ضمانة حتى لا يتم نسيان المفاوضات السورية - الإسرائيلية، وألاّ يتوصل الفلسطينيون إلى اتفاق سلام منفرد مع إسرائيل، والذي سيضطر السوريون في نهاية المطاف، دفع ثمنه. ذلك أن تنازل فلسطيني عن المطالبة بالانسحاب الإسرائيلي إلى حدود عام ١٩٦٧ يمكن أن يُستخدم كسابقة خطرة بالنسبة للسوريين، في حال استئناف المفاوضات مع إسرائيل - علاوة على ذلك، كان السوريون متخوفين من أنه إذا تمّ التوصل إلى حل للصراع الإسرائيلي الفلسطيني،

---

(١٥) أنظر وكالة رويترز، ٢٩ آب/أغسطس ٢٠٠٠. وكالة الأنباء الكويتية، ٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

فإن الآمال ستتضاءل لتحريك مسار المفاوضات الإسرائيلي السوري، ذلك أنه ومع انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي في جنوب لبنان، فإن السوريين بقوا بدون عناصر ضغط فعلي على إسرائيل. وكان يبدو أن دول المنطقة والولايات المتحدة قد باتت تُسلّم باستمرار الوضع الراهن الهادئ نسبياً على حدود إسرائيل الشمالية.

مع اندلاع انتفاضة الأقصى

الآمال بأن المفاوضات الإسرائيلية - السورية ستستأنف في نهاية المطاف، وأنه سيكون بالإمكان في النهاية الجَسْر على الفجوات التي بقيت بين مواقف الدولتين، هذه الآمال تلاشت في بداية شهر تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ مع اندلاع انتفاضة الأقصى وتجدد النشاط العسكري لمنظمة حزب الله في منطقة مزارع شبعا على الحدود الإسرائيلية - اللبنانية. وانتفاضة الأقصى، التي انزلقت بسرعة لصراع عنيف ودائم، أثارت موجة سخط في الشارع العربي، والتي أُزكيت بواسطة وسائل الإعلام، وفي مقدمتها المحطات التلفزيونية الفضائية مثل الجزيرة وMBC. والتي نقلت في بث حي ومباشر، وفي بعض الأحيان بدون إعداد، مناظر ساحات المعارك بين إسرائيل والفلسطينيين- حيث ساهمت مسيرة العولمة والثورة في وسائل الإعلام إلى تعميق شقة الخلاف بين إسرائيل والعالم العربي.

لقد نزل اندلاع انتفاضة الأقصى على دمشق بشكل مفاجئ. ويمكن الافتراض كذلك إن استئناف نشاطات منظمة حزب الله وإن لم تكن بمبادرة منهم، إلا أنها، على أقل تقدير، كانت بعلمهم - وهذا مؤشر على موازين القوى التي تشكلت بين دمشق وحزب الله في أعقاب وفاة حافظ الأسد (أنظر الفصل الثامن). ولكن وعلى الرغم من ذلك، فإنه منذ اللحظة التي اندلعت فيها انتفاضة الأقصى أراد بشار أن يستغل الواقع الجديد من أجل تعزيز مكانته ومكانة سورية في المنطقة. وفي نهاية المطاف شكّل هذا الواقع فرصة ذهبية له لتحقيق مآربه، وخاصة تدعيم مكانته الشخصية والسياسية كزعيم لمعسكر الرفض العربي. ولا شك أن المزاج العام في شوارع دمشق، وفي شوارع عواصم عربية أخرى، ساهمت مساهمة جدية في التصلب الذي طرأ على سياسة بشار، الذي أراد الظهور كمن يصغي إلى نبض

الشعب ويعمل وفقه. وهكذا، فقد خرجت في دمشق، ولدقة أكبر، في المخيمات الفلسطينية الواقعة في محيطها، مثل مخيم اليرموك، مظاهرات في بداية تشرين الأول/أكتوبر وفي نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، جرت خلالها مواجهات بين المتظاهرين وقوات الأمن التي اعترضت طريقها (وقد أُصيب خلال الموجهات عشرات المتظاهرين ولحقت أضرار كبيرة بالممتلكات).(١٦)

ومع ذلك، يُخيّل أنه ليس فقط التفكير الراجح المدروس في استغلال الفرصة لإثبات الزعامة، هو الذي وقف في صلب سياسة بشار خلال الأزمة الإقليمية. فقد ظهر الرئيس السوري خلال ردوده على الإستعار المتجدد للنزاع الإسرائيلي – الفلسطيني، حسب رأي الكثيرين في إسرائيل والغرب شخصاً عاطفياً، ومتهورا وطائشاً، وغير ناضج وتعوزه التجربة، والذي وصل إلى مديات بعيدة من المشكوك في أنه كان يريد الوصول إليها. ومع ذلك، كان يمكن أن يُلمس من خطواته أنه يخفي وجهة نظر معادية وغير تصالحية مع إسرائيل، والتي تعود إلى الرواسب التي أبقتها السنوات التي قضاها في بيت والده. وقد نُحِّيت هذه الرؤية جانباً خلال سنوات المفاوضات مع إسرائيل، وذلك في ظل التوقعات بالتوصل إلى اتفاق سلام بين الدولتين، ولكن لم تتطلب الكثير حتى تعود لتظهر على السطح من جديد، كدعامة مركزية في التفكير الاستراتجي لدى بشار.

وبالفعل فقد ذكّرت بعض من تصريحات بشار، بالحقد والعداء، في تصريحات والده في السنوات الأولى لحكمه، وهي الفترة التي كان فيها حافظ الأسد غارقا حتى أذنيه بالمواجهة مع إسرائيل. إلاّ أن الأسد الأب قد نضج مع مرور السنين وتعلم أن يميّز بين نبوءته، التي ترفض وجود إسرائيل جملة وتفصيلاً، وبين مقتضيات الواقع التي ألزمته بتبني سياسة متزنة وبراغماتية، والتي أوصلته إلى حدّ الاقتراب من توقيع اتفاق سلام معها. وقد كانت هذه الخبرة الحياتية ثمرة تجربته الطويلة مع إسرائيل والتي كانت بدايتها في الهزيمة النكراء في حرب الأيام الستة، واستمرت

---

(١٦) راديو دمشق، ٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. وكالة رويترز ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. راديو مونت كارلو، ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

بحرب يوم الغفران، التي تعتبر بحق إنجازاً في عيون السوريين، إلاّ أنه لم يصل إلى حدّ النصر، وكانت نهايتها في حرب لبنان حيث تلقى السوريون ضربة قاضية من قبل إسرائيل.

لقد ليّنت السنوات أسلوب حافظ الأسد، لكنّ ابنه اختار، أو أنه اضطر للاختيار، بدء طريقه كزعيم من النقطة التي كان فيها والده منذ بداية سنوات حكمه، وليس بالذات عند نهاية طريقه. ولكن لا شك في أن بشار رأى في إسرائيل حقيقة قائمة وامتنع عن استخدام النظرية التي كانت سائدة في العالم العربي في الخمسينيات والستينيات والتي دعت إلى محو إسرائيل عن وجه الأرض وإلقاء مواطنيها في البحر. وكان يبدو إنه في ظروف معينة، كانت تبدو نظرية تماماً مع اندلاع الانتفاضة، سيوافق على اتفاق سلام مع إسرائيل. إلاّ أنه قد أثقلت على تعامله البراغماتي مع إسرائيل، كما يبدو، عدة مكونات أخرى في رؤيته:

١. نكران شرعية إسرائيل: لقد اتضح من خلال تصريحات بشار أنه وعلى الرغم من استعداده للاعتراف بإسرائيل كحقيقة قائمة، إلا انه في جوهر الأمر يستمر في نكران شرعية وجودها في الشرق الأوسط، وذلك لكونها كيانا مصطنعا وغريبا فاقداً الجذور التاريخية. وحسب ما يراه، فإن الأرض التي أقيمت عليها إسرائيل سُرقت من يد المواطنين الفلسطينيين الأصليين، الذين سُلبت أرضهم وطردوا من ديارهم.

صدى هذه الرؤية، المترسخة عميقاً في التفكير السوري، موجودة في أقوال المحلل عماد فوزي شعيبي، الذي كلف نفسه عناء شرح سياسة السلام السورية في أيام حافظ الأسد على الشكل التالي: "حسب فهمي، فإن الراحل الأسد علق آماله على أن يصل عدد الفلسطينيين الذين يعيشون داخل مناطق ١٩٤٨[دولة إسرائيل عشية حرب الأيام الستة]، خلال وقت قصير، حتى عام ٢٠٠٥ على أبعد تقدير، إلى أكثر من ٥٠% من سكان فلسطين، وهو ما سيضع إسرائيل أما صورها الحقيقية. حيث يسيطر على

النموذج الإسرائيلي وضع تاريخي استمراريته غير مضمونة إلا بقوة العطالة [القصور الذاتي]، وذلك شريطة ألا يُواجَه بمقاومة مؤثرة".(١٧) وهذا ما ذهب إليه أيضاً ماجد شدود، عضو القيادة القطرية لحزب البعث، الذي أوضح في مقابلة صحفية له في كانون الأول/ديسمبر أنه "لا توجد هناك إمكانية لتطبيع العلاقات مع الكيان الاستعماري - الاستيطاني الصهيوني. ذلك أن التطبيع يقوم بين جانبين طبيعيين. لكن الكيان الصهيوني الذي سرق [فلسطين] وأحلّ الغرباء محل السكان الأصليين ليس كيانا طبيعياً. وهذا وضع شاذ لم يوجد مثله سوى في جنوب إفريقيا، حيث انهار هناك أخيراً نظام التمييز العنصري".(١٨)

٢. التشكيك في مدى رغبة والتزام إسرائيل في التوصل إلى سلام مع العرب: وكما عاد وأكد، فإن بشار يرى في إسرائيل كيانا عدوانياً يتطلع للتوسع، وكيانا من الصعب، بل ومن المستحيل، التوصل إلى سلام معه. ونذكر أيضاً أن والده رأى في إسرائيل عدوا أبدياً، وخاصة في أعقاب حرب الأيام الستة وحرب لبنان. بشار، من جانبه، تعلق بأحداث الانتفاضة، وأكثر من ذلك، بنتائج الانتخابات في إسرائيل التي جرت في شباط/فبراير ٢٠٠١ وكانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، والتي دفعت باريئيل شارون إلى رئاسة الحكومة وأبقته هناك، في الوقت الذي كان يعزز فيه موقعه في الكنيست.

وقد أحسن بشار في التعبير عن هذا النهج في التفكير في المقابلة التي أجرتها معه صحيفة **السفير** اللبنانية في أوج الحرب في العراق: "لا يوجد بيننا من يثق بإسرائيل. لا نحن [في سورية] ولا أي من إخوتنا العرب. ولذلك فإننا نتوقع طيلة الوقت هجوما من جانب إسرائيل، حتى وإن كانت إسرائيل لا تهدد الآن بمهاجمتنا. وعلينا أن ندرك أن إسرائيل تتبع أسلوب الغدر، وهذا شيء يرافقها منذ إنشائها. ووجود إسرائيل بالذات يشكل تهديداً دائماً لنا. وهذا الشيء

(١٧) **الزمان**، ٢٨ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

(١٨) **تشرين**، ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

مغروس في طبيعتها، وعملياً فقد أقيمت [على يد الغرب] حتى تشكل تهديداً مستمراً ودائماً لنا..."[19]

3. الاعتراف بالتفوق العسكري الإسرائيلي وبعدم جدوى شن حرب شاملة ضدها، إلى جانب الإيمان بأن العرب قادرين على النضال ضدها عن طريق إدارة صراع محدود ضدها مثل النضال الذي خاضه بنجاح كل من حزب الله والفلسطينيين. هذا النضال المحدود، حسب وجهة نظر بشار، لن يمكن إسرائيل في إظهار كافة قدراتها، وسيصيبها في نقطة ضعفها والمتمثلة في عدم قدرتها على تحمل الخسائر وامتصاص التدهور المستمر في مستوى معيشة مواطنيها، وهو ما سيجبرها في النهاية على الرضوخ والاستجابة لشروط السلام مع العرب.

إن ما أثار قلق إسرائيل هو أن السياسة السورية لم تُقَد، مثلما كان عليه الحال في الماضي، من قبل زعيم مجرب وواعٍ، بل من قبل شاب عديم الخبرة، والذي تقتصر خبرته الوحيدة مع إسرائيل في نضال حزب الله في جنوب لبنان على امتداد الثمانينيات، ونضال الفلسطينيين خلال الانتفاضة الأولى. وعليه، فإن بشار ينتمي إلى جيل لم يعرف الهزيمة على يد إسرائيل، ومال الكثير من أبنائه إلى التشكيك بالمنطلقات الأساسية لجيل الآباء، الذي قادهم إلى مسيرة السلام والاستعداد للتسليم بوجود إسرائيل. لقد كان بشار، فعلاً، أبعد ما يكون عن الاستخفاف بقوة إسرائيل العسكرية، لكنه يبدو أنه لم يكن لديه التخوف الذي كان يميز نظرة والده إليها. ومع ذلك يذكر لصالحه أنه أجاد قراءة صورة الواقع الإقليمي أكثر مما افترضوا ذلك في إسرائيل، خاصة وأنه كان مستعداً للتعلم من أخطائه. فعلى سبيل المثال، كان يبدو أنه استوعب التغيير الذي طرأ على المجتمع الإسرائيلي منذ انتفاضة الأقصى. واستعداده لرد الصاع صاعين عن طريق الحرب المغطاة من قبل الرئيس بوش وخاصة منذ أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والحرب في العراق، وأدرك أن عليه إلا يورط سورية في مواجهة مع إسرائيل خلال هذه الفترة.

(19) **السفير**، 27 آذار/مارس 2003.

وقد أُتيحت الفرصة الأولى لبشار لدفع رؤيته في مؤتمر القمة العربية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ في القاهرة، والتي عُقدت مع اندلاع انتفاضة الأقصى وخُصصت للبحث في طرق دعم الفلسطينيين في النضال ضد إسرائيل. وإذا كان بشار يريد أن يعزز مكانته، في الداخل والخارج، عن طريق الظهور كزعيم لمعسكر الرفض في العالم العربي، فها هو قد خاب أمله. فقد كان ظهوره باهتا وغير مقنع. كما أن علاقات التوتر، التي سيطرت عليه في أول ظهور علني له كرئيس لسورية في هذا المحفل، كانت ملحوظة جيدا. وكان خطابه مرتبكا نوعا ما، واشتكى الكثيرون، من أن طبيعة (الخطاب) التي كانت نظرية وتعليمية، خلقت حالة من عدم الوضوح حول الطريقة التي يتوقع أن يتصرف بها العالم العربي حيال تحديات الواقع. وقد تصرّف غالبية الزعماء العرب تجاهه بنوع من الوصاية، إن لم نقل باستخفاف، وفوق كل هؤلاء، تكبُّر المضيف حسني مبارك الذي شكر في نهاية الخطاب "رئيس السودان الشقيق"، والذي انفجر، عندما أدرك خطأه، بالضحك المتواصل، والذي انضم إليه فيه الكثير من الحضور.[٢٠]

على أية حال، ومهما كان خطابه ضبابياً وغير واضح، فإن بشار قد عرض فيه رؤيته، التي تدمج بين الاعتراف بأن المواجهة الشاملة مع إسرائيل ليست مصلحة عربية، والدعوة الواضحة لنظرائه لتشجيع مواجهة محدودة وغير مباشرة معها - من نمط نضال حزب الله والفلسطينيين - والتي ستمكن العرب من فرض رؤيتهم للسلام على إسرائيل، "سلام الأقوياء":

[بعد اندلاع الانتفاضة] بدأت جهات مختلفة تطلب من الأطراف إظهار ضبط النفس، والحجة المطروحة كأساس لهذا الطلب هو أنه يجب علينا أن نكون واقعيين. وبالفعل، في كل مرة يتحدث فيها شخص[ضد إسرائيل] يقولون أن عليه أن يكون واقعياً. لذا علينا أن نحدد ما هو معنى الطلب أن نُظهر أسلوبا واقعياً. إن هناك من يقبل الواقع ويخضع له، وهناك أيضاً من يريد دراسة الواقع وفهمه في العمق، وهناك من يريد أيضاً تغيير هذا الواقع. ونحن من جهتنا ندعو إلى دراسة

---

(٢٠) التلفزيون المصري، ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

الواقع بوضوح وبدقة، وبعد ذلك العمل من أجل تغييره.

إنني لا أتحدث عن موضوع نظري. إذ أنه توجد أمامنا تجربة قديمة - جديدة - تجربة لبنان - وعملياً فإن الحديث لا يدور عن تجربة لبنانية بل عن تجربة عربية عامة، والتي يوجد لكل منا الحق بالحديث عنها والافتخار بها. لقد احتلت إسرائيل لبنان قبل ٢٢ عاماً، وبشكل أدق سيطرت على جنوب لبنان قبل ٢٢ عاماً، ذلك بهدف طرد المقاومة الفلسطينية من الجنوب، وعملياً، من كل الأراضي اللبنانية، أو على الأقل، إبعادها في المرحلة الأولى عن شمال فلسطين. وحتى أن إسرائيل وصلت عام ١٩٨٢ إلى بيروت، وأدت إلى طرد المقاومة الفلسطينية من لبنان. وفي الفترة عينها بدأت المقاومة نشاطها ضد إسرائيل، وبفضل هذا النشاط، بدأت إسرائيل بالانسحاب. خرجت في البداية من بيروت وبعد ذلك من منطقة الجبل [جبل لبنان] في أعقاب انسحابها [إسرائيل] وصلت القوات متعددة الجنسيات، إلا أنها طُردت هي أيضاً على يد [عناصر] المقاومة. واستمر الانسحاب الإسرائيلي على مدى سنوات طويلة، وعلى امتداد كل تلك الفترة سُمعت أصوات همس في آذان [عناصر] المقاومة بأن ما يفعله هؤلاء ليس واقعياً وإن نشاطهم لن يقود إلى أية نتيجة. وقيل لهم، إنكم لن تنجحوا عن طريق هذه الأعمال بالتأثير على إسرائيل وإن جلّ ما بوسعكم فعله هو أن تجرحوا أو أن تخدشوا إسرائيل، أما تحرير الأرض فلا. وعلى ضوء ذلك فليس أمامنا سوى المجادلة حول النتيجة التي حصلت في نهاية المطاف لفعل المقاومة في أيار/مايو ٢٠٠٠ -هزيمة إسرائيل، وهو أمر لم يحصل منذ عام ١٩٧٣. ففي عام ١٩٧٣ توغلت القوات العربية إلى عمق المناطق التي احتلتها إسرائيل، ولكننا اضطررنا للانسحاب منها في أعقاب الهجوم المضاد الإسرائيلي. الآن تركز إسرائيل غالبية قواها على حدود لبنان، ولكني اعتقد أن ما حدث في أعقاب أيار/مايو ٢٠٠٠ هو أمر سيردع إسرائيل عن العودة على تكرار التجربة [اللبنانية] مرة أخرى.

إننا عندما نسأل أنفسنا كيف حققت المقاومة النصر في أيار/مايو ٢٠٠٠، هل بقوة السلاح؟ فإن جوابنا هو أن المقاومة لم تحقق النصر بقوة السلاح، بل بقوة الإرادة وبقوة الإيمان. ردنا هو أنها حققت النصر بالإصرار على تغيير الواقع السائد

في المنطقة من أساسه. لقد قال [رجال المقاومة] لأنفسهم: "إننا سنغير الواقع وبذلك نحرر أرضنا". وهم لم يقولوا فقط: "نريد أن نحارب". وأنا أعتقد أن ما يحصل الآن في فلسطين هو بمثابة رسالة من الأخوة الفلسطينيين داخل أراضي الضفة وداخل أراضي ١٩٤٨[أراضي دولة إسرائيل] تقول: "لقد تعلمنا العبرة وسنغيّر الواقع". لذلك فإننا، نحن الزعماء العرب عقدنا القمة لهذا الغرض، لن يكون بإمكاننا القفز فوق هذين البندين. علينا أن نقرر ما إذا كنا نقف إلى جانب القاتل أم أننا نقف إلى جانب المقتولين. علينا أن نقرر أين نقف، وقبل كل شيء أن نحاول فهم كيف وصلنا إلى الوضع الذي نحن فيه.

وفي هذا السياق أريد أن أعرض للنقاط التالية: أولاً، أريد التطرق للمصطلح [الذي أكثرنا من استخدامه في السنوات الأخيرة] "خيار السلام الاستراتيجي". وحسب رأيي، يكمُن في استخدام هذا المصطلح أحد الأسباب التي أدت إلى وصولنا للوضع الذي نحن فيه. الحقيقة هي أننا اخترنا السلام كخيار استراتيجي، ولكن هذا الخيار لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية. وعندما نقول خيار السلام الاستراتيجي، فإن هذه الكلمة "خيار" تعني أن هناك خيارات أخرى، مثلما هو الحال لكل دولة – خيار السلام الاستراتيجي، خيار الحرب الاستراتيجية، خيار القوة الاستراتيجية، خيار الردع الاستراتيجي، وخيارات اجتماعية واقتصادية أخرى، إلى آخر ما هنالك.

إن هذا لا يعني التهليل للحرب، بل إنه ببساطة تحليل للواقع. وحتى عندما نتحدث عن خيار الحرب الاستراتيجية فإنه ينبغي علينا أن ندرك أن هناك خيار استراتيجي للقيام بالدفاع عن النفس، وهناك خيار للهجوم الاستراتيجي. فعندما اخترنا السلام الاستراتيجي فإنها كانت بديلاً (وعملياً تعويضا) عن خيار الحرب الذي أردنا إتباعه من أجل تحرير أرضنا – نعم هذا صحيح. ولكن كان علينا أن نتأكد إذا ما كان خيار السلام الشامل يعني، على سبيل المثال، التنازل عن خيار الدفاع عن النفس، بالحد الأدنى؟

النقطة الثانية هي أن السلام بحاجة إلى قوة. السلام بحاجة إلى ردع. إنني لا

أتحدث عن الناحية العسكرية، لا تفهموني بشكل خاطئ. فالقوة تضم عناصر كثيرة، كما أن الردع يتشكل من عناصر مختلفة.

إن خيار القوة والردع ليس بالضرورة أن يكون عسكرياً. فهو يمكن أن يتخذ أشكالاً مختلفة. يمكن أن يتخذ شكلاً عسكرياً، ويمكن أن يتخذ شكل التضامن، فالتضامن هو خيار قوة وردع – التضامن العربي – وهو يمكن أن يتم عن طريق تأسيس مشروع شامل. وتأسيس مشروع قومي عربي هو عنصر رادع أيضاً، عنصر قوة.

وعليه فإن أمانا خيارات مختلفة – السلام، الحرب، القوة، الضعف. والخيار الأفضل هو خيار السلام من خلال القوة، أي "سلام الأقوياء"، ويأتي بعد ذلك خلال الحرب من خلال القوة، أي "حرب الأقوياء". وأسوأ شيء هو السلام من خلال الضعف أو الحرب من خلال الضعف أي "حرب الضعفاء". "حرب الضعفاء" تعني الهزيمة، "وسلام الضعفاء" يعني الهزيمة. وإذا اخترنا السلام فهو يجب أن يكون سلاما من خلال القوة، أو "سلام الأقوياء". وإذا كنا ضعفاء فإن ذلك يعني أنه لا يوجد أمامنا أية خيارات للاختيار بينها، بل علينا أن نقبل بما يعرضه علينا الآخرون.[٢١]

وقد عاد بشار للتأكيد على آرائه تلك في القمة العربية التي عقدت في عمان في ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠١، مع انتخاب اريئيل شارون رئيساً لحكومة إسرائيل. وبالنسبة لبشار، كان اختيار المجتمع الإسرائيلي عبارة عن اختيار استراتيجي للحرب، ومن هنا أيضاً التراجع الملموس في خطابه، إلى المواقف التي تبناها العالم العربي في الستينيات، والقائمة أساساً على رؤية إسرائيل ككيان مكون من كتلة واحدة:

إن ادعاء البعض بأن شارون لا يمثل كل الشارع الإسرائيلي، هو إدعاء لا يقنع أحدا. بالطبع هناك من يبرر [انتخابه] بالخوف والقلق الذي يسيطر على الإسرائيليين. إننا نسمع دائماً مثل هذا التبرير وهو يقدم للأسف من قبل الأجانب،

---

(٢١) راديو دمشق، ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

وفي بعض الأحيان، من قبل العرب. ويوضح لنا هؤلاء أنه بسبب هـذا الخـوف يُسمح لإسرائيل بتجاوز القانون الدولي، ويُسمح لها بقتل العرب، ويُسـمح لهـا باحتلال الأراضي، ويسمح لها بأن تعيد لنا أراض [في إطار الاتفاقيات التي وقعتها معنا] مقسمة ومجزأة، أي أنها غير كاملة. والسؤال هو متى يخاف جار من جـاره؟ هناك جار يخاف من جاره عندما يكون لهذا الجار ماض عدواني، ولذلك يخـاف الجار ويترقب أن يقوم جاره بالاعتداء عليه في أي وقت. هذه حالة. الحالة الثانيـة هو أن يكون الجار قد هاجم جاره ولذا فهو يترقب دائماً رده، الذي سيأتي في يوم من الأيام. فيما يرتبط بنا، فإننا لم نهاجم إسرائيل في يوم من الأيام، وكنّا نحن دائماً من تعرّض لعدوانها. ويوجد لإسرائيل أقوى جيش في المنطقة، جيش يتمتع بالتفوق على كل الجيوش العربية مجتمعة، وعلى الرغم من ذلك فإن الإسرائيليين يخـافون. ومن هنا تظهر ضرورة السؤال حول بواعث هذا الخوف.

حسب رأيي هناك ثلاثة أشياء يخشاها الإسـرائيليون. الأول: هـم يخـافون الماضي القريب، المتمثل بسياسة القمع التي يمارسونها منذ ما قبل الإعلان عن دولـة إسرائيل عام ١٩٤٨ [إقامة دولة إسرائيل]. الأمـر الثـاني الـذي يخـاف منـه الإسرائيليون هو الماضي بشكل عام، أي من التاريخ. فهم لا تاريخ لهم. أمـا لنـا فيوجد تاريخ، وهم يعرفون ذلك جيداً، فهم لم يعيشوا في المنطقة على امتداد آلاف السنين. الأمر الثالث هو الأرض. فكل إسرائيلي يعرف أن هذه الأرض لا تعـود إليه. هذه الأرض هي ملك العرب، ولذلك ستكون إسرائيل دائماً في حالة فقـدان للأمن. وإذا ما كان كل ذلك القلق والخوف يبرر لإسرائيل، للوهلة الأولى، أفعالها، فإن علينا أن نسأل المجتمع الدولي، ما الذي يُسمح، وفق تلك المقاييس، للعـرب، خاصة وأنهم هم الذين يتعرضون للهجوم، وهم من يحق لهم الخوف.

لقد بالغنا في تحليل مغزى صعود الكثير من رؤساء الحكومات الإسرائيلية إلى السلطة، وقد بالغنا أيضاً في تحليل مغزى مجيء "المولود الجديد" شارون، حتى يُخيّل لي أننا قد نسينا كل شيء آخر. فقد تحول هذا الإنسان إلى الموضـوع الأساسـي تقريباً الذي يشغل كل العالم العربي. لقد بدأنا نقارن من هو الأفضل، [شـارون]، أم سلفه [ايهود باراك]، أو الذي سبق باراك. من هو الأكثر قربا للعـرب، مـن

الأكثر قربا للسلام أو الأكثر قربا للحرب. وكِدْنا نختلف مع بعضنا البعض من أجل باراك. لقد كان هناك من سيطر عليهم الخوف، وكان هناك من انتابهم الشعور بالذنب في أعقاب نتائج الانتخابات [في إسرائيل]. إلى درجة أننا تحولنا إلى "ناخب موازي" أو "ناخب ظل". وقد انشغلنا بتحليل الفرق بين اليمين واليسار في إسرائيل. إن هناك من لا يريدون الاعتراف بحقيقة أن الفرق بين اليمين واليسار، هو شأن داخلي، لا يهمنا نحن، إذ أنه في وجهة نظر العرب لا فرق بين اليمين واليسار. في إسرائيل، من يقتل ١,٠٠٠ عربي يُعتبر على معسكر اليسار، ومن يقتل ٥,٠٠٠ عربي يُعتبر على معسكر اليمين. وعندما يأتي من يقتل ١٠,٠٠٠ عربي فإن اليمين [سابقاً] يتحول إلى وسط، وهكذا يظهر يمين جديد. فمن وجهة نظرنا، نحن العرب، كل الإسرائيليين هم يمين.

إننا ننشغل بالتحاليل المستفيضة التي لا تنفع ولا تضر، ونسينا الأساس والجوهر. نسينا أن الشارع الإسرائيلي هو السبب في كل ما حصل، وكل ما عدا ذلك هو نتيجة. دعونا نتحدث بصراحة عما حدث وسط الشارع الإسرائيلي بعد أن بدأت مسيرة السلام. وعلى ما حدث فيه، ليس قبل ذلك، حتى لا يتهمونا بأن لنا منطلقات عدوانية. لقد قتل هذا الشارع رابين عندما شكّ بأن هذا الشخص فعل شيئاً ما من أجل السلام. إنني لا أقول إن رابين قد قدم شيئاً من أجل السلام، بل شُبِّه [للشارع الإسرائيلي] إنه فعل شيئا، أي إن الشك فقط دفعهم لقتل هذا الشخص، على الرغم أنه كان "بطلهم"، الذي كان يقف خلف تكسير عظام الفلسطينيين خلال الانتفاضة الأولى.

هذا الشارع أسقط بيريس عندما اعتقد أنه أقل تطرفاً من نتنياهو، وذلك على الرغم من أن بيريس قدم مذبحة قانا هدية للشارع الإسرائيلي [قرية في جنوب لبنان قتل فيها أكثر من مائة لبناني جراء سقوط قذائف أطلقتها مدفعية جيش الدفاع الإسرائيلي عن طريق الخطأ خلال عملية "عناقيد الغضب" في نيسان/أبريل ١٩٩٦]. وهذا الشارع أسقط باراك عندما اعتقد أنه أقل تطرفاً من شارون، وعندما شكّ بأنه بواسطة مقترحاته، الوهمية والكاذبة، يمكن أن يفعل شيئاً من أجل دفع مسيرة السلام. وذلك على الرغم من أن باراك قدم للشارع الإسرائيلي أكثر

من ٤٠٠ شهيد فلسطيني كهدية. والآن، الشارع نفسه رفع شـــارون إلى ســـدة الحكم...

وهناك أيضاً من بين الشخصيات الغربية، وحتى من بين العرب، من يقولـــون صحيح إن شارون يعارض السلام، ولكن الشارع الإسرائيلي هو شيء مختلـــف. فلماذا لا نسأل هؤلاء الأشخاص سؤالاً بسيطاً: يوصف شارون في العالم، وحـــتى في إسرائيل، كرجل مذابح وقاتل، الذي يكره العرب، وهذا صحيح، ذلـــك أنـــه يكره كل شيء له علاقة بالعرب. وعليه كيف يمكن أن يكون شخص كهذا قـــد وصل إلى رئاسة الحكومة؟ هو قدم ترشيحه برغبته، ولكن لم يصل إلى سدة الحكم برغبته، إلاّ بما ينسجم مع رغبة الشارع الإسرائيلي. فكيف تريدون منّا أن نقنـــع أنفسنا، ونقنع الشارع العربي أن هذا الشارع الإسرائيلي، الذي اختار شخصاً مثل شارون، هو شارع يريد السلام، ويريد إعادة الحقوق للعرب، وليس معادياً للعرب ولا للمسلمين؟ كيف يمكن أن نقتنع؟ علينا أن نركز على الشارع قبل أن نركـــز على الأشخاص وعلى الحكومات... نحن نقول "رئـــيس حكومـــة عنصـــري"، "حكومة عنصرية" و"جيش عنصري"، ولكن عندما نصل إلى المجتمع الإســـرائيلي فإننا نصاب بالسكتة. فما هو المنطق في ذلك؟ فكل الأمور التي حصلت من قبـــل إنما هي نتيجة لطبيعة المجتمع الإسرائيلي. هذا هو مجتمع عنصري أكثر من النازيين. وكلهم يقولون ذلك في الأحاديث الخاصة. كل مواطن عربي يقول هذه الأقـــوال. إننا نمثل الشعوب العربية، وكذلك فإنه من الطبيعي أن نعبر عما يريـــدون قولـــه، وبشكل يعبر عن ضمير المواطن العربي.[٢٢]

إذاً، لقد بقي بشار ملتزماً بإرث والده، الذي رأى استعداداً للحـــديث، بـــل وحتى التوصل إلى اتفاق سلام مع إسرائيل، إلاّ أن هذا السلام، في نظره، يجـــب أن يستند إلى قوة العرب. وهذا ما يشكل تراجعاً واضحاً عن "سلام الشجعان" الذي قدمه والده في أقواله في نهاية القمة التي عقدها مع رئيس الولايات المتحـــدة بيـــل كلينتون في جنيف في كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، والتي جاء فيها "إن سورية ترغب

(٢٢) التلفزيون السوري، ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠١.

في السلام العادل والشامل مع إسرائيل. وهذه الرغبة تُعبر عن خيـار اسـتراتيجي [لسورية] والذي جاء ليضمن حقوق العرب وإنهاء الاحتلال الإسرائيلي، وذلـك حتى تتمكن شعوب المنطقة من العيش بسلام وأمن واحترام.. لقد حاربنا بشرف، وندير المفاوضات بشرف وسنرسي السلام بشرف.. إننا نريد السلام المشرف من أجل شعبنا ومن أجل مئات الآلاف الذين ضحوا بحياتهم من أجل الـدفاع عـن الوطن وعن حقوق الأمة. لا يوجد تقريباً بيت في سورية لم يقـدم التضـحيات للدفاع عن الوطن، والأمة والحقوق العربية. من أجل كل هؤلاء، ومن أجل أبنائهم وعائلاتهم، نريد سلام الشجعان، سلاماً حقيقياً، يقوم ويضمن مصـالح الجميـع، ولكنه يعيد لكل واحد حقه... وإذا كان زعماء إسرائيل على استعداد لاستجماع الشجاعة المطلوبة للرد على هذا السلام، فإن فجراً جديـداً سـيبزغ في المنطقـة، ويضمن الأمن والاستقرار، ونقيم علاقات سـلام عاديـة بـين كـل شـعوب المنطقة".[23]

لقد أخذت تعابير العداء لدى بشار تجاه إسرائيل ترتدي طابع أكثـر حـدة كلما كانت الانتفاضة تتصاعد، وعاد وأعطى تعبيراً عن رؤيته، والـتي تقـول أن المشكلة غير كامنة في شخصية رئيس الحكومة الإسرائيلية أيٍّ كان، بل في طـابع المجتمع الإسرائيلي، والذي ليس سوى مجتمع عنصري، عـدواني، وذي تطلعـات توسعية. وقد بلغت أقواله ذروتها. حسب ما اعتقد، خلال زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى دمشق في أيار مايو ٢٠٠١. وقال بشار خلال كلمته الترحيبية بالبابا إن هناك علاقة مباشرة بين غدر اليهود للمسيح وبين محاولتهم للغدر بمحمد، وبطبيعة الأمر، بين أعمالهم اليوم. وقال إن الأمر يثبت أن ذهنية اليهود هي ذهنية غدر:

إننا نرى أخوتنا الفلسطينيين يُقتلون ويُعذبون، ونرى أن العـدل يهـان. هنـاك أراضي محتلة في لبنان، وفي الجولان وفي فلسطين. ونحن نراهم [الإسرائيليين] يعملـون ضد مبدأ المساواة، ويلحقون به الأذى عن طريق الادعاء بتميِّزهم عن بقية الشـعوب. كما أننا نشهد على أذاهم للأماكن المقدسة للإسلام وللمسيحية في فلسطين. ويمسّون

(٢٣) راديو دمشق، ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤.

بقداسة المسجد الأقصى، وبقداسة كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم. وهم يحاولون القضاء على كل مبادئ الأديان التوحيدية عبر الذهنية ذاتها التي غدروا بها بالمسيح وعذّبوه، وبما ينسجم مع الذهنية نفسها التي أدت بهم للغدر بالنبي محمد...

إن معنى مبدأ المساواة الذي نتمسك به هو التعامل مع الشعوب الأخرى بعيداً عن العقد النفسية وبعيداً عن الادعاء بالتفوق عليها. بينما يعني مبدأ العدل رد الحقوق إلى أصحابها وإعادة الأراضي إلى أصحابها في لبنان وفي سورية وفي فلسطين، وكذلك الأمر إعادة منازل اللاجئين إلى أصحابها. وأخيراً، فإن مبدأ المحبة يعني وقف قتل كل من هو عربي بدافع الكراهية، والبدء بتعليم الجيل الجديد عدم كراهية الآخر. أما معنى مبدأ العدل فهو أيضاً وقف تشويه الحقائق- الحقائق التي نعيشها اليوم والحقائق التاريخية أيضاً - ووقف الادعاء بالحقوق التاريخية التي لا أساس لها...[٢٤]

لقد أثارت أقوال بشار عاصفة دولية، وسارعت حكومتا فرنسة والولايات المتحدة إلى إدانة الأقوال وحتى إلى تقديم احتجاج رسمي عليها لسورية. السوريون من جانبهم أعربوا عن استغرابهم لهذا الرد، الذي يعتمد على "تفسير خاطئ ومشوّه لأقوال بشار، والجهل وعدم الإلمام بالتفاصيل"، حسب وصف معلق راديو دمشق: "إن الرئيس بشار لم يذكر اليهود في أقواله ولم يقصد التشهير بأبناء الديانات التوحيدية، إلاّ أن كل ما أراده هو وضع نهاية لعدوانية إسرائيل".[٢٥] ويبدو أن بشار، الذي لم يتراجع عن أقواله ولم يعتذر عنها، حرص على إعطاء أسلوبه في لقاءاته مع الشخصيات الغربية، وحتى في المقابلات التي أعطاها لأجهزة الإعلام الغربية.

وعندما سئل من قبل أعضاء المجلس الوطني الفرنسي خلال زيارته لباريس في حزيران/يونيو ٢٠٠١، إذا ما كان لا يزال يصر على أقواله التي أدلى بها خلال استقباله للبابا، أجاب بشار:

في صحافتكم، الصحافة الغربية، جرى الحديث عن أنني هاجمت اليهود. وهذا أمر مستغرب. فما هي العلاقة بين أقوالي عن عذابات المسيح وبين الهجوم على اليهود؟

---

(٢٤) راديو دمشق، ٦ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٢٥) راديو دمشق، ٨ أيار/مايو ٢٠٠١.

أنا أتحدث عن إسرائيل التي تعذب الفلسطينيين. وأنا لم أذكر كلمة اليهود في خطـــابي. في سورية يوجد يهود. ولدينا جالية يهودية تعيش في سورية منذ آلاف السنين. وهـــم سوريون في كل شيء. بالإضافة إلى ذلك، نحن المسلمين نعترف بالدين اليهـــودي لأن مصدرها من الله الواحد تماماً مثلما هو حال الإسلام والمسيحية، ولذلك لـــيس مـــن المنطقي أن نهاجمها. لقد تحدثت عن العذابات التي تعرض لها بني البشر علـــى مـــدى التاريخ، وعلى العذابات التي يتعرضون لها اليوم. وقد سُئلت إذا ما كنت قد قصـــدت في أحاديثي عن عذابات المسيح اليهود بعينهم وأجبت بلا. فهل الألمان أبناء هذا الزمان مسؤولون عما فعله آباؤهم؟ وإذا أقدم إنسان في بلد ما على ارتكاب جريمة، فهل يعني هذا أن أبناءه يتحملون مسؤولية أعماله؟ لا يوجد أي منطق في هذا ونحن في ســـورية، وفي بقية أجزاء العالم العربي لا نعمل وفق هذا المنطق. إننا نعيش في منطقـــة معروفـــة بالتسامح الذي أظهرته على مدى آلاف السنين، والتي يعيش فيها كل أبناء الطوائـــف والأديان، إذاً، أقوالي لم تكن أقوال تشهير ضد اليهود..

لقد قلت إنه عندما يجري تفسير أقوال شخص ما، فإنه يجب فعل ذلك من خلال الإلمام بثقافته وبحضارته. توجد في أوروبا عقدة لجهة ما حصل هنا خلال الأربعينيات، خلال الحقبة النازية. ونحن لا نعاني من هذه العقدة. نحن لم نعش مثل هـــذه التجربـــة ولذلك فإن استخدام مثل هذه المصطلحات، وهو الاستخدام الذي يثير لديكم اهتماماً معيناً، لا يثير عندنا اهتماماً كهذا، ونحن نتعامل مع تلك المصطلحات بدون أية عُقَـــد. لقد كان ما حصل هنا هو خطأ في التفسير. أما في ما يتعلق بحقيقة أن إســـرائيل تنفـــذ عمليات قتل، فهذا الأمر ليس تعبير عن موقف بل هو إقرار بحقيقة.[٢٦]

ومع ذلك، تجدر الإشارة، إلى أن اللين الذي طرأ على أسلوب الحديث يعود بشكل أساسي إلى أن هذه الأقوال جاءت أمام جمهور غربي. أمـــا في خطابـــه إلى الجمهور السوري والعربي، في المقابل، لم يلحظ أي ندم، بل لوحظت الرغبـــة في تحقيق ذخر سياسي ودعائي. ويبدو أنه في كال ما يتعلق بالجمهور السوري والعربي فإن أقوال بشار وقعت على آذان صاغية وعَبَّرت بشكل جيد عن المـــزاج العـــام

---

(٢٦) **تشرين**، ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

السائد. وإذا كان بشار قد أراد أن يقتفي خطى والده - والذي كـان يتفـاخر، وبدرجة كبيرة من الصدق، بقدرته على التعبير عن مزاج الشارع العربي أكثر مـن أي زعيم عربي آخر، فإنه يُخيّل أنه قد نجح للوهلة الأولى في ذلك. وبالفعل، فـإن أقوال بشار قد أعادت إلى الذاكرة الأقوال التي اعتاد والده قولها أكثر من مرة تجاه إسرائيل، فعلى سبيل المثال، وفي خطابه الذي ألقاه في الثـامن مـن آذار/مـارس ١٩٨٩، والذي تطرق فيه لطلب إسرائيل إلغـاء الميثـاق الفلسـطيني قـال: إن الصهيونية تقوم على ميثاقها الخاص بها، والذي يعتمد على أوامر إلهية تقول إن الله قد أعطاهم أرض العرب من النيل إلى الفرات كوديعة في يد الإسرائيليين، وعليهم المحافظة على هذه الوديعة. وبكلمات أخرى سرقة [هذه الأراضي] مـن أيـدينا، وذلك لكوننا، حسب رأيهم أغراب عنها، ولطردنا منها. وبالفعل، فإن قسماً كبيراً من أبناء الشعب العربي قد طُردوا من أرضهم. ومن الواضح أنه لا يوجد شـخص منطقي ومتزن يستطيع قبول الادعاء بأن الله أعطى لمجموعة من الناس، لأي شعب كان، أي أرض، وسمح لهم بطرد الشعوب التي تسكن هذه الأرض. ونحن نؤمن أن الله هو العدل المطلق، الذي يضمن الحياة لكل بني البشر، وليس لقسم منهم...

كيف يمكن أن يخطر ببال أن من خلقنا فعل ذلك فقط من أجل أن يطردنا عـن أرضنا، أو أن جماعة من الناس منا، شعب واحد، من مائة شعب تعيش في العالم، هـو من أُنتخب بالذات من قبل الله ليكون الشعب المختار. وأنا، كإنسان يعبد الله، أعرف أن الأمر ليس هكذا. إن الله هو إله الجميع. وإذا كـان الله مهـتم بإعطـاء أرضـنا للإسرائيليين من النيل إلى الفرات، لكان أعطاهم هذه الأرض منذ البداية، ومـا كـان ليتركنا نعيش ونحيا بها. فقد كان بمقدوره أن يخلقنا ويأخذنا إلى مكان آخر، ولكانـت هذه الأرض المخصصة، كما يبدو لهم، بقيت فارغة غير مأهولة بانتظار مجيئهم...

هذا هو الإيمان الذي تتمسك به إسرائيل، ومعروف أن هذا الإيمان معلـق في الكنيست الإسرائيلي، ومن الممكن أن لافتة بهذا المعنى لا تزال معلقة في الكنيست: "أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل".[٢٧]

---

(٢٧) راديو دمشق، ٨ آذار/مارس ١٩٨٩.

واستمراراً لزيادة حدة تصريحات بشار ضد إسرائيل، يمكن التذكير بالهجوم الإعلامي ذي الطابع المعادي للسامية الذي شنته وسائل الإعلام السورية، والذي جاء فيه أن اليهود هم "تجسيد للشر على سطح الأرض". ونشير إلى أن وسائل الإعلام السورية اتسمت دائماً بتوجهات معادية للسامية، إلاّ أنها ازدادت مع اندلاع الانتفاضة. وبروح هذه الأقوال نشرت صحيفة تشرين في شباط/فبراير ٢٠٠٢ تقريراً موضوعه حول محاضرة موضوعها "شخصية شارون- الأساطير المؤسسة للعنف الصهيوني"، والتي ألقيت في يوم دراسي نُظّم في المركز الثقافي في مصياف. وجاء في التقرير أن المحاضر وضح مساهمة الفكرة الصهيونية - العنصرية في عملية نقل دم العنف والكراهية إلى عروق الصهاينة، وتقديم غطاء إيديولوجي لإقامة قوات المجانين المأخوذين بالتاريخ العنصري. تلك الأوهام والأساطير تعتمد على أساسين: الأول، هو أن فلسطين هي ملك أبدي لشعب إسرائيل، وذلك استناداً إلى الوعد الذي أعطاه "إله جيوش" اليهود لإبراهيم ولإسحق وليعقوب. والثاني، هو أن اليهود هم شعب الله المختار، وعليه فإن لهم ميزات وصفات غير موجودة لدى الآخرين. وبناء على هذين الأساسين تطورت نظرية سرية تضع اليهود في مواجهة مباشرة مع الأمم والشعوب التي رأى فيها اليهود أقل شأناً. وتظهر تلك الأوهام والأساطير في العهد القديم وفي التلمود وفي بروتوكولات حكماء صهيون وفي كتب أخرى من أرشيف الكتب اليهودية، وهي قد قامت بدور هام في تطوير الفكرة الصهيونية وتبرير الجرائم الصهيونية..."[٢٨]

وخلال شهر رمضان في عام ٢٠٠٢ بث التلفزيون السوري مسلسل من ثلاثين حلقة -حلقة كل أمسية - باسم ردم الأساطير عالج "جرائم الصهيونية ضد الإنسانية". وركّز المسلسل على أحداث حرب لبنان، والتي قدمها حسب روية مواطني قرية تقع في شمال سورية لا تبعد كثيراً عن آثار مدينة إيبلا. وحسب السيناريو، فإن الحركة الصهيونية، أرادت الوصول إلى القرية بهدف وضع يدها على آثار المنطقة، وعن طريق ذلك إعادة كتابة التاريخ القديم فيها محاولة طمس

(٢٨) **تشرين،** ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠.

الدور الذي لعبه العرب. وقد ذُكِرت على امتداد حلقات المسلسل، بشكل متكرر، بروتوكولات حكماء صهيون، وحتى أنه تم الادعاء بأن الحركة الصهيونية سعت لدى النازيين من أجل إبادة اليهود الذين عارضوا نهجها. وبعد عام من ذلك أنتجت شركة لاين- للإنتاج السورية مسلسلاً آخر معادي للسامية من ٢٦ حلقة باسم الشتات، والذي عالج تاريخ الشعب اليهودي على مدى الأجيال. وقد كان هذا المسلسل يغص بالأفكار المعادية للسامية إلى درجة أن التلفزيون السوري امتنع في نهاية الأمر عن بثه، حيث تمّ بثه في النهاية في قناة المنار التابعة لحزب الله.(٢٩)

وتجدر الإشارة أيضاً إلى الخطبة التي قدمها مساعد وزير الأوقاف السوري، الشيخ عبد الرزاق المؤنس في راديو دمشق والتي جاء فيها "الصهاينة الذين يلفّون نفسهم بعباءة اليهودية والإسرائيلية المزيفتين، ليسوا إلاّ نفراً بدون دين وحتى أنهم ليسوا ساميين. وهم يتمتعون بتأييد عبدة الشيطان، والبنائين الأحرار، الملحدين والكفرة.. ادرسوا تاريخهم وستكتشفون أنهم وعلى امتداد ٣٠٠٠ عام لم يندمجوا في الشعوب التي عاشوا بينها.. إن العرب الكنعانيين هم من جاؤوا إلى فلسطين من شبه الجزيرة العربية، وهم الذين أسسوا هناك حضارة متطورة، وعندما جاء اليهود العبرانيون وتحولوا إلى طفيليات تعيش بينهم... واليوم أيضاً لا يندمج اليهود في الشعوب التي يعيشون بينها، بل يحافظون على كيانية خاصة بهم، على لوبي خاص بهم، وذلك حتى يتمكنوا من التواجد كطفيلي مُعْدٍ يُفرِّق ويُشتت الشعوب".(٣٠)

وأخيراً من المناسب أن نتعظ بأقوال وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس والتي جاء فيها "إن كل ما أرغب فعله هو أقف أمام يهودي وأقتله، ذلك إنه إذا قام كل عربي بقتل يهودي فإنه لن يبقى يهود أبداً".(٣١) وكما هو مذكور فإن لطلاس سجل مؤثر من التصريحات المعادية لإسرائيل، تصل إلى حدود العداء

---

(٢٩) التلفزيون السوري، ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر، ١٠ كانون الأول/ديسمبر، ٢٢كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٣٠) راديو دمشق، ١٤ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٣١) التلفزيون اللبناني، ٦ أيار/مايو ٢٠٠١.

للسامية. ففي أواخر حرب يوم الغفران أوصى بمنح أوسمة لكل جندي سوري قطع بيده خمسة جنود إسرائيليين. ونشر بعد ذلك كتاب **فطير صهيون**، الذي يتركز حول بحث "علمي" حول استخدام اليهود الدم من أجل طقوس العبادة. وقد ظهر الكتاب في عام ٢٠٠٢ في طبعة منقحة وموسعة، بمناسبة معرض الكتاب الدولي في دمشق.(٣٢) (وبالمناسبة، فإن هناك من قال إن بشار قد تأثّر بطلاس ولكن وكما ذكرنا سابقاً فإن من يدقق في أقوال الأسد الأب يدرك أنه قد كان لبشار معلم جيد في البيت، وهو بالتأكيد لم يكن بحاجة لمساعدة معلمين من الخارج).

تصعيد آخر في اللهجة السورية لُمس في خطاب بشار في مؤتمر القمة العربية في بيروت في آذار/مارس ٢٠٠٢، والتي اشتهرت فعلاً بتبني مبادرة السلام السعودية. ولكن إلى جانب ذلك اشتهرت بالخطاب المتشدد الذي ألقاه بشار، وبرر فيه عملياً الأعمال الإرهابية ضد إسرائيل وذلك بدعوى أن كل الإسرائيليين مسلحين، وعليه فإن إلحاق الضرر بهم يأتي في إطار النضال المشروع ضد الاحتلال. ومن بين ما قاله بشار هو أنه "في إطار الحرب الكلامية [في أعقاب أحداث ١١ أيلول/سبتمبر] جرى استخدام التعبير، الذي سمعناه اليوم من قبل أحد الضيوف، ضد إلحاق الضرر بالمدنيين الأبرياء. هذا قول صحيح، ولكنه لا يناسب الموضوع مدار البحث أمامنا ذلك، أننا اليوم في مواجهة مع احتلال. إن الحديث يكون ممكناً عن عدم ضرب مدنيين عندما يدور الصرع بين دولتين، ولكن عندما يدور الحديث عن احتلال فإن الأمر مختلف تماماً. إن التمييز ليس بين مدني وعسكري. ويمكن للجندي أن يكون إنساناً محترماً، لكن المحتل ليس إنساناً محترماً. ولذلك بالنسبة للمحتل لا يوجد أي تمييز بين جندي ومدني. وفي حالة الاحتلال يمكن أن نميز بين مسلح وغير مسلح. ولكن في حالة إسرائيل جميعهم مسلحون. وهؤلاء هم المستوطنون قد تمّ تزويدهم بالسلاح من قبل الجيش الإسرائيلي ويساهمون بنصيبهم في قتل الفلسطينيين وطردهم. وحتى أن المستوطنات أقيمت

(٣٢) **الحياة**، ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. أنظر كتاب مصطفى طلاس، **فطير ص هيون**، دمشق دار طلاس للنشر ٢٠٠٢.

بالأساس لاستخدامها كمواقع عسكرية محصنة. أي إن حياقم [الإسرائيليين] تعتمد على الحرب والقتل، وعليه فإن مقاومة الاحتلال هي حق مشروع، وكل محتل هو محتل بدون حاجة إلى تمييز بين مسلح أو غير مسلح".(٣٣)

وقد عاد بشار إلى تكرار تلك الأقوال خلال زيارته التي قام بها إلى بريطانيا في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢ وذلك بمبادرة من رئيس الحكومة طوني بلير والتي جاءت خصيصاً لتليين مواقف بشار في هذه القضايا بالذات. ولكن بشار لم يتردد عن إرباك ضيوفه والعودة على الإعراب عن تفهمه للعمليات الإرهابية ضد إسرائيل: "يجب ألاّ ننسى أن تلك المنظمات [حماس والجهاد الإسلامي] تعبّر عن رأي ملايين الفلسطينيين في فلسطين وخارجها. وهؤلاء الملايين يلقون الدعم لنضالهم ضد إسرائيل من قبل ٣٠٠ مليون عربي ومئات الملايين من المسلمين في بقاع العالم. ومن غير المعقول أن يكون ٣٠٠ مليون عربي ومئات الملايين من المسلمين إرهابيين... متى بدأ الفلسطينيون بالمقاومة العسكرية؟ لقد بدأوا بها بعد عدة أشهر من صعود شارون إلى السلطة، وبعد أن وصل عدد المدنيين الذين قتلوا إلى المئات، واتضح أنه ليس بوسع أحد أن يدافع عنهم. لا يوجد للفلسطينيين جيش من أي نوع كان، ذلك أنه لو كان لهم جيش لكانت الحرب تجري بين جيشين كما هو متبع بين دول العالم. لكن الإنسان الذي لا يشعر بالأمن ويعرف أنه من الممكن أن يقتل في كل لحظة، وأنه لا توجد له دولة أو سيادة، وليس له أمر أساسي جداً في منطقتنا، أي الكرامة، ولا يوجد لديه عمل، وفي كثير من الأحيان قُتل والده أو أمه أو أحد أخوته - وأنتم تعرفون كم هي هامة علاقات القرابة وكم هي هامة العلاقات العائلية في منطقتنا. ما الأمر الذي يمكن لشخص كهذا أن يفعله؟ حيث أنه في نهاية المطاف إنسان وليس آلة أو كمبيوتر، هو إنسان يسكن الله قلبه".(٣٤)

---

(٣٣) **تشرين**، ٢٨ آذار/مارس ٢٠٠٠.

(٣٤) **التايمز**، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. للإطلاع على النص العربي للأقوال أنظر **تشرين**، ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

قضية فتح جبهة ثانية ضد إسرائيل

منذ أواخر عام ٢٠٠٠ شغل نشاط حزب الله في منطقة مزارع شبعا مكاناً أساسياً في جدول الأعمال الإسرائيلي - السوري. فقد استأنفت المنظمة، كما سبق وأشرنا، نشاطاتها العسكرية ضد إسرائيل في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، بعد فترة من الهدوء المتواصل والتي بدأت في أعقاب انسحاب قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من جنوب لبنان في أيار/مايو ٢٠٠٠. ففي السابع من تشرين الأول/أكتوبر اختطفت المنظمة ثلاثة جنود إسرائيليين (قتلوا خلال العملية)، واستمرت بالقيام، كل عدة أسابيع بعمليات ضد إسرائيل في منطقة مزارع شبعا، والتي قتل وأصيب فيها خلال عام ٢٠٠١ عدد من الجنود الإسرائيليين.

وقد أدى تبادل السلطة في إسرائيل وانتخاب اريئيل شارون لرئاسة الحكومة إلى تغيير السياسة الإسرائيلية. ففي يوم ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠١ ردت إسرائيل للمرة الأولى على هجمات حزب الله. فبعد مقتل جندي من جيش الدفاع الإسرائيلي في موقع بالقرب من مزارع شبعا، هاجمت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي موقعاً سورية للرادار في ظهر البيدر الواقعة في جبل لبنان. حيث قتل في الهجوم أربعة جنود سوريين. وقد أثار الهجوم الإسرائيلي، بطبيعة الحال، المخاوف من اندلاع محتمل لمواجهة مسلحة بين سورية وإسرائيل، ذلك أن الكثيرين خشوا من رد سوري أو من رد من قبل حزب الله، والذي من شأنه أن يجر المنطقة إلى حرب شاملة.(٣٥) وكانت هذه هي المرة الأولى منذ أواخر عام ١٩٨٥ التي تصبح فيها إسرائيل وسورية طرفين في مواجهة عسكرية مباشرة - وإن كانت موضعية.(٣٦)

وعادت إسرائيل وهاجمت موقع رادار سوري في رياق في البقاع اللبناني في

---

(٣٥) **يديعوت احرونوت**، ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠١. **هآرتس**، ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

(٣٦) في تشرين الثاني نوفمبر أُسقطت إلى الشمال من دمشق طائرة مقاتلة سورية بعد أن اقتربت عن طريق الخطأ من طائرة مقاتلة إسرائيلية كانت في مهمة استطلاعية في الأجواء اللبنانية. وكانت آخر مرة هاجمت فيها إسرائيل أهداف عسكرية سورية في لبنان في حزيران/يونيو ١٩٨٢، خلال حرب لبنان.

الأول من تموز/يوليو ٢٠٠١، في أعقاب هجوم آخر قام به حزب الله على موقع لجيش الدفاع الإسرائيلي في مزارع شبعا. وقد عزز هذا العمل من المخاوف من رد بشار، الذي كان من شأنه أن يشعر أنه حُشر في الزاوية. وبالفعل فقد أفادت التقارير الواردة من دمشق أن ضغطاً مورس على بشار من داخل الجيش للرد على الهجمات الإسرائيلية في لبنان.(٣٧) ولكن في نهاية المطاف كان حزب الله هو من رد على الهجوم الإسرائيلي بالهجوم على مواقع إسرائيلية في مزارع شبعا، ووفّر بذلك الرد على السوريين. وقد اكتفى السوريين إذاً بتصريحات قوية بأن إسرائيل ارتكبت خطأً مريراً وأنها ستدفع عليه ثمناً غالياً. وأضافت مصادر سورية إن سورية تحتفظ لنفسها بحق الرد في المكان والزمان المناسبين، وإنها لن تجلس مكتوفة الأيدي طيلة الوقت حيال العدوان الإسرائيلي.(٣٨)

على أية حال، وفي أعقاب انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي من الحزام الأمني في أيار/مايو ٢٠٠٠، سيطر حزب الله على منطقة الحدود الإسرائيلية - اللبنانية وتحول إلى الحاكم الفعلي فيها - على الصُعُد الأمنية والسياسية والمدنية. كما منعت المنظمة نشر قوات الجيش والشرطة اللبنانية في هذه المنطقة، بتشجيع من سورية وبصمت اللاخيار وفقدان الحيلة من قبل لبنان. وفي ظل الصمت الذي ساد المنطقة، وخاصة في ظل رغبة إسرائيل عدم منح الذرائع لحزب الله لاستئناف نضاله، أسست المنظمة لنفسها تواجداً عسكرياً لافتاً على امتداد الحدود تضمّن وجود مواقع مراقبة ورصد مغطاة بواسطة القوات العسكرية التابعة لحزب الله والمنتشرة في جنوب لبنان. ولكن الأمر الأكثر إثارة للقلق من جانب إسرائيل كان نصب آلاف صواريخ الكاتيوشا وصواريخ متقدمة من إنتاج إيران ("الفجر") والتي يصل مداها إلى ٧٥ كيلومتراً، والتي تغطي كل منطقة شمال إسرائيل وصولاً إلى الخضيرة (أنظر الفصل الثامن).

---

(٣٧) **هآرتس**، ٢، ٦ تموز/يوليو ٢٠٠١. مقابلة للمؤلف مع دبلوماسي أمريكي، تل أبيب، ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٣٨) سانا، ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠١. راديو دمشق، ٣٠ نيسان/أبريل، ٣ تموز/يوليو ٢٠٠٠. **الحياة**، ٣، ٤ تموز/يوليو ٢٠٠١. وانظر أيضاً قناة المنار، ١١ حزيران/يونيو، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠.

لقد امتنع بشار عن دعوة حزب الله لوقف نشاطاته ضد إسرائيل وأوضح مراراً وتكراراً أنه "ليس من اختصاص الجيش السوري (منع حزب الله عن العمل ضد إسرائيل). وفي الأساس فإن سورية مقتنعة بأن حزب الله يفعل الشيء الصحيح والذي يشكل مقاومة هدفها استعادة الأراضي المحتلة. ومع ذلك، فإننا نوضح بشكل دائم أننا لا ندير نشاط حزب الله أو نسيطر عليه، ونحن لا نأخذ أبداً قرارات في هذا الشأن. إن حزب الله هو من يتخذ قراراً كهذا، ومن هنا فإننا لا نتحمل مسؤولية أية عملية يقوم بها. إن حزب الله منظمة مقاومة لبنانية، إلاّ أننا نقف إلى جانبها من ناحية سياسية وأخلاقية، وهو على أية حالة لا يحتاج أي مساعدة مادية منا".(٣٩)

لقد صعّد حزب الله نشاطاته ضد إسرائيل في شهري آذار/مارس-نيسان/أبريل ٢٠٠٢ وذلك على خلفية عملية "السور الواقي" والتي قامت بها قوات جيش الدفاع الإسرائيلي في الضفة الغربية. وقد أثار هذا التصعيد، من جديد المخاوف، من تدهور الوضع على امتداد كل حدود إسرائيل الشمالية، وبتدخل سورية هذه المرة. وبالفعل، وحسب مصادر إسرائيلية، خططت إسرائيل بتوجيه ضربة قاسية لأهداف سورية في لبنان وفي سورية نفسها، إلاّ أن هذا الهجوم لم يخرج إلى حيز التنفيذ في نهاية المطاف، وذلك بسبب عدم وجود تأييد واسع للفكرة بين وزراء الحكومة الإسرائيلية.(٤٠)

وبعد عدة أسابيع من التوتر عاد الهدوء النسبي ليسيطر على الحدود الإسرائيلية اللبنانية، إلاّ أن هذا الهدوء لم يكن بالضرورة بفضل سورية، بقدر ما هو بالذات بسبب خطوات إيران، وربما أيضاً بسبب جملة الاعتبارات الخاصة بحزب الله نفسه (أنظر الفصل الثامن). وبالفعل، ومقابل الادعاءات القائلة بأن بشار مارس كامل ثقله على زعماء حزب الله حتى يلجموا نشاطهم ضد إسرائيل، فقد أفادت مصادر

(٣٩) أنظر مقابلة بشار الأسد مع أسبوعية **دير شبيغل**. وقد نُشرت المقابلة بكاملها في الصحافة السورية، مثل **البعث**، ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٤٠) **يديعوت احرونوت**، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. **هآرتس**، ٢٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

إسرائيلية أن السوريين نقلوا إلى حزب الله صواريخ متطورة يصل مداها إلى حوالى ٢٠ كم، والتي من شأنها أن تُحسّن، قدرات المنظمة العسكرية ضد إسرائيل. ومن الصعب معرفة الأمر الذي تخفيه خطوة بشار هذه، إلاّ أن غالبية الآراء كانت ترى فيها تشجيعاً لحزب الله للاستمرار بالعمل ضد إسرائيل.[٤١]

لقد أعاد التصرف السوري في هذه القضية، إلى أذهان الكثيرين، التجاهل، أو لدقة أكبر، التشجيع الذي أعطاه بشار لصدام عندما أرسل الأخير في نهاية عام ٢٠٠٠ قوات دعم عراقية إلى الحدود السورية العراقية، وذلك في خطوة هدفت إلى إرسال رسالة تهديد إلى إسرائيل. وبالمناسبة، من المحتمل أن يكون بشار قد رأى في هذا التصرف خطوة من شأنها أن تقويه ضد إسرائيل، ولكن يبدو أنه استخف بالمغزى بعيد الأثر لخطوة مثل هذه على علاقات سورية مع العراق، ومع دول الخليج الفارسي، وحتى مع إسرائيل ومع الولايات المتحدة.[٤٢]

لقد ذكرت الأحداث التي سادت في المنطقة عند اندلاع انتفاضة الأقصى واستئناف نشاط حزب الله، ذكرت الكثير من الإسرائيليين بالظروف التي كانت سائدة عشية حرب الأيام الستة. ففي عام ١٩٦٧ كان السوريون هم من أعلن "حرب التحرير الشعبية" ضد إسرائيل، والتي أرسلوا في إطارها عناصر فتح، بزعامة ياسر عرفات، إلى داخل إسرائيل من أجل القيام بعمليات إرهابية. وكان إحساس الكثيرين في العالم العربي في تلك السنوات أن إسرائيل ستجد صعوبة في تقديم رد حقيقي للتحدي الذي وُضع في وجهها، الأمر الذي أدى إلى تآكل في قدرة الردع الإسرائيلية، وهو ما دفع في النهاية إلى تدهور المنطقة إلى حرب لم يكن أحد يتوقعها، كما أن أحد لم يكن يرغب بها، بما في ذلك السوريون. وكان التخوف الذي ساد إسرائيل إذاً منذ أواخر عام ٢٠٠٠ هو أن بشار يريد، أو أنه اضطر، للسير على الطريق ذاته الذي سار عليه حكام سورية قبل ثلاثين عام من ذلك.

في هذا السياق يجدر التأكيد على حقيقة أنه وللمرة الأولى منذ بداية النزاع

---

(٤١) **يديعوت احرونوت**، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٤٢) **هآرتس**، ٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. **يديعوت احرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

الإسرائيلي العربي تمكّن العرب من خلق "توازن رعب" بينهم وبين إسرائيل، وذلك بفضل القدرة غير التقليدية الموجودة في حوزة عدد من الدول العربية. ويعد من بين الدول كما هو معروف، سورية، التي تمتلك صواريخ أرض - أرض تغطي غالبية المناطق في إسرائيل، بالإضافة إلى السلاح الكيميائي والبيولوجي.(٤٣) وإيران التي تقترب من امتلاك سلاح نووي، وأخيراً حزب الله الذي مكنته الصواريخ التي زودته بها إيران، حسب تحذيرات جهات أمنية إسرائيلية، من تغطية شمال إسرائيل بكامله. ومن هنا نبع على ما يبدو عدم الاكتراث الذي أبداه بشار تجاه طلب إسرائيل لجم حزب الله. ووفقاً للتقارير التي نشرت في إسرائيل فأن بشار رد على هؤلاء الذين أرادوا تحذيره من نشوب مواجهة إسرائيلية سورية بقوله إن سورية لا تخشى من إسرائيل وأنها قادرة على مواجهتها، بعدة وسائل أحدها، الصواريخ الموجودة في حوزتها.(٤٤)

وحتى أن بشار أوضح في مقابلة مع صحيفة **السفير** اللبنانية في شباط/فبراير ٢٠٠٢ أن "لدى إسرائيل عوامل قوة يمكن أن تغريها، بزعامة اريئيل شارون المأخوذ بجنون الحرب، بالقيام بمغامرة عسكرية واسعة... إنه يمكن لإسرائيل أن تتمتع بتفوق في بداية الحرب، إلاّ أنه لن يكن بمقدورها المحافظة على هذا التفوق لزمن طويل، حتى نهاية الحرب، أو أن تتحكم بنتائجها وتحقيق النصر فيها. إن الجانب العربي، ونحن في مقدمته، سيكون الطرف الذي يمتلك قرار إنهاء الحرب: أي أين وبأي طريقة ستنتهي. نحن نعرف بأن إسرائيل تفوقنا في عدد من المجالات العسكرية، ولكن لدينا القدرة على الصمود والتمسك بالقرار وليس في نيتنا التعرض للضربات والسكوت، بالإضافة إلى ذلك، أن نقبل بشروط السلام الإسرائيلي".

"إننا ندرك بأن إسرائيل قد تراجعت عن النظرية التي تبنتها سابقاً والتي تتطلب

---

(٤٣) أنظر على سبيل المثال **هآرتس**، ٣ تموز/يوليو ٢٠٠٢. **الوطن**، ٢٣ تموز/يوليو ٢٠٠٢، **يديعوت احرونوت**، ٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٤٤) **يديعوت احرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً إيال زيسر، "من يحكم سورية فعلاً" ذكر سابقاً، الملاحظة ٦٣ في الفصل الثالث، ص فحة ١٥-٢٤.

فيها القيام بغزو عسكري لأراضي العرب واحتلال أراضيهم وهي تتبع الآن تكتيك يقوم على التسبب بالدمار الكامل لمنشآت العدو بواسطة الطائرات التي تهاجم من ارتفاعات عالية وهدفها منذ ذلك هو تفادي أية مواجهة وجهاً لوجه مع أعدائها إلاّ أن الكثير من المعطيات قد تغير [في صورة الواقع الإقليمي] في أعقاب، أو بفضل المقاومة اللبنانية [نشاط حزب الله]، وبفضل الانتفاضة المباركة في فلسطين. إن الوضع الذي كان سائداً في المنطقة في الماضي هو ليس نفس الوضع السائد فيها اليوم ولا يوجد أي مسؤول متزن في الكيان الصهيوني لا يدرك الواقع الجديد الذي أفرزه "التغيير النوعي" في طرق النضال والمقاومة، وفي مقدمتها الإمكانية التي تمتلكها بنقل النضال إلى أرض العدو. أما فيما يتعلق بنا فإن قرارنا واضح: نحن سنصمد بقوة وسنرد على العدوان حتى ولو دمّر العدو الكثير من منشآت البنى التحتية لدينا، صحيح أننا دولة فقيرة، ولكن بوسعنا أن نصمد بقوة أكثر مما يتصور، وسنتمكن من إعادة بناء ما يتمكن من تدميره. ولكن عليه أن يدرك أن الضرر الذي يمكن أن نسببه للعدو أكبر بكثير من الذي يسببه لنا".(٤٥)

خيبة الأمل في إسرائيل من بشار ومن مواقفه المتشددة، ومن عدم استعداده لتليينها في موضوع المفاوضات مع إسرائيل، ومن ميله إلى غض الطرف عن نشاط حزب الله بل وتشجيعه، أدت إلى تحول في الموقف الإسرائيلي، وحل محل الثناء على نقل السلطة بشكل سلس والترسيخ السريع لنظامه، حل الغضب والازدراء على نقص تجربته، بالإضافة إلى الاستخفاف والفجاجة. ويمكن أن نجد تعبيراً عن هذا التوجه في العنوان الذي ظهر لأحد التقارير في الصحافة الإسرائيلية – "الطبيب المزعوم"، والذي أُشير فيه، إلى الشكوك في أوساط المخابرات الإسرائيلية حول شهادة الطبيب التي يفتخر بها، وإلى التقارير التي تتحدث عن أنه لا يسيطر أبداً على ما يجري في سورية ويخصص أغلب وقته لألعاب الكومبيوتر.(٤٦)

ومع ذلك يجب الاعتراف أنه وعلى الرغم من الخط المتشدد الذي اتبعه بشار

---

(٤٥) **السفير**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٠. وانظر أيضاً **الوطن**، ٢٣تموز/يوليو ٢٠٠٢.

(٤٦) **هآرتس**، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. **يديعوت احرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

في تصريحاته، إلاّ أنه عملياً حرص على عدم الخروج عن خط عدم الفعـل ضـد إسرائيل، وهو الخط الذي تبناه والده كنهج حياة. ومن الممكن أن تكون حقيقة أن النخبة السياسة والعسكرية – الأمنية التي أحاطت بوالده الراحل بقيت على حالها خلال السنوات الأولى لبشار في السلطة قد أثّرت على ذلك. ولكن من المحتمل أن يكون بشار نفسه قد وصل عن طريق تجربة الخطأ والصواب إلى نتيجة أنه يحسن صنعاً إذا ماكبح جماح نفسه في مواجهة إسرائيل، وخاصة بعد أحـداث الحـادي عشر من أيلول/سبتمبر. وبالفعل فإن الحقيقة هي أن بشار قد امتنع عن أي رد على الهجمات الإسرائيلية على مواقع سورية في لبنان خلال عام ٢٠٠١، وحتى علـى معسكر التدريب على أبوب دمشق في نهاية عام ٢٠٠٣، وذلك على الرغم مـن تأكيدات مسؤولين سوريين كبار، ومن بينهم هو نفسه، بالثأر مـن إسـرائيل في المكان والزمان المناسبين.

وعلاوة على ذلك فقد امتنعت سورية عن نعي مفاوضـات السـلام مـع إسرائيل، وعادت وأوضحت، وخاصة على مسامع المسؤولين الكبار الغـربيين، أن السلام يظل الخيار الأفضل وأن إحلاله يرتبط باستعداد إسرائيل الاستجابة لمطالب سورية الإقليمية. وقد أوضح بشار، أن التوصل إلى اتفاق سلام، هو أمـر ممكـن حتى مع اريئيل شارون. وعملياً، فقد كشف بشار النقاب عن أن شارون أرسـل بُعَيْدَ انتخابه لرئاسة الحكومة في آذار/مارس ٢٠٠١ مبعوثاً خاصـاً إلى دمشـق، اقترح على السوريين البدء بمفاوضات سرية هدفها دفع مسيرة السلام. وأضاف أنه قد أبلغ المبعوث أن سورية ترفض اقتراح شارون بدعوى أنه يهدف إلى المناورة بين مساري المفاوضات السوري والفلسطيني، وأكّد أنه يرفض محاولة إسرائيل ضـرب المسار الفلسطيني. وأضاف كذلك أن سورية لن توافق على تسوية قضية الجـولان قبل أن تتم تسوية المشكلة الفلسطينية، بما في ذلك قضية القدس.[٤٧]

وخلال زيارته إلى فرنسة في حزيران/يونيو ٢٠٠١، وعندما سئل بشار عـن الشروط التي يضعها للتوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل، رد قائلاً:

---

(٤٧) **المجد**، ١٩ آذار/مارس ٢٠٠١.

لدينا شرط واحد، إذا كان يصح أن نسميه شرطاً، وهو تطبيق قرارات مجلس الأمن التي تشكل الضمان الوحيد للسلام. ومما لا شك فيه أن لسورية مصلحة حقيقية في تحقيق السلام، والأمر نفسه لبقية الدول في المنطقة، وحتى لأوروبا. حيث أنه إذا لم يَسُد السلام فإن البديل له حالة عدم الاستقرار، ومن الممكن أن تؤثر الحرب بشكل سلبي علينا جميعاً. وعليه فإننا سنبذل كل ما في وسعنا لتحقيق السلام. إننا جديّون وواضحون في هذا الشأن. ونحن لم نغيّر رأينا، وبقي هذا الرأي على حاله منذ بدء مسيرة السلام. إن التصريحات والإعلانات والخطابات التي سُمعت هنا [في سورية]، مثل سلسلة طويلة من الإجراءات على الصعيد الداخلي، كلها تمت من أجل ضرورة إعداد شعبنا للسلام مع إسرائيل، التي كانت عدواً على امتداد سنوات. لذلك كانت هناك حاجة لفترة تحضيرية. واليوم الشعب السوري مستعد تماماً لهذا السلام، وكذلك الأمر بالنسبة للإدارة السورية.

لقد بدأنا المفاوضات على ١٩٩١ وكنا على قناعة، مثلما مقتنعون اليوم، بأنه سيتم تحقيق السلام في نهاية المطاف إذا ما توفرت له رعاية غير منحازة وإذا ما تمت خلاله المحافظة على الالتزام الكامل بالمرجعية التي أُعلن عنها في مدريد. الآن، وبعد عشر سنوات، يبدو أن مسيرة السلام قد فشلت تماماً. وسؤالي هو هل من المنطقي أو من الممكن أن نستأنف مسيرة السلام في المستقبل قبل أن نحلل أسباب الفشل ونوجد الأسباب لذلك، والحلول. وإذا لم نفعل ذلك، فإننا سنعود بعد عشر سنوات ونسأل أنفسنا لماذا فشلت مسيرة السلام الجارية منذ عشرين عاماً. إن لدينا في سورية الكثير من القضايا التي علينا مواجهتها، وليس في نيتنا إهدار الوقت على قضايا ومواضيع لا طائل منها.

لقد كان خطأ الكثير من الدول الأوروبية، وكذلك الولايات المتحدة، هي أنها اعتقدت بأن المفاوضات للمفاوضات تعطي السلام. وحسب فهمي، فإن الشيء الأهم في المفاوضات هو كيفية إدارتها، ومن هي الجهات التي من المقرر أن تلعب فيه دور الوسيط النزيه، إلى آخر ما هنالك... لقد كان موقفنا المبدئي أننا مستعدون للتوقيع على اتفاق سلام ونحن مستعدون لمبدأ السلام، بغض النظر عن هوية رئيس الحكومة الإسرائيلية، ولكن يجب التوضيح بأن لمسيرة السلام مرجعية

واضحة، وأن هناك حقوقاً واضحاً يجب الوفاء بها، ذلك أنه من غير الممكن أن يسود السلام دون إعادة كامل الحقوق.[٤٨]

لقد دفعت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر سورية إلى موقع المدافع عن النفس على الصعيدين الإقليمي والدولي. وتركزت المخاوف السورية من أن يحل السوء أيضاً على دمشق، وذلك في ظل اتهامات واشنطن بأن دمشق تساعد وتقدم الملاذ للمنظمات الإرهابية الفلسطينية. إذاً، لقد لُمس في بداية عام ٢٠٠٢ الحذر من جانب سورية، وقد وجد هذا لحذر تعبيراً له في سلسلة من التقارير التي يظهر منها، للوهلة الأولى، أن سورية مستعدة لتخفيف دعمها لمنظمات الرفض الفلسطينية. وحتى أن وزير الخارجية فاروق الشرع أبلغ الصحفيين أنه من المناسب أن يأخذ النضال استراحة بين الفينة والأخرى، وذلك كإشارة على أن سورية ستعمل لكبح نشاط المنظمات العاملة على أراضيها.[٤٩]

وبعد ذلك أعطى السوريون دعمهم للتصعيد الذي بدأه حزب الله على الحدود الشمالية، ولكنهم في الوقت نفسه منحوا مباركتهم، وبشكل أدق موافقتهم الصامتة، لمبادرة السلام السعودية التي قدمها ولي العهد الأمير عبد الله. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن المبادرة السعودية أثارت صعوبة في وجه بشار، إذ تخوف السوريون من أن الحديث يدور عن خطوة جاءت لدفع المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية على حساب السوريين، وكان لا بد من جهد في الصياغة لطمأنة دمشق. وقد وصف تأييد سورية للمبادرة إذاً، كتأييد "صامت خال من الحماسة" (أنظر الفصل السادس).[٥٠]

وخلال زيارته لبريطانية في كانون الأول/ديسمبر قال بشار، وإن كان ذلك في جلسة مغلقة وبدون وجود الصحافة: "إن لدي رسالة للإسرائيليين. إننا معنيون بالسلام. وعلى الإسرائيليين الاختيار [في الانتخابات العامة التي من المقرر أن تجري

---

(٤٨) التلفزيون السوري، ٢٥ حزيران/يونيو، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

(٤٩) **هآرتس**، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

(٥٠) **الحياة**، ١ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

في بداية ٢٠٠٣] بين المرشح المعني بالسلام وبين المرشح الذي يريد الحرب. وإن هناك أناس يحاولون تبرير [أعمال إسرائيل] بأنها تنبع من الخوف. ولكن تبرير كهذا غير مقبول على العقل. إن الإسرائيليين ليسو أولاداً وعليهم اتخاذ قرار حول الطريق الذين يريدون السير فيه. إننا من جهة معنيون بالتوصل إلى حل، إذ يقتل في كل يوم بشر هناك... ومشروع السلام العربي واضح. وهو يقترح على إسرائيل السلام والعلاقات الطبيعية، شريطة أن تنسحب إلى حدود ١٩٦٧".[٥١]

لقد أدخل احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة، تغييراً محدوداً على المواقف السورية، والذي جاء استجابة للواقع الجديد في المنطقة، والذي اعترف به السوريون أيضاً. وتشهد على هذا أقوال بشار: "إننا نعرف إن إسرائيل تتلقى الدعم من قبل الولايات المتحدة وإن كل المستودعات [الأسلحة] مفتوحة أمامها. ذلك في الوقت الذي لم يعد فيه الاتحاد السوفياتي يقف إلى جانبنا. وتغيّر ميزان القوى في العالم. ولذلك [التوازن العسكري الاستراتيجي بيننا وبين إسرائيل] لم يعد مطروحاً.. يجب علينا أن نتطلع إلى توازن قوى (عربي - إسرائيلي). ولا توجد أية دولة عربية بوسعها أن تحقق توازن بالقوى، ولو محدوداً، مع إسرائيل. وعلاوة على ذلك، فإن المشكلة ليست عسكرية. وأنا أعتقد أن المشكلة الأخطر من ذلك هي توازن القوى بالمعنى الأشمل - الاقتصادي والتكنولوجي والاجتماعي... الخ. علينا أن نتطلع إلى توازن من هذا النوع مع إسرائيل، وبطبيعة الحال فإنه ليس بوسع سورية لوحدها تحقيقه".[٥٢]

وفي ظل التهديد الذي أرسلته واشنطن باتجاه دمشق بسبب سياستها في المسألة العراقية، سارع السوريون في البداية إلى تليين مواقفهم في قضية النزاع مع إسرائيل، وحتى إلى بث إشارات حول استعدادهم لاستئناف المفاوضات العالقة معها. وبالفعل، وفي الوقت الذي لم تخفِ فيه سورية في بداية عام ٢٠٠٣ رفضها القاطع لـ "خارطة الطريق" التي بلورتها واشنطن وشركاؤها، فإنها حولت

---

(٥١) **الحياة**، ١٨، ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٥٢) أنظر مقابلة بشار الأسد مع قناة تلفزيون العربية، ٩، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٣.

معارضتها هذه، على عجل، لموافقة صامتة، أو بشكل أدق، كما صاغ ذلك الرئيس السوري: "إننا لا نؤيد، لكننا لا نعارض أيضاً خارطة الطريق، ولكن الشيء الذي لا نفهمه هو لماذا لم تتم بلورة خارطة طريق من أجل سورية ولبنان".(٥٣) وحتى أنه أُفيد في إسرائيل عن إشارات أرسلها السوريون بواسطة شقيق الرئيس، ماهر، حول رغبة دمشق بالبدء بمفاوضات مع إسرائيل. وقد سارع السوريون، بالطبع، إلى نفي الأقوال.(٥٤) ولكن واشنطن التي امتنعت، كما سبق وذكرنا، عن ضم سورية إلى "خارطة الطريق" التي أطلقتها في حزيران/يونيو ٢٠٠٣ وأوضحت أنه بعد أن يتم إحراز تقدم حقيقي على المسار الإسرائيلي الفلسطيني فإنه سيكون من الممكن ضم سورية إلى العملية، وحتى أن هذا مشروط باستجابة دمشق لمطالب واشنطن في سلسلة طويلة من المجالات.

لقد أعاد تورط الولايات المتحدة في العراق والصعوبات في دفع خارطة الطريق، أعاد إلى السوريين الثقة بأنفسهم ودفعهم إلى تصعيد الموقف السوري تجاه إسرائيل. فقد سُجل في أواخر عام ٢٠٠٣ تدهور آخر في العلاقات الإسرائيلية – السورية، وذلك بعد أن قامت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي بطلعة فوق قصر بشار الأسد في مدنية اللاذقية وذلك بهدف إرسال رسالة رادعة له بأن عليه أن يكبح جماح حزب الله على طول الحدود الإسرائيلية – اللبنانية.(٥٥)

أما العملية ذات الدلالة الأكبر فقد كانت الغارة التي قام بها سلاح الجو الإسرائيلي على معسكر التدريب في عين الصاحب الذي يستخدمه عدد من الفصائل الفلسطينية، والذي يبعد عدة كيلومترات عن دمشق. وقد جاء هذا الهجوم الإسرائيلي، والذي هو الأول من نوعه منذ انتهاء حرب يوم الغفران، رداً على العملية الانتخابية التي قامت بها منظمة "الجهاد الإسلامي" في حيفا، والتي قتل

(٥٣) المصدر السابق.

(٥٤) **معاريف،** ١٣ أيار/مايو، ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٥٥) وكالة رويترز، ٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **هآرتس،** ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

فيها أكثر من عشرين إسرائيلياً.(٥٦) وقد أوضحت مصادر إسرائيلية إن الهجوم جاء لإرسال رسالة لدمشق، التي توجد فيها قيادة المنظمة ويقيم فيها زعيمها رمضان شلح، بأن عليها التوقف عن تقديم دعمها لمنظمات الإرهاب الفلسطينية. وأوضحت المصادر كذلك وبعد أن قررت إسرائيل مبدئياً في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ طرد ياسر عرفات، وردعت بذلك منظمة فتح عن القيام بعمليات إرهابية، وبعد أن أسست توازن رعب بينها وبين منظمة حماس بعد أن حاولت المساس بحياة زعمائها، فهي تحاول التأسيس لتوازن الرعب مع الجهاد الإسلامي.(٥٧)

أما في سورية فقد نُظر إلى الغارة الإسرائيلية على إنها جزء من خطة إسرائيلية أمريكية التي تهدف إلى تقويض الاستقرار في دمشق، وربما إسقاط النظام السوري أيضاً. وقد اصطدم السوريين الذين سارعوا لتقديم شكوى لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، بموقف أمريكي حازم يرفض إدانة إسرائيل، وحتى أنه حمل دمشق مسؤولية التدهور الحاصل في المنطقة.(٥٨) وصحيح أن حزب الله قد نفّذ عمليته رداً على الهجوم الإسرائيلي، حيث قتل جندي إسرائيلي، إلاّ أن ذلك لم يكن ليُسهّل الأمر على النظام السوري، الذي واجه انتقادات من الداخل بسبب عجزه أمام إسرائيل.(٥٩)

وللمرة الأولى سمعت تهديدات من دمشق تقول إنه في المرة القادمة التي تُهاجم فيها سورية من قبل إسرائيل فإنها سترد على ذلك ولن تجلس مكتوفة الأيدي. فعلى سبيل المثال أعلن وزير الخارجية فاروق الشرع إن "الشعب السوري ليس مستعداً للمرور مرور الكرام على هجمات إسرائيلية أخرى ضد سورية، والحكومة السورية تصغي لرغبات الجمهور في الدولة. وإنه توجد لدى سورية الكثير من أوراق الرد،

(٥٦) **هآرتس**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٥٧) أنظر مقابلة رئيس الشعبة السياسية في وزارة الأمن، اللواء الاحتياط عاموس جلعاد، التلفزيون الإسرائيلي، ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **هآرتس**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **يديعوت احرونوت**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٥٨) وكالة رويترز، ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٥٩) **هآرتس**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

مثل [ضرب] المستوطنات المنتشرة في هضبة الجولان".(٦٠) وقد سارع وزير الإعلام أحمد الحسن إلى التوضيح بأن أقوال الشرع التي وردت "في إطار مقابلة صحفية غير رسمية، أُخرجت عن سياقها"، لكن كان في أقوال الشرع، مثلما هو الحال في تصريحات أخرى صدرت عن دمشق، ما يدل على ضائقة النظام في دمشق، والذي قد يجد نفسه نتيجة لها ينجر إلى مواجهة مع إسرائيل.(٦١)

لقد دفعت الضائقة التي واجهتها سورية أواخر عام ٢٠٠٣، دفعت دمشق إلى العمل لاستئناف المفاوضات مع إسرائيل، وذلك على أمل تحسين صورتها في الغرب وخاصة في نظر واشنطن. وفي نهاية كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣ أجرى بشار الأسد مقابلة مع صحيفة **نيويورك تايمز** أعرب خلالها عن رغبته في استئناف مفاوضات السلام وحتى عن استعداده لإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل. وكما سبق وذكرنا، فإن والد بشار امتنع عن استخدام مصطلح "التطبيع"، والذي ارتبط في وعي الكثيرين باتفاق السلام الإسرائيلي – المصري. وفي رد له على سؤال حول ماهية العلاقات التي ستقام حسب رأيه بين إسرائيل وبين سورية إذا ما تم التوقيع على اتفاق سلام بين البلدين أوضح بشار "إنني أقصد على سبيل المثال العلاقات التي نقيمها مع الولايات المتحدة. ففي بعض الأحيان هي علاقات جيدة وفي أحيان أخرى أقل جودة. أو العلاقات بيننا وبين فرنسة أو بريطانية. وكما هو معروف فقد حصلت في الثمانينيات أزمة في العلاقات مع بريطانية، وحتى أنها قُطعت لفترة معينة ولكن طرأ عليها تحسن بعد ذلك.

"مع ذلك، يجب أن نأخذ بالحسبان أنه لجهة كل ما يرتبط بالعلاقات التي ستحل بين الشعبين [سورية وإسرائيل]، فإن الحديث يدور عن أمر من شأنه أن يستمر وقتاً طويلا. إذ أن هناك فرقا بين الحكومات التي توقع على الاتفاقيات وتضع بذلك حداً للتراع بينها، وبين الشعب الذي لا يمكن تحريكه بواسطة تلك القرارات والمراسيم إلا إذا كان هو يريد ذلك. أما في ما يرتبط بالسوريين – وأنا

(٦٠) أنظر مقابلة فاروق الشرع مع الـ **ديلي تيليغراف**، ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.
(٦١) **الثورة**، ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. راديو مونت كارلو، ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

أستطيع أن أتحدث باسمهم بوصفي سوري أعيش بين أبناء شعبي وأمثلهم – فإن الشعب السوري كان يرغب دائماً بالسلام. ورغم أننا اليوم بعيدون عنه كثيرا، إلا أننا مازلنا نتطلع إليه. أما في ما يتعلق بالمستقبل، فإنني متفائل جداً، وأؤمن أنه عندما يتم التوقيع على اتفاق سلام عادل وشامل، فإن المشاكل ستزول.(٦٢)

وقد أثار تصريح بشار جدل داخلي في إسرائيل بين أولئك الذين رأوا في تلك الأقوال تعبيراً عن استعداد للسير في طريق السلام مع إسرائيل، حتى وإن كان ذلك نابع من رغبته في بقاء حكمه في ظل الضائقة التي يعاني منها، وبين أولئك الذين رأوا فيه خطوة تكتيكية وحملة علاقات عامة، والموجهة بالأساس للإدارة الأمريكية والتي ليس فيها شيء من الحقيقة. إن السوريين من جهتهم لم يسهلوا الأمر على أصحاب "الخيار السوري" في أوساط الرأي العام الإسرائيلي، وامتنعوا عن اتخاذ أية خطوة في إطار "الدبلوماسية العلنية" والتي أدى غيابها في الماضي إلى فشل الجهود لتحقيق سلام إسرائيلي – سوري. واستمرت الرسائل التي بعث بها السوريون تجاه إسرائيل على عدوانيتها، وخاصة الطلب الحازم من إسرائيل بالانسحاب إلى خط الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧ كشرط لاستئناف المفاوضات.

وعندما دعا الرئيس موشيه كاتساف بشار الأسد لزيارة القدس مثل الرئيس أنور السادات في حينه، اُستقبلت هذه الدعوة برفض سوري مطلق.(٦٣) لكن يبدو أن رئيس الحكومة الإسرائيلية أيضاً، إريئيل شارون، كان أبعد ما يكون عن التلهف لاستئناف المفاوضات مع سورية، وحتى أن مقربوه أوضحوا بأنه غير مستعد لدفع ثمن السلام – بالانسحاب من هضبة الجولان.(٦٤) كما أن مصادر إسرائيلية روت أنه بموازاة تصريحات السلام السورية استمر السوريون في مساعدة حزب الله في جهوده للتسليح، وقد استخدموا من أجل ذلك طائرات أرسلت من طهران لنقل المساعدات لمتضرري الزلزال في إيران قبل أيام من ذلك، وعادت وهي

---

(٦٢) **نيويورك تايمز**، ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤.

(٦٣) **هآرتس**، ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. **تشرين**، ٥، ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٦٤) **معاريف**، ٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

تحمل في بطنها أسلحة متطورة مخصصة لهذه المنظمة.(٦٥)

وبالإجمال، فإنه بعد ثلاث سنوات من غياب حافظ الأسد وصعود بشار إلى السلطة، وبعد حوالى عامين من اندلاع انتفاضة الأقصى، والتي تبدو للوهلة الأولى أنها خلطت كل الأوراق في المنطقة، يبدو أن سورية قد بقيت ملتزمة بمسيرة السلام، ولو كان ذلك بدون خيار، كطريق أفضل لتحقيق أهدافها. وبالإضافة إلى ذلك فإن الفجوات بين مواقف الطرفين في ما يتعلق بالموضوع الإقليمي لم تتسع وبقيت صغيرة على حالها، أي إنها تتركز في الطلب السوري بالانسحاب الإسرائيلي إلى خطوط عام ١٩٦٧، بالإضافة إلى المطالبة، على ما يبدو، بمياه بحيرة طبرية. كل هذا قبل الحرب على العراق، التي فتحت نافذة فرص جديدة لاستئناف المفاوضات، والتي سيكون لزاما على الدولتين، وخاصة على زعمائها، من أجل التوصل إلى اتفاق سلام، قطع طريق طويل كثير المحطات:

١. ترسيخ بشار في السلطة: من الممكن الافتراض أنه طالما يشعر بشار بأن حكمه غير مستقر، فإنه لن يستطيع الدفع باتجاه مسيرة سلام حقيقية مع إسرائيل، هذا ناهيك عن التوقيع على اتفاق سلام معها. حيث لم تكن مسيرة السلام الإسرائيلي - العربي في يوم من الأيام مصدر تأييد لأي من الزعماء العرب الذين عملوا على تحقيقه - رغماً عن الرأي العام العربي بشكل عام، وعن الرأي العام في بلادهم بشكل خاص - من أجل مصالح شخصية أو سياسية. صحيح إن من شأن بشار أن يستجيب للضغط الأمريكي لاستئناف مفاوضات السلام مع إسرائيل، وعن طريق ذلك إشاعة الأجواء "بأن كل شيء على ما يرام"، وهو الأمر الذي يحتاجه في الخارج والداخل على حدّ سواء، إلا أنه وكما ذكرنا، فإنه من المشكوك فيه أن يُقدِم على ذلك قبل أن يشعر أنه آمن في حكمه.

٢. نضوج بشار كإنسان وكزعيم: يشكل هذا شرطا ضرورياً لتقدم المفاوضات مع إسرائيل، أي إظهار قدرته على تبني سياسة واقعية وبراغماتية لا تتأثر

(٦٥) التلفزيون الإسرائيلي، القناة الأولى، ١١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤.

بحماس الشاب، الذي لُمس في خطواته، وخاصة في تصريحاته، في السنوات الأولى لحكمه.

٣. تحقيق هدوء إقليمي، وخاصة استئناف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، بشكل يضع حداً للعنف وينقّي الأجواء المعكرة في المنطقة. ومن شأن هذه المفاوضات أن تعطي لسورية الشرعية المطلوبة لاستئناف المفاوضات مع إسرائيل، وربما حتى للتوصل إلى اتفاق سلام منفصل، من خلال تشتيت الجبهة العربية التي أرادت سورية إنشائها.

والجدير بالذكر أن اتفاق أسلو اُستخدم كذريعة للأسد لتفسير استعداده للتقدم على طريق السلام – وهو الاستعداد الذي نضج، بطبيعة الحال، حتى قبل ذلك. وفي مقابلة أجراها معه باتريك سيل في أيار/مايو ١٩٩٤ صرح الأسد بأن الفلسطينيين هم المسؤولين عن قضية فلسطين. ومنذ أن توصلوا إلى اتفاق مع إسرائيل وأعلنوا عنه لم يبق للعالم العربي بشكل عام، ولسورية بشكل خاص إلا اقتفاء أثرهم. وهذه الأقوال تتعارض بشكل كامل مع الموقف السوري في القضية الفلسطينية سابقاً، والذي يرى، أن دمشق، وليست م.ت.ف، هي المسؤولة عن حل القضية الفلسطينية. وأضاف الأسد إنه "يعيش على أرض فلسطين الإسرائيليون والفلسطينيون وسورية تقر بهذا الواقع".[٦٦]

كما لُمس أيضاً تغيير مماثل لدى بشار. ففي مقابلة مع صحيفة **البايس** الإسبانية سُئل بشار إذا كان رفض العالم العربي لتقسيم أرض إسرائيل وفق تصريح الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧، بمثابة الخطأ، رد بشار: "لا يمكنك القول أن هذا كان خطأ في ذلك الوقت، ذلك أن العالم قسم فلسطين دون أن يأخذ رأي العرب. وقد اعتقد العالم أنه يمكن فرض الوقائع المنتهية على العرب. ولكننا نتحدث عما يحصل اليوم وليس عن الماضي، أي عن الفترة التي بدأت بمسيرة السلام في مدريد، حيث أنه ومنذ أن بدأت مسيرة السلام، وافق الجميع، أي نحن والمجتمع الدولي على رؤية معينة تجري المفاوضات على

---

(٦٦) **الوسط**، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠٣.

أساسها. ولا يوجد جدوى في العودة إلى الماضي، ذلك أن نبش الماضي هي قضية صعبة علينا جميعاً".[٦٧]

٤. محاور إسرائيلي مستعد للقبول بطلب السوريين لانسحاب كامل من هضبة الجولان: لقد تحول هذا الطلب، كما سبق وذكرنا، إلى خط لا يمكن تجاوزه في نظر دمشق، وقد قوى إصرار السوريين على تحقيقه، بدون شك، الحقيقة السائدة بأن زعماء إسرائيليين قد استجابوا له في السابق، وإن لم يكن ذلك بشكل مباشر وملزم.

وفي هذا السياق يمكن أن نذكر أنه خلال التسعينيات لُمست الرغبة، وحتى الحماسة الإسرائيلية لدفع مسيرة السلام لعدة أسباب: أولها، هو أن إسرائيل خشيت احتمال حدوث هجوم سوري مفاجئ على هضبة الجولان (خطف)، وهي إمكانية كانت تبدو في ذلك الوقت واقعية، وحاولت أن تتفادى هذا التهديد عن طريق دفع المفاوضات مع دمشق. ثانيا: أرادت إسرائيل أن توقف نزف دم جنودها المتواصل في جنوب لبنان، حيث كان جيش الدفاع الإسرائيلي يواجه هناك صراعاً متواصلاً مع حزب الله. وثالثا: وهو أن إسرائيل أملَت، ورغم كل شيء، جني مكاسب سياسية واقتصادية، وخاصة في مجال التطبيع مع العالم العربي، وربما قبل كل شيء مع سورية نفسها، وذلك بفضل التوصل إلى اتفاق سلام مع سورية. ورابعا: لقد أملت إسرائيل، أنه عن طريق دفع المفاوضات مع سورية، سيكون بإمكانها تحسين موقفها التفاوضي مع الفلسطينيين.

إلا أنه مع مرور السنين، وخاصة بعد احتلال العراق، لوحظ أن التعجّل الإسرائيلي لدفع المفاوضات مع سورية قد خبا: فأولاً: الجيش السوري ضعف بمرور السنين، وبموازاة ذلك زادت الفجوة التكنولوجية النوعية بينه وبين جيش الدفاع الإسرائيلي. كما أن تواجد القوات الأمريكية على الحدود الشرقية

---

(٦٧) **البابيس**، ٣٠ نيسان/أبريل ٢٠٠١. وقد نشرت المقابلة كاملة في الصحافة السورية، مثل **تشرين**، ١ أيار/مايو ٢٠٠١.

لسورية قلصت كثيراً احتمالات العمل لدى دمشق، وأبعدت كل خطـر مـن جانبها. وثانيا: مل يَحُلّ انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان قضية حـزب الله بشكل فعلي، إلا أنها قللت من حدة تأثيرها في الرأي العام الإسرائيلي. وثالثا: كفت إسرائيل عن توقع مكاسب سياسية أو اقتصادية من اتفاق سـلام مـع سورية، وأدركت أن الفوائد ستكون محدودة، إذا كانت هناك أصـلاً فوائـد ستجنيها في هذه المجالات. ورابعا: اتضح أنه لن يكون، بالضـرورة للمسـار السوري تأثير على ما يجري على المسار الفلسطيني، وخاصة في الواقع الذي نشأ بعد انتفاضة الأقصى، وبعد تحريك "خارطة الطريق" من قبل الولايات المتحدة وشركائها في "اللجنة الرباعية".

علاوة على ذلك، فإن الإدارة الأمريكية، التي تشكل عاملاً أساسياً في دفع مسيرة السلام، لا تظهر حماسة لوضع كل ثقلها من أجـل دفـع السـلام - الإسرائيلي السوري. حيث اعتقد الأمريكيون في التسعينيات إن حـل الـنزاع الإسرائيلي السوري سيدفع باتجاه حل بقية القضايا العالقة في علاقات واشنطن مع دمشق، بما فيها دعم سورية للإرهاب. ولكن في أعقاب الحادي عشر مـن أيلول/سبتمبر غيّرت الإدارة الأمريكية من تعاملها مع سورية، وهي ترى اليوم قضية الإرهاب قضية أمريكية - سورية، التي ترتبط بالأمن القومي للولايـات المتحدة. كما أنه لا يوجد للأمريكيين أية مصلحة لتطوير العلاقات مع النظـام السوري، والذي ترى فيه الإدارة الأمريكية نظاما مدانا ويسـتحق الشـجب، وذلك على خلاف الشكل الذي ظهر فيه في بداية التسعينيات، بعـد حـرب الخليج الأولى.

إذاً، لا يزال الطريق إلى السلام طويلاً، وحتى إذا كان يُخيّل أن المشاكل التي تفرق بين سورية وإسرائيل سهلة نسبياً على الحل. ويبدو أنه ستكون هناك حاجة لجهد إضافي آخر للتغلب على بحر العداء والكراهية، والذي لا يوجد لكلا الطرفين مصلحة ملحة لمد الجسور فوقه. وينشغل الطرفان حالياً في جهودهما لتفادي تدهور الوضع إلى شفا مواجهة شاملة، وهي الجهود التي يُلقي الدعم السوري للمنظمات

الإرهابية الفلسطينية ومنظمة حزب الله بظلاله عليه، من جهة، وظل الردود الإسرائيلية الصارمة ضد سورية، من جهة أخرى.

ولكن من المحتمل أن تنضج، بمرور الزمن، الظروف التي تسمح للطرفين بالعودة مرة أخرى إلى النقطة التي كانا عندها في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩، والتي تراجعا عنها، لسنوات طويلة خلت، إلى أجواء ما قبل الحرب. وأقوال أسماء الأخرس، زوجة بشار، في مقابلة مع صحيفة **الأوبزيرفر** اللندنية، والتي سُئلت فيها عن التحدي الذي تواجهه في تربية ابنها حافظ في ظل التهديد الدائم للحرب، تدل، على ما يبدو، أن هذا ليس غير ممكن. وكان ردها، الذي يشبه رد كل أم أخرى تربي أطفالها في المنطقة على النحو التالي: "إن هذا جزء من حياتنا، وهذا موجود، ولكننا نتساءل كم من الوقت سنضطر العيش هكذا، وكيف نضمن أن نستمر في التقدم".[٦٨] إن ذكر هذه الأقوال يجعل من العسير عدم تذكر الأقوال التي سمعها دبلوماسي غربي من ابن عبد الحليم خدام، عندما هنأه بعيد ميلاد ابنه: "عليك أن تعرف أنني رضعت كراهيتي لإسرائيل مع حليب أمي، كما أن ابني ترعرع في أحضان العداء للكيان الصهيوني، وهكذا سيكبر ابنه أيضاً. ومع ذلك فإن أبي وأبناء جيله يشكلون عالماً، وأنا وأبناء جيلي نشكل عالما آخر، وابني بطبيعة الحال سينتمي إلى عالم آخر مختلف تمام الاختلاف".[٦٩]

---

(٦٨) **الاوبزيرفر**، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٦٩) مقابلة للمؤلف مع دبلوماسي غربي عمل في دمشق، تل أبيب، ١٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.



الفصل الثامن

سورية في لبنان
هل هي بداية النهاية؟

المحادثة الهاتفية التي أجراها الرئيس السوري حافظ الأسد والرئيس اللبناني إميل لحود صباح يوم السبت العاشر من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، لم تكن حدثا استثنائياً، إذ أكثر الزعيمان من التحادث فيما بينهما، حسب ما يقتضيه منها الحلف الوثيق، أو بشكل أكثر دقة، التبعية الكاملة للرئيس اللبناني وحكمه لراعيه من دمشق. إلا أن المكالمة الهاتفية هذه المرة انتهت بشكل غير متوقع، كما شهد فيما بعد رئيس الحكومة [؟!المترجم] اللبنانية: "لقد تحدثنا عن الوضع في المنطقة، وعن القضايا التي تهم كل من سورية ولبنان في الوقت الراهن، وبالطبع أشدنا بالإنجاز الذي حققناه في النضال لتحرير جنوب لبنان. والجملة الأخيرة التي تمكّن الرئيس الأسد من قولها لي هي أنه يجب علينا أن نضمن لأبنائنا مستقبلاً أفضل وأن نترك لهم عند ذهابنا واقعا أفضل بكثير من الواقع الذي وجدناه نحن. إلا أنه صمت في أعقاب هذه الأقوال بشكل مفاجئ، وقطعت المكالمة بعد ذلك فوراً. وبعد وقت قصير من ذلك أُبلغت أنه نقل الهاتف إلى ابنه بشار، وأنني حظيت بأن أكون آخر شخص تحدث معه قبل لحظة من وفاته".[١]

إلا أن حقيقة أن حافظ الأسد أسلم روحه في الوقت الذي كان مشغولا فيه بالشؤون اللبنانية هي حقيقة رمزية، ذلك أن ضم لبنان إلى دائرة النفوذ السوري،

(١) وكالة الأنباء اللبنانية، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

وتحويله إلى دولة تابعة تستجيب لإملاءات دمشق، كان الإنجاز الأبـــرز، وعمليـــاً الوحيد، للسياسة الخارجية السورية على امتداد ســنوات حكـــم الأســـد الأب المتواصلة. وسواء أكان الأسد يريد، كما ادعى الكثيرون، دفع نبـــوءة "ســـورية الكبرى" - تأسيس مجال التأثير السوري الذي يمتد على مساحة بلاد الشام، وبمـــا يضم لبنان والأردن وفلسطين - وسواء كان يريد تحقيق مصالح سورية في لبنـــان، فالحقيقة هو أنه نجح في استغلال الحرب الأهلية في لبنان، وبعد ذلك، فشل التدخل الإسرائيلي في الدولة، من أجل السيطرة على إرادة لبنان - الفناء الخلفـــي وبوابـــة الدخول إلى سورية.

لقد نجح الأسد في وضع حدّ للحرب الأهلية الدامية في لبنان والتي اســـتمرت على مدى عقدين تقريباً (١٩٧٥ - ١٩٨٩)، وكذلك في ترميم الساحة السياسية ومؤسسات الحكم اللبنانية، وفي نفخ الروح في الدولة التي كان يبدو لفترة طويلـــة أنه لن تقوم لها قائمة. وبفضل نجاحه، كما سبق وذكرنا، استطاع الأسد تحويـــل لبنان إلى دولة خاضعة للوصاية السورية، والخاضعة لسيطرتها الكاملة - العســـكرية والأمنية والسياسية - للحصول على ثمار سياسية، وأمنية وبالأساس اقتصادية عـــن الاستثمار المتواصل لدمشق فيه. ولم يكن هذا الإنجاز أمرا مسلماً به، ذلك أنـــه في السنوات الأولى لدخول القوات السورية إلى لبنان صيف ١٩٧٦، كان يبـــدو أن التدخل السوري لم يحقق أهدافه، وأنه بدلاً، من تخليص لبنان من الحرب الأهليـــة التي دارت فيه لإخضاعه لرغبة دمشق، كانت سورية تغرق في المستنقع اللبنـــاني، مثلما حصل للكثير من القوات الأجنبية التي دخلته على مر التاريخ:

١. لقد وجدت دمشق صعوبة في تجنيد تأييد غالبية عناصر القوة في لبنان، والـــتي تعاملت، ولا تزال تتعامل، بريبة تجاه تطلعات السيطرة الســـورية. والقـــوات السورية التي دخلت إلى لبنان في حزيران/يونيو ١٩٧٦ فعلت ذلـــك حســـب طلب الرئيس اللبناني في الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٦، سليمان فرنجيـــة، صـــديق وحليف حافظ الأسد. فرنجية، الذي اصطف خلفه رؤساء المعسكر المســـيحي في لبنان، أمل أن ينجح السوريون في فرض وقـــف لإطـــلاق النـــار علـــى

المتشددين، وأن يتمكن بذلك من إنقاذ المسيحيين الذين وقفوا على شفا الهزيمة العسكرية. إلا أن القوات السورية اصطدمت بمقاومة عنيفة من جانب تحالف واسع للقوات ضم كل من م.ت.ف وجهات يسارية وقوات سنية ودرزية. وقد تمكن التحالف من وقف تقدم القوات السورية ومنعها من السيطرة على كامل الأراضي اللبناني. ومن المهم الإشارة إلى أن المسيحيين، الذين جاء السوريون، للوهلة الأولى، لمساعدتهم، سرعان ما غيروا موقفهم، وأداروا ظهر المجن لدمشق وارتبطوا مع إسرائيل. إذاً، لقد استغرق الأمر عقداً كاملاً حتى نجحت سورية في فرض سيطرتها على عناصر القوة في لبنان - مسلمين ومسيحيين على حدّ سواء - وحدث هذا أيضاً بعد أن فقدت عناصر القوة تلك، والتي اُستنزفت خلال الحرب الأهلية الدامية، و لم يبق أمامهم من خيار سوى الخضوع لإملاءات دمشق.(٢)

٢. في الفترة ١٩٧٧ - ١٩٨٢ أدارت سورية صراعاً مع إسرائيل للسيطرة على لبنان. فقد أرادت إسرائيل طرد سورية في خطوة شكلت تهديداً استراتيجياً لمكانة دمشق الإقليمية، وحتى لاستقرار نظام البعث داخل سورية. وقد وصلت ذروة المواجهة في الغزو الإسرائيلي للبنان في حزيران/يونيو ١٩٨٢، والتي انزل خلالها جيش الدفاع الإسرائيلي هزيمة قاسية بالقوات السورية. ووصلت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي حتى طريق دمشق بيروت. وقد أدى ذلك إلى انتخاب حليف إسرائيل في لبنان، بشير الجميل، رئيساً للبنان. وأخيراً، أجبرت م.ت.ف والقوات السورية على إخلاء بيروت الغربية. لكن تصفية الجميل من قبل شخص سوري هدم كل النظام الجديد الذي أرادت إسرائيل إرساءه في لبنان. صحيح أن لبنان وإسرائيل وقعا على اتفاق سلام، إلا أن هذا الاتفاق لم يكن يساوي الورقة التي كتب عليها. وبضغط من الإرهاب الذي قادته منظمة حزب الله، وهي منظمة متطرفة قفزت إلى وسط المسرح اللبناني في عام

---

(٢) رؤفين آفي - ران، **التدخل السوري في لبنان (١٩٧٥-١٩٨٥)**، تل أبيب: معراخوت، ١٩٨٦ William W. Harris, Faces of Lebanon: Sects, Wars and Global Extensions, Princeton: Marcus Wiener Publishers, 1997.

١٩٨٣، بدأت إسرائيل بـ "الخروج من لبنان". وقد أنهت الانسحاب في أيلول/سبتمبر ١٩٨٥، باستثناء "الحزام الأمني" الذي أبقته لنفسها في جنوب لبنان، والذي انسحبت منه فقط في أيار/مايو ٢٠٠٠.(٣)

٣. لقد اضطرت سورية لمواجهة تدخل دولي، وخاصة أمريكي، في الشؤون البنانية، والذي هدف إلى إخراجها من هذه الدولة. وفي أعقاب انسحاب قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من بيروت، أُرسلت إلى هناك، في صيف ١٩٨٢، قوة دولية متعددة الجنسيات تضم مئات الجنود الأمريكيين والفرنسيين والإيطاليين. وكانت الإدارة الأمريكية برئاسة رونالد ريغن تريد السير على خطى دويت ايزنهاور، الذي أرسل في تموز/يوليو ١٩٥٨ جنود ماريتر إلى العاصمة اللبنانية، وأنهى بذلك الحرب الأهلية التي دارت هناك. إلا أن لبنان الثمانينيات لم يكن نفسه لبنان الذي استقبل الجنود الأمريكيين عام ١٩٥٨. ويبدو أنه، ومن أجل إظهار الفارق، فقد فجر انتحاريو حزب الله أنفسهم، بتشجيع، أو على الأقل، بمعرفة السوريين، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ في حرم السفارة الأمريكية في بيروت، وبعد ذلك في مقر قيادة الماريتر في المدينة، مما أدى إلى وفاة مئات المدنيين والجنود الأمريكيين. وقد أدت هذه الهجمة الإرهابية، بالإضافة إلى عدة ضربات موجعة أخرى أنزلها عناصر حزب الله على رؤوس الأمريكيين والفرنسيين، إلى انسحابهم من لبنان، تاركين الساحة اللبنانية وراءهم لسيطرة دمشق الخالصة.(٤)

إذن، بقيت سورية، منذ أواسط الثمانينيات، عنصر القوة الوحيد في لبنان. وبحذر وبصبر - ومستندة إلى خبرتها من تجربتها الفاشلة في هذه الدولة في النصف الثاني من السبعينيات - عملت دمشق على تحقيق أهدافها بعيدة المدى، أي

---

(٣) زئيف شيف وايهود يعاري، **الحرب الخادعة**، القدس: إصدار شوكن، ١٩٨٤.

(٤) Anthony McDermott and Kjell Skjelsbaek (eds.), The Multinational Force in Beirut, 1982-1984, Mimi: Florida International University, 1991; Hala Jaber, Hezbollah, Born with Vengeance, New York: Columbia University Press, 1997, pp. 75-96.

إخضاع بيروت بشكل كامل لإملاءاتها. وبالفعل، نجحت سورية في نهاية المطاف في تحقيق أهدافها، وذلك عندما دفعت وجهاء لبنان إلى التوقيع في الثاني والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩ على اتفاق الطائف، الذي مكّن من إنهاء الحرب اللبنانية وأفسح المجال أمام البدء بمسيرة إعادة إعمار الدولة، حسب رغبة سورية وتحت إشرافها الكامل.(٥)

وقد شكل الاتفاق صيغة معدلة وموسعة - وهذه المرة مكتوبة وموقع عليها، للميثاق الوطني من عام ١٩٤٣، وقد اشتمل على سلسلة من الإصلاحات في بنية تركيبة الحكم في لبنان، من بينها: تقليص صلاحيات الرئيس الماروني ووضعه في وضع مساوٍ لرئيس الحكومة السني ولرئيس مجلس النواب، من الطائفة الشيعية. توسيع مجلس النواب وخلق مساواة عددية بين المسيحيين والمسلمين... الخ. كما نص الاتفاق على أن حجم القوات السورية التي ستبقى في لبنان سيحدد من خلال التنسيق والاتفاق بين الدولتين. وأنه خلال عامين على أبعد تقدير، من تطبيق الإصلاحات الدستورية الشاملة في لبنان، ستنسحب القوات السورية من بيروت وتنتشر في البقاع اللبناني.

وقد اعتمد اتفاق الطائف في الأساس على إقرار زعماء الطوائف في لبنان - وخاصة الموارنة والسنة - بأن استمرار الحرب اللبنانية، ليس لا يخدم مصالحهم الطائفية والشخصية وحسب، بل إنه من المحتمل أن يشكل تهديداً حقيقياً لتلك المصالح. وقد ساهم في هذا الإقرار، بدون شك، التهديد الذي شكلته الطائفة الشيعية على الموارنة وعلى السنة، والذي نبع ليس من القوة العسكرية للميليشيات الشيعية - وخاصة التابعة لحزب الله، والتي تحولت إلى حليف وتابع لكل من سورية وإيران - وحسب بل أيضاً لكون الطائفة الشيعية تحولت إلى الطائفة الأكبر في الدولة. وحسب التقديرات المختلفة فقد شكل الشيعة في أواخر الثمانينيات حوالى ٤٠% وأكثر من مجموع السكان مقابل ١٨% من عدد السكان حسب آخر إحصاء جرى في لبنان عام ١٩٣٢.

---

(٥) ويليام هاريس، سبق ذكره، الملاحظة ٢، ص فحة ٢٧٩-٣٢٢.

وفي أعقاب التوقيع على اتفاق الطائف بُدئ بإعادة إعمار المنظومة السياسية ومؤسسات الحكم في لبنان. وجرت في عام ١٩٨٩ انتخابات للرئاسة (وبعد ذلك في الأعوام ١٩٩٥ و١٩٩٨). وبعد ذلك انتخابات برلمانية (في الأعوام ١٩٩٢، ١٩٩٦ و٢٠٠٠). وأخيراً انتخابات المجالس المحلية (في عام ١٩٩٨، وهي الأولى من نوعها منذ ٣٥ عاماً). وقد أدى ترميم مؤسسات الحكم إلى بعث مفاجئ للدولة اللبنانية. واستمر حزب الله في العمل في جنوب لبنان، وبترخيص من السوريين، ولكن عاد الهدوء والاستقرار ليحل في بقية أقسام الدولة، وعاد المواطنون اللبنانيون، في ظل رعايتهم، لإدارة حياتهم وكأنهم لم يقتل أحدهما الآخر لأكثر من عقد من الزمان.

وحتى قبل ذلك، في الثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠، سيطر السوريون على الجيب الذي سيطر عليه الجنرال ميشيل عون في القسم المسيحي من المدينة. وقد عُيِّن عون، الذي عمل قائداً للجيش اللبناني، في آب/أغسطس ١٩٨٨ من قبل الرئيس أمين الجميل، نائبا للرئيس، حيث عُرف بمعارضته الشديدة للسوريين وحتى إنه أعلن في الثالث عشر من آذار/مارس ١٩٨٩عن "حرب تحرير" ضدهم. وقد عارض اتفاق الطائف بشدة ورفض تطبيقه في المنطقة الخاضعة له. وبعد سيطرة السوريين على الجيب المسيحي فرّ عون إلى المنفى في فرنسة.

إعادة إعمار لبنان تمت، مع ذلك، بإشراف كامل من قبل سورية. ومن أجل أن يضمنوا مكانتهم الخاصة في الدولة، عمل السوريون للتوقيع على اتفاق "الأخوة والتعاون والتنسيق" بين الدولتين. وقد منح هذا الاتفاق، الذي وُقّع في الثاني والعشرين من أيار/مايو ١٩٩١، شرعية وموقفا رسمياً للتواجد السوري في لبنان، وللتدخل المتعاظم لسورية في شؤون الدولة الداخلية.[٦] وهكذا، على امتداد التسعينيات، وخطوة بخطوة مع إعادة إعمار الساحة السياسية، تحولت لبنان بالنسبة للسوريين، من عبء إلى ثروة، وإلى استثمار يدر المكاسب.

(٦) إيال زيسر، **سورية الأسد**، سبق ذكره، الملاحظة ٢٢ في التمهيد، ص ١٤٦-١٦٥.

المكاسب السياسية

لقد حرص لبنان على قول آمين بعد كل إملاء يأتي من دمشق في مجالي السياسة الخارجية والأمن، وأيد بشكل أوتوماتيكي وقطعي الخطوات السورية على الصعيدين العربي والدولي. وقد ظهر هذا الالتزام اللبناني بشكل خاص بكل ما يتعلق بمسيرة السلام مع إسرائيل. وكان يبدو للوهلة الأولى، أنه يمكن التوصل إلى اتفاق سلام إسرائيلي لبناني بسهولة نسبية، ذلك أنه لم تكن لإسرائيل أية مطالب إقليمية في لبنان، وحتى أن حكومة لبنان كانت تتطلع إلى سلام إقليمي، يؤدي، حسب ما أملوا، إلى ازدهار الاقتصاد اللبناني. وقد أحسن في التعبير عن هذا الواقع رفيق الحريري على امتداد معظم سنوات التسعين عندما قال: "إن مواقفنا تنسجم بشكل كامل مع مواقف سورية، فإذا تقدمت سورية خطوة إلى الأمام نتقدم نحن، وإذا ما خطت سورية ولو خطوة واحدة إلى الخلف، فإننا نخطو إلى الخلف في أعقابها".[٧]

وقد أدى الارتباط مع مسار المفاوضات السوري إلى تصليب المواقف اللبنانية في عدد من القضايا الجوهرية، وفي مقدمتها قضية مستقبل اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون في لبنان، والذين يعارض لبنان توطينهم في أراضيه. وبالإضافة إلى ذلك ظهرت قضايا جديدة مثل مستقبل النشاط العسكري والسياسي لمنظمة حزب الله على الأراضي اللبنانية. إذاً، يبدو بالإجمال، أن التوصول إلى اتفاق سلام إسرائيلي – لبناني أصبح لا يقل تعقيداً، وربما أكثر، من التوصل إلى اتفاق سلام إسرائيلي – سوري.

مكاسب اقتصادية

لقد عادت علمية إعادة الاعمار الاقتصادي في لبنان بالفائدة أيضاً على سورية. فإلى جانب المكاسب غير المباشرة، والتي دخلت إلى جيوب الضباط والسياسيين عن طريق "الخاوة" التي أخذوها من التجار والاقتصاديين اللبنانيين،

---

(٧) راديو بيروت، ١٠ أيار/مايو ١٩٩٥.

حققوا أرباحا مباشرة عن طريق التهريب وزراعة المخدرات والاتجار بها. كما لوحظت أهمية تشغيل مئات الآلاف من العمال السوريين في لبنان، وهو ما خفف من ضائقة البطالة في سورية، والتي قُدرت نسبة العاطلين عن العمل فيها بداية سنوات الألفين بحوالى ٢٠% على الأقل. وقد بلغ حجم الأموال التي أدخلها العمال السوريون في لبنان ٢ - ٣ مليار دولار في العام. وهو ما شكل مساهمة هامة في الاقتصاد السوري (أنظر الفصل الخامس).(٨)

وقد تحول عدد العمال السوريين في لبنان بسرعة إلى سر للدولة. إذ كانت هناك مصلحة، سواء للحكم اللبناني أو للحكم السوري، بتخفيض هذا العدد، بينما بالغ معارضو التواجد السوري في لبنان في عرض الأرقام وفي زيادتها. ولا غرابة إذن أن تقدير عدد العمال السوريين في لبنان قد تراوح بين ٦٠٠,٠٠٠ حسب أقوال رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري، و٨٠٠,٠٠٠ حسب المصادر السورية، وانتهاء بـ ١,٥ مليون عامل حسب ادعاءات المعارضة المسيحية في لبنان [وهو ما يشكل نسبة كبيرة من القوة العاملة اللبنانية التي تقدر بحوالى ١,٢٦ مليون عامل].(٩) ومع ذلك، تعود الصعوبة في تقدير عدد العمال السوريين قبل كل شيء إلى حقيقة أن غالبيتهم يعملون في المهن الحرة المؤقتة، وفي بعض الأحيان على أساس يومي أو موسمي. بالإضافة إلى ذلك امتنع الكثير من المشغِّلين اللبنانيين عن تقديم معلومات عن هؤلاء العمال للسلطات المختصة حتى يُخلِّصوا أنفسهم من دفع الضرائب عنهم.

وقد سُمعت في لبنان ادعاءات كثيرة عن أن العمال السوريين يسرقون أماكن عمل المواطنين اللبنانيين، والذين ارتفعت في أوساطهم، خلال السنوات الأخيرة، نسب البطالة. ولكن غالبية العمال السوريين شُغِّلوا، كما سبق وذكرنا، في المهن

---

(٨) **النهار**، ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(٩) أنظر أيضاً **الأسبوع العربي**، ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٠. **الوطن العربي**، ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٠. **المستقبل**، ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. **النهار**، ٣١ أيار/مايو، ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، ٢١ آذار/مارس ٢٠٠١. **الثورة**، ١٤ حزيران/يونيو ٢٠٠١. راديو مونت كارلو، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١.

غير المرغوبة في أوساط اللبنانيين، الذين فضلوا الحصول على مخصصات البطالة عن العمل في فرعي البناء والخدمات. وغالبية العمال السوريين، الذين هم في سن الشباب، اشتكوا كثيراً من معاملة المهانة والاحتقار التي عاملهم بها مُشغِّلوهم اللبنانيون، وبطبيعة الحال أيضاً، من الرواتب المتدنية وفقدان الشروط الاجتماعية.(١٠)

وفي نهاية النقاش حول الأهمية الاقتصادية للبنان بالنسبة لسورية، من الجدير أن نُذكّر بالأصوات التي سُمعت أكثر من مرة في دمشق. والتي دعت إلى تحويل لبنان إلى هونكونغ السورية، أي إلى منطقة عازلة اقتصادية تُسَهّل من عملية دمج سورية بالاقتصاد العالمي، دون أن تنكشف دمشق نفسها أمام قوى السوق وتطورات العولمة التي قد تُعرِّض اقتصادها والنظام السياسي القائم فيها للخطر. (أنظر الفصل الخامس).

لقد أدى نجاح السوريين في إيقاف لبنان على قدميه، وإعادة الهدوء والاستقرار إليه إلى تحول في نظرة غالبية الدول العربية والغربية إلى الدور الذي تلعبه دمشق في لبنان، فمنذ أواسط التسعينيات خفّ كثيراً، بل قد تلاشى، عملياً، الضغط الغربي على سورية لسحب قواها من لبنان، وفق ما يقتضيه اتفاق الطائف، وإعادة الاستقلال الكامل للدولة. ومن المحتمل أن يتجدد هذا الضغط في أعقاب الحرب على العراق في ربيع ٢٠٠٣. فالولايات المتحدة والدول الغربية، ولشديد الدهشة إسرائيل أيضاً، أرسلت إشارات في تلك السنوات، إنه في حالة تمّ التوصل إلى اتفاق بين القدس ودمشق، فإنها ستكون مستعدة الاعتراف بالدور المميَّز لسورية في لبنان، الذي تحول إلى واقع معاش، وذلك شريطة أن تضمن سورية الهدوء والاستقرار على امتداد حدود إسرائيل الشمالية.(١١)

ومنذ بدء التدخل السوري في لبنان سرت شائعات كثيرة بأن سورية تنوي ضم لبنان إليها كجزء من تطبيق نبوءة "سورية الكبرى"، والتي كان يلتزم بها على ما يبدو، حافظ الأسد. فالسيطرة السورية على لبنان بكامله في تشرين

---

(١٠) **الحياة**، ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠١.

(١١) **هآرتس**، ١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠. **يديعوت احرونوت**، ٣٠ آذار/مارس ٢٠٠٠.

الأول/أكتوبر ١٩٩٠ زادت أكثر فأكثر من المخاوف بأن السوريين ينوون ابتلاع لبنان، وكمرحلة أولى تشجيع عملية "سرينة" الدولة، والتي ستؤدي إلى ضمها، كواقع قائم، من قبل أختها الكبيرة. كما أن حقيقة وجود مئات الآلاف من العمال السوريين في لبنان، والذين سيصبحون، في يوم من الأيام، مع عائلاتهم مواطنين، زادت من تلك المخاوف.

إلاّ أنه يبدو أن تلك المخاوف لم يكن لها ما يبررها. حيث إنه لم يكن من الواضح أن حافظ الأسد يريد في أي وقت ضم لبنان إلى سورية، ويبدو أنه اكتفى بإخضاعه إلى سيطرته الكاملة. وقد كان واضحاً لأي دارس للتاريخ اللبناني - وقد كان لحافظ الأسد، عملياً، معرفة جديدة بتاريخ هذه الدولة - إن ضم لبنان إلى سورية هو أمر غير عملي قطعاً، وأنه إذا ما حاول السوريون العمل بهذا الاتجاه فإنهم سيعودون للغرق في المستنقع اللبناني السبخي، والذي، بالكاد، نجوا منه في أواسط الثمانينيات، وبدرجة غير قليلة، بسبب المساعدة الإسرائيلية.

وفي هذا السياق، يجدر التذكير، أن كل عناصر القوة في لبنان عارضت ضمه إلى سورية وفقدان استقلال الدولة، وهي قد رأت، فعلاً، في التعاون مع السوريين مصلحة لبنانية، أو بشكل أدق مصلحة شخصية، وكانت مستعدة لإخضاع نفسها لاملاءات دمشق- وخاصة فيما يتعلق بالقضايا الاستراتيجية مثل موضوع علاقتها بإسرائيل- لكنها في نفس الوقت عارضت إلحاق أي أذى باستقلال وبسيادة لبنان، أو بنمط الحياة اللبنانية وبالأسلوب السياسي المتبع فيها. وبالطبع لا توجد حاجة للتذكير بأن كل الدول العربية والمجتمع الدولي، وفي مقدمته الولايات المتحدة وفرنسا، عارض أية خطوة سورية من شأنها إلحاق الضرر بوجود لبنان المستقل. وعلاوة على ذلك يبدو أن السوريين أنفسهم ارتدعوا عن ضم لبنان، وذلك، وقبل كل شيء، بسبب التخوف من أن يؤدي الأمر إلى "لبننة" سورية أي أن تنتقل عدوى "الفيروس اللبناني" الذي تعاني منه الساحة السياسية والاجتماعية في لبنان - المتمثل بالانقسام والتفرقة على الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والطائفية، وفوق الكل، العائلية - إلى سورية ويعيدها إلى الواقع الذي كان سائداً فيها قبل أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، والذي امتاز بعدم الاستقرار وبالضعف الداخلي.

خروج جيش الدفاع الإسرائيلي من جنوب لبنان

الميزة الأخرى التي أضافتها دمشق بتواجدها في لبنان، كانت استخدمها للمجال اللبناني، وبشكل أدق جنوب لبنان، كساحة للمواجهة النشطة مع إسرائيل. وبالفعل ظهر الصراع الذي أداره حزب الله ضد إسرائيل بتشجيع وتأييد من دمشق (دون أن يُطلَب من الأخيرة دفع أي ثمن على ذلك) كورقة مساومة رابحة والتي دفعت الكثير من الإسرائيليين إلى تبني المعادلة السورية التي تقول إن الهدوء على الحدود الشمالية سيتم ضمانه فقط بعد التوقيع على اتفاق سلام يضمن الانسحاب الإسرائيلي الكامل من هضبة الجولان. ويُخيَّل أن السوريين أنفسهم قد فوجئوا من نجاحهم، ومن فعالية نضال حزب الله، حيث أنه لم يخطر ببالهم، في أحلامهم الأكثر وردية، أن ما لم ينجح الجيش السوري في تحقيقه في الهجوم الشامل في هضبة الجولان (في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣)، ينجح بضع مئات من مقاتلي حزب الله في تحقيقه، من خلال صراع محدود على حدود إسرائيل الشمالية.

وفي أواخر التسعينيات، كان من الواضح أن غالبية ملحوظة من مواطني إسرائيل تؤيد التوصل إلى سلام مع سورية، حتى لو كان بثمن الانسحاب من هضبة الجولان، وذلك كجزء من اتفاق سلام شامل يجلب معه الهدوء على الحدود الشمالية أيضاً. وقد مثلت هذه الحقيقة أمام ايهود باراك، عندما أُنتخب رئيساً للحكومة في أيار مايو ١٩٩٩، ولذلك كان على استعداد بالدفع باتجاه اتفاق كهذا، ولكن يبدو أن السوريين قد طلبوا أكثر مما باستطاعة حكومة إسرائيل، ناهيك عن الجمهور الإسرائيلي، تقديمه - الانسحاب إلى ما وراء خط الحدود الدولية بين إسرائيل وسورية إلى خط الرابع من حزيران/يونيو ١٩٦٧. ورغم قساوة الشروط السورية إلا انه من الممكن أن يكون التجهّم السوري، وليس الشروط القاسية بالذات، هو ما دفع الجمهور الإسرائيلي إلى تبني الأسلوب الرافض لتبني الخطوط المطلوبة كأرضية للاتفاق الإسرائيلي السوري، الذي كان آخذاً في التبلور بين باراك ومبعوثي الأسد.

إذاً لم يُفلح السوريون في استغلال نافذة الفرص التي فتحها أمامهم حزب الله

للتوصل إلى اتفاق مع إسرائيل، حسب شروطهم. وعلاوة على ذلك، فقد نجح نشاط حزب الله أكثر مما هو متوقع وأدى في نهاية التسعينيات إلى انهيار الحزام الأمني، الذي سيطرت عليه إسرائيل بمساعدة حلفائها من عناصر جيش جنوب لبنان بقيادة الجنرال أنطوان لحد. وكان انتصار حزب الله في الأساس انتصاراً نفسياً وليس عسكرياً، فليس الجيش الإسرائيلي هو الذي انهار بل الرأي العام، الذي وجد صعوبة في تحمل سيلان الدم في جنوب لبنان (بمتوسط ثلاثين شهيداً في العام).

ومن المهم الإشارة إلى أن الضربة القاضية النهائية، التي أطاحت بالإصرار الإسرائيلي على التمسك بالحزام الأمني، جاءت من ايهود باراك، وذلك عندما أعلن مع بدء المعركة الانتخابية في آذار/مارس ١٩٩٩، أنه يلتزم بإخراج جيش الدفاع الإسرائيلي من لبنان خلال عام. وقد خلق هذا الإعلان كرة من ثلج لم يكن بالإمكان وقفها. وقد قدّر باراك، كما سبق وذكرنا - ومن هنا جاء التزامه العلني - أنه سيكون بوسعه، خلال اشهر معدودة التوصل إلى تفاق سلام مع سورية، يكون مرتبطاً بتسوية مشكلة لبنان ويؤمّن الهدوء على الحدود الشمالية. ولأنه لم يتمكن من التوصل إلى اتفاق، لم يبقى أمامه من خيار إلاّ الإيفاء بوعده للناخب الإسرائيلي والأمر بإخراج جيش الدفاع الإسرائيلي من الحزام الأمني في جنوب لبنان.[١٢]

لقد سحب انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي من يد سورية ورقة المساومة الوحيدة التي كانت تملكها ضد إسرائيل، أي إراقة دماء جنود جيش الدفاع الإسرائيلي في منطقة الحزام الأمني. و لم يكن هذا مفاجئاً، ذلك أن السوريين حاولوا منع الانسحاب، عن طريق التهديدات المبطنة، بأن الانسحاب أحادي الجانب في لبنان بدون اتفاق سلام يكون مرتبط بالانسحاب من هضبة الجولان، لن يؤدي إلى الهدوء المأمول على الحدود الشمالية.[١٣] وعشية انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي جاء في تقارير من لبنان إن السوريين يعملون على تشجيع

(١٢) ران ايديليست، **ايهود باراك - حربه ضد الجن**، سبق ذكره، الملاحظة ٣ في الفصل السابع، ص ٣٠٣-٣٠٦، ٣١٣-٣٢١. رافيف دروكر، **هيراكيري، ايهود باراك في اختبار النتيجة**، سبق ذكره، الملاحظة ٣ في الفصل السابع، ص ١٢٩-١٣٧.

(١٣) **البعث**، ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٠. **الحياة**، ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٠.

عناصر فلسطينية للعمل ضد إسرائيل. كما أعلن زعيم منظمة "الجهاد الإسلامي" الفلسطينية رمضان شلح، ويبدو أن هذا بإيحاء من السوريين، عن معارضة الكثير من اللبنانيين لذلك، وأن منظمته ترى في جنوب لبنان جزءاً من ميدان المعركة ضد إسرائيل.(١٤)

وفي يوم الرابع من أيار/مايو ٢٠٠٠ أتمّ جيش الدفاع الإسرائيلي سحب قواته من جنوب لبنان. وقد وصف ايهود باراك الانسحاب على أنه إنجاز حقيقي حرّر إسرائيل – على حدّ قوله – من "عقدة أو ورطة لبنان"، ووعد كذلك بالهدوء، وإن كان نسبياً، على امتداد الحدود الشمالية.(١٥) ولكن الانسحاب الأحادي الجانب أثار في أوساط الكثير من الإسرائيليين الإحساس بعدم الارتياح، وحتى الخوف، من أن كراهية اللبنانيين والمواجهة مع حزب الله لا تزالان بعيدتين عن أن تصلا إلى نهايتهما. ومقابل ذلك، تحول يوم الانسحاب في لبنان إلى يوم عيد. وقد وقف في مقدمة المحتفلين زعماء منظمة حزب الله ومقاتلوه، الذين انتهى مع خروج جيش الدفاع الإسرائيلي من جنوب لبنان، وما بدا أنه نصر عظيم للوهلة الأولى، صراعهم المستمر الذي خاضوه ضد الوجود الإسرائيلي، الذي شكّل أحد مبررات تأسيسه في عام ١٩٨٣، واُستخدم من ذلك الحين كمصدر أساسي لنشاطه الذي استطاع بواسطته تحقيق موقعاً ريادياً وسط الطائفة الشيعية في لبنان.

والحقيقة إنه من الصعب التقليل من قيمة الإنجاز الذي حققه حزب الله، إذ دار في جنوب لبنان، كما صُوِّر الأمر في وسائل الإعلام، صراع بين دافيد وغوليات – قُدِّرت قوة حزب الله بما لا يزيد عن بضع مئات من المقاتلين – والذي انتصر فيه، كما هو دائماً – دافيد الصغير. وعلاوة على ذلك فقد استطاع حزب الله تحقيق ما عجزت عن تحقيقه أية دولة أو أي جيش عربي حتى ذلك الوقت – وهو طرد إسرائيل من أراضي عربية كانت استولت عليها، بدون شروط وبدون أي مقابل، وبدون أن يلتزم الجانب العربي بأي اتفاق سلام مع إسرائيل. ولا عجب

---

(١٤) **الحياة**، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩. وانظر أيضاً **الديار**، ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩.

(١٥) التلفزيون الإسرائيلي، القناة الثانية، ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٠.

إذاً في أن يسارع المتحدثون باسم المنظمة إلى تقديم الإنجاز على أنه نقطة تحول تاريخية في الصراع الإسرائيلي - العربي. وحتى تقديم الإنجاز على أنه نقطة تحول تاريخية في الصراع الإسرائيلي - العربي. وحتى أن الأمين العام للمنظمة حسن نصر الله قد أعلن: "لقد أجبر بضع مئات من مقاتلي حزب الله أقوى دولة في الشرق الأوسط على رفع علم الهزيمة... لقد انتهت الفترة التي كان فيها الصهاينة يخيفون اللبنانيين والعرب، إن الكيان الصهيوني يعيش بخوف في أعقاب الهزيمة التي تلقاها جيش الاحتلال على يد مقاتلي المقاومة الإسلامية في لبنان. وهذا الخوف لا يسود فقط في شمالي فلسطين المحتلة، بل أيضاً في تل أبيب وفي عمق فلسطين المحتلة... وإسرائيل التي تمتلك السلاح النووي وسلاح جو هو الأقوى في المنطقة، أضعف من خيوط العنكبوت".(١٦)

وفي أعقاب انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي في جنوب لبنان رسّخ حزب الله موقعه في عيون الكثيرين في لبنان والعالم العربي والإسلامي، كقوة صاعدة، وكرأس سهم في النضال الذي يخوضه العرب ضد إسرائيل. ولكن كان يبدو أن الإنجاز بحد ذاته يزيد من المعضلة التي واجهتها المنظمة منذ انتهاء الحرب اللبنانية.ذلك أنه كان يبدو أن من شأن الانسحاب الإسرائيلي أن يقود إلى وقف الصراع المسلح ضد إسرائيل وتسريع عملية "اللبننة"، والتي تقوم في أساسها على تحويل المنظمة إلى حركة اجتماعية سياسية تُركز اهتمامها على الأمور الاجتماعية في أوساط السكان الشيعة في لبنان.

وخلال التسعينيات بدأت منظمة حزب الله بالاندماج في مؤسسات الدولة اللبنانية التي أقيمت بعد التوقيع على اتفاق الطائف (وهو الاتفاق الذي رفضته المنظمة في حينه بقوة). وقد بدأ حزب الله الاشتراك منذ ذلك الحين في المعارك الانتخابية التي جرت في لبنان، وفازت قائمته المسماة "كتلة الوفاء للمقاومة" في كل واحدة منها، بحوالى عشرة مقاعد في مجلس النواب المكون من ١٢٨ مقعداً. وبالإضافة إلى خطواتها في الساحة السياسية، وسّعت المنظمة من نشاطاتها في

(١٦) قناة تلفزيون المنار، ٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠.

أوساط أبناء الطائفة الشيعية: فقد أقامت، وبمساعدة إيران السخية، شبكات تعليمية وثقافية، وشبكة إعلام وهيئات لتقديم الخدمات الاقتصادية والخدمات الاجتماعية والصحية.

وقد اندلع في أوساط المختصين الإسرائيليين في الشأن اللبناني نقاش حاد تركّز على ما إذا كان انسحاب إسرائيل يشكّل نهاية في الطريق العنفي لدى حزب الله، أو أنه، وفي ظل تحدي "اللبننة" المسلط على رأسه، سيعمل على الحفاظ على طابعه المتشدد الراديكالي، ويستمر في البحث عن طرق أخرى للاستمرار في صراعه ضد إسرائيل.(١٧) وبالمناسبة فإنه يمكننا إيجاد تعبير عن المعضلة والضائقة التي واجهها حزب الله، في معركة الانتخابات اللبنانية التي جرت في صيف ٢٠٠٠، حيث واجهت المنظمة صعوبة في تنظيم وترجمة الانتصار على إسرائيل إلى قوة تضاف لمكانتها في الساحة الداخلية اللبنانية. وبالفعل، فقد تركزت هذه المعركة الانتخابية تقريباً على القضايا الداخلية اللبنانية، وخاصة في المجالين الاجتماعي والاقتصادي، وهي القضايا التي سارعت لتحتل رأس جدول الأولويات في لبنان.

الهدوء، وإن كان بشكل مؤقت على الأقل، على الحدود الإسرائيلية – اللبنانية، وضع أيضاً مشكلة لم تكن متوقعة أمام السوريين، بالإضافة إلى المشكلة التي واجهتهم منذ سُحبت من يدهم ورقة المساومة ضد إسرائيل، وهي قضية نشاط حزب الله ضد جيش الدفاع الإسرائيلي في جنوب لبنان. فقد أدى انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي إلى صرف الانتباه اللبناني، والإقليمي والدولي، عن التواجد الإسرائيلي إلى التواجد السوري، وحتى أنه قد أدى إلى تآكل شرعية الوجود السوري في لبنان. وبالفعل لم يمضِ وقت طويل حتى فوجئ السوريين بارتفاع

---

(١٧) Eyal Zisser, "The Return of the Hizballa", MEQ, Vol. IX, No. 4 (fall 2002), pp. 3-12. وانظر أيضاً Eyal Zisser, "Hizballa at a Crossroads", in Bruce Maddy-Weitzman. and Efraim Inbar (eds.), Religious Radicalism in the Greater Middle East London: Frank Cass, 1997, pp. 90-110; Bahman Baktiri and Augustus Richard Norton, "London End-Game", Middle East Insight (Mar-Apr.2000), at www.mideastinsight.com.

الأصوات في لبنان مطالبة بالخروج منه أيضاً وإعادة استقلاله وسيادته إليه.

في مثل هذه الظروف توفي حافظ الأسد مخلفاً وراءه إشارات استفهام متزايدة حول صلاحية الإنجاز الأبرز خلال سنوات حكمه.

سورية في لبنان بعد صعود بشار

لقد ترافق صعود بشار الأسد إلى السلطة، كما سبق وذكرنا، بشكوك غير قليلة لجهة قدرته في الحلول محل والده. وبشكل، كان متوقعاً، كان لبنان الميدان الأول الذي خضعت فيه زعامة بشار للامتحان. أولاً، في ظل دعوات التحدي التي بدأت ترتفع في لبنان ضد التواجد السوري في الدولة. وثانياً، في ظل استئناف نشاط حزب الله ضد إسرائيل في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، والذي كان من شأنه، حسب تخوف الكثيرين، من الجر باتجاه مواجهة عسكرية بين إسرائيل وسورية.

ولم يكن لبنان بمثابة أرض غريبة لبشار، إذ أنه تمّ إسناد الإدارة الدائمة للتدخل السوري في لبنان، وخاصة تأمين استمرار تواجد دمشق وسيطرتها في الدولة، بين يديه منذ أواسط التسعينيات كجزء من مسيرة تأهيله (أنظر الفصل الأول).

ولكن كان يبدو للكثير من اللبنانيين أن بشار يريد الدمج بين الأسلوب التعليمي، الذي يقوم على تعليم اللبنانيين كيفية إدارة أمورهم بأنفسهم، وبين الطريقة البيروقراطية والتكنوقراطية، والتي تقوم بالأساس على إصدار التوجيهات من خلال الافتراض أنه سيتم تنفيذها حرفياً. وكان يبدو كذلك أن بشار يستخف بأهمية العلاقة الشخصية كوسيلة لإدارة الشؤون السورية في لبنان. وبالفعل وفي أعقاب نقل المسؤولية على الشؤون اللبنانية إلى يد بشار، سارع مقربوه إلى الإعلان عن نيته "وقف حملة الحج التي تقوم بها الشخصيات اللبنانية إلى دمشق، ومن الآن فصاعداً سيكون على اللبنانيين حل مشاكلهم بأنفسهم، وعدم عرضها للتحكيم والحسم في سورية".(١٨)

---

(١٨) **المشاهد السياسي**، ١٤ آذار/مارس ١٩٩٩.

وكانت نتيجة ذلك حالة قطيعة بين القيادتين السورية واللبنانية، والتي وجدت تعبيراً عنها في ازدياد حدة الخلافات الداخلية بين السياسيين اللبنانيين، الذين استمروا في عرضها على دمشق للحسم فيها، وفي بعض الأحيان، بعد أن تكون قد انفجرت. فقد اكتشف بشار إذاً أن كل محاولة للعمل في لبنان بواسطة مؤسسات السلطة - الرئيس ورئيس الحكومة ورئيس مجلس النواب أو قادة الجيش، مصيرها الفشل، حيث أنه يثير بذلك التنافر الذي لا لزوم له بين وجوه الحكم، وحتى بين هؤلاء الذين يُعتبرون حلفاء واضحين لسورية. واضطر بشار في نهاية الأمر للرضوخ، واستقبل في مقره، مثل والده، وفوداً لا تنتهي من الوجوه اللبنانيين، الذين جاؤوا ليعرضوا عليه مشاكلهم وليستخدموه في صراعاتهم التي أداروها ضد بعضهم البعض، كما جرت العادة. إذاً، لقد انتصرت الثقافة السياسية اللبنانية على أسلوب بشار البيروقراطي.

وعلاوة على ذلك، من المحتمل أن يكون بشار، وبنصيحة من والده، قد نجح في تقوية علاقاته مع عدد من الوجهاء اللبنانيين، ومن بينهم سليمان طوني فرنجية، حفيد سليمان فرنجية، والذي بدأ في أيامه، كما ذكرنا سابقاً، التدخل السوري في الشؤون اللبنانية. والد فرنجية، طوني، الذي كان مقرباً من رفعت الأسد، عم بشار، قُتل على يد الكتائب عام ١٩٧٨، وعندها انتقلت إدارة أمور العائلة إلى يدي ابنه الشاب، الذي كان مقرباً حينها من باسل الأسد، وبعد وفاته، أُقيمت علاقات وثيقة مع بشار. شخصية محترمة أخرى أقام معها بشار علاقات وثيقة هو طلال أرسلان، وهو ابن عائلة أرسلان الدرزية، والتي دأب السوريون على تقويتها وتعزيز مكانتها كوزن مضاد لعائلة جنبلاط، منافستها التاريخية في الصراع على السيطرة على الطائفة الدرزية.[١٩] أحد المقربين من بشار أيضاً هو طه ميقاتي، وهو ابن عائلة تجار سنية من طرابلس، والتي ازدهرت شؤونها في أعقاب اتفاق الطائف (أنظر الفصل الخامس).[٢٠]

---

(١٩) إيال زيسر، "سورية"، سبق ذكره، الملاحظة ٦٠ من الفصل الأول، ص ٥٦٤-٥٦٥.

(٢٠) **السفير**، ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. **المستقبل**، ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. **يديعوت احرونوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

بالإضافة إلى هؤلاء تُمكن الإشارة أيضاً إلى العلاقات الوثيقة التي أرساها بشار مع حسن نصر الله، زعيم حزب الله. وقد شهد نصر الله في حينه أنه لم يلتق حافظ الأسد وجه لوجه أبدا.(٢١) ويمكن الافتراض أن الأسد الأب لم يرَ أية ضرورة للقاءٍ مثل هذا، ذلك أنه كان يرى في نصر الله أحد المنفذين، الكثيرين، للمآرب السورية في لبنان. مقابل ذلك، أكثر بشار من لقاءاته مع حسن نصر الله، ومن الممكن الافتراض أنه قد رأى فيه بطلا ونموذجا يُحتذى به. ولا عجب إذاً أنه وبعد صعوده إلى السلطة، سارع نصر الله بسط رعايته على الزعيم الشاب بطريقة فيها الكثير من الوصاية، وحتى إنه صرح أكثر من مرة بأن حزب الله مستعد لمساعدته في ترسيخ وتقوية مكانته.(٢٢) وحتى أنه أُفيد بعد ذلك أن بشار سمح لرجال دين مقربين من حزب الله العمل في أوساط التجمعات العلوية شمالي سورية، وهي خطوة من شأنها أن تقوي الشرعية الدينية لأبناء الطائفة، ولبشار ولنظامه، في أوساط أبناء الغالبية السنية في سورية، ولكن أيضاً، تبعية بشار لحزب الله ولزعمائه.(٢٣)

وخلال السنوات التي سبقت وفاة الأسد لم يفلح بشار إذن في تحقيق موقع لنفسه يسمح له "بتنصيب الملوك" في الساحة اللبنانية، وهو الدور الذي لعبه في السابق كل من عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي. وعلى هذه الخلفية، وكذلك على خلفية حقيقة أن صعود بشار إلى السلطة ترافق بشكوك لجهة مناسبته للمهمة، أراد الكثيرون في لبنان أن يروا في انتقال السلطة في سورية مناسبة لتغيير علاقات القوى بين البلدين، وخاصة لتقوية مواقعهم وقوتهم على حساب السوريين. ومن المحتمل أيضاً أن أشد المنتقدين للتدخل السوري في الشؤون اللبنانية، وخاصة تواجدهم العسكري، لم يقصدوا حقيقة طرد السوريين من لبنان، أو على أبعد

---

(٢١) راديو دمشق، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

(٢٢) أنظر على سبيل المثال قناة تلفزيون المنار، ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠١. راديو النور، ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. التلفزيون السوري، ٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

(٢٣) **هآرتس**، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **الشرق الأوسط**، ١٢ شباط/فبراير ١٩٩٩. وكالة الأنباء الفرنسية، ٨ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

تقدير ليس بشكل فوري، ولكن وعلى الرغم من ذلك، فإن صرختهم ضد دمشق فُسِّرت في لبنان وخارجه كإشارة على ضعف سورية مع انتقال السلطة فيها.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنه وقبل وفاة الأسد لوحظت في أوساط الجمهور اللبناني عدائية متزايدة تجاه التواجد السوري في الدولة. ومرد هذا المزاج العام هو التشكيك التقليدي لدى اللبنانيين لجهة النوايا الخفية لسورية في تدخلها في لبنان. ولكن يبدو أن هذه العدائية قد ازدادت في أعقاب ازدياد الاحتكاك اليومي بين اللبنانيين والسوريين.

إن نظرة خاطفة عل عناوين الصحافة اللبنانية في أواخر التسعينات من شأنها أن تُظهر خلفية الظروف التي أدت إلى ازدياد العداء لسورية. فعلى سبيل المثال، احتج الكثيرون على وضع ٢٦ صندوق اقتراع في أنحاء لبنان من أجل أن يصوت فيها مئات الآلاف من العمال السوريين الموجودين في لبنان في الاستفتاء الشعبي للمصادقة على ترشيح حافظ الأسد لفترة ولاية خامسة في آذار/مارس ١٩٩٩، وبعد ذلك بمناسبة الاستفتاء الشعبي للمصادقة على ترشيح بشار لرئاسة سورية في تموز/يوليو ٢٠٠٠. وقد شكل هذا الأمر بالنسبة للكثيرين من اللبنانيين مساساً بسيادة لبنان. وحتى أن البطريارك اللبناني بطرس نصر الله صفير حذر من أن وضع صناديق الاقتراع يحول لبنان إلى محافظة سورية.(٢٤)

كما أثار وزير التعليم اللبناني غضبا شديداً في لبنان وذلك في أعقاب القرار الذي أصدره، ربما بضغط من سورية، والذي ينص على إعطاء تسهيلات للطلاب السوريين الذين يريدون الانتساب إلى بعض الجامعات اللبنانية. وقد أثار القرار مظاهرات عنيفة قام بها الطلاب اللبنانيون الذين خشوا من أن يعطي القرار لأقرانهم السوريين أفضلية للقبول في الجامعات.(٢٥)

سبب آخر للتذمر تجاه السوريين تمثل في قرار الحكومة اللبنانية، وهذه المرة بضغط سوري أيضاً، والقاضي بتخفيض الجمارك على المنتجات الزراعية السورية

---

(٢٤) وكالة الأنباء الفرنسية، ٦ شباط/فبراير ١٩٩٩. **النهار**، ٢٢ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

(٢٥) **ديلي ستار**، ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

المستوردة إلى لبنان، وهي الخطوة التي ألحقت ضررا كبيرا بالمزارعين اللبنانيين، الذين سارعوا بالرد على ذلك، عن طريق إغلاق طرق رئيسية في الدولة.[٢٦] قضية أخرى عكّرت أيضاً صفو الأجواء بين بيروت ودمشق وهي قضية السجناء اللبنانيين في سورية. وقد أطلقت السلطات في دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر سراح خمسين من هؤلاء السجناء، وسارعت إلى القول بأنه لم يبق لديها أي سجين لبناني. إلا أنه قيل في لبنان أنه قد بقي الكثير من السجناء اللبنانيين في سورية، بل وقد أُعرب عن القلق على مصيرهم.[٢٧]

هذا وقد وقفت هذه المواضيع، مع كثير غيرها، في ظل ثلاث أسئلة رئيسية:

١. تدخّل سورية في السياسة الداخلية اللبنانية. والذي كان كالقذى في عيون الكثير من اللبنانيين وخاصة في عيون خصوم السوريين أو هؤلاء الذين خاب أملهم وهم يرون كيف يعطي السوريون تأييدهم لخصومهم ومنافسيهم، لاعتبارات لبنانية داخلية، وسواها. إن هذا النمط من العلاقة بين السياسيين والجمهور اللبناني وبين الراعية الأجنبية، لم يكن بالأمر الجديد، إذ أن هذه الرؤية المعقدة والإشكالية ميزت كذلك علاقة اللبنانيين مع فرنسة في فترة الانتداب الفرنسي، ومع إسرائيل خلال تدخلها في شؤون الدولة في بداية الثمانينيات.

٢. التدخل العسكري السوري في لبنان، أي تواجد قوات الجيش وقوات الأمن التي فرضت الخوف على الدولة. ومع ذلك، يُخيّل أن ما ضايق اللبنانيين من نشاط غازي كنعان، ممثل شعبة الاستخبارات العسكرية السورية في لبنان، وعناصره، كان الاحتكاك مع آلاف الجنود السوريين الذين كانوا ينتشرون في مختلف أنحاء الدولة. فقد تحول هؤلاء الجنود إلى عبء مزعج في عيون

---

(٢٦) **تشرين،** ١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠. **الشرق الأوسط،** ١٦، ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

(٢٧) أنظر على سبيل المثال **النهار،** ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. **ديلي ستار** ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. **السفير،** ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. راديو مونت كارلو، ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠.

اللبنانيين، ليس على خلفية سياسية أو أمنية، بـل بالـذات بسـبب "جمـع الإكراميات" بإلحاح من السائقين اللبنانيين الذين كانوا يمرون على الحـواجز المقامة على الطرقات والتي يتواجد فيها جنود سوريون.

٣. قضية تواجد مئات الآلاف من العمال السوريين على أرض لبنـان، والـذين اُتهموا بأنهم يسرقون رزق اللبنانيين، وربما يشكلون أيضاً حصـان طـروادة، والذي يهدف إلى خدمة ضم الدولة. وكان أُفيد من بيروت عن حالات كثيرة من الاعتداء على العمال الأجانب، حيث ضُرب الكثيرون منـهم وتعرضـوا للسرقة وحتى أن بعضهم قتل.(٢٨)

وفي صيف عام ٢٠٠٠، وفي ظل خروج الجيش الإسرائيلي من جنـوب لبنان، ووفاة حافظ الأسد، جرت في لبنان الانتخابات لمجلس النواب، والتي لقي فيها ممثلوا الحكومة المنتهية ولايتها الهزيمة، وعاد رفيق الحريري إلى كرسي رئاسة الحكومة. وقد عمل الحريري، كما هو معروف، رئيساً للحكومة اللبنانيـة في الفترة ١٩٩٢ - ١٩٩٨، ولكنه اضطر لترك رئاسة الحكومة على خلفية الأجواء المعكرة في علاقته مع أقرانه في القيادة اللبنانية، ويمكن أن يكون أيضاً، بضـغط من بشار الأسد. وكان الحريري معروف بعلاقاته مع العائلة المالكة السعودية، فهو قد جمع ثروته عندما عمل كمتعهد وصاحب مشاريع في هـذه الدولـة. وبالإضافة إلى ذلك عُرف بقربه من عبد الحليم خدام، الذي أُسندت إليـه في حينه مهمة متابعة موضوع لبنان في القيادة السورية، ومن هنا يأتي السـبب في علاقته المتوترة مع بشار.

ويجب أن نرى نجاح الممثلين المحسوبين على معسكر رفيق الحريري، حتى وإن كانوا بعيدين عن أن يكونوا من الأوفياء له أو العاملين بأمره، على خلفية لبنانيـة داخلية. ومع هذا نُظر إلى هذا الفوز على أنه احتجاج ضد الحكم اللبنـاني وضـد السوريين، الراعين له. هذا رغم أن الحريري نفى أن يكون لانتصاره دلالات بعيدة المدى، بل حتى أنه عاجل إلى الإعراب عن التزامه بسورية وبالتواجد السـوري في

(٢٨) إيال زيسر، "سورية"، سبق ذكره، الملاحظة ٦٠ في الفصل الثالث، ص ٥٥٠-٥٥٢.

الدولة، وبطبيعة الحال الحج والإعراب عن الولاء لبشار الأسد.[٢٩]

هذا الوضع هو الذي وقف في لب اندلاع الاحتجاجات الجماهيرية الواسعة ضد التواجد السوري في لبنان في شهور صيف عام ٢٠٠٠. وإشارة البدء للصراع أعطاها رئيس تحرير **النهار** غسان تويني، في سلسلة من المقالات التي نشرها على صفحات جريدته، والتي تكرر فيها جميعها الادعاء أن "لبنان لن يكون دولة حرة ذات سيادة طالما لم تخرج كل القوات الأجنبية منه".[٣٠] والمعروف عن تويني تأييده للجنرال ميشيل عون، وبقي في المنفى في أوروبا حتى عام ١٩٩٣، حيث عاد إلى بلاده وأصبح واحداً من أشد منتقدي سورية في لبنان. وقد انضم إلى انتقاداته بسرعة أيضاً الباطريارك الماروني، بطرس نصر الله صفير، وهو منتقد شديد للتواجد السوري في الدولة. وسار في إثره مجلس المطارنة المارونيين، الذي قال في بيان، لا سابق له، نشره في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠، إنه بعد انسحاب إسرائيل حان الوقت لدراسة التواجد السوري في لبنان من جديد.

أصوات الاحتجاج التي بدأت تُسمع ضد السوريين ترافقت بمظاهرات واسعة، بالمصطلحات اللبنانية، والتي شارك فيها طلاب المسيحيون، غالبيتهم من الموارنة، وإلى جانبهم نشطاء أحزاب مارونية أخرى مثل الليبراليين والأحرار، بزعامة عائلة شمعون، أو مؤيدي عون. وقد أُحرقت خلال المظاهرات الأعلام السورية ومزقت صور الرئيس الأسد وابنه بشار.[٣١] وقد ورد من مناطق لبنانية مختلفة أن منشورات معادية للسوريين قد جرى توزيعها، وهي تدعو إلى طردهم من الدولة، وجرى في عدد من الأماكن تحطيم تماثيل لحافظ الأسد.[٣٢] وكما سبق وذكرنا، فإن عدداً من العمال السوريين تعرضوا للضرب وسقطوا ضحية للتوجه المعادي للسوريين الذي تفشّى مثل النار في الهشيم في مختلف المناطق اللبنانية.

---

(٢٩) **الحياة**، ٨ أيلول/سبتمبر، ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

(٣٠) **النهار**، ٢٢ آذار/مارس، ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠٠.

(٣١) **ميدل إيست ميرور**، ٢٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

(٣٢) **الحياة**، ٢٢ نيسان/أبريل، ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. وكالة الأنباء الفرنسية، ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **النهار**، ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠٠.

تطور آخر لا يقل مفاجأة تمثل في انضمام وليد جنبلاط، زعيم الدروز في لبنان، إلى معسكر المنتقدين لسورية. وصرح جنبلاط إنه يتفهم ضرورة تواجد القوات السورية في المناطق الاستراتيجية في لبنان بسبب استمرار التراع الإسرائيلي – العربي، لكنه طالب بخروج الجيش السوري من لبنان ونشر قواته في سهل البقاع اللبناني، حسب ما ينص عليه اتفاق الطائف، كما دعا إلى وقف تدخل السوريين في الشؤون اللبنانية الداخلية. كما أن جنبلاط عارض الحكومة اللبنانية والسوريين بقوله إن "الإيضاحات التي يقدمها لنا زعماؤنا، والزعماء السوريون أيضاً، حول ضرورة استمرار التواجد السوري في لبنان على أنها تنبع من المصير المشترك للشعبين، لا تكفينا. وبعد كل شيء، توجد في لبنان ديمقراطية بينما يتبع في سورية نظام الحزب الواحد، ولذلك نحن نجد صعوبة في فهم ما هو المصير المشترك الذي يعظنا به بشار الأسد".(٣٣)

التحدي الذي وجهه وليد جنبلاط للسوريين جدير بالإشارة وذلك في ظل تاريخه الشخصي. فوالد وليد، كمال جنبلاط، عُرفت عنه معارضته دخول القوات السورية إلى لبنان في حزيران/يونيو ١٩٧٦، والتي دفع ثمنها حياته في آذار/مارس ١٩٧٧، وذلك بعد أن أطلق النار عليه مسلحون "مجهولون" من قبل المخابرات السورية. وبعد وفاة كمال، ورث ابنه وليد، الذي كان يبلغ الثلاثين من عمره، مكانه زعيما للعائلة وللطائفة. وقد أُشتهر بحجه للقصر الرئاسي في دمشق والذي قام به بعد وقت قليل من انقضاء أربعين والده. وهناك، التقى حافظ الأسد الشخص الذي أصدر الأوامر، على ما يبدو، بقتل أبيه. وقد عانقه الأسد بحرارة وأكد له أنه سيكون من الآن فصاعداً بمثابة والده.(٣٤) ومنذ ذلك اللقاء حرص وليد جنبلاط على إطاعة كل الاملاءات الصادرة له من دمشق بحذافيرها. وعلى الرغم من ذلك، وبعد وفاة حافظ الأسد، سارع جنبلاط إلى تغيير موقفه والالتحاق بالمعسكر المعادي للسوريين. ويبدو أن التحول في موقف جنبلاط يعود

(٣٣) وكالة الأنباء الفرنسية، ١٦ آذار/مارس ٢٠٠١.

(٣٤) باتريك سيل، **الأسد**، ص ٢٨٤-٢٨٥.

إلى الاعتبارات السياسية الداخلية التي تواجهه - من أجل حشد تأييد المصوتين الموارنة في جبال الشوف له، وذلك في ظل النية إلى إعادة رسم خارطة المنطقة الانتخابية وجعل الشوف منطقة انتخابية واحدة، والتي من المنتظر أن يشكل أبناء الطائفة المارونية لسان الميزان فيها بين عائلة جنبلاط ومنافسيها داخل الطائفة الدرزية.

لقد رد السوريون على أصوات الاحتجاج التي صدرت ضدهم في لبنان بضبط نفس. وقد أُبلغ وليد جنبلاط، على سبيل المثال، أنه لم يعد مرغوب به في دمشق. ومع ذلك سارع السوريون إلى التوضيح أن جنبلاط ليس ممنوعا من الدخول إلى سورية بصفته الشخصية، وأنه بإمكانه الاحتفاظ بفيلته الخاصة في العاصمة السورية، والتي كان قد أعطاها له، في حينه، الرئيس حافظ الأسد. ولكن، في نهاية المطاف، دفعته الحاسة السياسية في صيف ٢٠٠١ إلى نتيجة وهي أن رياح الحرب التي تهب في المنطقة في أعقاب اندلاع الانتفاضة الفلسطينية وعمليات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر الإرهابية، تلزمه بالتصالح مع دمشق. وهكذا تراجع عن أقواله الناقدة لسورية في أيار/مايو ٢٠٠٢، وحتى أنه قام بالحج إلى دمشق إلى قصر بشار وعقد لقاء مصالحة مطولا.[٣٥]

ضبط للنفس مشابه، أظهره السوريون تجاه المعسكر المسيحي، وكان من الواضح أنهم يتجهون للحوار وليس للمواجهة مع النواة الصلبة للمعارضة المارونية المعادية لسورية، وفي مقدمتها أوساط الكنيسة المارونية بزعامة البطريارك صفير. وقد حاول السوريون، عبثاً، عقد لقاء بين بشار وبين البطريارك وظل صفير متمسكا بمطالبته بخروج السوريين من الدولة. وحتى أنه أعلن أنه سيمتنع عن زيارة سورية حتى يصبح لبنان دولة مستقلة، ولذلك امتنع عن مرافقة البابا عندما قام بزيارة تاريخية إلى دمشق في أيار/مايو ٢٠٠١. وبالمناسبة، من المهم التذكير، أنه عشية الحرب على العراق في ربيع ٢٠٠٣ برز البطريارك صفير بانتقاده الإصرار الأمريكي على شن الحرب وهو قد حصل على الكثير من الثناء من قبل السوريين،

---

(٣٥) **الحياة**، ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠٢. وانظر أيضاً راديو النور، ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

إلا أنه يبدو أن موقفه في الموضوع جاء على خلفية رغبته لإرضاء فرنسة، وليس الحصول على إعجاب دمشق.[٣٦]

وفي محاولة، من جانبهم، لتخفيف الاحتكاك بينهم وبين السكان اللبنانيين، بدأ السوريون، مع انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي من جنوب لبنان، في أيار/مايو ٢٠٠٠، بإعادة انتشار قواهم في لبنان. ويبدو أن بشار ينظر إلى التواجد العسكري السوري في لبنان كأساس للشر في العلاقة بين البلدين، وكسبب رئيسي لتعكير الجو بين بيروت ودمشق. وقد اعترف غير مرة أنه "إذا كانت القوات السورية منتشرة في شوارع دمشق طيلة الوقت، لكانت ثارت في أوساط المواطنين السوريين مشاعر التحفظ والاشمئزاز على تواجدها، مثلما جرى في لبنان".[٣٧] وعلاوة على ذلك، كان يبدو أن السوريين أرادوا عبر هذه الخطوة اتقاء الضغط العربي والدولي المتوقع لسحب قواهم من الدولة في أعقاب انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي من جنوب لبنان. ويبدو أيضاً أن السوريين ارتأوا أن إعادة انتشارهم لن تُلحق الضرر بسيطرهم الكاملة على لبنان، والتي تتم عبر السلطات اللبنانية الموالية لها وفي مقدمتها الرئيس اللبناني وحكومته وقوات الجيش والأمن المحلية.

وهكذا ومنذ شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٠، قلص الجيش السوري عدد حواجزه على الطرق في لبنان.[٣٨] وحتى أنه أخلى غالبية قواته في بيروت. وأكمل السوريون انسحاب قواهم من المدن اللبنانية بعد عامين من ذلك، في نيسان/أبريل ٢٠٠٢. وفي كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ عاود السوريون إخلاء المزيد من القوات، ولكن هذه المرة من شمال لبنان. وقد قُدِّم إكمال الانسحاب من بيروت ومن المنطقة المحيطة بها من قبل السوريين على أنه استكمالاً لتطبيق اتفاق الطائف. وأُعلن من دمشق أنه مقابل حوالى ٤٠ ألف جندي سوري تواجدوا في لبنان في بداية عام ٢٠٠٠، بقي منهم في نهاية إعادة الانتشار الجديدة ١٠ - ١٥ ألف جندي

---

(٣٦) **الوطن**، أيار/مايو ٢٠٠١. **الديار**، ١١ تموز/يوليو ٢٠٠١.

(٣٧) **النهار**، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(٣٨) وكالة أنباء الشرق الأوسط، ٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠، التلفزيون اللبناني، ٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠. **الحياة**، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

فقط.[٣٩] ومع ذلك، فقد فسر المعارضون لسورية هذه الخطـوة كدلالـة علـى الضعف والخنوع أمام الضغوط التي مورست عليها، وكتعبير لخوف السوريين من نشوب موجهة عسكرية مع إسرائيل في أعقاب تصعيد نشاطات حزب الله علـى امتداد الحدود الإسرائيلية اللبنانية.

السوريون من جانبهم أكدوا على أن الحديث يدور عن إعادة انتشار جديدة لقواهم، وليس عن انسحاب شامل، والذي سيتم تنفيذه عند التوصـل إلى سـلام شامل في المنطقة. وقد تحمل بشار نفسه عناء توضيح ذلك بشكل متكرر فقال إنه "لا يوجد أي مسؤول سوري قد صرح منذ دخول القوات السورية إلى لبنان عام ١٩٧٦، بأن الحديث يدور عن تواجد دائم. بل على العكس من ذلك فإن سورية تعود وتقول أن قواها دخلت إلى لبنان من أجل مساعدة حكومة البلد، وعندما لا تبقى هناك ضرورة لبقاء القوات السورية في لبنان، فهي ستعود إلى سورية. وهـذا ليس موقفا جديداً. وقد قالت سورية هذه الأقوال منذ البداية، ولـذلك نحـن في سورية نعجب في كل مرة يطرحون فيها علينا قضية مستقبل التواجد السـوري في لبنان".[٤٠]

ونُذكّر بأن بشار قد وصل في آذار/مارس ٢٠٠٢ في زيارة هي الأولى مـن نوعها إلى بيروت، وذلك عشية انعقاد مؤتمر القمة العربية في العاصـمة اللبنانيـة، والتي تعمد بشار المشاركة، فيها في كل الأحوال، ومن المحتمل كـذلك أنـه أراد القيام بزيارة لبنان، كصاحب بيت.[٤١] لكن جـاءت هـذه الزيـارة لتبعـث للمسيحيين في لبنان برسالة مصالحة، حيث أن هذه كانت الزيارة الأولى التي قـام بها رئيس سوري إلى بيروت، واُستشف منها اعتراف سوري بوجود لبنان. وكما هو معروف، فقد امتنع السوريون عن إرسال سفير من قِبَلهم إلى بيروت، وشـكل

(٣٩) **الحياة**، ٥، ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٤٠) **القدس العربي**، ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٢. قال بشار أقوالاً مشابهة في مقابلة مع ص حيفة **لفيغـارو** الفرنسية، والتي نُشرت بكاملها في الصحافة السورية. أنظر على سـبيل المثـال **تشـرين**، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١.

(٤١) **الحياة**، ٣ آذار/مارس ٢٠٠٢.

هذا الأمر تعبيراً عن التحفظ على فكرة الاستقلال اللبناني. وبالمناسبة، فقد سبق بشار، الرئيس شكري القوتلي الذي قام بزيارة إلى بلدة شتورة اللبنانية عام ١٩٤٧ اجتمع خلالها مع نظيره اللبناني بشارة الخوري. كذلك الأمر بالنسبة لوالد بشار الذي التقى في شتورة عام ١٩٧٥ نظيره اللبناني سليمان فرنجية.

وكنا قد ذكرنا أن خطوات دمشق لم تكن كافية لوقف موجة الانتقادات المتصاعدة الموجهة إليها، وقد اكتسب ذلك تسارعاً، بسبب ما نظر إليه في لبنان على أنه رد غير واضح من جانب سورية على الانتقادات المواجهة ضدها. وقد ترأست الانتقادات الشديدة الموجهة إلى سورية، الكنيسة المارونية المحيطة بالبطريارك صفير. وفي أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠ انضم للبطريارك صفير كل المطارنة الماورنيين ونشروا في نهاية لقاءهم السنوي هجوما لا سابق له في شدته ضد التواجد السوري في الدولة، وفق الموقف الرسمي والملتزم للكنيسة المارونية.

وقد عاود المطارنة توجيه انتقاداتهم هذا بعد عام، في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، في الاجتماع الذي عقدوه في الديمان. وقالوا في بيانهم الصادر في الخامس من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، من بين أمور أخرى، إنه "منذ خمسة وعشرين عاما [منذ بداية التدخل السوري في لبنان] ولبنان يفقد رويداً رويداً هويته، وخصوصيته ومؤسساته الدستورية، وحتى كيانيته، وخاصة وبعد أن أعطى جنسيته للكثير من الأجانب [هذا تلميح إلى التخويف من إمكانية إعطاء الجنسية للعمال السوريين في لبنان]... واستمرار هذه التوجهات يمكن أن يوصلنا في يوم من الأيام إلى اليوم الذي نخشاه، والذي يصبح فيه لبنان الذي عرفناه كدولة ذات سيادة، حرة ومستقلة، غير موجود. ويخيل أن هؤلاء الذين يعتقدون أن الوصاية [السورية] هي التي ستحفظ لبنان وتحميه، هم الذين يتسببون بضياع لبنان. وإذا ما حصل وزال لبنان من الوجود، فإن الطامعين فيه [السوريون] لن يكون بوسعهم الفرح بل سيُعتبرون مع الخاسرين. وهم لن يخسروا المكسب المادي الحاصلين عليه في لبنان، بل أن هناك تخوف أيضاً بأن تصيبهم العدوى بـ "المرض اللبناني". إن من بين اللبنانيين من يعتقدون أنه يحظر خروج الجيش السوري من لبنان طالما استمر الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. ولكن من الذي يعرف متى ينتهي هذا الصراع؟ فقد

مر نصف قرن دون أن تظهر علامات على انتهائه قريبا... وهناك من يدعون أيضاً أنه إذا ما انتهى الصراع، فإن الحاجة للتواجد السوري في لبنان قائمة، وهذا مخالف تماماً لما ورد في اتفاق الطائف، وفي معاهدات واتفاقيات أخرى. بل أن قول كهذا يدق المسمار الأخير في نعش استقلال لبنان وسيادته، ذلك لأن استمرار التواجد السوري في لبنان، مثلما هو الحال أيضاً لصور هذا التواجد الأخرى من أجهزة أمن والتي تقوم بمراقبة الحياة السياسية في الدولة، تمنع قيام حياة ديمقراطية في لبنان، وتضع النهاية للحريات التي عُرف وتميز بها في السابق... إن الحل المثالي لهذا الوضع هو أن يفسح المجال للبنان لممارسة سيادته بنفسه وأن يدير أموره الداخلية لوحده، وذلك من خلال التنسيق بينه وبين سورية في المواضيع المشتركة بين البلدين".(٤٢)

في ربيع ٢٠٠١ عقد معارضو سورية في المعسكر المسيحي منتدى لهم في قرنة شهوان، وذلك نسبة للدير الماروني الذي عقدوا فيه اجتماعهم الأول. وقد اكتسب هذا الاجتماع تسارعا كبيرا حتى خُيِّل أن هناك سيل جارف عام في الجمهور اللبناني، وخاصة المسيحي - الماروني منه، ضد السوريين (وهو السيل الذي ظهر في النهاية على أنه وهم).(٤٣) وقد جاء الدليل على ذلك في الزيارة التاريخية التي قام بها البطريارك الماروني صفير إلى جنوب جبل لبنان (منطقة الشوف) في بداية آب/أغسطس ٢٠٠١. وقد اُستقبل البطريارك في منزل الزعيم الدرزي وليد جنبلاط، وقد عُرِض لقاء الاثنين على أنه إشارة مصالحة بين الدروز والموارنة، الذين ذبح بعضهم البعض في "حرب الجبل" التي دارت في المنطقة في الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٤. ولكن سرعان ما تحولت المصالحة الدرزية - المارونية إلى استعراض للقوة ضد سورية، وذلك بعد أن ردد آلاف المتظاهرين، من الدروز، والمسيحيين بشكل خاص، الذين كانوا في استقبال صفير الهتافات ضد التواجد السوري في الدولة. وقد سارعت قوات الأمن اللبنانية إلى تفريق المتظاهرين وانتهى ذلك اليوم باعتقال عدد منهم.(٤٤)

---

(٤٢) **النهار**، ٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

(٤٣) **السفير**، ٣ أيار/مايو ٢٠٠١.

(٤٤) وكالة الأنباء اللبنانية، ٤، ٧ آب/أغسطس ٢٠٠١.

وفي أعقاب حدة الانتقادات الموجهة إلى سورية، قررت الأخيرة، مع حلفائها اللبنانيين، خلع القفزات والشروع بهجوم مضاد، مثلما فعل النظام السوري ضد المعسكر الإصلاحي الذي طالب بإدخال تغييرات في سورية نفسها. وأُعلن في السابع من آب/أغسطس ٢٠٠١ من بيروت عن اعتقال بضع عشرات من أعضاء القوات اللبنانية سابقاً، وأُتهموا بالتجسس لصالح إسرائيل.(٤٥) (الكثيرون من أبناء المعسكر المسيحي في لبنان، وليس هم لوحدهم، تعاونوا مع إسرائيل، أو أنهم على الأقل، أجروا اتصالات مع ممثليها خلال سنوات التدخل المتواصلة في دولة الأرز خلال السبعينيات والثمانينيات). وكان توجيه التهم في موضوع التعاون مع إسرائيل سابقة خطرة بالنسبة للكثير من المسيحيين، وحتى أنها دلت على وجود حجة واهية، والتي تُخفي خلفها الرغبة في ردع وإخافة منتقدي سورية في لبنان. وقد دلت حقيقة أن جهات الأمن الداخلي في لبنان، برئاسة الرئيس لحود، هي التي أصدرت الأوامر لتنفيذ حملة الاعتقالات من خلال الالتفاف على رئيس الحكومة الحريري ووزير الدفاع خليل الهراوي، اللذين كانا خارج لبنان، دلت أيضاً على حالة الفزع التي سيطرت على دمشق وحلفائها في لبنان، والتي دفعتهم للإقدام على هذه الخطوة المتسرعة.

ولا عجب إذاً، أن جلّ الصراع الذي أدره المسيحيون ضد التواجد السوري قد نُقل إلى الصعيد الدولي. فعلي سبيل المثال، عقد في حزيران/يونيو ٢٠٠٢ في لوس انجلس مؤتمر عالمي لأبناء الطائفة المارونية، حيث كان من أبرز الحضور ممثلي البطريارك الماروني، الذين وجّهوا دعوة إلى سورية للانسحاب من لبنان. وبعد ذلك ارتبطت عناصر موالية للموارنة مع اللوبي الإسرائيلي في واشنطن، الإيباك، لدعمها في جهودها من أجل تشريع القانون المضاد لسورية في الكونغرس، والذي تركز، من بين أمور أخرى، على "الاحتلال السوري" للبنان، وذلك حسب أقوال المبادرين لقانون "محاسبة سورية" (أنظر الفصل السادس).(٤٦)

---

(٤٥) وكالة رويترز، ٧ آب/أغسطس ٢٠٠١. **الحياة**، ٨، ٩ آب/أغسطس ٢٠٠١.

(٤٦) **ديلي ستار**، ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٢. **الوطن**، ٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. **السفير**، ٢٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

وفي حزيران/يونيو ٢٠٠٢ عُقدت في منطقة المتن الشمالي (جبل لبنان) انتخابات فرعية لشغل مقعد مجلس النواب الذي شعر بوفاة ألبرت مخيبر الذي عرف عنه قربه من سورية. وقد تحولت المنافسة إلى بازار لبناني نموذجي، اُختصرت فيه كل ميزات الحملة الانتخابية في لبنان، والتي لم تتغير أبداً، حسبما اتضح بعد الحرب الأهلية الداخلية التي دارت في الدولة، وحتى بعد اتفاق الطائف الذي وضع نهاية لها. وقد تنافس على الكرسي الشاغر ثلاثة مرشحين: جبرائيل المر، وهو ابن لعائلة المر اليونانية الأرثوذكسية وصاحب محطة التلفزيون اللبنانية MTV، المدعومة من قبل قرنة شهوان. والمحامي غسان مخيبر، شقيق عضو مجلس النواب الراحل الذي أراد مواصلة سيطرة العائلة في المجلس. وميرنا المر ابنة أخ جبرائيل المر، المدعومة من قبل الحكومة المركزية في بيروت.[٤٧] ولكن سرعان ما انسحبت ميرنا من التنافس بعد أن أدركت أن آمالها بالفوز قليلة جداً. وعبَّدت بذلك الطريق أمام جبرائيل المر للفوز. وقد أعطى نجاحه إشارة تشجيع للمعسكر المعادي للوجود السوري، الذي رأى في ذلك دعماً له في أوساط الجمهور المسيحي في الدولة.[٤٨]

إلاّ أن السوريين سارعوا للعمل ضد المر، وكخطوة وصفت على أنها جاءت لتقوية سيادة الحكومة اللبنانية أصدروا الأوامر بإغلاق محطة التلفزيون التي يمتلكها بدعوى أنها لم تحصل على ترخيص من الحكومة. وبموازاة ذلك بدأت ضده إجراءات لإلغاء عضويته في مجلس النواب، بدعوى أنه لم يقدم تصريحاً بالأموال التي يمتلكها في الموعد المحدد، كما هو متبع مع كل أعضاء مجلس النواب. وحتى أن المر طُرد بعد ذلك من مجلس النواب، وحل محله منافسة، غسان مخيبر.[٤٩] كذلك أصدر المدعي العام في بيروت أمراً بالبدء بالتحقيق ضد الرئيس اللبناني السابق أمين

(٤٧) ميرنا هي ابنة ميشيل المر، أخ، والعدو المر لجبرائيل المر. وقد عُرف ميشيل بقربه من الرئيس اميل لحود، وكذلك كشخص تربطه علاقات طيبة مع السوريين. وقد عمل خلال التسعينيات وزيراً للداخلية في الحكومة اللبنانية، وعندما ترك المنصب عُين نائباً للياس المر. وميرنا هي طليقة غسان تويني، محرر صحيفة **النهار**، وأحد أشد المعارضين للتواجد السوري في لبنان.

(٤٨) **الحياة**، ٢٣، ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٢.

(٤٩) **النهار**، ٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. **النهار**، ١٦، ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

الجميل، وهو معارض آخر لسورية، والذي برز منذ عودته إلى بيروت أواخر الثمانينيات، بمعارضته لها. وقد اُتهم جميّل بتلقي عمولة من صفقة شراء طائرات بوما خلال ولايته (١٩٨٢ - ١٩٨٨).[٥٠]

وبعد عام من ذلك، أصيب السوريون وحلفائهم في أوساط الحكم اللبناني بهزيمة أخرى خلال الانتخابات الفرعية لمقعد مجلس النواب لمنطقة بعبده-عاليه. إذ فاز بيير الحلو، المرشح الذي ينتمي إلى معسكر ميشيل عون، بالانتخابات وبفارق ملحوظ، على منافسة في السباق من عائلة فرعون. وقد فُسّر التأييد لترشيح الحلو كصفقة للسوريين. إلاّ أن الأمور تعود لتثبت أن لبنان هو لبنان: فقد اتضح أن منظمة حزب الله قد دعمت بيير الحلو، بالإضافة إلى جهات أخرى ليست مع أعداء سورية في لبنان.[٥١] وبالمقابل دعمت عائلة الجميل وفي مقدمتها ابن بشير، بيير، منافس الحلو. ويبدو أن السوريون قد تخوفوا من نشاطات ميشيل عون في الولايات المتحدة من أجل تمرير قانون "محاسبة سورية"، الذي تضمن، بين أمور عديدة، "جرائم دمشق"، وكذلك احتلال لبنان من قبل قواها. وقد أدلى عون بشهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس، حيث هاجم خلالها السوريين بشدة. وفي ردها على ذلك قررت الحكومة اللبنانية تقديمه للمحاكمة غيابياً - وهو القرار الذي اُستخدم كإشارة تحذير لمؤيديه في لبنان، وليس ضده بالذات".[٥٢]

ولكن يبدو أن الانتقادات ضد سورية، التي استشرت في أعقاب الانسحاب الإسرائيلي من الحزام الأمني، ووفاة حافظ الأسد، تعرضت لضربة قوية مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ وأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وبقوة أكبر بعد الهجوم الأمريكي على العراق. وصحيح أن تلك الأحداث قد زادت من حجة المعضلات التي تواجهها سورية ولبنان لجهة الدعم الذي قدموه لمنظمة حزب الله ولمنظمات فلسطينية أخرى، إلاّ أنه كان فيها

(٥٠) **الحياة**، ١٣ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

(٥١) **السفير**، ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

(٥٢) **السفير**، ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣.

ما يكفي لدفع المعسكر المعادي لسورية لخفض صوته. وبالفعل فقد تسارع وليد جنبلاط، كما سبق وذكرنا، للتنصل من المعسكر المسيحي المعادي لسورية والعودة إلى حضن دمشق الدافئ. وأكثر من ذلك، فقد وجّه زعماء الكنيسة المارونية، عشية الهجوم الأمريكي على العراق، وبدون شك، بتأثير من فرنسة والفاتيكان، بنداء لمنع اندلاع الحرب، مع الثناء على بشار الأسد لنشاطه لمنعها.(٥٣)

علاوة على ذلك، تجدر الإشارة، إلى أن المجموعة المعادية لسورية في المعسكر المسيحي لم تكن كتلة واحدة متماسكة، وإن كل واحد من أجنحتها أراد تبني جدول عمل خاص به. ولذلك كان الاستعداد للعمل ضد سورية محدوداً، وقد جرت في كل مرة دراسة أعمال العنف من حيث مساهمتها لدفع المصالح الخاصة والعائلية لكل واحد في أعضاء المعسكر. وفي حالات أخرى جاء الانتقاد الموجه إلى سورية لمهاجمة كبار مسؤولي النظام المحسوبين عليها مثلما حدث، على سبيل المثال، مع انضمام سليمان فرنجية، المقرب من بشار إلى عددٍ من اجتماعات منتدى قرنة شهوان المعادية لسورية. ويمكن الافتراض أن فرنجية بقي من الموالين لسورية، إلاّ أن رغبته في ضرب خصومه المارونيين دفعته للإقدام على هذه الخطوة التي نُظر إليها، للوهلة الأولى، على أنها موجهة ضد السوريين. الأمر ذاته حدث فيما يتعلق بنائلة معوض، أرملة الرئيس الراحل رينيه معوض، ورغم أن نائلة شاركت في منتدى قرنة شهوان، إلاّ أنها وجدت في نهاية الأمر طريقها إلى دمشق. وفوق كل ذلك فإن أختها. دانيال، هي الصديقة المقربة لزوجة نائب الرئيس، عبد الحليم خدام.(٥٤)

ومع ذلك، فإن مشاكل السوريين لم تقتصر فقط على الانتقادات الموجهة ضدهم، بل أيضاً، وبشكل أساسي، على ضرورة المحافظة على، وصيانة، المنظومة اللبنانية التي أظهرت تبعية أكثر من اللازم، حسب رأيهم، لسورية، وأرادت بشكل

---

(٥٣) **السفير**، ٧ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٥٤) **الشرق الأوسط**، ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً **السفير**، ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. **الحياة**، ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

متكرر جرّ السوريين إلى صراعاتها الداخلية. وتجدر الإشارة إلى أن الساحة السياسية في لبنان، التي تعتمد على شبكة من التوازنات والكوابح الحساسة، امتازت، ولا تزال بصراعات قوى على مواقع السيطرة، والتأثير في الدولة، على أساس شخصي وعائلي ومناطقي وطائفي. ويبدو أن اتفاق الطائف قد زاد من حدة، أو أثار، تلك الصراعات من جديد، حيث أنه أتاح للمرة الأولى، منذ أن وُضع الميثاق الوطني اللبناني عام ١٩٤٣، إدخال تغييرات حقيقية على تقاسم "الكعكة" بين القوى السياسية في لبنان - بين الطوائف المختلفة وحتى بين عناصر القوة المختلفة في الطائفة الواحدة أيضاً.

إن خلفية صراع القوى الدائر في لبنان متنوعة وفيها ما يدل على أنها استمرار وليس على تغيير أو تحول في الماضي اللبناني البعيد والقريب. وتأخذ بعض هذه الصراعات طابعاً أخلاقياً - **صراع الطوائف** بين ممثلي مختلف الطوائف الذين يريدون تقوية موقعهم الطائفي، من ذلك مثلاً صراع الشيعة والدروز ضد المؤسسة المارونية السنية، أو الصراع بين الموارنة والسنة. و**الصراع داخل الطائفة** بين القوى المختلفة داخل أبناء الطائفة الواحدة، التي تريد تقوية موقعها كأساس للمطالبة بالحصول على جزء من "الكعكة الوطنية" (ومن هذا على سبيل المثال الصراع داخل الطائفة الشيعية بين منظمة أمل ومنظمة حزب الله). وكذلك **الصراع داخل السلطة التنفيذية وبينها وبين هيئات السلطة التشريعية،** أي صراع القوى بين الرئيس ورئيس الحكومة، وبين الاثنين وبين مجلس النواب كممثل للسلطة التشريعية، حيث حُدّد في اتفاق الطائف أن رئيس المجلس يتساوى مع الرئيس ومع رئيس الحكومة.

ومن بين الصراعات التي ثارت في أعقاب اتفاق الطائف الصراع بين أبناء الجيل القديم، وغالبيتهم من النخبة اللبنانية القديمة - عائلات الوجهاء من بين كل طائفة - الذي أرادوا المحافظة على موقعهم في الطليعة والذي تمتعوا به على مدى سنوات طويلة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في لبنان، وبين أبناء الجيل الشاب، والمُكوَّن، من القوى الصاعدة والمثقفة ورجال الأعمال الذين أرادوا

الحصول على جزء من الغنيمة. ومن بين هؤلاء يرد اسم رئيس الحكومة السني، رفيق الحرير، الذي يمثل إلى درجة معينة تلك القوى. وقد عُرِض جزء كبير من صراعات القوى التي دارت على دمشق للحسم فيها، كما سبق وذكرنا، بشكل نهائي في دمشق. ومع ذلك يصعب التخلص من الانطباع بأنه في حالات كثيرة مال المسؤولون اللبنانيون بالذات إلى جرّ السوريين للتدخل في صراعات القوى الخاصة بهم، وذلك بهدف حشد دعمها لهم لتحسين مواقعهم. ويدور الحديث هنا عن نموذج عمل معروف وشائع في لبنان، والذي كان قد جُرِّب، من قَبْل، بنجاح مع البريطانيين والفرنسيين، وبعد ذلك مع الولايات المتحدة وإسرائيل.

وحدثت صراعات القوى تلك في ظل أزمة اقتصادية خانقة عاني منها لبنان بسبب الديون المتراكمة عليه والتي بلغت ٢٨ مليار دولار. وقد أمِل رفيق الحريري بأن تؤدي مسيرة السلام الإقليمية إلى ازدهار الاقتصاد اللبناني. إلا أن السلام الذي أفلت من بين يديه، دفع لبنان في ظل حكمه إلى أزمة اقتصادية، والتي تفاقمت بسبب العجز والضعف البنيوي في الساحة السياسية اللبنانية عن مواجهة مشاكل مركزية في الاقتصاد اللبناني. كما أن نشاط حزب الله ضد إسرائيل والتخوف من اندلاع مواجهة إقليمية شاملة لم تساعد أيضاً على استقرار الاقتصاد اللبناني، أو جهود الحريري، بدعم فرنسي، لإطلاق حملة دولية من أجل حشد الاستثمار الأجنبي والقروض للبنان (مؤتمر باريس).[٥٥]

ولا مناص من تشكل الانطباع بأن بشار اُستترف من صراع القوى داخل الساحة اللبنانية (وقد أدرك، على ما يبدو، ضرورة إجراء حوار مع كل عناصر القوة في لبنان – بالتأكيد مع أصدقاء وحلفاء سورية، وحتى مع المعسكر المسيحي – ولكنه وجد صعوبة في مواجهة ضرورة التدخل المستمر والدائم من جانبه في إدارة الشؤون الداخلية اللبنانية. وقد اعترف بشار في مقابلة مع صحيفة **الديار** أنه "عندما التقى الزعماء السياسيين اللبنانيين أشعر في بعض الأحيان أنهم يتصرفون كزعماء طوائف وليسوا كرجال دولة. وحسب رأيي فإن حل هذه المشكلة

(٥٥) CR, Lebanon-2002, No. 3, pp. 2-11; No. 4, pp. 2-11

موجود في تعميق التربية الوطنية والقومية في لبنان. وتطلب الكثير من الشخصيات اللبنانية منا زيادة تدخلنا بينها، إلاّ أنني أحرص على تفادي ذلك".(٥٦)

وفي تصريح آخر له، وهذه المرة مع صحيفة **اللواء** اللبنانية، أوضح بشار أن "سورية مهتمة بالحفاظ على وحدة المجتمع اللبناني بمختلف شرائحه وطوائفه. ونحن معنيون أيضاً بالحفاظ على التواجد المسيحي في لبنان وفي المنطقة، إذ أننا جميعاً – مسيحيون ومسلمون وحتى يهود – أبناء شعب واحد نعيش معاً بانسجام. وقد تحول هذا الانسجام إلى حجر الزاوية في البناء العظيم للحضارة السورية – العربية. لقد لعب المسيحيون في السابق دوراً وطنياً في تاريخ هذه المنطقة، ومن المهم الاستمرار فيه وتعميقه، وخاصة محاولة التغلب والتسامي على المشاعر الطائفية. وسورية معنية أيضاً بالمحافظة على علاقاتها مع كل الطوائف ودفعها باتجاه المشاعر الوطنية والقومية، وكذلك أيضاً باتجاه مقاومة المشروع الصهيوني الذي هو ضدنا جميعاً".(٥٧) وفي مناسبة أخرى أضاف بشار إن "للمسيحيين دوراً مركزياً في عرض القضية أمام الرأي العام العالمي. ومثل هذه المهمة يستطيعون هم وحدهم، ولأسباب مفهومة، القيام به، وليس، على سبيل المثال، أكثر من مليونين مسيحي يعيشون في سورية".(٥٨)

إن النتيجة التي تظهر من تلك السطور هي أن التفاحة لم تسقط بعيداً عن الشجرة، أي أن نظرة بشار للبنان تشبه إلى حدّ كبير نظرة والده. وكما سبق وذكرنا، فقد كان الأسد الأب يرى، وهكذا يرى ابنه بشار، أن حقيقة كون المجتمع اللبناني مجتمعاً متنوعاً تُلزم السوريين بإجراء حوار مع كل مكوناته، ذلك أن أية محاولة للتعاون مع عنصر واحد منها، وتمليكه على الآخرين محكومة بالفشل. وعلاوة على ذلك فإن الأسد كان يرى أن على سورية أن تبذل جهداً خاصاً في محاولة لتجنيد المسيحيين في لبنان إلى جانبها، ذلك لأنهم ليسوا الجمهور المسلم

(٥٦) **الديار**، ٤ شباط/فبراير ٢٠٠٢.

(٥٧) **اللواء**، ١ تموز/يوليو ٢٠٠٢.

(٥٨) **السفير**، ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

الموضوع في جيب سورية، ويشكلون المفتاح لضمان مستقبل مكانة السوريين في لبنان.

سورية، حزب الله وإسرائيل

في لب الخلافات العامة في لبنان، والانتقاد الموجه إلى سورية، ظهرت أكثر من مرة، القضية المعقدة بحد ذاتها: قضية نشاط حزب الله وإصراره على الاستمرار في صراعه المسلح ضد إسرائيل. وقد أثار النشاط العسكري لحزب الله، وبمباركة سورية، المخاوف في أوساط الكثير من اللبنانيين من أن الدولة ستسقط في نهاية المطاف ضحية لاندلاع مواجهة إقليمية شاملة. وقد اتهم معارضو سورية، اتهموها بأنها تلعب بالنار، ويدفع اللبنانيون كلهم ثمن ذلك. إلاّ أنه كانت لقضية حزب الله أبعاد أخرى أيضاً، مثل درجة سيطرة بشار على نشاط هذه المنظمة، وما يثير القلق أكثر من ذلك، قضية الاستراتيجية الشاملة للرئيس السوري الشاب، إذا كان لديه أصلاً استراتيجية من هذا القبيل، مقابل احتمال نشوب مواجهة شاملة نتيجة لاستمرار النشاط العسكري لمنظمة حزب الله ضد إسرائيل.

وقد عدنا وأكّدنا أن انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان في نيسان/أبريل ٢٠٠٠ [؟!المترجم] كانت بمثابة لحظة الحقيقة بالنسبة لمنظمة حزب الله. ولكن اتضح في هذه اللحظة أن الآمال للبننة المنظمة كانت مبكرة، وربما لا أساس لها، وأن المنظمة لا تزال مصرة على إبراز البعد العسكري في نشاطها، واستمرار في رؤية الصراع ضد إسرائيل كدعامة أساسية في نهجها، ورؤيتها وحتى جوهرها وسبب وجودها.

وعملياً، وقبل إتمام الانسحاب، دأبت المنظمة على تهيئة الأرضية لاستمرار الصراع ضد إسرائيل، وذلك عن طريق رفض قرار مجلس الأمن والذي أتمت وفقه انسحابها من الأراضي اللبنانية وأصرت على قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥. كما طُرحت على جدول الأعمال قضايا أخرى ذات طابع لبناني: أولاً، قضية مزارع شبعا، التي عرضتها المنظمة، وبدعم عربي جارف، كأراضٍ لبنانية، التي يحق لها وللبنان الاستمرار في النضال من أجل تحريرها. وثانياً، قضية الأسرى اللبنانيين،

وخاصة مصطفى ديراني والشيخ عبد الكريم عبيد، والذين تعهدت المنظمة بالعمل على إطلاق سراحهم، حيث أُطلق سراحهم بالفعل في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. وأخيراً، قضية القوى الشيعية السبعة الموجودة داخل أراضي إسرائيل الانتدابية، ودمرت في حرب عام ١٩٤٨، والتي طالبت المنظمة بإعادها إلى لبنان.(٥٩) ومع ذلك من المهم التذكير بأن السوريين التزموا جانب الحذر عن الإعلان بشكل قاطع بأن مزارع شبعا هي أراضي لبنانية، وحتى أن وزير الخارجية الشرع أعلن انه يجب على إسرائيل الانسحاب من المزارع استناداً إلى قرار ٢٤٢ الذي يتطرق لهضبة الجولان التي احتلت عام ١٩٦٧، وليس وفق القرار ٤٢٥ المتعلق بالأراضي التي سيطرت عليها إسرائيل في لبنان عام ١٩٧٨، وذلك في إشارة إلى أنه مع قادم الأيام ستطالب سورية بهذه المنطقة لها.(٦٠)

لقد انتهت المعضلة حول نهج حزب الله في أعقاب انسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي من جنوب لبنان، مع اندلاع انتفاضة الأقصى في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. فبعد أسبوع واحد من بدء الأحداث في المناطق استأنف حزب الله هجماته ضد إسرائيل. وحتى أنه في عمليته الأولى في السابع من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ ضد مواقع جيش الدفاع الإسرائيلي في منطقة مزارع شبعا تمكّن، كما سبق وذكرنا، من اختطاف ثلاثة جنود إسرائيليين. وقد أعلنت المنظمة أنها مستعدة للتفاوض مع إسرائيل حول مصيرهم، ولكن اتضح فيما بعد أنهم قتلوا خلال محاولة الاختطاف. وقد أعيدت الجثث إلى إسرائيل في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، وذلك كجزء من صفقة تبادل الأسرى والمفقودين بين إسرائيل وحزب الله. وقد استمرت المنظمة منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ بمهاجمة مواقع جيش الدفاع الإسرائيلي في مزارع شبعا، وقد قتل خلال السنوات التي تلت ذلك عدد من الجنود الإسرائيليين.

ويبدو أن المنظمة قد قدّرت بأن إسرائيل ستمتنع عن الرد على الهجمات ذلك

---

(٥٩) إيال زيسر، "عودة حزب الله"، سبق ذكره، الملاحظة ١٧، ص ٣-١٢.

(٦٠) إيال زيسر، "عودة حزب الله"، سبق ذكره، الملاحظة ١٧، ص ٣-١٢.

لأنها غارقة حتى أذنيها بالصراع ضد الفلسطينيين. وقدرت المنظمة كذلك أنه وبما أن الحديث يدور عن هجوم محدد ضد المواقع العسكرية فإن إسرائيل ستواجه صعوبة في إيراده كحجة كافية للبدء بحرب شاملة - والتي يمكن أن تجبي منها ثمناً قاسياً، وذلك بسبب التشكيلة العسكرية، التي تضم آلاف الصواريخ، والتي تمكّن حزب الله من نشرها في جنوب لبنان، والتي تغطي كل شمال إسرائيل.

وقد ظهرت مراهنة حزب الله بأنها كانت صحيحة، فإسرائيل بزعامة ايهود باراك امتنعت عن الرد عن تلك الهجمات. ولكن في أعقاب انتخاب اريئيل شارون لرئاسة الحكومة في شباط/فبراير ٢٠٠١، طرأ تغيير على السياسة الإسرائيلية ونمط رد إسرائيل على هجمات حزب الله، حيث قام سلاح الجو الإسرائيلي في شهري نيسان/أبريل وتموز/يوليو ٢٠٠١ بمهاجمة مواقع رادار سورية في لبنان (أنظر الفصل السابع).

لقد فاجأ الرد الإسرائيلي "بدون شك"، منظمة حزب الله، على الرغم من أن إسرائيل امتنعت عن العمل ضدها مباشرة ولم تهاجم، كما كان الحال في السابق، البنى التحتية اللبنانية بل أهدافاً سورية، وبذلك سحبت من حزب الله القدرة على الرد، وأرسلت رسالة باتجاه دمشق وهي أن على السوريين كبح جماح نشاط حزب الله، وإلا فإنهم سيتحملون النتائج. وعلى الرغم من ذلك فإن حزب الله رد بشكل فوري أيضاً بقصف مواقع إسرائيلية في مزارع شبعا وفي جبل الشيخ، وأشار بذلك إلى أنه لن يسمح لإسرائيل بتغيير قواعد اللعبة التي أراد وضعها، وهي إبقاء الصراع بين إسرائيل وحزب الله محدوداً على منطقة مزارع شبعا، وأنه يحظر على إسرائيل توسيع جبهة نشاطاتها ضد المنظمة أو فتح جبهة ضد السوريين خارج هذه المنطقة.[٦١]

وفي نهاية آذار/مارس ٢٠٠٢، عُقدت في بيروت قمة الزعماء العرب، حيث تمّ فيها تبني مبادرة السلام السعودية من قبل المجتمعين، والتي كان في صُلبها الاستعداد لإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل، إذا استجابت الأخيرة لمتطلبات

---

(٦١) **الحياة**، ٢ تموز/يوليو ٢٠٠١. **هآرتس**، ٢، ٣ تموز/يوليو ٢٠٠١.

السلام العربي وفي مقدمتها الانسحاب الإسرائيلي إلى حدود عام ١٩٦٧ وحل عادل لقضية اللاجئين. وقد أعرب حزب الله، بطبيعة الحال، عن معارضته القاطعة لمقررات القمة، والتي رأى فيها خضوعاً لإسرائيل وتنازلاً عن خيار النضال، والذي هو فقط، حسب أقوال المنظمة، يُمكّن، العرب من تحقيق أهدافهم. وقد أوضح حسن نصر الله في مقابلة صحفية أن "حزب الله هو حركة شعبية، لذلك فإن تطلعاته تنسجم مع تطلعات الغالبية الساحقة من شعبنا العربي والإسلامي. وهؤلاء يرون إسرائيل بشكل مختلف [عن زعمائهم] ككيان غريب غير قانوني وغير شرعي. وهي دولة قامت على السلب والنهب ونفذت أعمال القتل والإرهاب، والتي لا يوجد لها مستقبل في هذه المنطقة. وهم يؤمنون أن فلسطين الممتدة من النهر إلى البحر تعود للفلسطينيين وليس لليهود الروس أو يهود أوكرانيا أو يهود بولندا أو يهود الفلاشا الإثيوبيين الذين جاؤوا من كل بقاع العالم لسرقة هذه الأرض وطرد سكانها منها. وحتى إذا التقى الزعماء ووافقوا فيما بينهم على تأسيس علاقات طبيعية مع إسرائيل فإنه سيكون بوسعهم وعد إسرائيل بالتطبيع، ولكنهم لا يستطيعون تطبيق التطبيع".[٦٢]

وفي شهر آذار/مارس ٢٠٠٢ وصلت موجة الإرهاب الفلسطيني ضد إسرائيل إلى ذروتها، وبدأت إسرائيل إثر ذلك بعملية "السور الواقي"، الذي جاءت لضرب البنية التحتية للإرهاب الفلسطيني في الضفة الغربية. وخلال هذه العملية وعملية "الطريق الصلب"، والتي جاءت في أعقابها، سيطرت إسرائيل على غالبية مدن الضفة. وقد رأت منظمة حزب الله في التصعيد في المناطق نافذة فرص سارعت إلى استغلالها. كما أن المتحدثين باسم المنظمة لم يترددوا عن الإعلان، بشكل واضح، أن المنظمة تشعر نفسها ملزمة بمساعدة الفلسطينيين وأنها مصرة على ترجمة هذا الالتزام إلى فعل.[٦٣] وعملياً، وقبل البدء بعملية "السور الواقي" في الثاني عشر من آذار/مارس ٢٠٠٢، نفذ عناصر المنظمة، وبشكل أدق مخربون فلسطينيون بسط

---

(٦٢) قناة تلفزيون المنار، ١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٦٣) راديو النور، ٣ آذار/مارس ٢٠٠٢.

حزب الله وصايته عليهم، عملية استعراضية ضد مدنيين إسرائيليين بالقرب من مستوطنة شلومي، والتي قتل فيها ستة مدنيين إسرائيليين، والشيء المميز في هذه العملية هو حقيقة أن حزب الله لم يعلن مسؤوليته عن هذه العملية وفضل نسبها لجهات فلسطينية، ولكن، وحسب أقوال إسرائيلية، فإن حزب الله كان هو المسؤول بشكل مباشر عن العملية.(٦٤) إذاً، لوحظ توجه لتصعيد نشاط الحزب قبل البدء بالعملية الإسرائيلية، والأحداث التي جرت في المناطق خلال شهري آذار/مارس - نيسان/أبريل مكّنته من فعل ذلك.

وبالفعل، ومع بدء عملية "السور الواقي" بدأ عناصر حزب الله في زيادة وتيرة هجماتهم على مواقع جيش الدفاع الإسرائيلي في منطقة مزارع شبعا، وبموازاة ذلك زادوا من نشاطهم في مناطق أخرى، مثل شمال هضبة الجولان والجليل الأوسط والجليل الغربي. وفي بعض هذه العمليات حاول الحزب إخفاء مسؤوليته على هذا النشاط ونسبه إلى جهات فلسطينية. وما ساعد في خلق حالة عدم الوضوح التي حاول الحزب إثارتها حول هوية منفذي العمليات ضد إسرائيل حقيقة أن منظمات فلسطينية مثل الجبهة الشعبية القيادة العامة (أحد جبريل) بدأت هي أيضاً بالعمل ضد إسرائيل من الأراضي اللبنانية، ومما لا شك فيه بغطاء سوري، ومن المحتمل أن يكون أيضاً بغطاء من حزب الله. ومن جهة أخرى عملت منظمة حزب الله والحكومة اللبنانية ضد نشطاء فلسطينيين، مثل عناصر فتح - عرفات الموجودة في لبنان، عندما أرادوا فتح جبهة ثانية في لبنان، بشكل مستقل وبدون التنسيق مع حزب الله.(٦٥)

لقد ترددت إسرائيل في الرد على استفزاز حزب الله لها، وبدون شك، بسبب الخشية من تبعات نشوب مواجهة شاملة محتملة على الشمال. ولم تُخفِ جهات في إسرائيل مخاوفها من إمكانية أن يستخدم حزب الله الصواريخ الموجودة في حوزته لمهاجمة أهداف مدنية في شمال إسرائيل رداً على أية خطوة إسرائيلية جدية.

---

(٦٤) **هآرتس**، ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

(٦٥) **الحياة**، ٢٦ أيار/مايو ٢٠٠٢. **هآرتس**، ٦ تموز/يوليو، ١٥ آب/أغسطس ٢٠٠٢.

وكان من الواضح بالنسبة لإسرائيل أنه في مثل هذه الحالة سيكون لزاماً على إسرائيل القيام بعمل عسكري شامل في لبنان وربما أيضاً دخول قوات عسكرية إلى الأراضي اللبنانية، وقد أثار مثل هذا السيناريو مخاوف مفهومة وخاصة لدى رئيس الحكومة اريئيل شارون الذي كان متورطاً بعملية مشابهة قبل عشرين عاماً من ذلك. وبالفعل فقد امتنع شارون عن توجيه ضربات قوية لأهداف سورية، وذلك على الرغم من أن مثل هذه الخطوة قد صودق عليها من قبل حكومة إسرائيل، وذلك لأن تأييد الحكومة للخطة، حسب أقواله، لم يكن بشكل كافٍ.(٦٦)

وتمّ في نهاية المطاف تحقيق الهدوء في المنطقة. وكان هناك من نسب هذا الهدوء إلى تدخل الولايات المتحدة فيما يجري، وأشاروا كدليل على ذلك الزيارة التي قام بها وزير الخارجية كولن باول للشرق الأوسط في بداية نيسان/أبريل ٢٠٠٢، والتي نقل خلالها تحذيرات حازمة للحكومتين السورية واللبنانية بأن عليهما كبح نشاط حزب الله. أما من جهة أخرى فقد كان هناك من نسب هذا الهدوء إلى تدخل إيران. وبالفعل فقد كان يبدو أن إيران مارست تأثيرها الكابح على منظمة حزب الله، وذلك نتيجة مخاوفها بأن تُتهم من قبل الولايات المتحدة بالمسؤولية عن التدهور في المنطقة. وبأن مثل هذا التدهور سيجبي ثمناً كبيراً من حلفائها ومن هم تحت وصايتها، سورية وحزب الله.(٦٧)

وعلى هذه الخلفية من المناسب إبداء الملاحظة بأن القصد الأساسي لإيران من بناء القوة العسكرية لحزب الله هو أن تضمن لنفسها رداً استراتيجياً ضد إسرائيل، في حالة مهاجمة المفاعل النووي أو أية أهداف استراتيجية أخرى في إيران. وقد اعتمدت هذه القدرة على الرد ليس فقط على قوة حزب الله بل أيضاً على جنود حرس الثورة الإيرانيين المتواجدين في البقاع اللبناني والذين يشكلون مصدر التأييد لحزب الله، بوصفه ذراعاً إيرانية مستقلة بعيدة المدى.(٦٨) ومهما يكن من أمر، فإن

---

(٦٦) **هآرتس**، ٢٤، ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٢.

(٦٧) **نيويورك تايمز**، ١٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **هآرتس** ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

(٦٨) **نيويورك تايمز**، ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٢. **هآرتس**، ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

ميزة الرد بواسطة حزب الله بالنسبة لإيران تكمن في قدرها على الوصـــول علـــى امتداد الحدود الشمالية لإسرائيل، وكذلك في حقيقة أنه يمكن استخدامها دون أن تتحمل إيران مسؤولية مباشرة على العملية ودون أن تدفع عليها أي ثمن. ويمكـــن الافتراض، على هذه الخلفية، أنه في شهري آذار/مارس – نيسان/أبريـــل ٢٠٠٢ لم تكن إيران معنيّة بكشف قدراها الاستراتيجية على الرد والتي أسستها لنفسها دون أن يخدم ذلك مصلحة إيرانية فورية.

ولجهة التصعيد على حدود إسرائيل – سورية فقد كان يبدو أن بشـــار الأســـد يُظهر عدم وعي وقلة حيلة وذلك أنه امتنع عن الدفع باتجاه وقف نشاط منظمة حزب الله. وقد فُسّر رفضه هذا في إسرائيل وفي الغرب على أنه عدم استعداد للتنازل عما يراه ورقة مساومة استراتيجية ضد إسرائيل، وبالإضافة إلى ذلك، كطيش ونقص في التجربة ورؤية غير ناضجة ترى أنه عن طريق الصراع غير المباشر ضد إسرائيل، بواسطة حزب الله، يمكن للعرب ضرب إسرائيل، وربما هزيمتها، كما حصل في جنوب لبنان. وحـــتى أن مصادر إسرائيلية أفادت أن السوريين نقلوا إلى حزب الله صواريخ متطـــورة، وأن الأمر شجع المنظمة على مواصلة نشاطها ضد إسرائيل. كما أفادت المصادر أيضـــاً أن السوريين دمجوا حزب الله في تشكيل الدفاع السوري مقابل إسرائيل، وهـــذا، كمـــا أوضح بشار لشخصيات غربية كان قد التقاها، من أجل التغطيـــة علـــى الضـــعف الاستراتيجي للجيش السوري مقابل إسرائيل.(٦٩)

ومع ذلك فقد استطاع بشار عملياً أن يحـــافظ علـــى الحـــدود اللبنانيـــة – الإسرائيلية كميدان صراع نشط، من دون أن تورط سورية نفسها في مواجهة مع إسرائيل. ومثل هذا الواقع كما سبق وذكرنا، لم يَرُق للكثير من الإسرائيليين، الذين هاجموا، في ضائقتهم، بشار على ضعفه أمام حزب الله. لكن يبدو أن بشـــار قـــد أجاد اللعب بالأوراق التي كانت في يديه، ومثل والده، ظفر بالفوز بـــلا كـــدّ أو تعب. وكدليل على ذلك فإنه عندما أراد تهدئة الحدود عشية الهجـــوم الأمريكـــي

---

(٦٩) **هآرتس**، ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠٢. **معاريف**، ١ حزيران/يونيو ٢٠٠٢. **يـــديعوت احرونـــوت**، ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

على العراق في بداية عام ٢٠٠٣، نجح في ذلك، مع العلم أن حزب الله كان معنيّاً بالتهدئة أيضاً.

ويبقى السؤال حول الأمر الذي أراد حزب الله تحقيقه من وراء التصعيد الذي بادر إليه في بداية نيسان/أبريل ٢٠٠٢ على امتداد الحدود مع إسرائيل، على حاله. وكذلك الأمر بالنسبة لخطواته المستقبلية من الآن فصاعداً. وقد سُمع في إسرائيل الادعاء بأن حزب الله كان يتطلع للحرب الشاملة، وأنه أراد أن يجر إسرائيل لجبهة ثانية في الشمال. وصحيح أن هجماته كانت على نطاق محدود، إلاّ أن الأمر فُسّر برغبة حزب الله في ألا يكون متهماً بجر المنطقة إلى الحرب، وهو الأمر الذي قد يكلفه ثمناً شديداً على الصعيد الداخلي اللبناني، خاصة في أوساط أبناء الطائفة الشيعية.

ومع ذلك يبدو أن المنظمة لم تكن ترغب بالضرورة بصدام شامل، بل أنها أرادت أن تستغل نافذة الفرص التي انفتحت أمامها في أعقاب الأحداث في المناطق حتى النهاية. حيث أنه يمكن الافتراض بأنه لو كانت المنظمة تريد فعلاً جر إسرائيل إلى عملية عسكرية، كان بإمكانها أن تجد الطرق لفعل ذلك. ويمكن تفسير إحجام المنظمة عن الحرب بإدراكها الثمن الفادح الذي يمكن أن يدفعه السكان اللبنانيون، وخاصة الشيعة، في جنوب لبنان في حالة اندلاع مواجهة كبيرة. وقد شهدت على ذلك أقوال نائب الأمين العام لحزب الله، نعيم قاسم، الذي أوضح المبدأ الذي يوجه حزب الله في نضاله ضد إسرائيل بالقول: "عملية تحرير [فلسطين] لا تتحقق بتراكم مجموعة من الضربات العسكرية خلال يوم، أو يومين أو عشرة أيام، والتي يأتي بعدها التحرير وينتهي الأمر. فالمقاومة لا يتم إدارتها عبر النظريات الكلاسيكية بإدارة الحرب... وعمليات المقاومة هي عمليات من نمط اضرب واهرب، وعمليات في توقيت معين وظروف معينة... أما فيما يتعلق بوتيرة العمليات فإنه يجب الانتباه إلى أن العمليات قد تزايدت خلال ١٠ - ١٢ يوماً، بموازاة الأحداث التي جرت في فلسطين [عملية السور الواقي]. وقد قلنا أن هذه العلميات هي عمليات لردع إسرائيل ولإظهار التضامن مع الفلسطينيين وليس أكثر من هذا".(٧٠)

---

(٧٠) راديو المنار، ١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

ويُخيّل أن الأمين العام للمنظمة حسن نصر الله، قد أحسن على طريقته في شرح الشكل الذي ترى فيه المنظمة الأمور، وتتضح من خلال أقواله المعضلة التي تواجهها المنظمة في أعقاب الإحساس بأن ازدياد قوة النيران في مناطق السلطة الفلسطينية ستزيد الصعوبة على حزب الله للمحافظة على موقعه كطليعة القوة في النضال ضد إسرائيل: "هناك في العالم العربي من يتوقع من حزب الله أن يفتح جبهة مقاومة في الجنوب [لبنان] من البحر وحتى جبل الشيخ، وأن يطلق صواريخ الكاتيوشا التي في حوزته، إلاّ أن هذه الصواريخ محفوظة للمستقبل... وأنا أقول لكم بكل صراحة إنه في اللحظة التي يتم فيها بلورة خطة نضال واقعية وحقيقية وتتخذ خطوة على طريق النصر، فإن حزب الله لن يتردد عن المشاركة. ولكن يوجد لنا وللأخوة الفلسطينيين وخاصة زعماء حركة الجهاد والانتفاضة تجربة تمتد على سنوات طويلة من المقاومة، ونحن نعرف أنه في كل واحدة من مراحل النضال يحظر هدر كل مواردنا ذلك أن الحديث يدور عن حلقة في سلسلة وعن مرحلة من مراحل المعركة وليست نهايتها.. والمقاومة الشعبية لن تنتصر خلال ستة أشهر، وهي غير قادرة على دخول حرب حاسمة، لا خلال سنة ولا خلال سنتين. المقاومة الشعبية بحاجة إلى زمن حتى تستنزف العدو. وعندما تُسَدّ كل سبل العمل أمام العدو، هو سيرفع العلم الأبيض وهذا الأمر قد بدأ يلوح في الأفق، ونحن سنستمر بانتظاره".(٧١)

شهادة أخرى داعمة لأقوال حسن نصر الله موجودة في طريقة تعامل حزب الله خلال (عاصفة في كأس ماء) والتي أثارها اللبنانيون عندما بدأوا بضخ المياه من نبع الوزاني. وعملياً فقد بدأ اللبنانيون بضخ كميات صغيرة من المياه لاستخدام القرويين الذين كانوا يسكنون بالقرب من منطقة النبع عند انسحاب قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من لبنان في أيار/مايو ٢٠٠٠. إلاّ أنهم بدأوا في صيف ٢٠٠٢ بإقامة مضخة جديدة وحتى أنهم مدوا أنبوباً لجرّ المياه من الوزاني إلى القرى التي تبعد عن المنطقة حوالى عشرة كيلو مترات وأكثر. وكان مجلس تطوير جنوب لبنان

(٧١) أنظر مقابلة حسن نصر الله مع التلفزيون المصري، ٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٢.

برئاسة نبيه بري، رئيس مجلس النواب وزعيم حركة أمل، هو من وقف وراء تبني هذا المشروع لاستغلال مياه الوزان، ويبدو أن بري أراد عبر هذه الخطوة تعزيز قوة منظمة أمل في أوساط السكان الشيعة في جنوب لبنان على حساب حزب الله، المنظمة المنافسة.(٧٢)

هذا وقد سارعت إسرائيل إلى إرسال تحذير صارم لبيروت بأنه إذا ما نفذت نيتها بزيادة كميات المياه التي تضخها من الوزاني فإن الأمر يُعتبر، من وجهة نظر إسرائيل، مبرراً لحرب. وقد رد حزب الله على ذلك بالتهديد بأنه إذا ما ضربت إسرائيل منشآت الضخ اللبنانية، فإن المنظمة سترد بمهاجمة أهداف داخل أراضي إسرائيل،(٧٣) ويمكن الافتراض أن اللبنانيين لم يتوقعوا أن تُحدث إسرائيل فوضى في هذا الموضوع، ذلك أن الحديث كان يدور عن كمية صغيرة جداً من المياه تقدر بحوالى ١١ مليون متر مكعب في العام (هذا بالاعتماد على قطر خط الضخ الذي مده اللبنانيون بقطر ١٦,٥ انش، وعلى حقيقة أنه يتدفق في حوض اختزان الماء عند النبع حوالى ١٥٠ مليون متر مكعب سنوياً والتي تشق طريقها، في غالبيتها، إلى إسرائيل). وقد اعتمد اللبنانيون لدعم ادعاءاتهم على خطة تقاسم المياه بين دول المنطقة التي بلورها الوسيط الأمريكي اريك جونستون منذ عام ١٩٥٥، والتي خصصت لها كمية محدودة من مياه الوزاني ولكن إسرائيل ردت على ذلك بالقول إن الدول العربية هي التي رفضت في حينه تلك الخطة، ولذلك فإنه ليس في وسع لبنان الاعتماد عليها اليوم.(٧٤)

لقد رفضت إسرائيل التسليم بهذه الخطوة اللبنانية أحادية الجانب ذلك أنها رأت فيها سابقة خطرة في قضية حاسمة بالنسبة لإسرائيل، وليس بالذات من كمية الماء التي تصل من الوزاني إلى نهر اليرموك. ولكن، كما سبق وأشرنا، فإنه لم يكن من مصلحة أي طرف من الأطراف ذات العلاقة بالنزاع الوصول إلى مواجهة

---

(٧٢) **هآرتس**، ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. **الحياة**، ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

(٧٣) راديو النور، ٤، ١٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

(٧٤) راديو بيروت، ١٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

إقليمية، خاصة عشية الهجوم الأمريكي المرتقب على العراق. وعليه فقد وافق الجميع على جهود الوساطة الأمريكية التي قادها خبير المياه تشك لاوسون، والتي انتهت بتسليم إسرائيل بالوضع القائم، وبوعد لبناني بأن بيروت ستمتنع عن زيادة كمية المياه التي تستغلها لاحتياجاتها بشكل أحادي الجانب.(٧٥)

وعشية الهجوم الأمريكي على العراق اتخذ حزب الله قراراً استراتيجياً بتهدئة الأوضاع على الحدود الإسرائيلية اللبنانية، وقد وجد القرار تعبيراً عنه في الإعلان الذي لا سباقة له من قبل حسن نصر الله والذي جاء فيه أنه ليس في نية المنظمة استغلال وضع الحرب الإقليمية لمهاجمة إسرائيل ذلك أن "حزب الله هو منظمة ترغب في تحقيق النصر وليس منظمة انتحارية".(٧٦) والجدير بالذكر إن حزب الله، كمنظمة شيعية، القريبة من طاولة طهران، وجد صعوبة في الوقوف إلى جانب نظام صدام حسين في المواجهة المقتربة مع واشنطن. وبالفعل فقد كان بارزاً غياب عناصر حزب الله عن مظاهرات تأييد العراق التي جرت في مدن لبنانية عشية الحرب.(٧٧)

كذلك اُستقبلت بالاستغراب دعوة حسن نصر الله التوصل إلى "اتفاق طائف" عراقي، واستبدال نظام حسين، بنظام عراقي جديد، قبل أن يفعل الأمريكيون ذلك.(٧٨) ويبدو أن حزب الله قد تأثر من تهديدات رددها مسؤولون أمريكيون كبار ومن بينهم مساعد وزير الخارجية ريتشار اميرتاج والتي جاء فيها أن حزب الله هو "بطل المنظمات الإرهابية"، وأن الولايات المتحدة ستقوم في المستقبل بتصفية "الحساب المفتوح لها معه".(٧٩) وقد سُمعت في إسرائيل أصوات

---

(٧٥) **هآرتس**، ٤، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢.

(٧٦) أنظر مقابلة حسن نصر الله لشبكة CNN، ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **هآرتس**، ١٢، ١٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

(٧٧) أنظر على سبيل المثال **الحياة**، ١٧، ٢٣ آذار/مارس ٢٠٠٣. **النهار**، ٩، ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٣.

(٧٨) راديو النور، ٢٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. **المستقبل**، ٢٧ شباط/فبراير ٢٠٠٣.

(٧٩) وكالة رويترز، ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢.

تدعو إلى استغلال الحرب المرتقبة على العراق من أجل معالجة التهديد الذي يشكله حزب الله على حدودها الشمالية من جذوره.(٨٠)

لقد أدى احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة إلى تغيير كل موازين القوى في المنطقة دفعة واحدة. فأولاً، أدخل سورية وحزب الله إلى حالة دفاع استراتيجية عن النفس مقابل الولايات المتحدة والتي انعكست في الهدوء الذي ساد على امتداد الحدود الإسرائيلية اللبنانية لأشهر طويلة. وثانياً، لقد أعاد النصر الأمريكي في العراق مرة أخرى التركيز على التواجد السوري في لبنان. فقد عاد المتحدثون الأمريكيون، والذين انضم إليهم بشكل مفاجئ المتحدثون الفرنسيون أيضاً، طرح طلب انسحاب القوات السورية من لبنان وإنهاء "الاحتلال" السوري لهذه الدولة، من جديد وذلك حسب أقوال وزير الخارجية الأمريكية كولن باول.(٨١)

كما طالب الأمريكيون بتجريد منظمة حزب الله من السلاح وذلك ضمن المطالب الصارمة التي تقدم بها، كما ذكرنا سابقاً كولن باول خلال زيارته إلى كل من دمشق وبيروت منتصف عام ٢٠٠٣. وفي ظل هذه التطورات فلا عجب إذاً أن تعاود القوى اللبنانية، التي دعت إلى انسحاب القوات السورية من لبنان في صيف ٢٠٠٠، تجديد دعوتها تلك، ولكن هذه المرة بقوة أشد.

وفي تموز/يوليو ٢٠٠٣ سحب السوريون حوالى ١٠٠٠ من جنودهم من المناطق المحيطة ببيروت والتي كانت لا تزال القوات السورية تتواجد فيها.(٨٢) كما أن منظمة حزب الله بدأت بالعمل على تقوية مكانتها في الساحة السياسية اللبنانية، حيث بدأ زعماؤها بالحوار مع مختلف القوى السياسية في الدولة بما في ذلك أوساط الكنيسة المارونية، ووجهوا جلّ اهتمامهم إلى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتي أطلقت فيها المنظمة يدها خلال السنوات الأخيرة، كما حذّر

---

(٨٠) **هآرتس**، ١٦، ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣.

(٨١) وكالة AP، ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **الحياة**، ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. **النهار**، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

(٨٢) وكالة رويترز، ١٠ تموز/يوليو ٢٠٠٣. **الحياة**، ١١، ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

زعماء حزب الله من الظهور بمظهر من يتدخل أكثر من اللازم بما يجري في أوساط شيعة العراق، على الرغم من التقارير الواردة من بيروت والتي تحدثت عن المساعدة التي يقدمها خفية لحرب العصابات الدائرة في العراق ضد قوات الجيش الأمريكي.[(٨٣)]

لقد أدى تفاقم المشاكل التي تواجهها الولايات المتحدة في العراق إلى مساعدة حزب الله في التخلص من الضائقة التي وجد نفسه فيها، فقام بزيادة حدة لهجته ضد إسرائيل، وحتى أنه استأنف نشاطه ضدها. فبعد غارة طائرات سلاح الجو الإسرائيلي على سورية، في بداية تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣ ردّ حزب الله بتنفيذ عملية ضد جنود جيش الدفاع الإسرائيلي المتمركزين على الحدود وظهر وكأنه يتحمل مسؤولية أمن وسلامة سورية، وأظهر استعداداً وصائياً من جهته للهبوب لنجدتها.[(٨٤)] ومع ذلك فقد أبدى الحزب حذراً من تصعيد علاقاته بإسرائيل. وقبل ذلك، في تموز/يوليو ٢٠٠٣ أدت قذيفة مضادة للطائرات أطلقها حزب الله، على ما يبدو ضد طائرات استطلاع إسرائيلية، إلى مقتل شاب من بلدة شلومي (كما هو معروف دأب حزب الله منذ زمن بعيد على تصويب نيران أسلحته المضادة للطائرات باتجاه المستوطنات الإسرائيلية وذلك رداً على طلعات الطائرات الاستطلاعية التي كانت تقوم بها الطائرات الإسرائيلية). وكرد على ذلك قامت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي بإطلاق النار على مصادر الرمي، وقد أدى ذلك إلى وقف إطلاق نيران الأسلحة المضادة للطائرات باتجاه إسرائيل.[(٨٥)] وفي كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤ تمّ تنفيذ صفقة تبادل الأسرى والمفقودين بين المنظمة وبين إسرائيل، حيث تمّ وقتها إعادة جثث الجنود الإسرائيليين الثلاثة الذين اُختطفوا في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ من قبلها، وكذلك رجل الأعمال الإسرائيلي الحنان تيننباوم الذي خُطف هو أيضاً

---

(٨٣) **هآرتس**، ٢٣ حزيران/يونيو، ١٧ تموز/يوليو، ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣. **يديعوت احرونوت** ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣.

(٨٤) **هآرتس**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣. **الحياة**، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

(٨٥) **الحياة**، ١٨ تموز/يوليو ٢٠٠٣. وكالة رويترز، ١٩ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

على يد المنظمة في الفترة ذاتها، وفي مقابل ذلك، أعادت إسرائيل للمنظمة الشيخ عبد الكريم عبيد ومصطفى ديراني، وكذلك أسرى فلسطينيين ولبنانيين آخرين.(٨٦)

ومع ذلك فقد كانت صفقة تبادل الأسرى التي تمّ الاتفاق عليها بين حزب الله وإسرائيل بعيدة عن الصفقة التي كان نصر الله يتطلع إليها، والتي أكثر من الحديث عنها خلال السنوات الأخيرة. فأولاً، لم يتم إطلاق سراح الأسرى في السجون الإسرائيلية بالجملة مقابل إعادة المخطوفين إلى إسرائيل. صحيح أن نصر الله قد نجح بالفعل بإطلاق سراح عدة مئات من الأسرى الفلسطينيين والعرب، ولكن الحديث يدور عن أعداد مهملة نسبياً مقارنة مع صفقات تبادل الأسرى المعروفة من قبل. وحتى أنه لم يكن من بين المحررين أي شخص ذي أهمية بالنسبة للفلسطينيين والإسرائيليين (أسرى "ملطخة أيديهم بالدماء") وقد كانوا في غالبيتهم من صغار الأسرى، والذين كان من المرتقب إطلاق سراحهم خلال الأشهر اللاحقة. وثانياً، وهذا هو الأمر الأكثر أهمية، وعلى خلاف كل التصريحات العالية بأن الصفقة لن تُنفذ ما لم تُطلق إسرائيل سراح أسرى كل اللبنانيين لديها، فقد اضطر نصر الله للموافقة على صفقة، أبقت سمير القنطار داخل السجون الإسرائيلية – وهو القنطار نفسه الذي قال نصر الله بأن صفقة تبادل الأسرى مع إسرائيل لن تتم بدونه.(٨٧)

ويمكن تفسير استعداد نصر الله للنزول عن الشجرة العالية التي صعد إليها بالضائقة التي وجد نفسه فيها خلال العام الأخير وهي الضائقة الناجمة عن واقع الظروف الإقليمية الجديدة، والتي حددت بشكل كبير مجال المناورة وحرية الحركة للمنظمة، وكذلك الديناميكية الداخلية اللبنانية التي أضعفت كذلك مجال مناورتها.

والجدير بالذكر أن نشاط حزب الله على امتداد الحدود مع إسرائيل أثارت في حينه جدلاً عنيفاً جداً في لبنان، ذلك أن الكثيرين قد تخوفوا من ثمن المواجهة

---

(٨٦) **يديعوت احرونوت**، ٧، ١٤، ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣.

(٨٧) **معاريف**، ٢٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

المستقبلية المحتملة والتي سيدفع لبنان كله ثمنها. كما تمّ في لبنان الإعراب عن المخاوف من استمرار نشاط حزب الله ضد إسرائيل سيشكل حجة يستخدمها للحفاظ على طابعة الميليشياتي الذي يهدد الاستقرار الداخلي في لبنان. وقد رأى هؤلاء بإصرار الحزب على المضي في صراعه ضد إسرائيل إثباتاً على أنه لم يُقلِع بعد عن التزامه بأهدافه الراديكالية، ومن بينها تحويل لبنان إلى دولة إسلامية، والتي كان قد أعلن عنها في بداية الثمانينيات. وكان من أبرز المنتقدين لحزب الله، كما هو دائماً غسان تويني، رئيس تحرير صحيفة **النهار**، الذي كتب في صحيفته أنه "من المحتمل أن يدفع لبنان، وببالغ الأسف، ثمن الحرب مع إسرائيل ذلك في الوقت الذي يعرف فيها الجميع أن ما يحدث في الجنوب [نشاط حزب الله ضد إسرائيل] لا يتم تحديده من قبل الشعب اللبناني وغير مقبول عليه، وحتى أن الحكومة اللبنانية ليست شريكة فاعلة في ذلك.. ومن غير الممكن الموافقة على أن يستمر حزب الله في كونه من يتخذ القرارات [حول ما يحدث في الجنوب]، وخاصة في ظل حقيقة أنه يعمل لمصلحة جهات أخرى وانطلاقاً من اعتبارات غير لبنانية.(٨٨)

وبرزت إلى جانب تويني أيضاً عدة شخصيات لبنانية أخرى، وحتى من أوساط غير مسيحية مثل زعيم الدروز في لبنان، وليد جنبلاط وقد حذّر جنبلاط من أن هجمات حزب الله قد تترك آثاراً كارثية، وقال إن على لبنان أن يقرر من سيكون هانوي أم هونغ كونغ: "إذا كنا نحن اللبنانيين نختار خيار هانوي، فإنه ينبغي علينا حشد كل الإمكانيات الاقتصادية والسياسة والاجتماعية للدولة من أجل الاستمرار في المواجهة [مع إسرائيل]، ولكن ليس بوسعنا أن نطعم الناس شعارات. علينا أن نقدم لهم احتياجاتهم حتى يكون بوسعهم الصمود بصلابة أمام متطلبات النضال ومع ذلك فإنه ليس بوسع لبنان أن يكون هونغ كونع وهانوي معاً". (٨٩)

ومهما يكن من أمر، فإن من أمِلوا أن تؤدي مسيرة إعادة إعمار لبنان إلى

---

(٨٨) **النهار**، ٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠.

(٨٩) **المستقبل**، ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١. وكالة رويترز، ٢٤ نيسان/أبريل ٢٠٠١.

"لبننة" حزب الله فإن أملهم قد خاب. فقد استمرت المنظمة، وعلى ما يبدو ستستمر في المستقبل بالمحافظة على جناحها العسكري القوي، وبطبيعة الحال سيستمر ويتسلى بفكرة استخدامها ضد إسرائيل. ويظهر عمق التزام الحزب بالعمل ضد إسرائيل من خلال تعميق نشاطه في أوساط السلطة الفلسطينية – ومن ذلك على سبيل المثال قضية تهريب الأسلحة في سفينة "كارين ايه" أو محاولة تهريب الأسلحة عبر الأردن والتي أُكتشفت من قبل السلطات الأردنية، وكذلك زيادة نشاطه بين أعضاء حركة فتح وبين العرب من مواطني إسرائيل وذلك بهدف دفعهم للقيام بعمليات إرهابية ضد إسرائيل.[٩٠] كما أن المنظمة قد رفضت حسب شهادة أمينها العام حسن نصر الله اقتراحاً أمريكياً للاعتراف بدورها السياسي والاجتماعي في لبنان إذا ما أوقفت نشاطها ضد إسرائيل.[٩١]

ومع ذلك وبعد مرور عام على احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية أخذت تتضح معالم قواعد اللعبة الجديدة في المنطقة. صحيح أن الولايات المتحدة تواجه مصاعب كثيرة في العراق، ولكن هذه المصاعب غير كافية لحرف الأمريكيين عن أهدافهم وخاصة عن نضالهم ضد المنظمات الإرهابية والأنظمة الراديكالية في الشرق الأوسط، حيث يحقق الأمريكيون نجاحات غير قليلة في نضالهم هذا: مثلما هو الحال، أولاً، مع ليبيا، وكذلك مع سورية، ويدل على ذلك جهود بشار لاستئناف المفاوضات مع إسرائيل. وخطوة كهذه تحمل في طياتها الكثير من المصائب على حزب الله. حيث أن من شأن ذلك أن يضع حداً لشراكة المصالح مع سورية وإيران، والقائمة على استمرار نشاط الحزب ضد إسرائيل.

كذلك الأمر، فإن إيران ليست متحمسة، كما كان عليه الحال في الماضي لمواجهة مع الولايات المتحدة. وهي بالكاد قد تخلصت من مواجهة الوكالة الدولية

---

(٩٠) **الحياة،** ١٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **معاريف،** ١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢. **يمحنيه،** ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

(٩١) أنظر مقابلة حسن نصر الله مع **الوطن،** ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢.

للطاقة النووية والتي كادت أن تُودي بها إلى مقاعد المتهمين التي جلس عليها قبل وقت قصير صادم حسين. كما أن لإيران ولسورية مصلحة لتهدئة الخواطر وعدم جر النيران الأمريكية باتجاههما وهو ما يحد بشكل ملحوظ قدرة حزب الله على المناورة ضد إسرائيل. وبالفعل بعد أن ضرب عناصر حزب الله في التاسع عشر من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤ بلدوزراً إسرائيلياً اجتاز الحدود الإسرائيلية - اللبنانية، ورد سلاح الجو الإسرائيلي بمواجهة مواقع الحزب في عمق جنوب لبنان، امتنع حزب الله، وعلى خلاف عادته، عن الرد على هذه الخطوة الإسرائيلية غير المسبوقة، والتي لم يجر مثلها منذ انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان قبل حوالى أربع سنوات.(٩٢)

كما أن حزب الله يواجه المصائب في لبنان. ذلك أن تسامح الجمهور اللبناني تجاه المنظمة آخذ بالنفاذ، وتدل على ذلك الانتقادات التي تُوجه بين الفينة والأخرى، للحزب في الصحافة اللبنانية. وحتى أن صحيفة **السفير** المقربة من دمشق هاجمته لأنه، وبحجة النضال لتحرير مزارع شبعا، امتنع عن الانخراط في معالجة المشاكل اللبنانية الداخلية، وكأن مشاكل لبنان البسيطة لا تثير قلقه أبدا.(٩٣)

وحزب الله هو منظمة بنت نفسها إلى درجة "القوة الإقليمية المصغرة"، وذلك بفضل شبكة منتفخة من الدعاية والعلاقات العامة. ورغم أن حزب الله عمل خلال السنوات الأربعة التي مرت على انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، إلاّ أن حجم نشاطه، مهما كان مؤلماً لا يصل إلى ١% من حجم النشاط الفلسطينيين ضد إسرائيل. ومع ذلك فقد نجحت المنظمة في بناء صورة لنفسها، على أنها القوة التي تشكل تهديداً وجودياً، أو استراتيجياً على الأقل لإسرائيل.

إن حزب الله هو منظمة نمت في أوساط أبناء الطائفة الشيعية، وهو عملياً يعمل من خلالهم ولأجلهم. وقد أدت شراكته الاستراتيجية مع كل من سورية

---

(٩٢) **معاريف**، ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤. **الحياة**، ٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤.

(٩٣) **السفير**، ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٤.

وإيران إلى تركيزه على الصراع ضد إسرائيل، ولكن صراعه هذا أخذ يصبح معقداً، أكثر فأكثر، في الواقع الجديد في المنطقة بشكل عام، وفي لبنان بشكل خاص. ولا زالت المنظمة ترى نفسها ملتزمة بالصراع ضد إسرائيل، وهو الصراع الذي يعتبر إكسير حياتها إذا كانت تريد المحافظة على موقعها المتميز في لبنان وفي كل العالم العربي. ومع ذلك من المحتمل أن يضع الواقع حزب الله على مفترق الطرق، بسرعة أكبر، مما يتوقع زعماؤه - وهذا لجهة قضية التنازل عن الصراع ضد إسرائيل والتحول إلى حزب لبناني في كل شيء، والغرق بذلك في حالة الخمول التي تميّز الكثير من الكتل والأحزاب في لبنان، أو أنه يستمر بالتمسك بخياره بالصراع ضد إسرائيل على الرغم من الثمن الذي يدفعه على ذلك.

وللإجمال فإن مكانة منظمة حزب الله في لبنان، مثلما هو حال لعبه بالنار على امتداد الجبهة مع إسرائيل، هي وجه واحد فقط من الجدل الدائر اليوم في لبنان في موضوع توجهات الدولة المستقبلية. وقد اندلع هذا الجدل وتعاظم على خلفية إحساس الكثيرين في لبنان بأن الجارة السورية، وخاصة الرئيس الذي يقف على رأسها، لا يُشعّان قوة كما كان الحال في الماضي. وليس هناك داعٍ للتذكير بأن اندلاع مثل هذا الجدل يساهم في ضعف مكانة وشخصية سورية في أوساط الجمهور اللبناني. ويجب أن نضيف إلى ذلك، الأنغام الجديدة القديمة التي تسمع من واشنطن، وهذه المرة من قبل مسؤولين حكوميين كبار، ومفادها أن تواجد سورية في لبنان هو احتلال، (٩٤) وهو الأمر الذي من شأنه أن يدلل على السياسية المستقبلية للولايات المتحدة. كما أن الكثير من اللبنانيين، ومن بينهم عدد غير قليل من المسيحيين، مهتمون باستمرار التواجد السوري في الدولة، وذلك لأنهم يرون فيه ضمانة لاستمرار الاستقرار السياسي. كما أن أهمية لبنان بالنسبة لسورية تضمن بشكل طبيعي أن تحرص سورية على عدم سحب السيطرة من يديها على هذه الدولة. ومع ذلك، فإن مدى حصانة النظام في دمشق، وبكلمات أخرى قدرة

(٩٤) وكالة AP، ١٨ آذار/مارس ٢٠٠٣. وانظر أيضاً **الحياة**، ٧، ١١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣.

بشار على البقاء لفترة طويلة من الزمن في السلطة، هو ما سيحدد ما إذا كان السوريون سيستمرون في سيطرتهم على جارتهم الغربية. إذن، لقد استطاعت سورية مواجهة التحدي اللبناني بعد وفاة حافظ الأسد، ولكن ، **ورغم كل شيء يُخيّل للكثيرين في لبنان أن العد التنازلي، استعداداً لخروج السوريين من الدولة، قد بدأ فعلاً.**

"لا يوجد أحد غيره"

لقد أثار صعود بشار الأسد إلى السلطة في دمشق في حزيران/يونيو ٢٠٠٢ توقعات كثيرة، في سورية وخارجها، بأن الزعيم الشاب، الذي عُرف عنه إطلاعه على نمط الحياة الغربية، سيُحدث انقلابا في كل ما يتعلق بالحياة الداخلية، وبالإضافة، وربما بشكل خاص، على سياسة سورية الخارجية. إلا أن السنوات التي مرت منذ استلامه السلطة دلت على أنه لم يكن يتطلع إلى مثل هذا التحول. وعلى الرغم من أنه اعترف بضرورة إدخال الإصلاحات إلى سورية وحاول قيادة مسيرة كهذه، إلا أن قوته لم تساعده على ذلك في مواجهة الحرس القديم بين قيادة النظام، الذي يريد الإبقاء على الوضع القائم الذي ساد الدولة منذ جيل تقريباً. وعلاوة على ذلك، اتضح أيضاً أن شخصية القائد الشاب، الديناميّ، وقبل كل شيء، المنفتح والمحب للغرب، لم تكن تخفي خلفها شيئاً. صحيح أن بشار قد أكثر من زياراته المغطاة إعلاميا إلى الخارج، وحتى أنه قام بعدة جولات في أنحاء سورية – بخلاف والده تماما، الذي كان على امتداد أغلب سنوات حكمه محتجباً في قصره – إلا أنه بالمقابل، كما ذكرنا سابقاً، كَثُرت التقارير في الصحافة الإسرائيلية، التي تحدثت عن أنه يخصص جل أوقاته لألعاب الكومبيوتر والنشاطات الأخرى التي لا يوجد بينها وبين إدارة الدولة أية علاقة. وحتى أن رئيس الموساد السابق أفريم هاليفي وصفه، كما مر معنا، كشخص غريب مع شخصية معقدة (أنظر الفصل الثالث).

وعلاوة على ذلك، سرعان ما حلت محل النبرة اللينة، التي ميزته قبل صعوده إلى السلطة، أنغام جديدة صدرت عن القصر الرئاسي في دمشق. فقد تبنى بشار،

أو أُرغم على تبني، مواقف متشددة ومتطرفة وحماسية، سواء لجهة مـــا يجـــري في سورية أو لجهة الواقع الإقليمي والدولي. وقد ظهر الأمر جلياً خلال تصرفه حيـــال الانتفاضة الفلسطينية وحيال النزاع الإسرائيلي - العربي، وبعد ذلك بوضوح أكبر، في قضية الحرب على العراق. وقد دل هذا التصرف، حسب رأي الكثيرين، علـــى نقص في الخبرة وفي الثقة بالنفس، وربما كذلك، عن عدم وجود جهاز منظم لاتخاذ القرارات ومقربين مجربين - وهو الأمر الذي أوصل الرئيس الشاب في دمشـــق إلى أماكن [مواقف] امتنع والده عن الوصول إليها.

وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر الهدوء والاستقرار منـــذ صـــعود بشـــار إلى السلطة. كما أن نقل السلطة إلى يديه كان سلسا و لم يضطر لمواجهة أية تحـــديات أو تهديدات على نظامه. كما نجح بشار لفترة من الوقت في بث الإحســـاس بالحيويـــة، والمبادرة، وأظهر تسارعا في الفعل والتغيير. وعلى الرغم من أنه أكثر، على الأقل مـــن وجهة نظر خبراء إسرائيليين وغربيين، من ارتكاب الأخطاء في قراراته وخطواتـــه، إلا أن تلك الأخطاء لم تكن من النوع المصيري التي تترك أثرها على استقرار وبقاء نظامه.

إذن فلا غرابة أن نجاح بشار في البقاء على كرسي الرئاسة دفع الكـــثيرين إلى [إعادة] دراسة التقديرات القاسية التي أعربوا عنها مع صعوده إلى السلطة، والـــتي قالت إن أيامه، كرئيس، قصيرة. وحتى أن جاكي حوغي، مراسل صحيفة معاريف للشؤون العربية، قد كتب في بداية عام ٢٠٠٣ يقول: "بعد عامين ونصف منذ أن ورث الحكم في دمشق، فإنه لا يزال هناك في إسرائيل من يعتقـــدون أن رئـــيس سورية هو زعيم ضعيف. ومجموعة الإهانات التي وجهها له المختصون الإسرائيليون مأخوذة من قاموس التوبيخات في رياض الأطفال. فقد قالوا إنه يتصرف مثل ولد صغير، وإنه غير ناضج، وإنه يتصرف بغباء، واتهموه بشكل خاص إنه ينجـــر وراء شخصية (كاريزما) حسن نصر الله. كل ذلك لأن الأسد لم يتصرف حسب مـــا توقعه منه سادة هذه البلاد... لكن الأسد يظهر كزعيم حكيم يجني ثمار خطواته"(١) إلا أن تصرفات بشار في الحرب على العراق تثير الشكوك حول هـــذا الموقـــف،

---

(١) **معاريف**، ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢.

ولكن لا يزال من غير الواضح ما إذا كانت الولايات المتحدة، الآخذة بالغرق في المستنقع العراقي، ستبقى صاحبة الكلمة الأخيرة في هذه المواجهة، أو ما إذا كان بشار، الذي ينظر إليه اليوم في سورية وخارجها كمن رفض أن يحني رأسه أمام ضغوط واشنطن، سيخرج منتصراً.

رأي مخالف لهذا تماماً أعرب عنه أحد معارضي النظام السوري صبحي حداد، المقيم في باريس، الذي كتب عشية الحرب على العراق في ربيع ٢٠٠٣ إن "بشار الأسد هو من مريدي الماضي، وهو في نفس الوقت أسير بين يديه. وهو مشارك نشط في الحفاظ على الماضي، وفي تخليده، وحتى أنه يمنحه قداسة... إن النظام الذي يمثله بشار، ليس عديم القدرة على التطوير، وإدخال التحديث والتغييرات والإصلاحات وحسب، بل، وبسبب طبيعته، هو ضد أي تغيير، ويمقت كل فكرة للتغيير والإصلاح... ومن هنا يمكن إن ندرك أن الأسد الابن لا ينوي إزالة النظام الديكتاتوري الفاسد الذي أقامه والده المتوفى على مدى ثلاثين عاماً من حكمه".[٢]

ومهما يكن من أمر فإنه من المهم أن نوضح أن نظرة الشارع السوري والساحة السياسية السورية لبشار بقيت على حالها كما كانت في اليوم الأول لصعوده إلى السلطة، عندها أجاب مواطنو سورية على السؤال لماذا أصبح بشار رئيساً بالكلمات "**ما في غيرو**" ("لا يوجد أحد غيره")، وهو تعبير عن حقيقة أن صعود بشار إلى السلطة كان خيار الفشل والذي لم يكن هناك مناص من قبوله من أجل المحافظة على الاستقرار السياسي، وربما أيضاً من أجل تقدم سورية في المجالين الاجتماعي والاقتصادي. والحقيقة، فإنه من شأن بقاء الجواب على حاله، على امتداد سنوات، أن يدل على أنه منذ أن صعد بشار إلى السلطة لم ينجح بعد في إعطاء الإنسان في الشارع إجابات أخرى للسؤال: لماذا هو مناسب للجلوس على كرسي والده. ويبدو أن مواطني سورية، الذين اعتادوا على القبضة الحديدية التي أظهرها النظام في السابق، قد خاب أملهم من رؤية بشار حاكما ضعيفا تنقصه "غريزة القاتل" الضرورية لكل من يريد أن يحكم سورية، وحتى أن أولئك الذين

---

(٢) **القدس العربي**، ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٣.

أملوا بالتغيير قد خاب أملهم أيضاً لأن بشار لم يُدخل إصلاحات حقيقية على صعيد السياسة الداخلية، والمجتمع والاقتصاد.

إن حقيقة أن بشار لم يحصل بعد على ثقة مواطني بلاده، وإن علامة الاستفهام لا زالت تحوم فوق قضية أهليته لحكم سورية، لا تعنيان أنه يواجه خطراً راهنا على حكمه. ولكن من الواضح من الناحية الأخرى أنه لا يجلس، إلى الآن، آمنا على كرسيّه، وذلك لأسباب منها:

١. عزلته في القيادة: إن بشار لم يربِّ بعد نخبة سلطوية موالية له مثل تلك التي كانت لأبيه، ولا تزال، عملياً، على حالها. فمنذ صعوده إلى السلطة حصلت بعض التغييرات الشخصية، وبوتيرة أسرع مما كان عليه الحال في فترة حافظ الأسد، إلا أن الحديث لا يدور عن ثورة حقيقية في وجه القيادة السورية، بل عن مجرد تغيير بعض النشطاء الحزبيين أو الموظفين المسنين بغيرهم من الشباب، والذين أتى بهم من نفس المدرسة وملتزمين بنفس الرؤية القائلة باستمرار الوضع الراهن.

   كما اتضح أيضاً أن المقربين الحقيقيين من بشار هم مجموعة من الشباب القريبين منه في السن والرؤية. ويُعد من بين هؤلاء عدد من وزراء الحكومة الذين أحضرهم من الجمعية المعلوماتية، وعدد من أصدقاء الصبا. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لا يرتبط بالضرورة بمن يقف إلى جانب بشار ويساعده في بلورة رؤيته، بل إذا ما كانت هذه المجموعة، التي تعوزها القوة والتأثير الحقيقيين، كافية لحكم الدولة، كما فعلت ذلك بنجاح كبير النخبة التي أحاطت بوالده الراحل.

٢. غياب برنامج العمل والرؤية: لم يقم بشار إلى الآن بصياغة برنامج عمله السياسي الذي يريد قيادة سورية وفقه. فقد كانت تصريحاته حول وجهة سورية عامة وغير واضحة، وقد دلت على الغالب أنه يريد المحافظة على الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الراهن، مع إدخال بعض التعديلات التجميلية وذات الطابع التقني (تحسين أداء عمل أجهزة الإدارة والحكومة)، ولا

توجد له أهداف محددة قابلة للتحقيق. ويخيل أن بشار نفسه اعترف بذلك عندما حذّر في الخطاب الذي ألقاه أمام مجلس الشعب في آذار/مارس ٢٠٠٣ أنه "كان هناك من حول خطاب القسم إلى راية بل وحتى إلى خطة تنفيذية، إلا أنه من ناحية عملية فإن الحديث يدور، بالإجمال، عن طريقة تفكير، وهناك فرق كبير بين طريقة التفكير وبين الخطة التنفيذية الملزمة".[٣]

وفي هذه الأثناء لا تزال المصاعب تتراكم على باب بشار. فإلى جانب التحدي الذي يضعه أمامه الواقع الإقليمي والدولي المتغيّر، والذي يلزم بإدارة جديدة وفطنة للسياسة الخارجية السورية، من المناسب أن نذكر الواقع الاجتماعي الاقتصادي داخل سورية، وفوق كل شيء التهديد الإسلامي، وإن كان مستتراً، والذي يلقي برعبه على النظام السوري في السنوات الأخيرة. ومن الواضح أن وجود مئات آلاف الجنود الأمريكيين في العراق لن يخفى على بشار في مواجهته للمشاكل التي يواجهها، حيث أنه وبالدرجة التي يرتبط فيها مستقبل سورية ببشار وسياسته، فإنه هو أيضاً مرتبط بالخطوات المستقبلية للإدارة الأمريكية، حيث يوجد هناك، بطبيعة الحال، من لا يزال يدرس إمكانية القيام بعملية استعراض للقوة ضد سورية تؤدي إلى تغيير الحكم في الدولة. ولكن من المشكوك فيه جداً إذا ما كانت الولايات المتحدة ستَشرع بخطوة عسكرية ضد سورية، ولكن من الواضح أن الولايات المتحدة لن تساعد بشار للقيام بعملية تغيير للمواقف ضد إسرائيل، كما أنها لن تساعده على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، كما ساعدت في حينه الرئيس المصري أنور السادات.

ومثل أبيه، حرص بشار خلال السنوات الأربع من ولايته الأولى على السير على الحبل الدقيق الفاصل بين الوقوف إلى جانب صدام حسين وبين محاولة عدم إغضاب واشنطن أكثر من اللازم. وكذلك على الحبل الدقيق الفاصل بين تشجيع عمليات حزب الله وبين محاولة تفادي اندلاع مواجهة على حدود لبنان – إسرائيل. والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل سيستمر في السير بين القطرات، أم

---

(٣) راديو دمشق، ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٣.

أنه يجتاز كل الخطوط ويفعل كما فعل أنور السادات، ويقود سورية إلى عوالم جديدة.

كذلك حرص بشار، في ظل الضائقة الاجتماعية الاقتصادية التي تواجهها سورية، على العمل بضبط نفس مع تقديم حلول موضوعية للمشاكل المحتدمة، بدلاً من البدء بمواجهة شاملة مع المشاكل الأساسية للاقتصاد السوري. ويخيل أنه يسير على طريق والده أيضاً في كل ما يتعلق بمواجهة الأوساط الإسلامية في سورية. ويبدو، في هذه المرحلة، أن النظام السوري قد نجح في مواجهة مسيرة الأسْلَمة التي تجتاح المجتمع السوري، وذلك بفضل استعداده للبس عباءة الإسلام والتعاون مع الأوساط الدينية المقربة من النظام، شريطة أن تمنحه الشرعية الدينية ولا تخرج لتحديه. إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه أيضاً هل بوسع هذه السياسة أن تفسح المجال أمام حياة مشتركة، لفترة طويلة، بين نظام البعث وبين الأوساط الإسلامية المتعطشة للقوة والسلطة والتي تعمل بدأب لفرض الطابع الإسلامي على حياة الفرد والمجتمع والدولة. ويبدو أن هؤلاء لم يقولوا كلمتهم الأخيرة بعد، ومن المحتمل أنهم في أية أزمة قد تندلع في سورية، على خلفية اجتماعية اقتصادية مثلاً، من شأنهم أن يعودوا للعب دور مهم لكونهم أصحاب وزن، آخذ في الازدياد في أوساط قطاعات هامة بين السكان.

وخلاصة القول، فإنه منذ أن صعد بشار إلى السلطة نجح بملء الفراغ الذي خلفه والده خلفه وبضمان كرسيه. وقد تعرضت شخصيته غير المكتملة منذ البداية لضربات قوية ومن المشكوك أنه يحظى بنفس الاحترام والتأييد الجماهيري الذي حظي به والده. ولكن تجربة أنظمة عربية أخرى مشابهة تشير إلى أنها تُظهر بشكل عام قدرات ملفتة على البقاء مقابل مجموعة التهديدات الداخلية، وفقط تدخل خارجي جدي (مثل عملية عسكرية أمريكية) يتمكن منهم.

للوهلة الأولى، إن بشار هو الذي يدير سورية، ذلك أن الصلاحية الرسمية لاتخاذ القرارات موضوعة بين يديه، ومن الصعب الإشارة إلى مركز قوة منافس يشكل تحدياً جدياً له. ولكن من الواضح أن صلاحية بشار لا تحظى بنفس القدر

من الشرعية والتأييد الذين حظي والده بهما. ويخيل إذن، أن المنظومة السورية تُدار بقوة العطالة مع تدخل جزئي من قبل الحرس القديم، والذي لا تقتصر قوته على القدم والتجربة التي يمتلكها، بل لأنه لا زال يمثل بشكل حقيقي قاعدة القوة التي يرتبط بها وجود النظام – طبقة الضباط، أجهزة الأمن، ونشطاء الحزب... الخ. وهذه النخبة لم تسارع بعد إلى التضييق على بشار، وسلمت، كما سبق وأشرنا، بتنصيبه رئيسا. وعلاوة على ذلك، فإن الحديث لا يدور عن جماعة متجانسة، بل عن أفراد يفضلون الجلوس على السياج. ولكن الحقيقة هي أنه في لحظة الحقيقة لن يتردد هؤلاء الأشخاص عن توحيد الصفوف والتدخل بخطوات بشار، وذلك لتخوفهم من أن الرئيس الشاب يجد صعوبة في الصمود كالسد المنيع وأن خطواته، في مجال إدخال الإصلاحات، على سبيل المثال، تضع مخاطر وجودية على مكانتهم وعلى مكانة النظام برمته.

لا يزال كل مستقبل بشار الأسد أمامه، وقد تفادى، حتى الآن، الوقوع في أخطاء مصيرية لا يمكن تصحيحها. وهو يتمتع بقدرة جدية على قراءة ما يحدث ولديه الفضول والاستعداد للتعلم. وهو يدرك ضرورة التغيير، والسؤال المطروح أمامه بالأساس هو كيف يقود سورية في الاتجاه المرغوب حسب رأيه. ولذلك فإن الأخبار التي وصلت من سورية في صيف ٢٠٠٣ حول استعداده "لتمدين" الدولة وإضعاف سيطرة حزب البعث على مؤسسات الحكم، كانت سابقة لأوانها. رغم أنه لا يمكن الاستخفاف بالقرار الذي اتخذته الجهات الحكومية بإلغاء اللباس الخاكي الموحد في المدارس السورية ببزة زرقاء اللون. (رغم أنه اتضح بسرعة أن غالبية مواطني الدولة لا يستطيعون شراء الزِّي الجديد، واضطر بشار إلى إصدار أوامره بإعطاء زيادة على رواتب العاملين في الدولة، لهذه الغاية).(٤)

ومن مثل هذه القرارات، مهما كانت محدودة، يمكن أن نستدل على الاتجاه الذي يريد بشار السير، وفقه، قدما رغم كل شيء. ولا تزال الطريق طويلة ولا يوجد أي ضمان بأنه سيصل إلى نهايتها. ومن الجدير العودة للتذكير هنا بأنه تختفي

---

(٤) **الحياة**، ٦ حزيران/يونيو، ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٣.

خلف تصريحات بشار هوية سورية متبلورة، والتي من شأنها أن تدفعه لاتخاذ قرارات موضوعها "سورية أولا". وأخيراً فإن بشار نفسه يدرك بأنه مع مرور الوقت، لا بد له من الانفصال عن والده.

وبالفعل، وفي المقابلة التي أجراها مع **نيويورك تايمز** أواخر عام ٢٠٠٣، أوضح بشار: "لقد كنت ابن أبي في البيت الذي تربيت فيه، ولكن [أنا لا أشبهه] من الطبيعي أن أحيا بشكل مختلف عنه. وفي النهاية، ليس بالضرورة أن يكون الابن نسخة عن أبيه. صحيح أنه يرث أشياء كثيرة من والديه ويتأثر بهما، إلا أنه يتأثر كذلك بأمور أخرى، مثل البيئة والمجتمع الذين يعيش فيهما. إنه من المهم أن يتخذ الرئيس القرارات وأن يبلور الرؤية على أساس الواقع الاجتماعي ووضع الدولة ووضع الشعب [وليس على أي أساس آخر]. هكذا تصرف أيضاً والدي، الرئيس حافظ الأسد، ومن هذه الناحية نحن متشابهان فعلاً. ولكن الواقع اليوم مختلف. وقد اُعتبر والدي في نهاية الستينات مُجَدِّداً كبيراً، ولكن بالنسبة لي، أشك أنهم سينظرون إليّ بعد عشر سنوات نظرتهم إلى شخص يحمل البشرى والإصلاح. ويمكن الافتراض أنهم سيقولون إني انتمي إلى جيل آخر، جيل الماضي".(٥)

فهل يكبر بشار حتى يصبح زعيماً جديراً، ويُنظر إليه بتقدير ويُشع قوة وصلابة – لم يكن لوالده كذلك الكثير من الجاذبية، الكاريزما – أم أن فترة ولايته ستكون فصلاً عابراً في تاريخ سورية، وبذلك تحل نهاية السلالة الأسدية التي أسسها والده (وإن لم تكن بالضرورة نهاية نظام البعث، وبكل تأكيد ليست نهاية الدولة السورية)؟ الأيام ستقول كلمتها.

---

(٥) نيويورك **تايمز**، ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣.

هذا الكتاب

شكلت وفاة حافظ الأسد، يوم السبت العاشر من حزيران / يونيو 2000، في السبعين من عمره، نهاية حقبة في تاريخ سورية الحديث. وقد وُصف الأسد من قبل كثيرين، وهم محقون في ذلك، على أنه الأب المؤسس لهذه الدولة، أو على الأقل، الرئيس الأكثر تأثيراً في حياتها منذ حظيت باستقلالها، إذ ترك أثره على الكثير من مجالات الحياة إلى درجة أنه يمكن أن تقرن سورية، في عهده، به شخصياً.

وقد شغل مكان حافظ الأسد ابنه بشار. ولم تكن في هذا أية مفاجأة، ذلك أنه وخلال السنوات الأخيرة من حياته بذل الأسد الأب كل ما في وسعه من أجل أن يتأكد من أن ابنه هو من سيرثه في كرسيه. ومع ذلك، فإن نقل السلطة من الأب إلى ابنه، ومهما كان سلساً وبعيداً عن الهزات، قد أثار، في سورية وخارجها موجات من النقد، وخاصة التساؤلات على صعيد ملاءمة الابن الشاب لحكم وقيادة الدولة. وقد أشار الكثيرون إلى أن طريق بشار باتجاه السلطة بدأت في الحادي والعشرين من كانون الثاني / يناير 1994، عقب وفاة شقيقه الكبير باسل في حادثة طرق، وقد كان باسل حتى وفاته الابن المختار، الذي أُعد لتحمل الأعباء الجسام.

لقد جاء صعود بشار إلى السلطة في الوقت الذي وقفت فيه سورية عند مفترق طرق – إن لم نقل عند طريق مسدود – مقابل سلسلة من التحديات، بعضها وجودية، على صعيد السياسة الداخلية والاجتماعية والاقتصادية. وبطبيعة الأمر، فقد وضع هذا الواقع علامة استفهام على قدرة نظام البعث السوري، منذ أن استولى الحزب على السلطة في الثامن من آذار / مارس 1963، على الاستمرار والبقاء على صيغته الراهنة، وكذلك في الحدّ الأدنى، على قدرة السلالة الأسدية، التي حكمت الدولة على مدى العقود الثلاثة الأخيرة، على البقاء والاستمرار في الحكم، وذلك بعد أن رحل مؤسس السلالة.

– من مقدمة المؤلف

مكتبة مدبولي
القاهرة